



# دراسات تحليلية للشورات

كريم برنتون

مراجعة  
و محمد أنيس

ترجمة  
عبد العزيز فهمي



# دراسة تحليلية للشورات

تأليف: كرين برنتون  
ترجمة: عبد العزيز فهمي  
مراجعة: د. محمد أنيس

وزارة الثقافة





مطبوعات  
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة  
د. أحمد مجاهد  
أمين عام النشر  
سعد عبد الرحمن  
مدير إدارة النشر  
على عفيفي  
الإشراف الفني  
د. خالد سرور

• دراسة تحليلية للثورات  
• ترجمة: عبد العزيز فهمي  
الهيئة العامة لقصور الثقافة  
القاهرة - 2010م  
24 x 17 سم  
• تصميم الغلاف: د. خالد سرور.  
• رقم الإيداع: ٢٠١١ / ٤١٠١  
• المراسلات:  
باسم / إدارة النشر  
على العنوان التالي : ١٦ شارع  
أمين سامي - القصر العيني  
القاهرة - رقم بريدى 11561  
ت : 27947897  
البريد الإلكتروني:  
elnashr@yahoo.com  
التجهيزات والطباعة :  
شركة الأمل للطباعة والنشر  
ت : 23904096

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.

# دراسة تحليلية للشورات

# دراسة تحليلية للثورات

تأليف

كرين برنتون

ترجمة : عبدالعزيز فالح

مراجعة : د. محمد أنيس

# الفصل الأول

## مقدمة

### ١ - مجال الدراسة :

الثورة احدى الكلمات الفضفاضة .. وتكاد قائمة الثورات الا تنتهى .. الثورة الفرنسية الكبرى ، الثورة الأمريكية ، الثورة الصناعية ، ثورة هندوراس ، ثورة اجتماعية ، ثورة في تفكيرنا ، أو في أزياء السيدات ، أو في صناعة السيارات .

والحق ان الثورة فيما تتضمنه من معان أصبحت عادة لا تعنى شيئاً أكثر من مرادف مؤكد « للتغيير » وربما التغيير المفاجيء الهائل .

بل ان مثل هذا التأكيد لا تتضمنه دائماً ...

ان محررى مجلة فورشن في كتابهم الأخير - الثورة الدائمة في الولايات المتحدة الأمريكية - رغم أنهم استعاروا العنوان من ليون تروتسكى ، لم يقصدوا بلا شك شيئاً أكثر من تغيير دائم من نوع طيب أو « التقدم » أو « النمو » بل لم يقصدوا ما كان جيفرسون يعنيه حين قال في رسالته الى صمويل كيرشيفال سنة ١٨١٦ « أن تصحيح الأوضاع كل تسع عشرة عاماً أو نحوها قد يكون أمراً مرغوباً فيه » . ولا مرء في أن جيفرسون كان يفكر في تغيير شامل للهيئة الحاكمة في بلد ما ، وفي التكوين السياسى والى حد ما في العادات الإجتماعية والاقتصادية والثقافية والأنظمة التى يعيش فى ظلها شعب ما .. كان يفكر فى الثورة الفرنسية الكبرى التى حدثت فى القرن الثامن عشر ، وهى الثورة التى ما زالت عند أكثرنا فى العالم الغربى نوعاً من الثورة النموذجية ..

فنحن وان كنا نستخدم لفظ « الثورة » والسنة المشتقة منها « ثورى » للدلالة على مجموعة من التغيرات المتباينة ، فاننا نحفظ في اركان عقلنا بمعنى محدد أكثر بكثير من ذلك .. معنى واحد لا يتغير .. اننا نفكر في الانقلابات الكبيرة التى حدثت في الماضى فى مجتمعات سياسية كانت مستقرة من قبل — الثورة الانجليزية فى سنة ١٦٤٠ ثم فى سنة ١٦٨٨ والثورة الأمريكية ، الثورة الفرنسية وما تلاها فى القرن التاسع عشر ، الثورة الروسية فى سنة ١٩١٧ وما تلاها فى القرن العشرين .

وقد نفكر ايضا فى العنف والارهاب ، فى عمليات التطهير والاعدام شنقا .. ولكننا نركز اهتمامنا على الأعمال العنيفة التى تقوم بها فجأة جماعة من الناس لانتزاع السلطة من يد جماعة أخرى فى اقليم ما .. وهناك معنى آخر : ان استبدال جماعة بأخرى ، اذا لم يتم بثورة فعلية عنيفة ، فانه يتم بعملية انقلاب أو بطش أو بنوع آخر من عمليات تحطيم الرؤوس . واذا حدث التغيير دون عنف نتيجة لانتخابات حرة ، مثلما حدث سنة ١٩٤٥ فى الانتخابات البريطانية التى أدت الى تسليم السلطة للاشتراكيين (١) ، ( وهو ما يبدو لأكثرنا نحن الأمريكيين أمرا ثوريا ) فعندئذ يكون أقوى تعبير المعلقون استعماله هو « الثورة البريطانية بالتراضى » .. ولكن هل حقاً تكون الثورة التى تتم بالتراضى ثورة ؟

ان لفظ « الثورة » لا يتعب اللغوى بسبب ما يتضمنه فى معان لدى الجماهير فحسب ، بل أيضا لأنه من تلك الألفاظ المحملة بمضمون عاطفى .

والحق أن أى دراسة اجتماعية كاملة للثورة فى مجتمعنا الغربى — وهذا الكتاب ليس كذلك بالتأكيد — لا بد أن تأخذ فى اعتبارها الطريقة التى كانت الجماعات المختلفة فى الأزمنة والأمكنة المختلفة تثور بها عندما تتداعى المعانى المعقدة لألفاظ « الثورة » و « الثورى » .

ان بنات الثورة الأمريكية يشعرون بالشرور والتسامى حين يفكرون فيما جرى هنا (٢) سنة ١٧٧٦ ، ولكنهن لا يجدن شيئا من ذلك فيما حدث فى روسيا منذ نوفمبر سنة ١٩١٧ أو ما يجرى اليوم فى الصين ..

(١) يعنى حزب العمال .

(٢) يعنى اجريكا .



والطبقات العليا القديمة في فرنسا لم تفق تماما قط من صدمة حكم الارهاب ، ولا شيء يستطيع أن يجعل الارستقراطي الفرنسي يحس بالارتياح لاي ثورة — حتى ولو ارتبطت بالحق ، أو القومية الكاملة ، بل حتى لو اقتترنت بقولة « نحن فيليب بيتان » .. أما في روسيا فان كلمة الثورة لا تزال تحاط بالاجلال ككلمة مقدسة .. ولكنها في اسبانيا الفرانكوية تعتبر من المحرمات ..

وعلى أية حال فان الثورة بمعناها الدقيق كما هي بمعناها الفضفاض صارت مرة أخرى في منتصف هذا القرن العشرين موضوع بحث كامل .. ولقد كان القرن التاسع عشر ، الذي ظن أنه أوشك على الغاء الحروب الخارجية ، يظن أيضا أنه أوشك على الغاء الحروب الداخلية أو الاهلية التي نربطها نحن بالثورة وفي الحق كان ينبغي جعل الثورة أمرا غير ضروري . ولقد ظل التغيير هو الطابع المميز لثقافتنا ، ولكن كان لا بد أن يحدث بطريقة منتظمة سليمة وبالتدرج .

ان شعار أجدادنا « التطور لا الثورة » له الآن صدى بعيد .. اننا نعيش وسط نذر الحرب والثورة وفي الحق نعيش في عالم يكاد يكون فيه نظام الحكم والدستور بل التكوين الخلقى والقانونى والسياسى للولايات المتحدة الأمريكية اعتق الأنظمة وأكثرها دواما في الدول الكبرى بعالمنا وليس هناك مفر من هذا التناقض : ان هذا البلد الجديد يعتبر الى حد ما من أقدم البلدان .. أقدم من بريطانيا الاشتراكية ، وأقدم من الجمهورية الفرنسية الرابعة ، وأقدم من أى جمهورية سوفيتية ، وأقدم — بدرجة لا يمكن تصديقها — من حكومات تلك البلاد الشرقية المتناهية في القدم : الهند والصين ..

فنحن الأمريكيين نبدو اذن في كثير من النواحي مجتمعا مستقرا وسط مجتمعات تخوض تغيرا ثوريا .. اننا نخاف قليلا من الثورات .. النوع الخطأ من الثورات « الثورات الشيوعية أو الفاشية » .

والحق ان بعض نقادنا يعتقدون أننا في اساسنا رجعيون ، واننا في اساسنا بعيدون عن نوع الآمال والأمانى التي تعتمل في نفوس الشعوب الأخرى ، والتي اعتملت في نفوسنا نحن منذ قرن أو يزيد وحفزتنا للثورة .. ولا شك أن هؤلاء النقاد يتجنون علينا .. ولكننا مجتمع

مستقر ، ورغم كل ما حدث منذ ذلك العهد بتمسك بشعار القرن التاسع عشر الملىء بالأمل « التطور لا الثورة » . وربما لا نستطيع ان نفعل الشيء الكثير حتى الآن للسيطرة على عملية التغيير الاجتماعى .. ولربما كان من المحتم لوقت طويل أن يظل ما يجرى فى علاقات الجماعات الانسانية بعيدا عن سيطرتنا مثل الجو .. وقد تكون الثورات مثل العواصف الراجعة أمرا لا يمكن تجنبه ، وأمرا مفيدا فى أغلب الأحوال مثلما تفيد العاصفة الريف الملتهب بالحرارة ..

ولكننا نفهم العواصف الراجعة — أو هكذا يجب أن نعتقد ما لم نطرح جانبا ما قدمته الدراسة العلمية فى الغرب خلال ألفين من السنين — افضل مما كانت تفهمها الشعوب القديمة التى رات فيها فعل الثور أو جوبيتر ، وفى استطاعتنا أن نتخذ بعض الوسائل لحماية أنفسنا منها .. فى استطاعتنا على الأقل أن نحاول فهم ثورة ما ، سواء أردناها أم لم نردها .. الا اننا لن نذهب بعيدا فى الاتجاه الى فهم ثورة ما اذا لم نستطع ان نحفظ تجاهها بموقف اللامبالاة أو على الأقل بموقف التجرد ..

ومن المرجو الا تكون هذه الكلمة الاخيرة مجرد طريقة ملائمة للتعبير عما تعنيه كلمة اللامبالاة بطريقة غير ملائمة .. فان الطبيب قد يشعر بأنه ابعده ما يكون عن اللامبالاة تجاه مريضه ، ولكنه لن يكون طبيبا ناجحا ما لم يتجرد أثناء ملازمته لمرض مريضه ومعالجته من عواطفه وقد نتصل هنا من مجموعة كاملة من الصعوبات الفلسفية الكامنة ، ونقول فى بساطة ان ما نسميه عادة بالعلم الحديث يتخذ عنصرا أساسيا فيه تجرد رجل العلم .. فرجل العلم من حيث هو شخص خاص قد يحب ويكره ، يأمل ويخاف ، ولكنه من حيث هو عالم يجب عليه أن يحاول الكف عن كل ذلك حين يدخل معمله أو مكتبه ..

على أنه فى تحليل الشؤون الانسانية تكون محاولة عالم الطبيعة أو عالم الكيمياء للاحتفاظ بموقف التجرد أمرا جرد عسير ، وهى تبدو عند عدد كبير من الأذكاء المستقيمين أمرا لا فائدة منه ، بل أمرا يتسم بالخيانة . فهم يشعرون بأن من واجبك أن تكره هتلر أو ستالين — أو اذا كنت فى الجانب المضاد أن تكره تشرشل — طول الوقت ، قبل وأثناء وبعد البدء فى شرحه ، والا فان شرحك قد ينتهى الى تخفيف جرمهم ..

ولكن فهم كل شيء ليس معناه بحال من الأحوال التسامح في كل شيء .. وعلى أى حال فان الفهم العلمى لدور البعوضة في الحمى الصفراء لم يؤد بنا الى التسامح أو اللامبالاة مع ذلك النوع المعين من البعوض ، بل على العكس من ذلك تماما .. فنحن لا نستطيع - طبعا - أن نتوقع مثل هذه النتائج المباشرة التى تبدو فى ظاهر الأمر متعلقة بالمشاهدة التى حصلنا عليها فى دراسة الحمى الصفراء من دراسة الانسان فى المجتمع - من تلك التى نسميها بشيء من التناؤل العلوم الاجتماعية - علم الأجناس ، الاقتصاد ، العلوم السياسية ، التاريخ ، علم الاجتماع ، وما أشبه .. ولكننا قد نستطيع دراسة الثورات فى شيء من الروح التى يحيلها عالم الطبيعيات الى عمله .

ان هدفنا المتواضع فى الدراسة التالية هو - مثلما قد يفعل العالم - محاولة ايجاد بعض الشبه الملحوظ بين أربع من الثورات الناجحة فى دول حديثة - الثورة الانجليزية سنة ١٦٤٠ ، الثورة الأمريكية ، الثورة الفرنسية الكبرى ، والثورة الحديثة أو الراهنة فى روسيا . ولا بد أن نوضح من البداية بعض حدود دراستنا : ان دراستنا هذه ليست هى الوحيدة وليست بالضرورة أفضل طريقة لدراسة الثورات ولا نزع أنها دراسة اجتماعية كاملة للثورات ، فهى تقتصر على أربع ثورات درست نسبيا دراسة جيدة ، ويجب أن تفهم نتائجها على أنها تشير الى هذه الثورات الأربع ، ولا بد أن يؤخذ تطبيق هذه النتائج على ثورات أخرى أو الثورات عامة بحذر وتواضع ..

ولو أننا كنا نحاول ايجاد نموذج مثالى للثورة ، وأن البحث عن نوع من الفكرة الأفلاطونية عن الثورة ، لأمكن بحق توجيه اللوم لينا لأننا التقطنا أربع ثورات لطيفة انيقة تمثل حالة جيدة الى أقصى حد ، أو نموذجا كاملا جدا .. ولكننا لا نقوم بمثل هذه المحاولة .. ويجب أن يكون واضحا كل الوضوح أن الثورات فى الماضى والحاضر والمستقبل لا تطابق كلها النموذج الذى رسمناه هنا ..

ان ثوراتنا الأربع ليست بالضرورة « نموذجية » بالمعنى المفهوم من كلمة « نموذجية » عند النقاد الأدبيين أو الأخلاقيين . انها ببساطة أربع ثورات هامة اخترنا أن نبدأ بها بحثا منظما لا يزال فى طفولته .. أما

البحوث الأدق فستجىء فيما بعد ، من بحانة آخرين أكثر تقدماً .. وفوق هذا كله نحن لا ندعى هنا أى حكمة نبوية .. ولسنا نتوقع أن نستطيع التنبؤ من هذه الدراسة متى وأين بالضبط تشتعل الثورة القادمة على هذه الأرض .

وهنا قد يعترض بأن العلوم الاجتماعية ظلت تقلد العلوم الطبيعية لعدة قرون ، ولم تتقدم الى الأمام شوطاً بعيداً ، وبأنه ينبغى عليها اذن ان تحاول الوقوف على قدميها ، أن تستنبط أساليبها الخاصة دون اهتمام بما عمل في العلوم الطبيعية .. وفي هذا الاعتراض شيء من الحقيقة — فمن المؤكد أن كتاباً مثل فوربييه أو هربرت سبسر Herbert Spencer Fourier الذين أعلنوا عن أنفسهم أنهم بالضبط مثل نيوتن Newton أو داروين Darwin في العلوم الاجتماعية — قد أخطأوا فيما يبدو منذ البداية .. فان الروح العاكف على الفلسفة والفنون — كسبنجلر وتوينبى مثلاً — Toinby Spengler سوف يستنبط على الأقل من دراسة الناس في المجتمع قَدراً من المعنى مساوياً لما سوف يستنبطه عالم الاجتماع الذى يحاول أن يضطلع بالأساليب والمواد التى تستخدم في علم الطبيعة وعلم الأحياء دون تغيير .. الا أن الانسان يتردد في أن يحيل دراسة الناس في حياتهم الاجتماعية كلها الى أمثال سبنجلر بل وأمثلة توينبى .. فان التقاليد الطويلة لما يمكن أن يسمى المذهب العقلى قد أحرزت في مجتمعنا انتصارات لا يمكن التخلي عنها بسهولة حتى في عالم ما بعد الحرب .. ان هذه التقاليد تحتم علينا أن نحاول مواصلة وتوسيع نطاق العمل الذى نسميه علمياً . وفي الحق لقد كتب قدر كبير من الهراء تحت حماية اسم العلم ، ومن اليسير مشاركة مستر ماكس ليرنر Max Lerner غضبه ..

« انى بصراحة أشك عندما يبدأ المشتغلون بدراسة المجتمعات يسلحون أنفسهم بالمشارط والرثائح وأنابيب الاختبار .. لأنهم يعدون بأكثر مما يمكن أن يحققوه .. والاحتجاجات بالموضوعية الكاملة التى ظللنا نسمعها من دارسى المجتمع في ربع القرن الماضى تتخذ طابعاً دينياً .. فكأنما هم يغسلون أنفسهم بدم حمل علمى » .

ويحتمل أن تكون بعض اعتراضات مستر ليرنر على الالتجاء الى العلم ، والتجرد العلمى ، اعتراضات المحب الولهان بأقرانه ، لا يمكن

رفضها كلية بالمنطق أو التجربة ، ولكن بعضها اعتراضات المتشكك والناقد ومثل هذه الاعتراضات تقوم الى حد كبير على سوء فهم للمنهج العلمي وهو أمر لا يقتصر بحال من الأحوال على مستر ليرنر وحده .. فإن سوء الفهم هذا شائع الى حد يجعل من الواجب علينا أن نحاول هنا توضيح المسألة قدر الامكان في كلمات قليلة جدا ... ولن يكون هذا بأى حال انحرافا عن القصد ، بل سيكون مدخلا أساسيا الى موضوعنا .

## ٢ - العناصر المجردة للمناهج العلمية :

**أولا :** حتى العلوم « المضبوطة » مثل علم الفلك أو علم الطبيعة ليست مضبوطة بمعنى أنها « مطلقة » أو « منزهة عن أى خطأ » فان أقوى قوانينها لا بد أن ينظر اليها على أنها تجريبية .. ومن الممكن هدمها في أى وقت بمزيد من البحث .. ولكن ليس من الممكن التفاضى عنها في أى لحظة ما لم يثبت أنه لا يمكن الاعتماد عليها بالنسبة للحقائق المشاهدة .. ولقد أحدث قليل من المتصوفين - الذين حرّموا في مجتمعنا الفطرح من متع الحياة - الشيء الكثير من الثورة المعاصرة في علم الطبيعة . ولم يحدث أن ثبت بطلان قوانين نيوتن ، كما أن مبدأ « عدم التحديد » لم يقرر باحكام الى الحد الذى يجعل كل الناس سواسيه أمام لعبة البوكر .. وما حدث في علم الطبيعة الحديث ، على قدر ما يراه غير العلماء ، هو أن علم الطبيعة أصبح يذكر تماما أن أدق القوانين التى يأتى بها ليست مطلقة ، وانما هى خاضعة للتصحيح ، وأن من الأسلم له أن يعتبر أن هذه القوانين قائمة على الملاحظات بدلا من اعتبارها مستمدة من ارادة الله أو طبيعة الأشياء أو الحقيقة .. وهذا يؤدى بنا فى يسر الى النقطة الثانية .. ان العلم لا يبذل أى محاولة لدراسة الحقيقة أو وصفها - والمؤكد أنها ليست الحقيقة النهائية .. بل ان العلم لا يعنى حتى بالحقيقة بما لها من معنى عند اللاهوتيين ، وعند أكثر الفلاسفة ، وعند الكثير من الناس ، وربما أيضا عند ذوى العقول الراجحة وتبدو الرغبة فى البحث عن قضية نهائية ، وعن محرك لا يحركه غيره Ding an sich عامة بين الناس حتى أننا لا يمكننا الاعتقاد بأن هذا البحث ليس - بصورة أو بأخرى - عنصرا دائما فى المجتمع الانسانى . وانما لا يسهم العلماء من حيث هم علماء فى مثل هذا البحث . ويجب ألا تؤخذ هذه العبارة للدلالة على أن هذا البحث سخيف ولا بد من منعه .. ومنذ عهد تريب ، كان بعض العلماء

نشطين جدا في البحث ، وفي الحق كانوا ناجحين .. ومنذ زمن طويل وجد الايمان بالله في أماكن يسودها الجهل .. الا أن هذه الكشوف ليست كشوف العلم . أن ادنجتون ، وجينز ، بد وهوايتهد Edington Jeans White Head كفوا عن ممارسة العلم ابان دراستهم اللاهوت .. فالعلم لا يقوم على الايمان ، وانما على الشك ، على الشك الذى لا يهتم حتى بمكانه في الوجود .. وهكذا يواصل العالم بحثه في هدوء ، لا يزعجه طعن الفيلسوف وشكك الدائم معناه أن يؤمن بالشك ، الذى يعتبر في آخر الأمر شكلا من اشكال الايمان ..

**ثالثا :** العالم لا يقتصر بحال من الأحوال على « الحقائق وحدها » .. واعماق المعرفة الخطرة تتناوب عند هذه النقطة ، ولكن علينا أن نحاول وأن نمضى قدما رغما عنها .. ومن المحتمل أن يكون تعميم أفكار باكون Bacon عن الاستقراء هو المصدر الرئيسى للفكرة الخاطئة القائلة بأن رجل العلم لا يفعل شيئا في الحقائق التى يستنبطها بداب ونزاهة ، الا أن يتركها تستقر في مكان تتخذة لنفسها .. وفي الواقع لا يستطيع العالم أن يعمل دون خطة مرسومة في ذهنه .. ومع أن العلاقة بين الحقائق والخطط الذهنية ليست واضحة بأى حال من الأحوال فمن الواضح على الأقل أن الخطة الذهنية تتضمن وجود شيء ما الى جوار الحقائق . انها تستلزم حقا عقلا نشطا ..

ولا يخافن احد من المصطلح الفنى « الخطة التصويرية » اذ أن المعنى في الواقع بسيط جدا . فان الرعد والبرق يرتبطان بحاستى سمعنا وبصرنا .. ومن المحتمل أن يكون مجرد تمييز هذا الصوت وهذا الضوء عن غيرهما من الأصوات والأضواء معناه أننا نستخدم خطة تصويرية .

ومن المؤكد أننا حين نفكر في جوبيتر وسهامه ، والثور ومطرقته أو في تفرغ الشحنة الكهربائية في علم الطبيعة الحديث ، فإننا نكون بكل وضوح قد هيأنا ادراكنا الحسى وفقا لخطط تصويرية محددة .. والحق أننا نملك العناصر الأساسية لثلاث نظريات مختلفة في شأن الرعد والبرق ، وثلاثة قوانين مقررة بطرق مختلفة في هذه الظواهر الطبيعية ولكن الأسباب الوحيدة الهامة التى توجب علينا تفضيل تفرغ شحنتنا الكهربائية على جوبيتر أو الثور كخطة تصويرية هى أنها أكثر نفعاً ،

واننا نستطيع باستخدامها أن نسير أيضا بطريقة أفضل بالخطط التصويرية الأخرى التي نستخدمها لأغراض مشابهة .. ولكن بالمعنى الذى لكلمة « حقيقى » عند اللاهوتيين ومعظم الأخلاقيين الفلاسفة ، ليس تفرغ شحنتنا الكهربائية « أصدق » من الأفكار العتيقة عن جوبيتر والثور .

بل قد نستخدم خطتين صورتين متناقضتين ، ونختار الواحدة أو الأخرى حسبما يلائمنا أو وفقا لعاداتنا . فنحن جميعا خرجنا اثناء تعليمنا من الخطة التصويرية القديمة التى وضعها بطليموس والتى كانت ترى أن الشمس تدور حول أرض ثابتة ، الى الخطة التصويرية التى وضعها كوبر نيكوس والتى ترى أن الأرض تدور حول الشمس الثابتة .. واستخدم أنيشتين طبعاً خطة تصويرية مختلفة بعض الشيء عن هاتين الخطتين ولكن أكثرنا لم يرتفع بعد الى مستوى أنيشتين ، ومع ذلك نقول دائما والرضا يملأ نفوسنا أن « الشمس تطلع » ولا بد أن نكون متحذلقين حقاً اذا أصرنا على القول بالفاظ كوبرنيكية أن الأرض دارت فظهرت الشمس .. وأهم من هذا الوضع الراهن فيما يتعلق بالخطط التصويرية فى علم الطبيعة الحديث .. وانا لنعلم — بقدر ما يستطيع غير العلماء أن يعلموا فى مثل هذه الأمور — أن علماء الطبيعة يجدون من الملائم لهم فى دراسة بعض المسائل أن يعتبروا الاليكترون جزئياً ، أو على الأقل نقطة ، وفى دراسة مسائل أخرى أن يعتبروه موجه .. ولقد أزعج هذا التناقض بعض علماء الطبيعة — وكثير منهم من ذوى الشهرة العظيمة حقاً — وعملوا على استنباط خطة تصويرية واحدة تجعل من الاليكترون وحدة منطقية دقيقة مرة أخرى ..

ومع ذلك فان الانسان يخالجه الشك فى أن هؤلاء العلماء تركوا فى أنفسهم قليلاً مما فى نفس الفيلسوف وأن نفوسهم المتفلسفة هى نفسها التى تتطلب الوحدة فى الاليكترون .. ولا نزاع فى أن نفوسهم المتفلسفة موضع الاحترام كله طبعاً ، تدفع نفوسهم العلمية الى العمل المثمر لأقصى حد . ولكن بعض علماء الطبيعة يمضون فى عملهم بطريقة تدعو الى الاعجاب مع هذا الاليكترون المتعب من الناحية المنطقية — فيعتبرونه موجه حينما يريدونه كذلك ، وجزئياً عندما يريدونه أن يكون كذلك .. وهم كعلماء يرضون تمام الرضا بأن يحلوا مشاكلهم التى تتناول هذا العالم ، ويمكن أن تحل فى هذا العالم — ولو أنها بلا شك ليست فى العالم الآخر — دون اعتبار للحقيقة النهائية ..

لذلك يمضى العالم الى عمله بطريقة ما على النحو التالى تقريبا . .  
فهو يبدأ بخطة تصورية على نحو ما ، وبالأسئلة او حتى الافتراضات  
التي يشكلها وفقا لتلك الخطة . . ثم يجد في البحث عن الحقائق . .

وانا نتفق مع ل.ج. هندرسون على تعريف الحقيقة في العلوم  
الطبيعية « قرار يمكن اثبات صحته بالتجربة فيما يتعلق بالظواهر الطبيعية  
وفقا لخطة تصورية » وهو يعمل على ترتيب هذه الحقائق في قوانين  
او نظريات تجيب على أسئلته وربما توحى بأسئلة أخرى . ثم يعود فينكب  
على البحث عن الحقائق ، ويخرج بقوانين جديدة أو معدلة . . ويهم العالم  
ان يعرف من أين جاءت خطته التصورية ، أو ان كانت قد سبقت الحقائق  
او اعقبها ، او ان كانت هي « ذاتية » والحقائق « موضوعية » وانما  
يترك هذه المسائل للفلاسفة الذين لما يحسموها حتى الآن بعد ألفين من  
السنين قضوها في الجدل . . ولكن العالم حين يعترف بان الخطة التصورية  
أمر أساسى لازم لعمله مثل الحقائق المشاهدة ، فانه يحرر نفسه تماما  
من يسمون الماديين العلميين ، والوضعيين ، والتجريبيين الذين يؤكدون  
في بساطة أن مدركاتنا الحسية هي في حد ذاتها حقيقة واحدة منظمة  
أو « انعكاس » لمثل هذه الحقيقة . . ولنلاحظ على وجه الخصوص أن  
الحقائق التي يتناولها العالم ليست ظواهر طبيعية أو مدركات حسية ،  
و « عالما خارجيا » ، تلك المطلقات الغريزية على الوضعيين البسطاء ،  
وانما مجرد قرارات عن الظواهر الطبيعية وحينئذ فان أى أمر يمكن  
اثباته بطريقة مضبوطة في شأن كرومويل Cromwel يعتبر حقيقة بقدر  
مماثل لقراءة الترمومتر في المعمل .

**رابعا :** رغم أن العالم يكون حقا حريصا جدا في مسائل  
التعريفات ، ويهمه كثيرا أن يقوم بعملية التنسيق مثل أى مؤرخ ويزدرى  
التفكير الرديء مثل أى منطقي ، فانه لا يثق في الجمود ويحاول الوصول  
الى الكمال . . واهتمامه بجمال التعريف ودقته يكون عادة أقل من  
اهتمامه بأن يكون التعريف ملائما للحقائق وليس لعواطفه وأمانيه . .  
وهو فوق كل شيء لا يجادل في الكلمات . . اهتمامه بالتبميز النظرى الدقيق  
بين الجبل والتل أقل من اهتمامه بالتأكد من أنه يعالج ارتفاعات قائمة على  
هذه الأرض . وهو لا يتوقع أن تكون الالفاظ التصنيفية كاملة ، أو قاصرة  
وحيث يميز بين نبات وحيوان ، لا يفضب اطلاقا اذا وجهت انتباهه الى  
شيء حتى يبدو أنه ينتمى الى الصنفين في وقت واحد . انه يسارع الى  
دراسة الشيء الحى وسوف يعدل — اذا اقتضت الضرورة — الفاظه



التصنيفية . ولكنه أيضا على استعداد تام — اذا ثبت أن هذا أكثر ملاءمة — أن يضع لفظا تصنيفيا جديدا للدلالة على الحد بين النبات والحيوان . وهذا الاستعداد البسيط الذى توجهه الملاءمة هو بالطبع احد الأشياء المدهشة فى العالم وأحد الأشياء التى يصعب علينا جدا نحن الذين لم ندرّب تدريبا علميا أن نكيف أنفسنا معها . . فان معظمنا قد ندرّب فى وقت مبكر على أن نفصل آراءنا على ما يلائمنا .

**خامسا :** أن البحث العلمى المحترم تمام الاحترام يمكن أن يجرى — ومعو كذلك على الدوام — فى مجالات يتعذر فيها اجراء نوع التجارب المنظمة التقليدية المرتبطة على سبيل المثال بعلم الطبيعة وعلى الكيمياء . . وقد نسمى هذا النوع من البحث العلمى القائم حقا على عمل تجريبى مساعد — ولكنه لا يؤلف فى ذاته سلسلة من التجارب المنظمة — اكلينيكي . . والاكلينيكي معروف جيدا فى العلوم الطبية ، حيث ظهر فى اليونان فى أوائل القرن الخامس مع ابقراط Epicure . . ويقوم الاكلينيكي بعمله عن طريق منهج دراسة الحالات ولا تتجمع معلوماته عن طريق التجارب التى يستطيع الاشراف عليها وانما من خلال مجموعة من الحالات التى يشاهدها ويقارنها . . ثم ان الاكلينيكي دقيق فى عمله . . ولكنه لا يمكن — الا فيما ندر — أن يكون بالغ الدقة كما هو الحال فى العلوم الطبيعية .

وهو يجد معونة عظيمة حين يستطيع الاعتماد على العلوم التجريبية — الكيمياء العضوية مثلا — ولكن الاكلينيكي الجيد قد يكون عالما جيدا . ومن الواضح أن العلوم الاجتماعية تستطيع الاعتماد الى مدى محدود على التجريب الفعلى المنظم ، ولكن من الممكن أن تصير علوما اكلينيكية .

وأخيرا ، فان التفكير العلمى لا يمكن أن يكون — اللهم ربما الا فى الإحياء بدراسة المشاكل — كما يظن أكثرنا فى الوقت الحاضر أنه اعتقاد قائم على الرغبات بدلا من الحقائق وأمانى العالم الخاصة ومخاوفه ، ومعاييرها لما يود أن يسود هذه الأرض يجب أن تبقى بعيدة بقدر الامكان عن عمله ، وبعيدة بصفة خاصة عن ملاحظاته للحقائق أو معالجته لها . . أما الى أى مدى تتدخل مثل هذه الآمال والمخاوف والمعايير فى اختياره للخطط التصورية ، وإلى أى مدى تؤثر فى نوع الأسئلة التى يثيرها ، فمشاكل عسيرة ربما يسمح لنا بتجنبها . ويكفى أن الطرق الفنية فى معظم العلوم المقررة تزودنا برقابة فعالة جدا على الأشكال الفجة

في الاعتقاد المبني على غير الحقائق ولأن التاريخ ظل لعهد طويل منا ومهنة ، فانه ربما يكون أشد العلوم الاجتماعية احتراماً ، وهو يمد المؤرخين المحترفين في أثناء تدريبهم الفني برقابة فعالة الى درجة مدهشة الأنواع العنيفة من الكتابة والتفكير .

والامر كله ، أن ليس هناك من سبب يحتم علينا الشعور بأن عالم الطبيعيات يستخدم مناهج ومعايير ثابتة ، لا يستطيع العالم الاجتماعى أبدا الحصول عليها تماما . . وان العلوم الطبيعية ، كما كان الماديون السذج في القرن الماضى يعتبرونها — دقيقة لا تخطئ ، وعالمنا مبنيا على الاستقرار — يجب أن يبدو بعيدة المنال عن الاقتصادى أو الاجتماعى المكافح . ولكن العلوم الطبيعية كما يفهمها دائما أقدر المشتغلين بها والمفهومة الآن على نطاق واسع — وكما شرحه بوانكاريه Poincare بطريقة منهجية — ليست بديلا رقيقا للعناية الإلهية ، وليست هذا التجريد الميتافيزيقى . . ان الله وحده هو الدقيق المنزه عن الخطأ والعليم بكل شئ ، لا يلحقه التغيير ، وقد قنع العلم الحديث بأن يترك البحث عن الله للدارسين الذين وفقوا لمثل هذا البحث بعد شوط طويل .

### ٣ — تطبيق المناهج العلمية على هذه الدراسة :

ان العلوم الاجتماعية عامة تعتمد جيدا على الحقائق المستمدة من عناصر التفكير العلمى الظاهرة — الخطة التصورية ، الحقائق ، « الحالات التاريخية » بصفة خاصة ، العمليات المنطقية ، القوانين ، بل انه في مجال التاريخ ، حيث لا تكون مناهج البحث في المعمل أو مناهج الاستفتاء ، فان الزاد الموجود من الحقائق جيد الى حد مدهش . . ولا يستطيع المرء ان يعيد كرومويل الى الحياة ، كما لا يستطيع ان يعيد الديناصور الى الحياة . . وما نعرفه عن كرومويل يمكن التعويل عليه في كثير من النواحي مثل ما نعرفه عن الديناصور . والقول بأن التاريخ أسطورة اتفق عليها أو مجموعة من الألاعيب خدع بها الموتى ، معناه الافتراء أو على الأقل اساءة الحكم بفريق كبير من الباحثين المجتهدين الوقورين الذين قاموا بدراسة التاريخ . وجدير بالذكر أن القرن الماضى أو نحو ذلك شهد قيام جماعة من الباحثين في التاريخ يحتفظون رغم كل أخطائهم بمعايير يمكن مقارنتها في بعض جوانبها بتلك التى احتفظت بها جماعات مماثلة في العلوم الطبيعية . وهؤلاء الباحثون لا يكشفون في الواقع المادة الخام البسيطة

للحقائق ، وانما أشد علماء الآثار تواضعا هو الذى يرتب الحقائق التى يستخرجها من وثائقه بحيث يجعل منها نموذجا ، ومع ذلك فان عملية الترتيب هذه ليست هى التكوين الواعى للنظريات عند عالم الطبيعة . بل لم يعرف قط أن هذه العملية تتعلم كما يتعلم العالم الأسس النظرية لعلمه ، وانما تكتسب غالبا مثلها يكتسب العامل اليدوى المهارة . . وهذه المهارة الفنية فى جمع الوقائع المتعلقة بسلوك الناس فى الماضى ، وفحصها وتمحيصها هى التى تعطى قوة كبيرة للمؤرخ المحترف . ولو أنك سألت مثل هذا المؤرخ ما هى الحقيقة ، فمن المحتمل أنه يشعر بارتباك شديد عند هذا السؤال ، وهو عادة يعجز تماما عن الاجابة فى الفاظ عامة مناسبة . وفى وسع أى فيلسوف جيد أدانته بالسذاجة التامة فى المعرفة . ولكن المؤرخ فى عمله اليومى يفرق تماما بين الحقيقة والنظرية ، ويظهر مقدرة حقيقية على تناول الوقائع وترتيبها .

واذن فسوف نعتمد على المؤرخين فى الحصول على الحقائق الضرورية .

وفىما يتعلق بالثورات الانجليزية والأمريكية بل والفرنسية أيضا ، فان مجموعة الكتابات التاريخية المشهورة والمنزهة عن الغرض الى حد معقول ، كبيرة جدا فى الواقع . . ولا تزال الأهواء تستخدم حول الثورة الفرنسية ، ولكنها أخذت فى الهدوء ببطء من جراء كثرة ما كتب عنها وفى الواقع أن المشكلة الكبرى الكبرى هى فى الاختيار من هذا العدد الضخم من الكتابات . . ولا تزال الثورة الروسية قريبة العهد جدا حتى أن المؤرخين المحترفين يعتبرونها غير صالحة للتناول بالروح التى يحبونها فمصادر مادتها مبعثرة ، ولا يزال أكثرها محجوبا عن الدارسين . . ولم تنزل اللغة حاجزا ولكن يمكن التغلب عليها تدريجيا فى الغرب . وقد أسدل الستار الحديدى أمام الباحث الغربى . . الا أن المعين الذى لدينا من الحقائق عن الثورة الروسية ليس ضئيلا أو تافها بحيث يعرقل مشروعنا الى حد يفقدنا الأمل . فان خمسا وثلاثين سنة وقت طويل ، والمراحل الأولى من الثورة الروسية قد أجرى استقصاؤها ان لم يكن بطريقة مطلقة فعلى الأقل بتجرد عن الفرض نسبى الى حد ما ومن ثم فان لدى محبى النظام الراهن فى روسيا وكارهييه الفرصة للافصاح عن آرائهم ، ويستطيع أى شخص يهمله الأمر أن يوازن بين أتوالهم .

ولسوف تعطينا خطتنا التصورية قدرا من الصعاب أزيد مما يعطينا معين الحقائق . وفى العلوم الاجتماعية على الأقل لا يزال الفرق بين الخطة

التصورية والاستعارة غير مؤكد ، ولا ضرر من النظر الى مشكلتنا الراهنة كبحث عن اطار من استعارة غير مغرقة في الادب لكى نلم بتفاصيل ثوراتنا .. والا ان واحدة من اوضح هذه الاستعارات ، ونعنى بها العاصفة تتضمن عدة اخطاء . ونستطيع ان نلخصها بسرعة : فهناك اولاً القعقعة البعيدة ، والسحب القاتمة ، الهدوء المشؤم الذى يسبق الانفجار ، وهذا كله يطابق ما تعودت كتبنا المدرسية أن تذكره باطمئنان باعتباره « أسباب » الثورة ، ثم تأتي فجأة بدايات الريح والمطر ، وهى بوضوح بدايات الريح والمطر ، وهى بوضوح بدايات الثورة نفسها ، ويتبع ذلك النهاية المخيفة ، مع شدة الريح ، والمطر ، والرعد ، والبرق ، بل واكثر وضوحا « حكم الارهاب » . وأخيراً يجرى السكون التدريجى ، والسماء الصافية ، وشروق الشمس مرة أخرى ، كما حدث فى أيام عودة الملكية فى عام ١٦٦٠ . ولكن هذا كله مغرق فى الأدب والدراما الى حد لا يتواءم مع أغراضنا ، وقريب كله جدا من الاستعارة كما استخدمها الانبياء والوعاظ .. وبقدر ما يمكن استخدام الخطة التصورية ، فهى تعتمد على علم - علم الأرصاد الجوية - ليس لديه سوى القليل من المساعدة المباشرة التى يقدمها لعالم الاجتماع .

وفى الجانب المقابل تقريبا توجد الخطة التصورية لنظام اجتماعى متوازن كما شرحها بريتو Parito فى كتابه « العقل والمجتمع » . وان أصحاب العقول الدقيقة ليضيقون ذرعا فى اغلب الأحيان بلفظة « التوازن » التى تعنى عندهم انغام مغرقة فى الآلية مدمرة لكرامة الانسان .. ومع ذلك ففى العلم الحديث أثبت هذا اللفظ انه مفيد فى مجالات مثل الكيمياء ، وعلم وظائف الأعضاء ، أى بعيدا تماما عن مجال الميكانيكا الذى نشأ فيه هذا اللفظ .. وفوق ذلك ، فان الكلمة كما يستخدمها العالم الممارس ليس لها دلالات ميتافيزيقية أيا كانت .. وان تصورات نظام فيزيكى كىماوى متوازن ، أو نظام اجتماعى متوازن ، أو جسم جون جونز فى توازن لا تمس فى أى شىء خلود روح أى انسان ، بل ولا تمس الانتصار النهائى لأصحاب مذهب الحياة على أصحاب المذهب الميكانيكى . ان فكرة التوازن تساعدنا على فهم وأحيانا على استخدام أو ضبط آلات نوعية وكىماويات بل وأدوية .. وقد تساعدنا فى يوم ما على فهم الناس فى المجتمع وعلى تشكيلهم الى حد ما .

واستخدام هذا التصور فى دراسة الثورات واضح من حيث المبدأ .. ومن الممكن من الناحية الفطرية البحتة تعريف المجتمع المتوازن توازنا

كاملا بأنه مجتمع يحصل فيه كل عضو على كل ما يمكن أن يرغب فيه في وقت معين ، ثم أنه راض كل الرضا .. أو قد يمكن تعريفه بأنه مجتمع شبيه بمجتمعات بعض الحشرات الاجتماعية مثل النحل والنحل التي يتوقع فيها من كل عضو أن يستجيب لحواجز معينة . ومن الواضح ان اى مجتمع انسانى لا يستطيع الا أن يكون في حالة توازن غير كامل ، وهى حالة تقوم فيها الرغبات المختلفة والعادات المتنوعة لدى الافراد ومجموعات من الأفراد بعملية تكيف متبادلة ومعقدة الى حد لا يمكن معالجتها في الوقت الحاضر بالعلوم الرياضية . فحالمنا تنشأ رغبات جديدة أو حالما تقوى الرغبات القديمة في الجماعات المتنوعة أو حالما تتغير الظروف البيئية وحالمنا تحقق الأنظمة في أحداث التغير ، فعندئذ قد تنشأ حالة اختلال نسبي في التوازن وينفجر ما نسميه ثورة . ونحن نعرف أن في جسم الانسان — مثلا — يكون اختلال التوازن الذى نسميه مرضا مصحوبا ببعض التفاعلات التى تعمل على إعادة الجسم الى حالة تشبه ما كان عليه قبل هجوم المرض . ويبدو من المحتمل تماما أنه في النظام الاجتماعى المختل التوازن ، يكون هناك شئ ما من نوع هذه التفاعلات التى تعمل على إعادة الظروف القديمة ، وان هذا ليساعد على أن يفسر لماذا لا تصبح الثورات كما يريدنا الثوار . ان التكيفات القديمة تعمل على إعادة استقرارها ، وتنتج ما يعرف في التاريخ بالرجعية أو العودة .. وفي الأنظمة الاجتماعية مثلما في الجسم البشرى ، نوع من القوة الطبيعية الشافية يعمل في الغالب بطريقة تلقائية على موازنة نوع من التغير بتغير آخر يحدد الماضى وهذه الخطة التصورية للتوازن الاجتماعى قد تصبح على مر الأيام أعظم ما يكون فائدة في البحث في الثورات من الوجهة الاجتماعية .

ومع ذلك ، فانها بالنسبة لأغراضنا الراهنة مفرقة في الطوح بعض الشئ . فهى تحتاج لكى تنجح نجاحا تاما الى الامام التام بمجموعة من المتنوعات العديدة أكبر مما نستطيع في الوقت الحاضر . ومع انه ليس من الضرورى أن تصاغ في مصطلحات رياضية دقيقة فمن الواجب أن تصاغ في مصطلحات قريبة من مصطلحات العلوم الرياضية أكثر مما نستطيع أن نستخدمها بأمانة . وبعبارة أخرى ، أنها تصلح لدراسة الثورات من الناحية الاجتماعية أو « ديناميكة الثورة » أكثر من دراستنا المتواضعة لتشريح أربع ثورات معينة ، فنحن هنا نحاول مجرد تحليل اولى ، ونحاول التصنيف والتنظيم في شئ من البساطة .

ومع أن بهذه الخطة عيبا خطيرا جدا ، فإن أفضل خطة تصويرية ملائمة لأعراضنا قد تبدو انها الخطة المستعارة من علم الأمراض . . . وليكن مفهوما اننا سنعتبر الثورات ، دون التمسك بصحة الراى الى الأبد ، نوعا من الحمى ، ومن السهل معرفة الخطوط العريضة التى تبين الحمى . . . ففى المجتمع خلال الجيل أو نحوه قبل انفجار الثورة — فى النظام القديم — ستوجد علامات الاضطراب القادمة . وهذه العلامات على وجه الدقة ليست أعراضا تامة ، إذ أنه عندما تظهر الأعراض بصورة كافية يكون المرض قد حل الجسم فعلا . ولربما من الأفضل وصنا بأنها نذر ، ودلالات يعرف منها الطبيب أن المرض فى طريقه الى الظهور ولكنها ليست نامية بالقدر الكافى لتصبح هى المرض نفسه . ثم يأتى وقت تظهر فيه الأعراض تماما وعندئذ نستطيع أن نقول أن حمى الثورة قد بدأت . وهذه الحمى تشتد حيناً وتخف حيناً ويصحبها فى أغلب الأحيان هذيان ، هو حكم أشد الثوار عنفا ، حكم الارهاب .

وبعد ذلك تجيء فترة النقاهاة ، وهى تتميز عادة بنكسة أو نكستين . . . وأخير تنتهى الحمى ، ويستعيد المريض نفسه مرة أخرى ، وربما يشعر بالقوة فى بعض النواحي نتيجة التجربة ويكتسب على الأقل مناعة لفترة ما ضد مرض مماثل . ولكن من المؤكد أنه لا يصبح كلية انسانا جديدا . . . وهذا ينطبق على المجتمعات التى تقوم بثورة كاملة . فانها تخرج منها قوية الى خد ما ، ولكنها لا تكون جديدة تماما . .

وهذه الخطة التصويرية قد تستخدم دون أن تورط الذين يستخدمونها بأى حال فى نظرية عضوية للمجتمع . . والنظرية العضوية ، « فكرة المجتمع » ليست الا استعارة طورها الفلاسفة السياسيون الى نوع من الميتافيزيقا ، وفى وسع بعض الفلاسفة السياسيين أن يجدوا فى الغالب أى شىء يريدونه فى النظرية العضوية ، من الالزام الحتمى الى تبرير العداوة للساميين واستنكار الديمقراطية البرلمانية ، وكلمة مجتمع تستخدم فى هذه الدراسة كطريقة ملائمة للدلالة على سلوك الناس — كما يشاهد — فى حياتهم الاجتماعية ، وعلاقتهم بعضهم ببعض ، وهذا كل ما فى الموضوع . ونجد من الملائم تطبيق خطة تصويرية مستعارة من الطب فى بعض التغيرات المشاهدة فى بعض المجتمعات .

# الفصل الثاني

## الأنظمة القديمة

### ١ - تشخيص العلامات الأولية :

من فرنسا ، التي أنجزت خلال عهد طويل نوعا من الحرية اللغوية ، تجيء عبارة « النظام القديم » .. وحين تطبق هذه العبارة على تاريخ فرنسا ، فانها تشير الى طريقة الحياة في الأجيال الثلاثة أو الأربعة التي سبقت ثورة ١٧٨٩ ، وبخاصة آخر هذه الأجيال .. وقد يحق لنا التوسع في استعمالها لوصف المجتمعات المتنوعة التي بزغت منها ثوراتنا .. وتبعنا لخطتنا التصورية سنبحث في هذه المجتمعات عن شيء ما مثل النذير الثورى ، عن مجموعة من العلامات الأولية للثورة القادمة ..

ويجب ألا نقدم على هذا البحث دون احتياط شديد .. فاضطراب النظام يبدو الى حد ما مرضا متوطنا في المجتمعات كلها ، ومن المؤكد أنه كذلك في مجتمعنا الغربى .. وفي وسع المؤرخ الذى يتحول الى مشخص للأمراض أن يجد دلائل الاضطراب والتبرم في أى مجتمع يختاره للدراسة .. ويسجل البروفسور ب.أ. سوروكين في ملحق الجزء الثالث من كتابه « الديناميكا الاجتماعية والثقافية » لانجلترا - وهى بلد قديم يتميز بالوعى السياسى - مائة واثنين وستين « اضطرابا داخليا في العلاقات الاجتماعية » فيما بين سنة ٦٥٦ ، ١٩٢١ وهذا يعنى على وجه التقريب أن « الاضطرابات تحدث مرة كل ثمانى سنوات » . وهى تتراوح في الخطورة ما بين « الثورة الكبرى » والحرب الأهلية في الأربعينات من عام ١٩٤٠ اللتين سنتناولهما في هذا الكتاب ، والحوادث الثقافية نسبيا مثل العديان العسكرى في مقاطعة ويسكس سنة ٧٢٥ .. وفي محاولة جريئة يقدر مستر سوروكين الأولى بنسبة ٧٧ر٢٧ والثانية ٢ر٦٦ ، ولكنها جميعا مدرجة في كتب التاريخ ..

وإذا كان المجتمع المستقر أو السوى هو المجتمع الذى ليس فيه أى تعبيرات عن السخط على الحكومة أو على النظم القسائمة ، ولا تخالف

فيه القوانين قط ، فلن يكون هناك اذن مجتمعات مستقرة او سوية .  
وحتى الدولة الموحدة ذات الحزب الواحد يتوقع المرء أن تعيش في هذا  
المستوى .

واذن فمجتمعنا العادى او السوى من يكون مجتمعا خاليا من التنديد  
بالحكومة او الطبقة الحاكمة ، او الخطب الحزينة على التدهور الخلقى  
السائد فى العصر ، او الاحلام الخيالية بعالم أفضل فى الأفق ، او الاضرابات  
واغلاق المصانع ، او التعطل ، او الموجات الاجرامية ، او الاعتداء على  
الحريات المدنية .. وكل ما نستطيع أن نتوقعه مما قد نسميه مجتمعا  
سويا ، هو الا يكون هناك مغالاة شديدة فى هذه التوترات ، كما يجب  
أن يتصرف معظم الناس فيه كأنها يشعرون أن المجتمع رغم كل اخطائه  
مشروع ناجح .. ثم قد نبحت عن الدلائل التى فرغنا من وصفها منذ  
هنيهة — تدمر يعبر عنه بالأموال او بالأفعال — ونحاول أن نقدر  
خطورتها .. ولا شك أننا سرعان ما نجد أننا نتناول عددا كبيرا من  
العوامل ، وأن هذه العوامل فى بعض المجتمعات التى درست فى انظمتها  
القديمة تترايط بطرق متعددة وينسب مختلفة وفى بعض الحالات لا توجد  
كلية او تقريبا بعض العوامل ، ومن المؤكد الا يتيسر لنا أن نجد  
فى جميع الحالات التى ندرسها عرضا واحدا ظاهرا موجودا فى كل  
مكان بحيث نستطيع أن نقول :

عندما تجد ( ا ) او ( ب ) فى مجتمع ما ، نستعرف أن ثورة ستحدث  
بعد شهر او سنة او عشر سنوات او أى وقت فى المستقبل . على العكس  
من ذلك ، فان الأعراض عديدة ومتنوعة وليست بحال من الأحوال مجمعة  
بدقة فى نمط واحد . ويسعدنا كثيرا اذا أمكن التعرف عليها .

## ٢ — نقط الضعف الاقتصادية والسياسية فى البناء :

نحن ملزمون بوصفنا أبناء صالحين لعصرنا بأن نبدا أى دراسة  
كهذه بالوضع الاقتصادى . ونحن جميعا — بغض النظر عما قد  
نشعر به من ميل قليل نحو الشيوعية المنظمة — نخدع أنفسنا عن مدى  
أثر ماركس فى الدراسات الاجتماعية ، ومدى أثر العوامل المختلفة  
فى ماركس ، عندما نوجه السؤال « ماذا كان للمصالح الاقتصادية من



علاقة بالموضوع كله ؟ » . . ومنذ قيام بيرد بدراسته لدستورنا ، شمر كثير من الباحثين الأمريكيين — كما يبدو حقا — بأ هذا هو السؤال الوحيد الذى يحتاجون الى توجيهه .

والآن ، لا جدال فى انه فى كل المجتمعات الأربعة التى ندرسها شهدت السنوات التى سبقت اندلاع الثورة مشكلات اقتصادية او على الأقل مالية من نوع خاص خطير الى حد غير عادى . . وقد كان الاثنان الأولان من ملوك أسرة ستيوارت Stewart فى نزاع دائم مع برلماناتها بشأن الضرائب . . وفى السنوات قبيل سنة ١٦٤٠ كثرت الشكاوى من جراء الأموال المستحقة على السفن ، والتبرعات الخيرية ، والحمولات والأوزان ، وأشياء أخرى لها أسماء غريبة علينا الآن ، ولكنها كانت ذات يوم قادرة على أن تجعل من رجل غنى جدا من بكنجهام يدعى John Hampden جون هامبدن بطلا ، وقد كان من الناحية المالية قادرا تماما على أن يدفع من الضرائب قدرا أكبر كثيرا مما كان يدفعه . . والأمريكيون ليسوا فى حاجة الى من يذكرهم بالدور الذى كان للاضطرابات التى حدثت حول الضرائب فى السنوات السابقة مباشرة للرصاص التى انطلقت فى الكونكورد Concorde وتحدثت كل القوانين . . ولقد يرفض المؤرخون المحدثون أن يعتبروا شعار « لا ضرائب دون تمثيل » تفسيرا كاملا بذاته لبدايات الثورة الأمريكية ، ولكن تبقى الحقيقة وهى أنه كان فى السبعينات من عام سنة ١٧٧٠ شعاعارا قادرا على اثاره آبائنا الى العمل . . وفى سنة ١٧٨٩ كانت حالة الحكومة المالية السيئة هى التى أدت الى دعوة مجلس طبقات الأمة فى فرنسا وعجلت بقيام الثورة فيها . . فقد كانت فرنسا الرسمية فى سنة ١٧٨٩ من الناحية المالية فى حالة سيئة الى حد لا يمكن لأحد حتى عصرنا الحالى أن يعتقد أن الحكومة يمكنها أن تكون فيها . . وفى روسيا سنة ١٩١٧ ربما لم يكن الانهيار المالى بارزا الى مثل هذا الحد ، لأن النظام القيصرى كان قد انهيار تماما فى جميع مجالات النشاط الحكومى . . من الحرب الى ادارة الشؤون القروية . . ولكن ثلاث سنوات من الحرب قد أرهقت روسيا ، حتى انه رغم معونة الحلفاء — كان غلو الأسعار وندرة الحاجيات فى سنة ١٩١٧ أشد العوامل وضوحا فى التوتر العام .

الا أنه فى كل هذه المجتمعات كانت الحكومة هى التى تعاني الصعوبات المالية ، وليست المجتمعات نفسها . . ولنضع المسألة بطريقة سلبية ،

نقول ان ثوراتنا لم تحدث في مجتمعات متخلفة اقتصاديا أو في مجتمعات تعاني بؤسا أو كسادا اقتصاديا شاملا .. ولن تجد في هذه المجتمعات في نظمها القديمة أى شيء مثل العوز الاقتصادى الشامل غير المألوف .. فلا بد أن يكون المعيار الذى يقاس به الفوز أو الكساد فى أية حالة هو مقياس المعيشة المقبولة الى حد ما لدى جماعة معينة فى وقت معين .. فان ما كان يرضى فلاحا انجليزيا سنة ١٦٤٠ قد يكون بؤسا وعوزا عند العامل الزراعى الانجليزى سنة ١٩٥٢ .. ومن الممكن أن تكون بعض الجماعات فى مجتمع ما ، فى حالة عوز شديد ، حتى ولو كان المجتمع ككل يتمتع «بدخل قومى» متزايد ومع ذلك فعندما يتزايد الدخل القومى بسرعة ، يحصل شخص ما على النفع منه .

ولقد كانت فرنسا فى سنة ١٧٨٩ نموذجا رائعا لمجتمع غنى له حكومة فقيرة . ولقد بدأ القرن الثامن عشر يجمع الاحصاءات عن نفسه ، ومع أن هذه الاحصاءات لا ترضى الاقتصاد الحديث ، الا أنها تساعد على التيقن من الرخاء المتزايد فى فرنسا ابان القرن الثامن عشر .. ولدينا مجموعة من الأدلة — التجارة الخارجية ، زيادة هدد السكان ، حركة البناء ، الصناعات ، الانتاج الزراعى — تبين الثراء والتقدم خلال القرن الثامن عشر كله .. واليك أمثلة قليلة : استصلحت الأراضى البور فى فرنسا كلها . وفى دائرة ميلون وحدها خلال عامين ما بين ١٧٨٣ ، ١٧٨٥ ، انخفضت مساحة الأراضى غير المزروعة من ١٤٥٠٠ الى ١٠٠٠٠ ر. . . آرينت ، وكانت روين تنتج سنويا فى عام ١٧٨٧ من المنسوجات القطنية ما قيمته خمسون مليون جنيهه ، وضاعفت انتاجها على الأقل خلال جيل واحد .. وزادت التجارة الفرنسية مع شمال افريقيا من حوالى مليون جنيهه سنة ١٧٤٠ الى ٦٢١٦٠٠٠ جنيهه فى سنة ١٧٨٨ .. وزاد اجمالى التجارة الخارجية الفرنسية فى سنة ١٧٨٧ حوالى مائة مليون جنيهه فى الاثنى عشر عاما منذ وفاة لويس الخامس عشر سنة ١٧٧٤ .

بل حتى فى احصاءاتنا الناقصة نستطيع أن نتبين العوامل الدورية قصيرة الأجل ، ويبدو واضحا أنه فى بعض الجوانب وبخاصة فى محصول القمح كانت ١٧٨٨/١٧٨٩ سنة سيئة .. الا أنها لم تكن بحال من الأحوال سنة كساد شديد مثلما كانت سنة ١٩٣٢ بالنسبة لهذا البلد ( يعنى الازمة الاقتصادية فى أمريكا ، ولو عمل رجال الأعمال الفرنسيين فى القرن الثامن عشر رسوما بيانية ، لصعدت الخطوط فيها بثبات يدعو الى الرضا طوال معظم الفترة التى سبقت الثورة الفرنسية .. ولكن من المؤكد أن

هذا الرخاء كان يوزع بطريقة أبعد ما تكون عن المساواة .. وكان الناس الذين يحصلون على نصيب الأسد منه هم فيما يبدو التجار وأصحاب البنوك ورجال الأعمال والمحامون والمزارعون الذين يديرون مزارعهم كمشروعات تجارية .. الطبقة المتوسطة كما أصبحنا ندعوها .. وكان هؤلاء الميسرون في الثمانينات من عام ١٧٨٠ أشد الناس عداوة ضد الحكومة ، وأشدهم ترددا في انقضاها بدفع الضرائب لها أو اقراضها الأموال ..

ولكن تبقى الفكرة الملحة وهي أنه لا بد أن الناس الذين صنعوا الثورة الفرنسية كانوا بطريقة أو بأخرى يعانون حرمانا اقتصاديا خطيرا ..

ولقد أمضى س.أ. لابروس حياته — وهو بصاثة معاصر مشهور جدا — يكافح في البحث في الأسعار في فترات زمنية متسلسلة في دلائل اقتصادية وما أشبه ذلك خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر في فرنسا ، ساعيا الى اثبات أن الفقراء وأصحاب الدخول المتوسطة كانوا يضيعون بالأسعار الى حد حفزهم على الثورة بسبب ما أحسوه من عوز فعلى ، أو على الأقل من عناء ، ولكن رغم عمله الشاق ، فان بحثه لم يكن مقنعا ..

فالرجال الذين صنعوا الثورة الفرنسية كانوا يحصلون على دخل مطرد الزيادة .. الى حد جعلهم يطلبون المزيد الكثير .. وفوق هذا كله — كما سنرى — كانوا يريدون الكثير الذي لا يستطيع الاقتصادى قياسه ..

أما في أمريكا — تلك القارة الخالية التي كانت في متناول البؤساء — فان الظروف الاقتصادية العامة في القرن الثامن عشر تكشف عن ثروة وعدد من السكان في زيادة مطردة ، مع البؤس الاقتصادي — نسبيا .. فلا يمكن أن يكون هناك حديث عن الموت جوعا ، أو الفقر المدقع بولاية نيوانجلند في عهد قاتون الدمغة .. بل ان التقلبات الطفيغة في دورة الأعمال لا تتفق والثورة ، وقد كانت السنوات الأولى من السبعينات في عام ١٧٧٠ تتميز بأنها سنوات الرخاء .. كان هناك ضغوط وأزمات اقتصادية في أمريكا المستعمرة ، كما سنرى عاجلا — ولكن لم يحدث أن ناخذ طبقة من جراء الفقر .

وليس من السهل أيضا القول بأن إنجلترا في بواكير عهد أسرة ستيوارت كانت أقل رخاء من إنجلترا في أواخر عهد أسرة تيودور بل هناك دليل على أنه وبخاصة سنوات الحكم الفردى ، التي سبقت العهد البرلماني الطويل ، كانت إنجلترا في حالة رخاء ملحوظ .. وكتب رامساي موير يقول أن « إنجلترا لم تعرف قط رخاء أكثر استقرارا أو أكثر انتشارا ، وكان عبء الضرائب أخف منه في أى بلد آخر .. ومن المؤكد أن الثورة القادمة ليس مرجعها البؤس الاقتصادي » .

وحتى في روسيا سنة ١٩١٧ إذا طرحنا جانبا انهيار جهاز الحكومة تحت ضغط الازهاق الذي أحدثته الحرب ، فمن المؤكد أن القدرة الانتاجية للمجتمع ككل كانت أكبر مما في أى فترة أخرى من التاريخ الروسى ، ونعود مرة أخرى الى النظرة البعيدة المدى ، فنجد أن الرسوم البيانية للنواحي الاقتصادية تتجه كلها على وجه العموم الى الصعود في روسيا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وكان التقدم ملحوظا في التجارة والانتاج منذ الثورة الفاشلة في سنة ١٩٠٥ .. ولا يكاد أى مؤرخ غير ماركس الآن يجادل في الحقيقة الواقعة وهى أن روسيا في عهد البرلمانات الثلاثة الأولى (١٩٠٦ — ١٩١٢) كانت في طريقها الصاعد كمجتمع غربى ..

واذن ، فثوراتنا لم تولد — كما هو واضح — في مجتمعات متخلفة اقتصاديا ، بل على العكس انها حدثت في مجتمعات متقدمة من الناحية الاقتصادية .. ولكن هذا لا يعنى بالطبع أنه لم تكن هناك جماعات في هذه المجتمعات تعاني صنوفا من الضيم الاقتصادي ..

ويبدو أن ثمة منبعين أساسيين للدوافع الاقتصادية على السخط : الأول والأقل أهمية ، هو البؤس الفعلى لجماعات معينة في مجتمع معين .. فليس من شك أنه كان في كل مجتمعاتنا — حتى في أمريكا — جماعة من الفقراء تعيش على هامش الحياة ، وكان تحررها من بعض أنواع القمع صورة هامة جدا من صور الثورة نفسها .. ولكن عند دراسة العلامات الأولية للثورة ، يتبين أن هؤلاء الناس ليسوا ذوى أهمية كبيرة .. ولقد أصر المؤرخون الجمهوريون الفرنسيون طويلا على أهمية الحصول السئ في سنة ١٧٨٨ ، والثمنا القارس في ١٧٨٨/١٧٨٩ وما أعقب ذلك من متاعب للفقراء .. كان الخبز نادرا نسبيا في ذلك الربيع عندما اجتمع

مجلس طبقات الأمة .. ومع أن الأعمال في أمريكا في ١٧٧٤/١٧٧٥ ضاقت بشكل واضح فمن المؤكد أنه لم يكن هناك شيء مثل انتشار البؤس أو التعطل . وفي الواقع كانت المتاعب المحلية في بوسطن ، وهي كثيرة في ظل قانون الموانى ، جزءا من الثورة نفسها ولم تكن علامة من علاماتها . ومن المؤكد أن شتاء ١٩١٦/١٩١٧ كان شتاء قارسا في روسيا ، مقترنا بتوزيع الطعام بالبطاقات في كل المدن ..

ومع ذلك فالشيء المهم الذى نلاحظه هو أن كلا من التاريخ الفرنسى والتاريخ الروسى مليئان بأخبار المجاعات ، والأوبئة ، والمحاصيل السيئة ، وقد كانت اقليمية أحيانا وقومية أحيانا أخرى من حيث الانتشار ، وكان أكثرها مصحوبا باضطرابات متقطعة ، ولكن في كل حالة كانت احداها فقط هى التى تصحبها الثورة .. ولكننا لا نجد فى الثورة الانجليزية أو فى الثورة الأمريكية حتى هذه الدرجة من العوز الاقليمى أو الجماعة . واذن فمن الواضح أن البؤس الاقتصادى للمحرومين من الامتيازات ، ولو أنه يصحب الوضع الثورى ليس من الأعراض التى تتطلب التمسك بها .. وهذا ما يعترف به الماركسيون الأشد مرونة ، وقد كتب تروتسكى .. « فى الحق أن مجرد وجود الحرمان ليس كافيا لاحداث ثورة .. ولو أنه كان كذلك ، لكانت الجماهير فى ثورة على الدوام » .

وأهم من ذلك كثيرا هو احساس جماعة أو جماعات بأن الظروف السائدة تحدد أو تعرقل نشاطها الاقتصادى . وانا لندرك بصفة خاصة هذا العنصر فى ثورتنا الأمريكية ، وقد أظهر البروفسور أ.م. شليسنجر الأكبر كيف أن التجار الموسرين ، حين لحق الأذى بمصالحهم المباشرة نتيجة السياسة الامبريالية الجديدة للحكومة البريطانية ، قادوا المظاهرات ضد قانون ١٧٦٤ ، ١٧٦٥ ، وساعدوا فى اثاره السخط فى صفوف الأقل ثراء منهم ، وهم الذين وجدهم هؤلاء التجار فيما بعد مرتبكين ماليا ..

وليس من شك أيضا أن كثيرا من النقاط السوداء فى سياسة الحكومة البريطانية غير المستقيمة والمتردة — قانون التبغ وما أعقبه من اضطرابات واعلان العزم على تنفيذ قانون الملاحة .. الخ .. كأن لها آثار سيئة على الأعمال ، كما سبب خروج الناس من أعمالهم ، كذلك أسىء بطبيعة الحال تناول مسألة العملة فى وقت لم يكن الجهل بالعمليات

الاقتصادية يتسامح فيه ولقد كانت المستعمرات دائما في حاجة الى النقود وكانت مشروعات الأعمال تعاني من هذا النقص .. وكانت الاوراق النقدية التي اقتصى الأمر الرجوع الى استخدامها مصدرا لا يمكن تجنبه أيضا لمزيد من المنازعات بين الحاكمين والمحكومين .

وان احتمال الدوافع الاقتصادية الى حد الثورة في نفوس الطبقات المالكة التي تميل عادة الى تأييد الأنظمة القائمة يتضح بصفة خاصة وسط الأرستقراطيين في ولاية فرجينيا . وكان الكثيرون من المزارعين الذين يعتمدون الى حد كبير على محصول واحد ( الطباق ) والذين اعتادوا على مستوى رفيع من المعيشة ، والذين تزايدت ديونهم لبنوك لندن يرجون ان يعيدوا جميع ثروتهم في الأراضي الغربية التي يعتبرونها تماما تابعة لولاية فرجينيا .. وتعتبر تورطات جورج واشنطن في المضاربات على الأراضي الغربية احد الموضوعات المحببة الى نفوس من فقدوا حسن السمعة ، ومع ذلك فان الحكومة البريطانية استولت بقانون كويك سنة ١٧٧٤ على الأراضي الواقعة وراء الليجيني شمال أوهيو من فرجينيا وغيرها من المستعمرات التي تدعى ملكيتها ودمجتها في كندا .. ولقد اثار هذا القرار موجدة آخرين فضلا عن المزارعين والمضاربين .. وكان اقبال هذه الحدود مسيئا أيضا الى طبقة ربما كانت في الظروف العادية أميل الى الثورة وتشمل الحطابين وتجار الفراء المتبرمين وصفغار الفلاحين الرواد الأقل تبرما الذين كانوا قد احتلوا من قبل وديان الابلاشي وكانوا مستعدين ان يتناطروا على ولايتي كنتوكي وأوهيو ، الا ان قانون كويك في ذاته لا يفسر بالطبع الثورة الأمريكية .. ولكنه حين يؤخذ مع القوانين الأخرى : قانون التمغة ، قانون الملاحة ، قانون العسل الأسود ، فانه يوضح سبب ما تشعر به الجماعات النشطة الطموحة في أمريكا بأن الحكم البريطاني كان قيادا غير ضروري وثقيل ، وعقبه تحول دون نجاحهم الكامل في الحياة .

وفي فرنسا تميزت السنوات التي سبقت ١٧٨٩ بسلسلة من الاجراءات التي تخاصم جماعات مختلفة .. لقد كانت الحكومة بسماجة مذهلة تعطي بيد ما تسحبه بالأخرى .. وأساعت الجهود التي بذلت لاصلاح النظام الضريبي — الذي لم ينفذ قط تنفيذا كاملا — الى الجماعات المتميزة كما لم ترض الجماعات غير المتميزة . ولقد حاول ترجوا أن يدخل نظام « حرية العمل » فأساء الى كل المصالح المكتسبة للطوائف القديمة .

كما أثار عجزه عن تنفيذ اصلاحاته أصحاب العقول الراجحة والتقدميين عامة . . كذلك أضرت معاهدة التخفيضات الجبركية المشهورة مع إنجلترا في سنة ١٧٨٦ بصناعة المنسوجات الفرنسية ، وزادت عدد المتعطلين في نورماندى وغيرها من الأقاليم وأوغرت صدور طبقة أصحاب الأعمال ضد الحكومة . . وكذلك كان الحال في بريطانيا في القرن السابع عشر ، فليس من شك في أن محاولة احياء النظم الضريبية البالية قد بدت لتجار لندن أو بريستول تهديدا لرخائهم المتزايد ولكانتهم .

وهكذا نرى أن بعض المظالم الاقتصادية — ليست عادة في شكل بؤس اقتصادى ، بل شعور من جانب بعض الجماعات الرئيسية صاحبة المشروعات بأن الفرص المتاحة لتقدمها في هذا العالم تحدها دون وجه حق اجراءات سياسية — قد تبدو أحد أعراض الثورة . . ولا شك في أن من الواجب أن يعم الاحساس بالظلم المجتمع كله بالدعاية ، وضغط الجماعات ، والاجتماعات العامة ، ويفضل أن تحدث أيضا بعض الاضطرابات المثيرة مثل حفلة الشاي التي أقيمت في بوسطن . ويجب — كما سنرى — أن تحاط هذه المظالم مهما كانت وثيقة الصلة بالحالة المالية بالوقت وأن تمس الروح . . فان ما لا يكون حقيقة أمره الاقيدا على جماعة صاعدة وناجحة بالفعل ، أو على عدة جماعات يجب أن يبدو ظلما فاحشا تجاه كل فرد في المجتمع . ان الناس قد يثورون — بعضهم أو غالبيتهم لأنهم مقيدون أو كما يقول دكتور جورج بيتيز عاجزون عن القيام بنشاطهم الاقتصادى ولكن عليهم — فيما عدا نفر قليل جدا من المنافقين — أن يظهروا أمام العالم وأمام أنفسهم بأنهم مظلومون .

ان التعجيز عن القيام بوجوه النشاط الاقتصادى يجب أن يثير الاستياء بين الناس قبل قيامهم بالثورة . . ولن تستطيع الثورات أن تنشب دون كلمة « العدالة » وما تثيره من عواطف .

ومع ذلك فان هَذَا كله أقل مما يعنيه الماركسيون عندما يتحدثون عن ثورات القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر باعتبارها عملا متعمدا من البورجوازية الواعية بمصالحها الطبقيّة . . بل أن الثوار والساخطين في القرن الثامن عشر الذين لم يطلعوا على كتابات ماركس

او حتى على مؤلفات آدم سميث الذى لم يزل اقل شهرة ، كانوا يستخدمون كلمات بعيدة جدا عن الاقتصاد . . وطبيعى ان الماركسى — يؤيده فرويد — يستطيع ان يجيب فى اتقان بأن الدافع الاقتصادى دفع هؤلاء البورجوازيين الى مستوى اللوعى أو الوعى الباطن . . والصعوبة فى هذا من وجهة نظر الشخص الذى نشأ على تقاليد البحث التاريخى الفنى هو ان الوعى الباطن لا يكتب قط — أو نادرا ما يكتب — الوثائق أو يلقى الأحاديث . اذا اقتصرنا على ما كان هؤلاء البورجوازيون يقولونه أو يفعلونه ، فاننا نجد كثيرا من الشواهد على أن الجماعات المتفرقة — التجار الأمريكين مثلا — كانت تشعر ببعض المظالم الاقتصادية ولكن ليس ثمة علامات تدل على أن البورجوازيين والمستثمرين ورجال الأعمال كانوا كطبقة يدركون أن مصالحهم فى التوسع الاقتصادى الحر تعوقها الاجراءات « الاقطاعية » القائمة . والحق كان فى فرنسا عدد كبير جدا من رجال الأعمال يضيقون بالمعاهدة التجارية التى عقدت مع بريطانيا سنة ١٧٨٦ أكثر مما يضيقون بأى اجراء من جانب الحكومة . ومن المؤكد ان أحدا لا يجد فى انجلترا أو أمريكا أو فرنسا أثرا لأناس يقولون « ان الاقطاع المنظم يمنع غلبة رأسمالية الطبقة المتوسطة . . هيا بنا نثور عليه » ، وفى الواقع لم يكن فى هذه البلدان قبل الثورات مباشرة أى حواجز اقتصادية جسيمة تمنع المجتهد حتى ولو كان من الطبقات الدنيا من الثراء اذا كانت لديه القدرة على جمع المال . . وثمة عشرات من السير تظهر هذا . . دوفيرنى باريس ، وفولتير ، وادموند بيرك ، جون لو ، جون هانوك . . ومن المؤكد ان أحدا لا يستطيع أن ينكر ان المنازعات الطبقيّة وجدت فى هذه البلدان ، ولكن بقدر ما نستطيع الحكم لم يكن لهذه المنازعات الطبقيّة أساس اقتصادى بسيط وواضح . ولا شك ان التعبير عن هذه المنازعات فى روسيا خلال القرن العشرين كان بلغة الاقتصاد ، ولو انه من المحتمل هنا أيضا أن نجد ان العواطف البشرية لها دخل مثل المصالح الانسانية على حصد سواء .

ومجمل القول أننا حين ننظر الى الحياة الاقتصادية فى هذه المجتمعات فى السنوات التى سبقت الثورة ، نلاحظ أولا أنها كانت بصفة عامة مجتمعات ميسورة ، وثانيا أن حكوماتها كانت تعاني عجزا ماليا مزمنا ، أى أنها كانت أعجز ماليا مما تكون عليه أكثر الحكومات عادة ، ثالثا أن بعض الجماعات كانت تشعر بأن سياسات الحكومة تجرى ضد مصالحها الاقتصادية الخاصة ، رابعا فيها عدا روسيا لم تكن



المصالح الاقتصادية التطبيقية متقدمة صراحة في الدعاية كدافع لمحاولة قلب الأوضاع السياسية والاجتماعية القائمة .. ومن المفيد أن نذكر هنا أن ر.ب. مريمان في دراسته لست ثورات من ثورات القرن السابع عشر في إنجلترا وفرنسا وهولندا وأسبانيا والبرتغال ونابلى وجد أنها في مجموعها كان لها أصل اقتصادى ومالى ، وكلها بدأت كاحتجاجات على النظم الضريبية .

وإذا نحن تركنا الآن الضغوط والقيود على الحياة الاقتصادية الى الأعمال الفعلية لأجهزة الحكومة نجد حالة أكثر وضوحا ، وهنا مرة اخرى يجب الا نضع الكمال كشرط عادى .. فان الحكومة في احسن احوالها على هذه الأرض ليست منزهة عن العيوب وسيجد المحكومون دائما ما يتذمرون منه ؛ من المحسوبة والفساد .. ولكن من الواضح أن عجز الحكومة على درجات كما أن صبر المحكومين على درجات وفي مجتمعاتنا الأربعة يبدو أن الحكومات كانت عاجزة نسبيا وأن المحكومين نفذ صبرهم نسبيا ..

والحق أن قرب افلاس حكومة ما في مجتمع ميسور يمكن أن يعتبر دليلا أوليا جيدا على عجزها عن العمل ، أو على الأقل في الأزمنة القديمة عندما كانت الحكومات تتولى عددا قليلا من الخدمات الاجتماعية أو المخصصة لخدمة المجتمع .

وتوحى أساليب الحكم في ألمانيا وروسيا بأنه ربما من الآن نصاعدا لا يحدث مجرد الافلاس المالى أى اضطراب للحكومة ، حيث أن حقائق ماليتها لا يمكن أن تعرف . وتعتبر فرنسا سنة ١٧٨٩ مثلا رائعا لمجتمع لم تعد حكومته تؤدي وظيفتها بطريقة مرضية .. ولقد ظل الملوك الفرنسيون ووزراؤهم طوال أجيال يحاربون الاتجاهات الذاتية في الأقاليم التى تهدف الى الخروج عن سيطرة باريس وذلك بانشاء سلسلة كاملة من المؤسسات المركزية التى يمكن أن يقال أنها كانت قائمة في عهد شرلمان وانتقلت الى فرنسا في عهد ريشيليو ولويس الرابع عشر . ومع ذلك كانوا كالأنجلوسكسونيين ، لأنهم لم يقضوا الا القليل جدا من القديم في هذه العملية ، ولذلك كانت فرنسا في سنة ١٧٨٩ أثبتة بطابق ملء الى آخره بكل أنواع الأثاث القديم .. محتويا في الوقت نفسه على بعض كراسى جديدة جميلة من صنع ترجو ، لا تتلاءم مع حجرة الجلوس .

ولسنا في حاجة الى التوغل في تفاصيل الحالة التي يمكن تلخيصها بقولنا انه بينما يستطيع المرء أن يرسم خريطة للولايات المتحدة تبين مناطقها الادارية ، والمدن والمقاطعات والولايات ، لا يستطيع أن يرسم خريطة واحدة للمناطق الادارية في فرنسا القديمة ، بل ان الغموض الذي يكسو خريطة ادارية للولايات المتحدة الأمريكية نتيجة للجان والمكاتب والوكالات والادارات الفدرالية المتنوعة والجديدة نسبيا لا يصل الى ما في خريطة فرنسا من غموض سنة ١٧٨٩ . . ولقد يحتاج المرء الى ست خرائط على الأقل لتبين الوحدات المتقاطعة في باروايس ، سينيورى وبلاج وسينشوسى ، وجنراليتيه ، ومركز الحكومة ، اراضى الدولة والدوائر ، والمزارع الخمس الكبيرة ، مدن ضريبة الملح الكبيرة والصغيرة ، وليس ذلك الا بداية .

ومعنى ذلك أنه في فرنسا القرن الثامن عشر كان من العسير جدا على الحكومة أن تقوم بأى عمل ، الأمر الذى يعتبره دكتور بتى من أهم المعوقات . ويذكر عن لويس الخامس عشر احدى الأتقاصيص ذات الدلالة التى لا تهم حقيقتها التاريخية الفعلية ، ما دامت تعكس الرأى المعاصر للظروف الواقعة . . ان جلالته وهو يطوف بالأقاليم رأى شقا في سقف القاعة المقرر استقباله فيها فقال « آه لو كنت وزيرا ، لأصحت ذلك » ولربما كانت الحكومة التى أمكن ذكر هذه القصة عنها ، حكومة استبدادية ، ولكن من المؤكد جدا انها كانت عاجزة . . وعلى العموم يبدو أن العجز سرعان ما يعترف به من جانب الذين يعانون منه أكثر من الاستبداد .

ولقد كان عجز الحكومة البريطانية في عهد أول اثنين من ملوك أسرة ستوارت أقل وضوحا من ذلك بقدر كبير . . ولكن نستطيع أن نقرر مطمئنين أن الحكومة المركزية لم تكن تدار وبخاصة في عهد جيمس الأول بمثل الجودة التى كانت بها في عهد الملكة اليزابث . . وأشد ما يدعو الى الدهشة في الوضع الانجليزى هو العجز الكامل من حكومة حديثة عن ايجاد نظام للضرائب قائم على الاحتياجات المتواضعة لحكومة اقطاعية مركزية . . وذلك لأن حكومة جيمس الأول كانت في بداية الطريق الى أن تصبح حكومة حديثة وأن تتولى بعض الخدمات الاجتماعية الأولية وأن تعتمد على جهاز ادارى ، وجيش نظامى وأسطول لا بد أن تدفع له الرواتب نقدا . . ولم تكن الحاجة الزمنية الى النقود التى واجهت

جيمس الأول وشارل الأول نتيجة حياة التبذير ، والاسراف فى نفقات القصر بل كانت ترجع فى معظمها الى النفقات التى لم تكن أى حكومة حديثة تستطيع تجنبها .. الا أن دخل هذه الحكومة فى عمومه كان يحدد ويجمع بالطرق الاقطاعية العتيقة . وعلى أى حال كان من الواضح ان ملوك أسرة ستوارت فى حاجة الى المال ، ولكن محاولاتهم لملء خزائهم كانت بشعة ، وكانت تجرى بطرق سيئة مما أوقعهم فى منازعات حادة مع أولئك الذين كانوا يستطيعون أن يحصلوا منهم وحدهم فى تلك الأيام على الأموال بسرعة — الأعيان والطبقة المتوسطة .. وكانت منازعاتهم مع البرلمان مما عطل جهاز الحكومة الانجليزية كله .

وفى أمريكا كان اخفاق جهاز الحكومة مزدوجا .. أولا : كانت ادارة المستعمرات المركزية فى وستمنستر قد سمح لها بأن تنمو بطريقة التجريفة او الخطأ التى ظل الانجليز عهدا طويلا يعتبرونها قمة الحكمة السياسية .

ومع ذلك ففى هذه الأزمة كان شق الطريق غير كاف .. ولم تؤد محاولة اصلاح ادارة المستعمرات بعد حرب السبع سنوات الا الى زيادة الأمور سوءا مثلما أدت محاولات الاصلاح التى قام بها تروجو فى فرنسا اذ أنها نفذت فى سلسلة من التقدم والتراجع ، والمداهنة ، والتهديدات ، والتغلب بين الشدة واللين ..

ثانيا : لم يكن جهاز الحكومة فى داخل المستعمرات متلائما تماما مع الحدود .. كانت الأتالييم الغربية الجديدة فى كثير من المستعمرات تشكو من أن تبثيلها النيابى والمحاكم والتقسيمات الادارية كلها تعد لمصلحة المستعمرات القديمة الساحلية .

ولقد أصبح انهيار الادارة القيصرية الآن أمرا عاديا حتى أن الانسان ليميل الى الظن بأن الحديث عنه مبالغ فيه بعض الشيء .. وحين ننظر الى عشرات السنين التى سبقت ١٩١٧ — لأننا فى هذه البلدان جميعا كنا ننظر دائما فيما وراء الثورات وليس فى انفجاراتها الفعلية — يبدو أن فى الامكان الاعتقاد بأن حكومة روسيا فى عهد السلم على الأقل ربما كانت أكثر قدرة من الحكومات الأخرى التى درسناها . ففيما بين كاترين العظمى وشوليبين يمكن أن نرى قدرا كبيرا من التحسن الفعلى فى الحكومة الروسية .. ولكن شيئا واحدا يتضح منذ المائة سنة التى سبقت

سنة ١٩١٤ وهو أن روسيا لم تستطع أن تعدد نفسها للحرب وقد جلبت الهزيمة في الحرب وبخاصة سنة ١٩٠٥ انهيارا جزئيا في جهاز الإدارة الداخلية . . ولا بد من التمسك بالحقائق وتجنب الأحكام التي أقحمت نفسها في معرفتنا بروسيا الى الحد الذي جعلنا نعتبرها من الحقائق . . وتحقيقا لأغراضنا يكفى أن نلاحظ أن انهيار الحكومة الروسية الذي اتضح سنة ١٩١٧ بل في سنة ١٩١٦ لم يكن بحال من الأحوال واضحا في سنة ١٩١٢ مثلا .

واخيرا فان أوضح الأمور التي يمكن أن تسجلها هي الجهد الذي يبذل في كل مجتمع من المجتمعات لاصلاح جهاز الحكومة . . ولا شيء يمكن أن يكون أكثر خطأ من تصوير النظام القديم على أنه نظام طغيان عنيف ، غارق في عدم المبالاة بصيحات رعاياه الذين أسىء استغلالهم . . ان شارل الأول كان يعمل على « تجديد » حكومته ، وادخال بعض الأساليب الفرنسية الفعالة الى انجلترا . . ولم يكن ستافورد من بعض الوجوه سوى ريشيليو السوء الحظ . . وكان جورج الثالث ووزراؤه يحاولون جاهدين أن يوحدوا الأجهزة المبعثرة لحكومة المستعمرات البريطانية . . والحق أن هذه المحاولة للاصلاح ، وهذه الرغبة في استنباط « نظام » استعماري جديد هي التي أعطت المبادأة في أمريكا للحركة الثورية .

وفي فرنسا وروسيا كان هناك سلسلة من محاولات الاصلاح مرتبطة بأسماء مثل ترجبو ، ومالرب ، ونكر ، ووت ، وستوليبين Malerbe Necker Watt Stolypyn . ومع أن هذه الاصلاحات كانت حقيقة غير كاملة وأنها كانت تلعى أو تنقض نتيجة أعمال التخريب من جانب أصحاب الامتيازات . . الا أنها في سجل التاريخ جزء أساسي من العملية التي أعقبتها الثورة في هذه البلدان .

### ٣ — هروب المثقفين :

حتى الآن ركزنا انتباهنا على أجهزة الحياة الاقتصادية والسياسية ، وحاولنا أن نميز علامات أى انهيار مقبل . . ولنتحول الآن الى الحالة العقلية ، او بالأحرى الشعور ، للجماعات المتباينة داخل هذه المجتمعات . . وقد نسال أولا . . هل اختلال نظام الحكومة يجد نظيرا له في تنظيم

معارضيتها .. ؟ وسوف يكون علينا فيما بعد أن نعالج ما يعرف جيدا الآن بأنه « الجماعات الضاغطة » رجال ونساء منظّمون في جمعيات لها أهداف خاصة ، جمعيات تجلب كل صنوف الضغط ، من الدعاية والحديث في الصالونات الى الأرهاب ، لكى تبلغ أهدافها .. وهذه الجماعات الضاغطة في شكل أو آخر هي جزء جوهرى في كل الدول الحديثة ، ومجرد وجودها كحقيقة واعدة لا يمكن أن يؤخذ على أنه عرض من أعراض الثورة والا يجب علينا أن نعتبر جمعية « الرفق بالحيوان » وجمعية « المؤلفين » أو روابط مقاومة القمار علامات لثورة أمريكية أخرى مقبلة .. ويبدو أن ليس هناك محك وحيد بسيط لتحديد متى وتحت أى الظروف يمكن أن يؤخذ وجود الجماعات الضاغطة كدليل على قرب عدم الاستقرار السياسى . ومع ذلك فان عشرات السنوات السابقة للثورة في مجتمعاتنا الأربعة تبين اشتداد نشاط الجماعات الضاغطة ، نشاط يتجه أكثر فأكثر بمضى الزمن نحو التغيير الجذرى للحكومة القائمة .. والحق أن بعض جماعات تبدأ في مجاوزة الثثرة في الصالونات والدعاية ، وتقوم بتخطيط إجراءات مباشرة وتنظيمها أو على الأقل استبدال حكومة بأخرى بطريقة مفاجئة مثيرة نوعًا ما .. انها بدايات لما نعرفه مستقبلا بالحكومة الغير الشرعية ، ففى أمريكا فعلت لجان التجار التى نظمت لمقاومة إجراءات الرقابة الإمبريالية الشئ الكثير مما تفعله أحدث الجماعات الضاغطة من الدعاية الصريحة الى اثاره المظاهرات الشعبية والى التعاون مع المستعمرات عن طريق القرارات والمؤتمرات وما أشبهه ..

وهى مقدمة لتلك الخلايا الثورية الفعالة ، لجان المراسلة التى أداها Sam Adams سام آدامز بطريقة ممتازة في السبعينات من عام ١٧٧٠ .. وتوجد أشباه هذه الجماعات في مستويات اجتماعية أقل حيث كانت تتسلل الى حفلات الحانات الصاخبة . وكان من الممكن في كثير من المستعمرات أن تستخدم الجماعات الضاغطة المجالس التشريعية للعمل ضد الحكومة الاستعمارية بطريقة غير ممكنة في المجتمعات الأخرى التى ندرسها .. وكان اجتماع بلدة نيوانجلند بمثابة اطار جاهز لهذا النوع من الاثارة ..

وفي فرنسا ، أظهر بحث كوشين كيف أن ما سماه جماعات الفكر كانت جماعات غير رسمية تعقد الاجتماعات لتناقش العمل العظيم لعصر

الاستنارة ثم تحولت بالتدريج الى اعمال الاثارة السياسية ثم ساعدت آخر الأمر في توجيه دفة الانتخابات لمجلس الطبقات سنة ١٧٨٩ ..

ورغم أن المدرسة الرسمية للمؤرخين في الجمهورية الثالثة قد ارتابت دائما في الفكرة القائلة بأن ثورتهم الكبرى أعدت كلها مقدما فانه من العسير على شخص أجنبي ألا يشعر بأن كوشين وضع أصبعه على النوع الرئيسي للعمل الجماعى الذى حول مجرد الكلام والتأمل الى عمل سياسى ثورى ..

والمؤرخون الفرنسيون الجمهوريون أنفسهم يعترفون بأن الحركة الماسونية كان لها مكان فى الاعداد للثورة .. ومن الواضح أن نشاط الماسونيين فى فرنسا اثناء القرن الثامن عشر لم يكن مؤامرة سوداء ، ولكن من المؤكد أنه لم يكن نشاطا اجتماعيا أو ترفيهيا أو تعليميا صرفا .. ولقد كان النبلاء وأصحاب البنوك الطموحون وكل المثقفين فى الغالب من الماسونيين الأحرار .. وحتى فى ذلك الوقت كان المحافظون المتدينون يصدمون بما كانوا يعتبرونه النواحي الهدامة فى الحركة الماسونية .

وفى روسيا كانت الجماعات على اختلاف درجاتها المعادية للأوضاع السائدة قد ازدهرت قبل الثورة بوقت طويل .. فكان العدميون والفوضويون والاشتراكيون والأحرار ، ودعاة الغرب ، واعداء الغرب كلهم يعيرون عن أنفسهم بطرق متعددة — من القاء القنابل الى التصويت فى الانتخابات البرلمانية . وان الانسان ليستنتج من التأمل فى السنوات الأخيرة للنظام القيصرى أن تنوع أغراض الجماعات المعادية له قد صنع الشئ الكثير لإبقاء ذلك النظام قائما .. ومن المؤكد أن الثورة الروسية كان لها مقدمات كثيرة من الدعاية وكان الدور الذى قامت به الجماعات الضاغطة فى الاعداد لها واضحا بطريقة فريدة فى نوعها ..

وتعتبر انجلترا فى هذا المجال حالة اقل وضوحا .. الا أن هناك دلائل محددة على المعارضة المنظمة التى كان التجار وبعض الأعيان يقومون بها ضد بعض الاجراءات مثل ضرائب السفن ، وثبت أن الأغليات البرلمانية التى تجمعت ضد الملك شارل بعد فترة الحكم الفردى كانت حصيلة الجماعات الضاغطة الناشئة كما تظهر تلك الكتيبات الأدبية العديدة التى صدرت حينذاك . وفوق ذلك فان الثورة الإنجليزية كانت آخر

الانقلابات الاجتماعية العظيمة في نطاق الأفكار المسيحية بنوع خاص وكان  
أظهر الجماعات الضاغطة الى حد ما في إنجلترا ابان القرن السابع عشر  
هى فقط الكنائس البيوريتانية وبخاصة الكنائس التى تسمى الكنائس  
المستقلة . . وقد كان وجودها نفسه يهدد الملك شارل مثلها كان الحزب  
البليشنى يهدد نيقولا .

وجدير بالذكر أن بعض هذه الجماعات الضاغطة — لجان التجار  
الأمريكيين ، وجمعيات الفكر الفرنسية ، والبنائون الأحرار ( الماسونيون :  
مثلا — لم تكن فى عز نشاطها تعترف بأنها تعمل للثورة ، ومن المؤكد أنها  
لم تكن تعمل لثورة عنيفة . ولربما كان ما يفصل هذه الجماعات عن  
الجماعات الضاغطة مثل جمعية الرفق بالحيوان أو جمعيات مقاومة  
القمار — التى نستطيع بالتأكيد أن نتفق على عدم اعتبارها عرضا من  
أعراض الثورة — هو هدفها الأساسى فى أحداث تغيير جذرى فى العمليات  
السياسية الهامة . . وهكذا كان التجار الأمريكيون يهدفون حقا الى  
قلب سياسة وستمنستر الإمبريالية الجديدة كلها ، وكان الفرنسيون  
الذين أعدوا الانتخابات للجمهورية الثالثة يهدفون الى الحصول على دستور  
جديد لفرنسا . ومن ناحية أخرى كانت بعض المنظمات الروسية منذ  
البداية ثورية الى حد عنيف ، الا أنها لم تكن العناصر الهامة فى الوضع  
الروسى فيما بين ١٩٠٥ — ١٩١٧ ، ولم تكن آهم من الجماعات المعادية  
للحكم المطلق أو الشيع الفوضوية الدينية فى إنجلترا قبل سنة ١٦٣٩ . .

كان هناك اذن فى هذه المجتمعات كلها جماعات ضاغطة لها  
أهداف ثورية الى حد ما . . ويرى نشاطها فى خلال المناقشات السياسية  
والأدبية العنيفة التى تدور فيها . . ونجىء الآن الى عرض من أعراض  
الثورة أبرزه جيدا ليفورد ب ادواردز فى كتابه « التاريخ الطبيعى للثورة »  
ووصفه فيه بأنه « تحول ولاء المثقفين » ، ومع أن كلمة « هروب » قد  
يكون لها وقع أبى سىء الا أن العبارة الأقصر « هروب المثقفين » أكبر  
ملاءمة بحيث نقترح استخدامها ، بدلا من استخدام العبارة الأطول  
فى هذه الدراسة .

ومع ذلك يجب أن نكون واضحين فيما نتحدث عنه قبل أن نحاول  
استخدام هروب المثقفين كعرض من الأعراض . ويمكننا دون أى عناء  
فيما يتعلق بالدقة أن نقول ان المثقفين هم الكتاب والفنانون والموسيقيون  
والممثلون والوعاظ . . أما التقسيم الأكثر من ذلك الى مجموعة صغيرة من

القادة الذين يبادرون أو على الأقل يبرزون أمام انظار الجمهور ، ومجموعة أكبر تتغذى على المادة التي تحصل عليها من القادة ، فليس بذى أهمية كبيرة في هذا المجال .

وان ما يهم ويحير بعض الشيء هو الوضع العام للمثقفين في مجتمعنا الغربى منذ العصور الوسطى ، ومن الواضح أنه يجب علينا الا نفترض الاتفاق بين المثقفين في مجتمع معين قبل أن نقرر أنه مجتمع مستقر الى حد معقول . . فانه حتى في القرن الثالث عشر الذى يجد فيه الكثيرون من مفكرينا المعاصرين اجماعا في الآراء يحسد عليه بالنسبة للأمور الأساسية في العقيدة ، كانت المنازعات بين المثقفين في الحقيقة كثيرة جدا . . فقد كان هناك عدد وفير من المتمردين والمتبئين خلال العصور الوسطى . وفي العصور الحديثة نتوقع من المثقفين أن يختلفوا فيما بينهم ، ومن المؤكد ان يختلفوا أيضا مع غير المثقفين ، مع العامة ، وضيقى الأفق ، وذوى العقول الجامدة — أو أى اسم آخر قد يصوغونه لهم . . وفوق ذلك ، ولعدة أسباب ، فان الكتاب والمعلمين والوعاظ ، ملزمون الى درجة كبيرة بحكم وظيفتهم بأن يتخذوا موقف الناقد تجاه الروتين اليومي للشئون الانسانية . . ونظرا لافتقارهم الى الخبرة بسبب اعباء مسؤولياتهم ، فانهم لا يعرفون كيف أن العمل الجديد مهما كان ضئيلا يكون في العادة ممكنا ، أو فعالا . . والمثقف الذى يرضى عن العالم وعن نفسه لا يمكن أبدا ان يسمى مثقفا .

وهنا كما هو في الغالب في العلوم الاجتماعية ، في الواقع في العلوم الطبيعية نتناول مسألة التقت عليها الخلافات الكمية والنوعية ظلا كثيفا . . وتمييزنا بين الاثنين ليس في الواقع الا للتبسيط ، صورة عقلية معقدة يرسمها العقل الفاحص . .

فقد نقول من الناحية الكمية انه في المجتمع غير المستقر الى درجة ملحوظة يوجد عدد أكبر من المثقفين أو على أى حال عدد أكبر نسبيا من المثقفين ، يهاجمون بمرارة الأنظمة القائمة ويتحرقون شوقا الى حدوث تغيير كبير في المجتمع والأعمال والحكومة . .

ومن الممكن على سبيل الاستعارة الصرف أن نقارن المثقفين من هذا النوع بالكرات البيضاء التى تحرس تيار الدم ، ولكن من الممكن وجود زيادة مغرطة في الكرات البيضاء ، وعندما يحدث ذلك بمرض الجسم .



ونستطيع من الناحية الكيفية أن ندرك اختلاف الموقف ، وبعضه بلا شك ناتج عن عدد هؤلاء المثقفين المهاجمين وانفاقهم ، ولكن بعضه الآخر ناتج عن حقيقة أكثر دقة .

فالمجتمع الانجليزي في العصر الفيكتوري كان في حالة توازن يبدو عند التأمل أنه غير مستقر بعض الشيء ولكنه مع ذلك كان متوازنا . وفي هذا المجال عنف كارليل جيلا يدمن على حبوب موريسون بدلا من التعلق بالأبطال ، وضاق مل Mill بطغيان الأغلبية ، ووجد ماثيو ارنولد Mathew Arnold أن انجلترا يعوذها الجمال والمعرفة . وسعى نيومان Newman الى أن يجد في روما ترياقا لسموم الديمقراطية الانجليزية وحث موريس Morris مواطنيه على تحطيم الآلات والعودة الى اساليب العصور الوسطى ، بل ان تنيسون Tennison أزعجه اخفاقه في الوصل الى أى شيء أكثر نفعا من السخط الفلسفى الغامض العنيف .

ولقد كان الكثيرون من المثقفين في العصر الفيكتوري — وليس كلهم — على غير وفاق فيما بينهم ، ولم يتفقوا على شيء سوى نفورهم العميق من البيئة المحيطة بهم . ومع ذلك ، فلو أنك نظرت اليهم بعين فاحصة لوجدت بينهم اتفاقا غريبا ، على أن ما يجب عمله على الفور لمعالجة الأمور ليس بالشيء الكثير . . وفوق ذلك — كما أوضح مستر آلان براون في دراسته للجمعية الميتافيزيقية — كانوا يستطيعون بالفعل أن يجتمعوا معا ليناقشوا خلافاتهم . وليس الأمر كما يقال لنا كثيرا عن المثقفين الفلاسفة في العصور الوسطى — ان أولئك الفيكتوريين كانوا يتفقون على الافتراضات الميتافيزيقية واللاهوتية الأساسية . . فلم يكن بينهم قط مثل هذا الوفاق . . بل كانوا يتفقون في الرأى على الأعمال النمطية والعادات اليومية القليلة الاهمية في بعض النواحي ولكنها عظيمة الاهمية من النواحي الأخرى ولم يكونوا يتوقعون من الحكومة ان تحدث تغييرا في مثل هذه الأمور .

وسيتضح الخلاف على الفور بين الجو العقلى لجماعة مثل الفيكتوريين ، الكتاب الذين لا يمكن أن يقال عنهم اجمالا أنهم هربوا ، وجماعة هاربة ، اذا نظرنا الى تلك الجماعة المشهورة في فرنسا اثناء القرن الثامن عشر التى وقفت في وسط حركة التنوير الكبرى . . ان الانسان ليحس اول وهلة بالأعداد الكبيرة للمثقفين ، الكبار والصغار ، الذين

يدرسون الشؤون السياسية والاجتماعية ، وكلهم مقتنع بأن الدنيا وبخاصة فرنسا تحتاج الى تجديد كل شيء ابتداء من أدق التفاصيل ، وأقلها أهمية الى المبادئ الخلقية والقانونية العامة ويعبر في أى كتاب مدرسى على قائمة بالفلاسفة : فلتير ، روسو ، ديديرو ، رينال ، دولباخ ، فولنى ، هيفتيسوس ، دالمير ، كوندورسيه ، برناردين دى سانت بيير ، بوماشييه ، كلهم ثوار ، رجال حشدوا كل ذكائهم ضد الكنيسة والدولة ، أو بحثوا في الطبيعة عن الكمال الذى ينبغى أن يتوفر فى فرنسا . ولن تجد فى غير عصر ادباء محافظين نشيطين مثل سام جونسون أو سير والتر سكوت ، او حتى ادباء محايدين ممن يتابعون فى مجال الأدب الجمال أو الفهم خارج نطاق السياسة تماما . . بل ان أولئك الذين طواهم النسيان الآن ممن عارضوا الفلاسفة ، بل حتى المتشائمين الذين أنكروا مذهب التقدم كانوا مثقفين مذهبيين ، وكانوا متعصبين « للعقل » مثل المتطرفين . . كان الأدب فى فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر أدبا اجتماعيا بطريقة ساحقة . . ولو أنك نظرت فى البقايا الصغيرة من صحف فرنسا فى القرن الثامن عشر ، ولو أنك حاولت أن تعيد ما كان يقال فى الصالونات والمنتديات ، لوجدت أنك يشكو وينقد النظم القائمة ، والكل يبحث عن خطة الطبيعة البسيطة لتحقيق الكمال فى السياسة . . وكانت هذه الشكاوى الجماعية مريرة ولا مثيل لها فى شكاوى العصر الفيكتورى ، وقد يستطيع الانسان عن طريق الاحصاءات أن يقرر أن عدد المثقفين الذين كانوا يصادون الحكومة فى فرنسا فى أثناء القرن الثامن عشر كان أكبر نسيبا من عددهم فى بريطانيا فى أثناء القرن التاسع عشر . ولكن هذا الاختلاف يتجاوز الاحصاء . . ويدخل فى نطاق ما سميناه الاختلاف الكيفى . . فان لدى الفرنسيين نغمة أكثر مرارة وأشد أملا فى الوقت نفسه ، وتختلف تماما عن نغمة الفيكتوريين . . أما ان ذلك الاختلاف ليس كله اختلافا قوميا فسوف يتضح لأى شخص يقرأ كتب الأدب فى عصر ميلتون . . حينذاك كان المثقفون الانجليز قد هربوا بينما لم يفعلوا ذلك فى عصر فيكتوريا .

وروسيا كذلك نموذج واضح لهذا الهروب من جانب المثقفين . . فمن المؤكد انه كان هناك شيء أكثر كثيرا من الدعاية السياسية فى سلسلة الكتاب الذين جعلوا من الأدب الروسى جزءا من برامج التعليم لنا جميعا . . ولكن لا ريب انه كان هناك نقد سياسى واجتماعى لروسيا القيصرية حتى فى أعمال أكثرهم تحررا واعلاهم قدرا : ترجينيف . ان الانطباع الذى يحصل عليه الانسان حتى من نظرة عابرة للحياة العقلية الروسية فى

القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لا يحتمل الخطأ فيه وهو أن الكتابة والتعليم في تلك الأيام كان معناها الوقوف في وجه الحكومة .. وليس معنى ذلك بالضرورة حينذاك أن يكون الشخص ماركسيا .. والحق أن تأثير ماركس في حياة المثقفين الروس قبل الثورة كان أخف كثيرا من تأثير كتاب حركة الاستنارة والفلاسفة الرومانسيين في القرن التاسع عشر ..

أما أمريكا فليست مثلا دقيقا الى هذا الحد .. ففى بوسطن مثلا أثناء الستينات والسبعينات في القرن الثامن عشر كان عدد كبير جدا من أمثال من نتحدث عنهم من المثقفين ثابتين تماما في معارضتهم مثلما يعارض الكثيرون الآن أى عمل عمل بوسطنى مثل الشغب .. ومن الواضح أن هارفر لم تكن بحال من الأحوال مجمعة على معاداة التاج ، ولنسحق جانباً جهود خريجها المشهور سام آدامز في تأييد الأجهزة الديمقراطية .. إلا أنه إذا أمكن احصائياً أن نحدد ما إذا كانت المنتجات الأدبية والصحفية في المستعمرات فيما بين ١٧٥٠ - ١٧٧٥ ، وحتى إذا أدرجنا فيها الخطب الموالية أو المعارضة لسياسة الحكومة الاستعمارية حينذاك فإنه يبدو أن هناك شك قليل في شدة مناوأة هذه السياسات . ان حركة الاستنارة خاصة من خلال كتابات لوك Locke ومونتسكيو Montesquier قد بلغت المستعمرات الأمريكية .. وكانت حقوق الانسان الطبيعية الأبدية في هذه البلاد مثلما كانت في أوروبا مفاهيم أدخلها المثقفون ..

ولقد تبدو انجلترا لأول نظرة استثناء من هروب المثقفين .. نبيدو لوفليس وسكلنج بل ودون أنهم غير مشغولين بأمور الاجتماع .. ولكن عند النظرة الثانية يتضح تماما أن الأدب الانجليزي في عهد أول ملكين من ملوك أسرة ستيوارت أبعد ما يكون عن الولاء للعرش كما كان الحال أيام اليزابث الأولى .. وأن نظرة سريعة في مؤلف الأستاذ جريسون « تيارات متقاطعة في الأدب الانجليزي في القرن السابع عشر » سيظهر مقدار خلو الأدب من انجلترا المرحلة في عصر النهضة .. بل أهم من ذلك الحقيقة الواقعة وهى أنه لم يكن هناك صحف حقيقية في تلك الأيام .. وكانت الكتيبات تقوم مقام الصحف .. وعندئذ كان أدب الكتيبات في أوائل القرن السابع عشر - وهى ضخمة العدد - حتى بالمقاييس الحديثة - تعنى كلها على وجه التقريب بأمور الدين أو السياسة الأفضل وهى أحسن ما يمكن أن توجد كنموذج لأشياء المثقفين .. في الواقع كما يقول الأستاذ جوش كانت الأوامر تصدر تباعاً في عهد جيمس الأول لتحريم بيع الكتب المثيرة للفتنة وكتب

البيوريتان » وكان هناك الكثير من الحديث عن الكتابات التي تطعن في النظم القائمة والكتابات الخطرة » .

وفي الولايات المتحدة الأمريكية الآن — في منتصف القرن العشرين — مثل هذا الحديث ويجب أن نذكرنا هذه العبارة البسيطة بصعوبة تشخيص الثورات الوشيكة الانفجار وبالحاجة الى دراسة كل جوانب الأشياء وليس جانباً واحداً ، حتى ولو كان ذلك الجانب الخلاب الذي سميناه هنا « هروب المثقفين » . . فان الانسان يستطيع أن يقول بأنه منذ حوالى ١٩٠٠ فصاعداً كان هناك استياء من جانب المثقفين في الولايات المتحدة الأمريكية . . الا أن الولايات المتحدة لا تبدو في هذا القرن ناضجة للقيام بثورة ولا يبدو عليها أنها مجتمع في حالة اختلال ملحوظ . . ولربما كان المثقفون الأمريكيون في القرن العشرين مثل الفيكتوريين الذين تحدثنا عنهم يعترضون على ذوى العقول الجامدة . الا أن الكثيرين من الكتاب الأمريكيين يشعرون بالمرارة نتيجة الاحساس بأنهم بعيدون عن شئون بلد يديره رجال أعمال غير مثقفين ، الأمر الذي لا يحسه الانسان تماماً حتى في كتابات أمثال ماثيو ارنولدز Mathew Arnolds وموريس وكارليل Carlyle ان المثقفين الأمريكيين يميلون الى التعلق بعضهم ببعض كأنهم طبقة معادية للطبقات الأخرى ، وربما كان هذا هو السبب في أنهم لا يظهرون ما يدل على أنهم قد يوحون بثورة . . ومع ذلك يجب ألا نضل في المشاكل العسيرة والتي لم تنزل غير مفهومة الى حد كبير والمتصلة بسلوك الطبقات المثقفة في أمريكا المعاصرة .

ويكفى أنه من دريزر Dreiser ولويس Lewis الى هيمنجواى Hemingway وفارل Farrel وميلر Miller كان معظم كتابنا الذين يقرأ لهم كثيراً يعادون الأوضاع الراهنة في الولايات المتحدة الا أن هذه الأوضاع ظلت كما هي لا يهددها انقلاب ثورى . .

أين هرب المثقفون الثوريون ؟ الى عالم آخر وأفضل من عالم النظم القديمة الفاسدة والعاجزة . . ان من ألوف الأفلام والأصوات هناك تبني في السنوات السابقة لاندلاع الثورة ما نسميه الآن أسس الأسطورة الثورية . . أو الأدب الشعبى أو الرموز أو الأيديولوجية . . ومثل هذا العالم الأفضل الذى يراه المثالى يختلف عن هذا العالم القائم غير الكامل في جميع النظم الخلقية والدينية التى عاش في ظلها أهل الغرب

وبخاصة في عهد المسيحية . . وليس من الدقة تماما أن نزعّم أن العالم الآخر المثالي كان في نظر المسيحية ابان العصور الوسطى عالما كله سعادة الا انه من الواضح انه في عهد الاصلاح الدينى وعصر النهضة بدأ الناس يفكرون بجدية أكثر في جعل عالما هذا جزءا من الجنة مهما كان الثمن . وأن ما يفرق عالم ثوارنا المثالى عن العالم الأفضل كما يراه الأشخاص العاديون هو احساس ملتهب بقرب المثل الأعلى ، شعور بأن هناك شيئا ما في الناس جميعا أفضل من مصيرهم الراهن واعتقادا بأن ما هو قائم ، لم يكن من الواجب وجوده ، بل لم يكن هناك من حاجة الى وجوده أصلا .

ولربما في الواقع كان هذا العالم الأفضل القريب في عقول المثقفين الأمريكيين هو الذى يفسر السبب في أنهم لا يلعبون الآن الدور الذى لعبه أمثال فولتير ولوك في القرن الثامن عشر . . ان المثقفين الأمريكيين لم يشاركوا قط الماركسيين حلمهم وانما كان حلمهم — كما يشهد بذلك بارنجتون — هو الحلم القديم للقرن الثامن عشر الذى لا يمكن في الوقت الحاضر أن يعتبر في الواقع ثوريا .

ولسوف نلتقى فيما بعد بهذه المثل العليا الثورية في أشكالها المتطورة تطورا كاملا . . وما علينا الا أن نلاحظه أنه في كتابات وخطب البيوريتان (المتطهرين) الانجليز ويقدر أقل في كتابات المحامين الدستوريين، وفي كتابات فلاسفة القرن الثامن عشر وكتابات الماركسيين في القرنين التاسع عشر والعشرين كان النظام السئ والغير المشروع يختلف كلية عن النظام الصائب الخير الذى لا بد من قيامه . .

وفي انجلترا وأمريكا وفرنسا كان المبدأ الرئيسى الذى يستغث به الناس من الظروف القائمة هو الطبيعة بقوانينها الواضحة البسيطة . ولقد كانت الضرائب المفروضة على السفن في انجلترا ، وضرائب التمغة في أمريكا ، امتيازات النبلاء في فرنسا كلها تتعارض وقانون الطبيعة . وحتى انجلترا رغم الحقوق المذكورة في العهد الأعظم Magna Charta أو في القانون العام ، كان الميل شديدا دائما لقانون الطبيعة « المنقوش في قلوب الناس » . . ويقول هنرى ماركر وهو من البيوريتان في انجلترا ، كانت المحاكم العامة مزودة بقوانين خاصة بالعدالة ، وهى قوانين ضيقته جدا بالنسبة لموضوع هائل (العلاقة بين التاج والشعب) ولذلك يجب الرجوع الى قانون الطبيعة .

ومع القرن الثامن عشر أصبح هذا النوع من اللغة عاما تقريبا بين المثقفين .. وثمة ملاحظة نشعر في هذه الايام أننا ملزمون بابدائها وهى ان الطبيعة كانت دائما تمثل ما يريده المثقفون الثائرون .. ومع ذلك يبدو من المحتمل ان الطبيعة كانت في نظر معظم اولئك الذين ينادون بها ، محددة وظاهرة كما كان الله في وقت من الأوقات ، وكما كان من المقرر ان تصبح المادية الجدلية في يوم ما ..

ولم تقم الطبيعة بمثل هذا الدور البارز عند الكتاب والثوريين الروس في عهد النظام القيصرى .. وليس معنى هذا ان الطبيعة تعوز الصفحات التى كتبها تولستوى وزملاؤه أو أن الفرق بين المجتمع المصطنع والغرائز « الطبيعية » لم يحتقر حتى في الدعاية الاشتراكية .. أما بالنسبة للاحرار فقد بث فيهم الفكر الغربى المتقدم من عصر النهضة حتى داروين حماسا أكثر من مستويات ثابتة . ولكن الأيدولوجية الرسمية للثوريين المتطرفين الناجحين في روسيا كانت هى الماركسية ، وترى الماركسية أن وجود الرأسماليين وحكم البورجوازيين أمر طبيعى كله . الا أن تحطيمهم على يد العمال هو أيضا أمر طبيعى وأن الذى يقرر هذا التحطيم هو قوى ، بعيدة عن تناول السيطرة الرأسمالية .

وأن الزحف الحتمى للقوى الاقتصادية قد يحقق عندئذ ما كان يتوقعه البيوريتان الانجليز من الله والفلاسفة الفرنسيين من الطبيعة والعقل . وأن الشئ الأساسى الذى يشترك فيه هؤلاء المثيرون من طلائع الثورة والعنصر الجوهري من الناحية الثقافية على الأقل فى الأسطورة الثورية هو تلك القوة المجردة القادرة على كل شئ ، ذلك الحليف الكامل .

وهنا نقطة خاصة تستحق اهتمامنا هنيهة وهى ان ليس الله وحده او الطبيعة أو المادية الجدلية هو الذى يجعل النصر الراهن أمرا اكيدا .

أن النتيجة الحالية يمكن أن توضح — وربما يجب أن توضح لأن أغراض الدعاية تتطلب ذلك . ان احرازه للتنفوق بالصدفة أو بشكل خاص بخدعة قدرة بينما الله والطبيعة فرضا وقتيا .

وهكذا فى الثورة الانجليزية كان الملكيون أو فى الحقيقة الطبقة العليا يصفة عامة يطلق عليهم النورمانديون ، سلالات جماعة من الغزاة الأجانب ليس لهم أدنى حق فى الأرض الانجليزية . ويذهب جون ليلبورن الاشتراكى

في هذا الشأن الى حد التأكيد بأن القانون العام كله كان رمزا للعبودية  
فرضه الغزاة النورمانديون على شعب انجلترا الحر .

وكراهية الأمريكيين للحكومة الانجليزية المقيمة بعيدا عنهم لم تكن  
بحاجة الى من يشعل نارها . ولقد قيل للفرنسيين على لسان رجل في مثل  
مكانة سييس Syès . ان كل متاعبهم جاءت من اغتصابات  
الفرنجة منذ ما يزيد عن ألف سنة .

وان النبلاء الفرنسيين في سنة ١٧٨٩ كانوا من سلالة الألمان  
المتوحشين بينما كان الشعب الفرنسى من سلالة الغال والرومان المتحضرين  
ولم تكن الثورة الا اعادة الأوضاع التى كانت سائدة في ٥٠٠ قبل الميلاد .  
ولقد فسرت الماركسية الطبقة المستقلة دون الرجوع الى مثل هذه الأفكار  
التاريخية الكاذبة . ومع ذلك ففى أعمال الاثارة التى مهدت للثورة في روسيا  
الكثير من الاشارات الى اغتصاب النبلاء للأرض والى أصولهم الفرنجية  
أو التتريه أو الغربية أو على أى حال أصولهم الأجنبية . ان الشر الراهن  
مثله في هذا مثل الخير في المستقبل يتطلب القوة المدعمة التى يطلق  
عليها سورل Saurel « الأسطورة » .

وأخيرا فان قدرا كبيرا من الجهد تم بذل في التساؤل عما اذا كانت  
هذه الأيدولوجية الثورية تسبب العمل الثورى أم هى مجرد نوع من  
الزينة السطحية التى يغطى بها الثوار أعمالهم الحقيقية ودوافعهم  
الفعلية . ان معظم هذا النقاش في أقصى درجاته عبث لا طائل تحته  
حيث أنه قائم على فكرة فجسة للسببية لا يمكن الدفاع عنها في عمل علمى  
مثمر يتجاوز المستوى البسيط جدا . وليس من فائدة في الجدل حول  
ما اذا كان روسو قد صنع الثورة الفرنسية أو اذا كانت الثورة الفرنسية  
هى التى صنعت روسو أكثر من الجدل فيما اذا كانت البيضة قد وجدت  
أولا أم الدجاجة . وانا لنلاحظ أنه في مجتمعات ما قبل الثورة كان يصحب  
التذمر والصعوبات المتعلقة بالأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية  
التي يعنى بها المحدثون الساخطون كتابات كثيرة واقوال لا حصر  
لها عن المثل العليا وعن عالم أفضل وعن بعض القوى المجردة التى  
تعمل على اخراج هذا العالم الأفضل الى حيز الوجود ، ان « التعبير »  
عن الأفكار هو الذى يصنع الانسجام أكثر من الأفكار الخاصة التى قد  
تباين تباينا ضخما في مختلف الثورات ، وانا لنجد أن الأفكار تكون

دائما جزءا من وضع ما قبل الثورة ونحن مقتنعون تماما بتركها عند هذا الحد ، فانه بغير أفكار لا تكون هناك ثورة . ان هذا لا يعنى أن الأفكار « تسبب » الثورات أو أن أفضل الطرق لتسليفي الثورات هو رقابة الأفكار انها تعنى أن الأفكار تكون جزءا من العوامل المعتمدة بعضها على بعض التي ندرسها .

### رابعا - الطبقات والعداوة الطبقيّة :

كانت بعض الجماعات في مجتمعاتنا الأربعة ابان النظم القديمة تعضد احساسات الكراهية - المشوية أو الغير المشوية بالاحتقار - نحو الجماعات الأخرى . واذا ما نحينا جانبا الدلالات الاقتصادية للفظ فنى مقدورنا أن نسمى هذه الجُماعات طبقات ، واذا ما تحققنا أن الصراع لم يكن مجرد صراع بين طبقتين متنازعتين بين الاقطاع والبورجوازية أو بين البورجوازية والبروليتاريا فقد يحق لنا أن نتكلم عن الصراعات الطبقيّة . وهذا النموذج من الصراع في شكل أو آخر يبدو مستوطنا مثل أنواع أخرى كثيرة من العنف في أشد المجتمعات الغربية استقراراً .

وهنا يجب علينا مرة أخرى ألا نفترض في المجتمع العادى الذى يختلف عن مجتمعاتنا فيما قبل الثورة انه يضع الأسد والحمل معا جنبا الى جنب . والواقع أنه ربما يتطلب الأمر أن نفترض في العلاقة بين الطبقة الممتازة - العليا أو الحاكمة - وبين بقية الشعب انها العلاقة التي يطلق عليها توينبى اسم الانسجام البيئى ، المشاركة في المثل وتطلع الجماعات الدنيا الى الجماعات العليا ، العلاقة التي حاول التعبير عنها بريك وجون آدامز وربما حتى أفلاطون . وهنا مرة أخرى نجد انفسنا امام حالة بالفحة الصعوبة في التشخيص وذلك لأننا لا نستطيع أن نتأكد تماما من ماهية الصحة الفعلية . ان شيئا ما أقل من التقليد الكامل يميل الى الانتشار في معظم المجتمعات الغربية حتى ليظهر في اثينا في القرن الخامس غرب أوروبا في القرن الثالث عشر اللذين يظهران الآن مثل العصور الذهبية . وتبدو أن الصيحة القائلة :

من كان السيد يوم كان آدم يفلح الأرض وحواء تغزل ؟

« من كان السيد يوم كان آدم يفلح الأرض وحواء تغزل ؟ » . . مستعدة دائما للظهور . ولكن حتى مع هذا سرعان ما يظهر أن هذه



الأحقاد الطبقيّة قد تأججت وأوغرت الصدور بدرجة ملحوظة في النظم القديمة . ان الامتيازات الطبقيّة ينظر اليها لا باعتبارها حواجز يستطيع الأذكىء والشجعان والطموحون أن يجتازوها وانما باعتبارها امتيازات غير طبيعيّة وغير عادلة فرضها رجال لئام ضد مشيئة الله جلت قدرته وضد الطبيعة والعلم . ان هذه الصراعات الطبقيّة ليست بحال من الأحوال مبرازات هيّنة ، فهناك جماعات داخل جماعات وتيارات داخل تيارات . ويجب علينا أن نحاول تحليل بعض هذه التيارات .

أولا — تبدو الطبقة التي تسمى الطبقة الحاكمة في كل مجتمعاتنا الأربعة منقسمة على نفسها وعاجزة . وان ما نقصده بالطبقة الحاكمة — وان كان في هذا ربما تساهل شديد — هم الأشخاص الذين يصرفون الأمور والأشخاص الذين يبرزون أمام الرأي العام — الساسة وأصحاب المناصب الهامة في الحكومة ، ورجال البنوك ورجال الأعمال والنبلاء من ذوى الأطيان الواسعة ورجال الدين وربما حتى بعض المثقفين . ان النبالة الرسميّة القائمة على صلات الدم كانت عادة في دول الغرب معيارا شديد الضيق للعضوية في الطبقة الحاكمة . وحتى في أوائل العصور الحديثة كانت الطبقة الحاكمة شيئا شبيها بذلك — أقلية من الرجال والنساء يعيشون حياة مثيرة وتثور حولهم أشد الفضائح وينشرون الأزياء ويملكون الثروة أو المركز أو على الأقل يتمتعون بالصيت أو هم باختصار الذين كانوا يحكمون أنهم « طبقة موسكا السياسيّة » . وفي الواقع في المجتمع المستقر من الناحية الاجتماعيّة تبدو الكتل الضخمة من الفقراء ومتوسطى الحال وكذلك أيضا المغمورون والفاشلون الذين قد يكونون بحكم المولد والتدريب الطبقة الحاكمة ! كل هؤلاء قد يقبلون في واقع الأمر قيادة أولئك الذين يكونون على قمة الهرم الاجتماعيّ ويحملون بالانضمام اليهم بدلا من تنحيتهم — ولو أن هذه العبارة سوف تبدو للمثالي كأن فيها تقليلا طفيفا في « الانسجام البيئي » عند توينبى .

والآن تبدو الطبقات الحاكمة في مجتمعاتنا ، أبدا فاشلة لأنها عجزت عن تحقيق المهام الملقاة على عاتقها — فيما عدا اسبرطة وبروسيا لا يكفى الطبقة الحاكمة الاقتصار على الصفات العسكريّة وحدها ومع ذلك يتحتم على هذه الطبقة الا تتوانى في استخدام القوة اذا ما أرادت ان تحتفظ بكيانها كما يتحتم عليها الا تبالغ في تقييم صفات البراعة والاصالة فيمن ينتمون اليها وهي تستطيع عادة — وبأى ثمن — أن تستأجر البراعة والمهارة من مصادر أخرى . ان مزيجا من الفضائل

العسكرية والاحترام لطرق التفكير والسلوك المقررة والاستعداد لتسوية الخلافات والتجديد اذا اقتضى الأمر ذلك هو فيما يحتمل قريب تماما من الصفات اللازمة لطبقة حاكمة ناجحة . وهى صفات توفرت تماما للرومان ابان عهود الحروب البونية وكذلك لساسنة القرن الثامن عشر من الانجليز رغم فشلهم فى علاقاتهم مع أمريكا .

وعندما يبدأ عدد كبير من أعضاء هذه الطبقة ومن ذوى النفوذ فيهم فى الاعتقاد بانهم يقيضون على زمام القوة بدون وجه حق أو بأن الناس جميعا ليسوا الا أخوة يقفون على قدم المساواة فى نظر العدالة المطلقة أو عندما يؤمنون بأن المعتقدات التى نشأوا عليها معتقدات سخيفة أو أن « من بعدنا الطوفان » فانهم عندئذ لا يعودون قابلين لأن يقاوموا بنجاح أى هجمات جدية على مركزهم الاجتماعى أو الاقتصادى والسياسى . ان موضوع تدهور الطبقة الحاكمة والعلاقة التى تربط ما بين هذا التدهور والثورة يخلب الأسباب وهو مثل كثير من موضوعات التاريخ الاجتماعى غير مطروق نسبيا وليس فى وسعنا هنا الا أن نقول أن هذا التدهور ليس بالضرورة تدهورا « أخلاقيا » هذا اذا كنت تقصد « بالأخلاقى » ما يعنيه المسيحى الانجلى الطيب بهذه الكلمة . فالطبقات الحاكمة الناجحة كانت منكبة على الالعب الرياضية الشرسة مدمنة على الخمر والميسر وارتكاب الفحشاء وغيرها من الموبقات التى يجب علينا جميعا بلا تردد استنكارها . ومن الصواب ان يقال أن لافاييت التقى كان دليلا واضحا على عدم صلاحية الارستقراطية الفرنسية لممارسة الحكم أكثر من بومبادور أو حتى دى بارى .

ويزودنا الروس بأحسن مرجع فى هذا الموضوع واذا نحن حكمنا على الارستقراطيين الروس بما يظهر عنهم فى المطبوعات وجدنا أنهم خلال عشرات السنين قبل سنة ١٩١٧ تملكتم عادة التحسر على تفاهة الحياة وتأخر روسيا وأحزان الأجناس السلافية على ما وصلت اليه من تدهور . لاشك أن فيه كثير من المبالغة . ولكن من الواضح أن كثيرا من الطبقات الروسية الحاكمة كانت تشعر فى قلق بان امتيازاتها لن تدوم . وكثير منهم مثل تولستوى انضم الى الجانب الآخر وتحول آخرون الى أحرار وتنازلوا عن امتيازاتهم وهى ظاهرة لاحظناها من قبل فى فرنسا . وحتى دوائر القصر أصبح فى المؤلف بمجىء عام ١٩١٦ السخرية من القيصر وحاشيته . ويقول وزير من وزراء القيصر الكرويين :

حتى اعلى الطبقات صارت من المتذمرين المعارضين قبيل الثورة ،  
نفى الصالونات والنوادي الكبيرة كانت سياسة الحكومة موضع النقد  
العنيف غير الودى وتناول النقد بالتحليل العلاقات التى كانت قد نشأت  
فى أسرة القيصر وتلقفتها الألسن بالكلام . ولاكت الألسنة القصص عن  
رئيس الدولة . ونظمت القصائد . وكان يحضر هذه الاجتماعات علنا  
كثير من كبار الدوقات .

ولم يستيقظ أى احساس بخطر هذه اللعبة حتى اللحظة الأخيرة .

وآخرها عندما استخدم أفراد الطبقات الحاكمة الذين يتقلدون المناصب  
ذات السلطة السياسية القوة فعلا فانهم استخدموها فى فترات متباعدة  
بعضها عن بعض وبطريقة غير فعالة . وسيكون لدينا المزيد لنذكره عن  
هذه المشكلة العامة المتعلقة باستخدام القوة عندما نتناول المراحل الأولى  
لثورة الفعلية . ويكفى فى هذا الصدد أن الطبقات الروسية الحاكمة رغم  
تراثها الآسيوى المعروف فانها فى أواخر القرن التاسع عشر كانت تشعر  
بقدر كبير من الخجل فى استخدام القوة ولهذا فانها أساءت استخدامها  
حتى لنجد بشكل عام أنها أثارت هؤلاء الذين وجهت ضدهم بدل أن  
تخضعهم . أن الحد الفاصل بين ممارسة الحكومة للقوة وممارستها للاقتناع  
هو فى الواقع حد دقيق لا ترسمه الصيغ الجامدة أو يحدده « العلم »  
والكتب المنهجية وانما يحدده رجال مدربون على فن الحكم . ومن أحسن  
الأدلة على عدم صلاحية الطبقة الحاكمة لممارسة شؤون الحكم افتقار  
أعضائها لهذه المقدرة . وهذا الافتقار مسجل فى التاريخ مقترن بتجمع  
الاضطرابات الصغيرة وألوان السخط التى تسبق الثورة .

ولم تزل روسيا هى المثل التقليدى للدلالة على عجز الطبقة الحاكمة  
ولكن هذا لا يمنع من أن فرنسا نموذجا جيدا لهذا ايضا ..

وفى كثير من الأحيان كان يترأس الصالونات التى يجرى فيها تمزيق  
النظام القديم — بالكلام بطبيعة الحال النييلات ويحضرها النبلاء . وأصبح  
الأمر الذى تجرى فى عروقهم الدماء الملكية من الماسونيين واذا لم يتآمرا  
تماما على قلب الأوضاع القائمة ، فانهم على الأقل عملوا على تطهير أنفسهم  
بالتخلى عن امتيازاتهم والقباهم . وربما لا يوجد خير من فرنسا حيث يبد  
واضحا تفكك الطبقة الحاكمة . وهذا هو الانحياز المتعدد من جانب أفراد  
الطبقة الحاكمة الى جانب قضية الطبقات الساخطة أو المكبوتة — الفئات

العليا تتحول بمحض اختيارها لتأخذ جانب الفئات الدنيا ولسنا نبالغ في السخرية اذا ما غامرنا بالتخمين بأن هذا يكون أحيانا دلالة على أن هناك تبدا في وضع الفئات . ويعتبر لافاييت في بعض النواحي نموذجا طيبا لهذا النوع من الفئات العليا اذ يبدو انسانا طموحا وان كان يفتقر الى الذكاء وتحدد طريقة الى حد كبير بالأسلوب الذى ساد عصره . لقد حاول لافاييت ان يفعل الأشياء التى تستحوذ عادة على اعجاب الوسط الذى ينتمى اليه . ولما كان لا يستطيع الرقص جيدا فانه ذهب الى أمريكا للقتال من أجل الحرية وهو امر كان الوسط الذى الوسط الذى ينظر اليه بشيء من الاعجاب . ولكن الطبقات الحاكمة لا تستطيع أن تخوض كفاحا من أجل الحرية بطريقة لا تعود عليها بالكسب . والحرية معناها كسب للطرف الآخر.

وعلى أى حال فمرة أخرى يصبح من الضروري أن نبرز بوضوح أن وجود المتطرفين الثوريين في الطبقات العليا ليس الا عرضا من الأعراض في حالة معقدة . ولا بد أن يكون هؤلاء الخارجون من الطبقة العليا كثيرون العدد وظاهرين نسبيا في مجتمع مختل التوازن . وعليهم وعلى الفاشلين والساخرين أن يكونوا قدوة للطبقة . ان هؤلاء الأفراد « التائهين من الطبقات العليا » كما يسميهم لوثرروب ستوارد الذين يأخذون جانب الفئات الدنيا . كانوا كثيرين في مجتمع مستقر مثل مجتمع انجلترا في العصر الفيكتوري ولكنهم لم يكونوا قدوة للمجتمع — كما أنهم ليسوا كذلك في أمريكا اليوم حيث أكثر اللاغوتيين والفاندريلتيين ليسوا من المتطرفين بغض النظر عن الماركسيين . يضاف الى هذا فانه يبدو أن « التائهين من الطبقات العليا » من معاصرنا الأمريكيين عاجزون عن أن يتفقوا على برنامج واحد أو منبر واحد وهذا بعكس الذين كانوا يهاجمون النظام السائد في القرن الثامن عشر بل انهم لايتحدون ولو في الظاهر ، وهم مثل الفيكتوريين يتطوحن وسط أكثر الأفكار والعقائد الغربية ولو كان « التائهون من الطبقة العليا » عندنا من الشيوعيين اتباع ستالين — وهم ليسوا كذلك — لكان وجودهم في سنة ١٩٥٢ مما يؤخذ كدلالة تسهم في تشخيص الاختلال السابق للثورة .

ان هذا التدهور الذى اصاب الطبقة الحاكمة في أمريكا في القرن الثامن عشر لم يكن عرضا بارزا من أعراض الثورة الآتية ، فان طبقتنا الوطنية الحاكمة كانت لا تزال ناشئة وفي دور التكوين . وحين ينظر اليها كطبقة فاتها لا تظهر شيئا من العجز الذى لاحظناه في روسيا وفرنسا ، على

أنه من الطبيعي أن قطاعا كبيرا من طبقتنا الحاكمة ارتبط بالثورة الأمريكية وهذا بطبيعة الحال من الأسباب التي أدت الى عدم قيام عهد ارهابى ملء بالدماء . وفيما يتعلق بالطبقة الحاكمة في انجلترا أيام ثورتنا فانها كانت اعجز ما تكون عن اتباع سبيل الخزم تجاه أمريكا . فقد عملت على الاحتفاظ بمركزها في انجلترا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ولكن ذلك ما كان ليحدث الا بمنح الامتيازات للطبقات المتوسطة وهى امتيازات رفضت الطبقات الفرنسية الحاكمة منحها . ومع ذلك فان كثيرين من هؤلاء الانجليز لم يكونوا الا مدافعين عن النظام القائم فيما يتصل بالعلاقات مع أمريكا . ولقد وقف فوكس وبيرك والأحرار بضعة عشر عاما جنبا الى جنب مع الأمريكيين حتى بعد سنة ٧٧٥ ولا جدال في أن موقفهم هذا ساعد على تشجيع الثوار الأمريكيين .

حتى في انجلترا ابان القرن السابع عشر نستطيع أن نتبين مثل هذا النوع من الأعراض . ولن نجد بطبيعة الحال في الارستقراطية الانجليزية زمن البيعاقبة هذا المزيج نفسه من القلق والشك في الآمال الانسانية واللامبالاة التي وجدناها في كل من روسيا أو فرنسا . الا ان معظم هذه العوامل يمكن وجودها في الجماعة التي عرفت فيما بعد بالفرسان .

وبالرغم من أن الفرسان يبدون لنا فيما يكتب أو يتناقل عنهم في صورة جميلة جذابة وعواطف متدفقة فقد يكون من العسير القول أنهم أظهروا التضامن والاتزان اللازمين للطبقة الحاكمة . هذا وأسطورة الفرسان ليست كلها نتاجا للسنوات التي أعقبت الثورة الكبرى . فالفرسان كانوا خياليين حتى بالنسبة لأنفسهم . وفي عالم قاس مثل عالم البيوريتان (المتطهرين) وجمع المسال كان قد بدأ فعلا البحث عن ماضٍ ذهبي له مثل الصفات المميزة التي كانت للمهاجرين في الثورات التي حدثت بعد ذلك . ولم تكن الطبقات الانجليزية الحاكمة في ذلك العصر تفتقر الى المستنيرين أو المهيمين أمثال لانفايت أو أمثال تولستوى . وحتى وان كنت تقبل تقييم القرن التاسع عشر للانجليز على أنهم عنيدون عمليون يحبون المساومة فيحسن بك أن تتذكر أن انجليزيا عاشرا في عصر التيودور أطلق كلمة « يوتوبيا » المدينة الفاضلة على الفكر السياسى وأن مثالية هارينجتون Harrington المشهورة المسماه اوسانا Oceana هى من نتاج القرن السابع عشر .

ومع ذلك ما يخفى عنا المدى الذى بلغه الكثير من السادة الانجليز القادرين والطامحين في هروبهم من النظام القائم في بواكير عهد أسرة

ستيوارت هو أنهم هربوا — لا كما فعل لانفايت بالذهاب الى أمريكا والدفاع عن حقوق الانسان — ولكن لجؤا الى الله وبحوثا عن طريق الخلاص

ان مذهب البيوريتان (المتطهرين) فى أى من أشكاله المتعددة كان لا يستهوى المساكين أو حتى التجار ورجال البنوك فحسب بل أيضا الخاصة والنبلاء . ولا تنس أن كرومويل نفسه كان من الخاصة . واخيرا كان يقوم بما قد نسميه معارضة سياسية قانونية لأول اثنين من أسرة ستيوارت — رغم أن التفرقة بين المعارضة السياسية والدينية فى هذا العصر مسألة تحليلية صرف فان الأمرين وقد اختلطا اختلاطا معقدا فى مشاعر المعاصرين — نفرا من الخاصة والنبلاء كلية تقريبا ان رجالا مثل هامبدن Hampden واسكس يشبهون واسنطن فى أنهم كانوا أصلا محافظين ودفعوا الى الثورة دفعا نتيجة لعجز حكامهم المباشرين . ولم يكونوا مثل لانفايت من الهاربين هروبا عاطفيا من طبقتهم .

وربما اذا ما استثنينا الطبقة الحاكمة فى أمريكا فاننا نجد الطبقات الحاكمة فى الأنظمة القديمة منقسمة على نفسها بشكل ملحوظ وغير مهيا بدرجة شنيعة للقيام بوظائفها كطبقة حاكمة . لقد انضم بعض أفرادها الى المثقفين وتكروا للنظام القائم وصاروا بالفعل فى أغلب الأحيان قادة فى الحملة التى شنت لاقامة نظام جديد كما تحول آخرون الى ثوار ليس من أجل الأمل فى المستقبل بقدر ما كان ذلك ضيقا بالحاضر فى حين استكان آخرون أو أضحو ناعمين لا يسألون أو ساخرين . ومن الممكن أن نجد الكثيرين ومحتمل أن يكون معظمهم من أعضاء الطبقات الحاكمة كالاقطاعيين الانجليز ونبلاء الريف فى فرنسا وروسيا وقد تمسكوا بالايمان الساذج بأنفسهم وبمراكزهم وواضح أن هذا أمر ضرورى لاي طبقة حاكمة . الا أن هؤلاء ليسوا ممن يصنعون أسلوب الحياة فى الطبقات العليا . فكل ما هو عصرى كان قد ارتحل مع المثقفين . فلم يكن للفضائل والأحكام على القيم التى تقف حارسة للطبقة صاحبة الامتياز لتحميها من نفسها ومن الآخرين وجود فى هويتهم Whitehall أو فى فرساي أو فى ساحة البلاط القديم فى سان بطرسبرج . ان «العصية» شىء دقيق ومن العسير بل وفى الحال تحليلها بطرائق الكيمياءى أو الاحصائى ان الميزان المعقد للعواطف والعادات التى تؤلف بين قطوب الأفراد فى أى من الجماعات مثل تلك التى نناقشها قد يتحول نتيجة لتغيرات تبدو فى الظاهر عديمة الأهمية ومن العسير للغاية متابعتها . ولكن حقيقة

التحول واضحة . ان الظرف والأدب والجمال الثقافي وهى الصفات الواضحة فى الفرسان وكذلك فى الأرستقراطيين الفرنسيين فى قصور فرساي أو الصالونات وكذلك عند الطبقات العليا من الروس فى مسارح الباليه والأوبرا ونوادى القصص انما هى علامات تدهور ليس بالضرورة أخلاقيا ولكنه بالتأكيد تدهور سياسى يصيب الطبقة الحاكمة .

كما انه من غير الممكن حتى بالنسبة لهؤلاء الذين يجدون التفسيرات الاقتصادية للتاريخ غير كافية ومضللة أن ينكروا أن فى ثلاثة أو أربعة من مجتمعاتنا وهى انجلترا وفرنسا وروسيا علامات واضحة على أن الطبقات الحاكمة هناك كانت فى وضع اقتصادى مهزوز الى حد كبير . وفى كل من هذه الحالات كان هناك ارتفاع ملحوظ فى مستويات الحياة الخاصة بالنبل والأعيان : تصور منيفة وثياب فاخرة وكماليات جلتيها فنون التجميل والنحت والرسم والموسيقى وكلها تكلف الكثير من المال ولم تكن فى المفهوم الاقتصادى الخالص استثمارا نافعا لهذه الأموال . وبالرغم من أن القيود التى كانت تقام فى وجه الأثرياء فى استثمار الأموال فى المشروعات كانت بلا جدال مطلقة . حتى فى فرنسا كما تبدو فى كتب التاريخ المدرسية فمن المؤكد أن معظم هؤلاء الناس لم تكن لديهم الموهبة أو الدربة لمثل هذا النوع من استثمار المال . كان معظمهم يعيشون على الايجارات الزراعية التى لم يكن فى مقدورهم زيادتها للوفاء بنفقاتهم المتزايدة أو على المعاشات والأجور التى تدفع لهم نظير أعمال صورية وعلى غيرها من الاعانات التى يتلقونها من الحكومة ولم يك من الممكن زيادتها نظرا للصعاب المالية المتزايدة التى كانت تواجه تلك الحكومات . حقيقة أن لويس الرابع عشر استغل بالفعل طبقة نبلائه الجديدة حيث التجأ فى أغلب الأحيان الى سحب القاب النبالة ثم اعادة بيعها . وجدير بالذكر فيما يختص بالطبقات الفرنسية والروسية العليا أن بعض السخط الذى قوض أركان عصبيتهم عند انفجار الثورة كان يستمد أصوله من الصعوبات الاقتصادية التى كانت تواجههم .

ويكى هذا القدر بالنسبة للطبقات العليا أو الحاكمة ، أما

الطبقات التي تليها مباشرة في البناء الاجتماعى فانها كانت تظهر في انجلترا وفرنسا وروسيا والى حد اقل في أمريكا شيئا أكثر من الكراهية العادية نحو سادتهم . وهنا مرة أخرى نجابه المشكلة التي تعتبر مشكلة عادية في علاقات الطبقات في المجتمعات الغربية . ان الرأى القائل بأن أى مجتمع سوى لا توجد فيه منازعات طبقية لا بد أن يقابل بالرفض والأمر بالمثل في رأى الماركسيين القائل بأنه في مثل هذه المجتمعات — على الأقل حتى الوقت الحاضر — كان الصراع الطبقي مريرا وعنيفا على الدوام . ان صورة ترسم لجنوبنا القديم على سبيل المثال لتظهر العبيد اناسا قانعين يتوفر لهم الغذاء الجيد والصناع والتجار في حالة رواج بلا كراهية يضررونها لحمايتهم من الأعيان أصحاب المزارع ليست الا هراء واضحا ولكن هناك صورة أخرى غير السخط المتأجج بين العبيد والحسد والكراهية بين البيض المساكين والكبرياء والرعب بين الزراع . ان الناس في المجتمعات الغربية لم يكونوا أبدا احرارا ولا متساوين ولا تجمعهم روابط الأخوة . وانما كان هناك دائما عدم المساواة السياسية والاجتماعية والاقتصادية بين الجماعات التي تعيش في هذه المجتمعات — وهى الجماعات التي اعتدنا أن نسميها طبقات — ان وجود العداوة بين الطبقات انما هو حقيقة مهما تكن الفائدة التي تعود على الطبقة أو الطبقات الحاكمة من انكارها ولكن في مجتمع سوى نجد أن الخلافات المتنوعة — هى ليست اقتصادية صرف — التي توغر صدر طبقة ضد أخرى تنتج عن أمور أخرى وتنتهى بفعل منازعات أخرى أو يقضى عليها نتيجة مصالح أخرى . وعلى أى حال فهى لا تتركز أو تزداد مرارة أو تشتد نتيجة لتأييد يكاد يكون اجماعيا من جانب المثقفين كما سنرى في الأنظمة القديمة التي ندرسها .

وفي انجلترا حيث تعلمنا أن نؤمن بأن الكراهية الطبقيّة تتضاءل باقامة علاقات طيبة بين السادة والفلاحين وبتاندماج أبناء النبلاء من الشبان في الطبقات المتوسطة ثم بث الاحساس بأن الشعب الانجليزي كتلة واحدة متماسكة ، الا ان القرن السابع عشر شهد صراعا طبقيا



مريرا . والعبارة التالية المقتبسة من مسز لوسى هتشنسون ليست عينة مناسبة تعبر عن احساسات الطبقة المتوسطة من المتطهرين البيوريتان نحو طبقة النبلاء فحسب وانما تبين الكراهية الشديدة بين الطبقات في مجتمعات ما قبل الثورة ..

« ان بلاط الملك ( جيمس الأول ) كان مهذا تترعرع فيه الشهوة والدعارة ... كانت طبقة نبلاء الأرض منحطة انحطاطا تاما ... وسرعان ما اقتدى أعيان البلاد بمليكمهم وأصبح كل بيت من البيوتات الكبيرة مباءة فساد . ثم انتشرت جرائم القتل والفسق والزنا والسكر والهرقطة والفجور وكل أنواع البذاءات التى تعتبر من الرذائل لأنهم طبقوا المثل الذى لمسوه في البلاط الملكى » .

وثمة عبارة أخرى في هذا المعنى كتبها الشاعر ميلتون بأسلوب أرق :

ولن نجد صعوبة في القول بأن كلا من الطبقتين المتوسطتين الفرنسية والروسية كانت تكره وتحقد وتحس أنها أسى خلقا من الطبقة الأرستقراطية وأن الكتابات الصادرة عنها كانت مليئة بفقرات تدل على مدى قوة هذه الاحساسات وانتشارها . فقد كتبت فتاة في الرابعة عشرة من عمرها تدعى ماتون فيليون — مدام رولان فيما بعد — تخبر أنها بعد أن أمضت أسبوعا مع سيده من حاشية الدوقات « لن تنقضى أيام أخرى قليلة حتى أنفر من هؤلاء الناس الى حد لا أستطيع فيه أن اتحكم في كراهيتى » ، ولما سألتها أمها عما لحقها من أذى من هؤلاء الأرستقراطيين ، أجابت : « أنه مجرد الاحساس بالظلم ثم التفكير في كل لحظة في سخافة هذا كله » . لقد كان البورجوازي الفرنسى كلما زاد علوا زاد قريبا من أسلوب الحياة الأرستقراطية وزاد احساسه في بعض النواحي بمدى الهوة التى تفصله عن جاره الذى ارتكزت نبالته على أربع مقاطعات .

ولقد كتب ريفارول Rivarol في مذكراته يقول : « لم تكن الضرائب او الأوامر الملكية بالسجن ولا سوء استعمال السلطة ، ولا مضايقات

المديرين ولا التأجيلات القضائية المهلكة هي التي أثارت غضب الأمة الى أقصى حد . وانما كان تحامل النبلاء هو الذى اثاره — يثبت ذلك أن البورجوازيين والأدباء والمولين أو كل هؤلاء الذين يضرمون الحقد لطبقة النبلاء هم الذين عملوا على تأليب صغار البورجوازيين فى المدن والفلاحين فى الريف ضد طبقة النبلاء » .

ان المدى الحقيقى الذى وصلت اليه طبقات الأجراء الكادحة أو البروليتاريا فى الثورة على سادتها فى هذه المجتمعات أمر غير واضح تمام الوضوح وربما كان ذلك فيما عدا روسيا . نفى انجلترا قد يكون هناك شك ضئيل فى أن العمال الأكثر رخاء فى المدن الكبيرة وكذلك الفلاحون فى مناطق مثل شرق إنجلترا قد أسلست قيادها الى فئة البيوريتان ( المتطهرين ) وكان معنى ذلك أنها اتخذت موقف المعاداة للطبقات العلبا الانجيلية . ولقد امتزجت بالغيرة الدينية والآراء التى تثبتتها الكتب الأدبية بقدر كبير من الكراهية الاجتماعية مما أدى الى نشوب ثورة عنيفة الى أقصى حد . ولقد أظهر الفلاحون الفرنسيون فى كثير وربما فى معظم المناطق بتصرفاتهم سنة ١٧٨٩ أنهم يكرهون الاقطاعيين المقيمين بعيدا عنهم وكذلك النظم الخاصة بامتلاك الأرض ولكن الدليل الحاسم على أن هذه الكراهية كانت أشد عنفا أو أكثر شمولا مما كانت عليه فى مئات السنوات السابقة دليل لم يستخلص بعد وليس فى استطاعتنا ان نتأكد مما اذا كانوا يكرهون الأفراد أو الوضع الاجتماعى . ومن المؤكد ان الفكرة القديمة — وهى واضحة حتى فى كتابات تين Taine — من أن الفلاحين الفرنسيين كانوا يثنون فى سنة ١٧٨٩ تحت نير نوعين من القهر الشديد على يد كل من الحكومة والنبلاء انما هى أسطورة ثورية أكثر منها حقيقة تاريخية . ولا بد من بذل جهد كبير لدراسة الموضوع دراسة موضوعية للوقوف على حقيقة شعور الطبقات المكبوتة أو المهورة القابعة فى قاع السلم الاجتماعى .

ان الكادحين الروس — فى المدن على الأقل — قد تعرضوا بكل تأكيد الى أجيال متعددة من الدعاية الماركسية واكتسبوا احساسا بالرسالة

التي القيت على عاتقهم ضد النبلاء وأفراد الطبقة الوسطى ويقول البيان الأول الذي أصدره الديمقراطي الاشتراكي سنة ١٨٩٨ قبيل حدوث الانقسام بين المكنشفيك والبولشفيك « كلما اتجهنا صوب شرق أوروبا وجدنا البورجوازية أكثر ضعفا وأحط شأنا وأشد جبنا ومن ثم تقع المهام الثقافية والسياسية الكبرى على كاهل الطبقة الكادحة . فعليها أن تعمل في سبيل انتزاع الحرية السياسية . ان هذا أمر ضروري ولكنه الخطوة الأولى نحو تحقيق الرسالة التاريخية العظمى للطبقة الكادحة : اقامة نظام اجتماعي لا يكون فيه مكان لاستغلال الانسان للانسان . ان الطبقة الكادحة الروسية سترفع عن كاهلها نير الاستبداد لكي تواصل بكل طاقاتها الكفاح ضد الرأسمالية وضد البورجوازية حتى يتم النصر النهائي للاشتراكية » .

ان مجرد معرفة كيفية احساس الفلاحين الروس تجاه الطبقات الأعلى منهم مشكلة عسيرة . ولقد نفترض الكثير — كما هو الحال كذلك بالنسبة لفرنسا ابان القرن الثامن عشر — معتمدين على الظروف المحلية وسلوك الاقطاعيين وعلى رخاء الفلاحين أنفسهم . وثمة ما يدل على أنه مع القرن العشرين يستطيع الانسان أن يجازف بالقول : كلما ازداد الفلاحون رخاء ازداد سخطهم . ولكن هنا — كما هو الحال في مجال دراستنا — نجد المصادر الموثوق بها نادرة . فلا المؤرخون ولا علماء الاجتماع كلفوا أنفسهم عناء الاهتمام الكافي المنتظم لبحث « العواطف » تجاه الجماعات الأخرى ، العواطف السائدة في جماعة أو طبقة اجتماعية . ولقد لاحظنا عجز الطبقات الحاكمة وعواطف العداء الشديد التي تكنها نحوها الطبقة الوسطى وقطاعات من الطبقة الدنيا . وعلينا أن نبحث أي مدى من الجمود بلغته هذه الفواصل الطبقيّة ثم بنوع خاص الى أي مدى كان الطريق مفتوحا أمام المواهب في هذه المجتمعات . ولقد يقول المرء بداهة ان أي تناول للنظام الطائفي الجامد في المجتمعات الغريبة الذي قد يحول دون تمكين أصحاب القدرات ممن يولدون في بيئة فقيرة من الارتقاء أو أن أي تعطيل ما يسميه بارتو Pareto بـ « دورة النخبة الممتازة » قد يكون من الأعراض الأولية البالغة

الاهمية للثورة . ان الاكفاء قد يولدون فعلا في أحط الدرجات وأن أى تجميع للأكفاء والساخطين قد يهيبء زعماء محنكين وطبيعيين لفئات متبرمة وعلى استعداد للثورة . الا أن تجربة الباب المفتوح أمام الأكفاء من أصعب الأمور تطبيقا في مجتمعاتنا . وفي الواقع أن تصوير المستوى العادى في مجتمع غربى لأمر بالغ الصعوبة حتى ولو غضضنا الطرف عن توفر الدقة كما فعلنا في العوامل الأخرى .

ويستطيع المرء أن يبدأ بفرض أمريكى مميز فيقول بأننا في هذه البلاد على الأقل نتمتع بمبدأ تكافؤ الفرص .

حسن جدا ، لناخذ كيفما اتفق بعض الأمريكين العصاميين في القرن العشرين : تدوليامز Ted Williams وهنرى فورد Henry Ford وبوب هوب Bob Hope ثم تيودورد دريزر Theodore Dreiser ولقد يكون مما يريح النفس أن يكون في مقدورنا القول فى ثقة بأن فى مجتمعات الأنظمة القديمة كان من الممكن أن يبقى هؤلاء الرجال الذين أثبتو مقدرتهم فى الحضيض بسبب الحواجز الطبقيية الشديدة ويستمرؤ مغفورين أو أن يسلكوا طريق الثورة . ولكن من سوء الحظ أن هذا ليس صحيحا . وعلينا فى الواقع الا نندفع فى ثقة غير لائقة عندما نخوض فى مثل هذه الأمور الافتراضية . ان الرياضى المحترف له من الصفات ما لمستر وليامز لا يحتتمل أن يكون فى مقدوره أن يجمع فى أى مجتمع آخر غير مجتمعنا تلك الثروة التى يملكها مستر وليامز أو أن يحظى بهذا التشريف الذى يلقاه أو ان شئت بهذا الاهتمام من الرأى العام الا ربما يحدث مثل هذا الأمر فى روما بلد المصارعين المحترفين الا انه فى بداية المجتمع الاقطاعى ربما اكسبته قوته البدنية وبراعته لقب الفروسية أو انه فى المجتمعات الحديثة ربما دفعته حماية النبلاء الى ما هو أكثر من ذلك . ويمكن أن نأخذ فورد على انه مبتكر المشروعات . ومع ان المرء يشك فى أن أى مجتمع آخر خلاف مجتمعنا كان يجعل منه بطلا وطنيا ولربما كان فى مقدوره فى فرنسا القرن الثامن عشر أو فى روسيا القيصرية فى أوائل القرن العشرين أن يضمن لنفسه مركزا ماليا ناجحا . أما مستر هوب فانه الرجل الذى يدخل

البهجة على النفوس ولقد اعتاد المجتمع الغربى أن يكافئ عادة وبشكل كاف بل وأحيانا بشكل مبالغ فيه هؤلاء الذين يدخلون البهجة عليه . وربما لم يخف الأرسقراطيون أبدا احتقارهم لهؤلاء الذين يسلونهم وربما كذلك لم يبذل الديمقراطيون أية محاولة لاختفاء اعجابهم بهؤلاء الناس . ومع هذا فان الممثلين والموسقيين والمهرجين وأمثالهم كانوا رغم المثال الخاص ببومارشيه فيجارو لا يضيعون كثيرا بسبب مركزهم الاجتماعى فى الماضى . وفى الحق كان القرن الثامن عشر الفرنسى عطوفا للغاية عليهم كما أنه أغدق عليهم الأموال والرعاية . أما فيما يختص بدريزر فانه كان من المفروض أن يكون أصلا بين الفلاسفة أو بالتعديلات القومية العنصرية المناسبة بين الجوركيين ( نسبة الى جوركى ) والتشيكوفيين ( نسبة الى تشيكوف ) . وكان فى وسعه أن يجمع ثروة مثلها ويكون موضع التكريم أكثر منهما .

اننا نعالج أنواع من العواطف الانسانية متغايرة دقيقة للغاية . ومن المحتمل فى كل العصور وكذلك فى كل المجتمعات أن يشعر بعض الأفراد بأن لهم قدرات لا يستطيعون ابرازها بسبب القيود الاجتماعية والسياسية والاقتصادية القائمة . فليشعر بعض الناس بأنهم مقيدون مكبوتون وفى الواقع هذا حق لا مرأى فيه . ومن المحتمل أن يكون فى المجتمعات التى على أهبة الثورة عدد ضخم من أمثال هؤلاء الناس . الا أنه من العسير جدا أن يضع المرء أصبعه على هذه الأنواع من القدرات ، وهذه المجالات من الامتياز حيث يكون هذا القيد محسوسا الى اقصى حد ، وهنا كما هو الحال فى أى مكان آخر يكون الوضع المعين دائما عبارة عن قيود معقدة لا يمكن لواحد منها أو اثنين أو ثلاثة بدون عوامل اضافية من الاضطراب أن يكون شيئا سوى أنه حقيقة اجتماعية عادية . وزيادة على ذلك هناك عوامل أخرى الى جانب هذه القيود . وقد يتحمل الناس كثيرا من المشاق فى سبيل الوفاء . ويبدو أن الحقيقة تختلف عن الاحساس كثيرا . وهكذا كان فى المجتمع الغربى دائما — ولنقارنه مثلا بالمجتمع الهندوكى الطائفى — الباب مفتوح « أمام الكفايات »

ولا عقبية في طريق دورة النخبة الممتازة . ونستطيع أن ننلقى على مجتمعنا نظرة سريعة لنرى هل هناك أية قيود تقف في سبيل هذه الدورة في السنوات السابقة للثورة .

ان الطريق الى الثروة والشهرة في فرنسا ابان القرن الثامن عشر كان فعلا مفتوحا لرجال الاعمال دون عائق وكذلك للمغامرين والمغامرات والممثلين والفنانيين والكتاب — كان مفتوحا امام صمويل برنارد Samvel Bernard وباريس دوفرنى Pâris Duverney وكاجليوسترو Cagliostro ومدام دى بارى Mme. Du Barry وفراجونا Fragonard وفولتير Voltaire .

اما الطريق الى السلطة السياسية فكان اشد صعوبة ولو ان اسقف دييوا Abbé Dubois وهو ابن صيدلى استطاع ان يبلغ اقصى قمتهما . وعلى العموم كان الطريق الى السلطة السياسية الجهورية — وهى القدرة على رسم الخطط ووضع السياسات — مفتوحا امام الكنايات من رجال الحاشية ربما اكثر مما كانت بالنسبة لذوى الأصول النبيلة ، وكانت السلطة الادارية كلها على وجه التقريب فى ايدى النبلاء أصحاب المناصب وهى بيوقراطية وراثية حية الضمير مقتدرة . وكان المركز الاجتماعى والقاب الشرف الرفيعة — كما وصل الى علمنا — لا تمنح الا لهؤلاء الذين فى استطاعتهم ان يظهروا اركان النبالة الأربعة . وزيادة على ذلك كانت هناك دلائل على أن النبلاء فى فرنسا فى القرن الثامن عشر تحت قيادة النبلاء أصحاب المناصب يضيقون الأبواب ليزيدوا من الصعاب امام الطامحين من طبقة غير النبلاء . ومن المقطوع به أن طبقة من النبلاء ذوى الامتيازات كانت موجودة فعلا وانها كانت مكروهة جدا من جانب كثير من الطبقة البورجوازية .

ولقد كانت روسيا فى القرن العشرين تشبه ذلك الى حد كبير فكان على رأس النظام الاجتماعى طبقة من النبلاء صاحبة الامتيازات اغلقت أبواب التقدم الاجتماعى فى وجه أصحاب مواهب من الطبقة الدنيا . وكانت

هذه الطبقة مكروهة جدا من جانب هؤلاء الذين كانوا ينظرون اليها من الفئات الأخرى . ومما لا شك فيه أن كثيرا من أفرادها كانوا متعجرفين بطريقتهم لا تحتمل ، متعطرسين ، ومنحطين ، ومغرورين ، وتافهين . وغير ذلك من الصفات السيئة التي اتصفوا بها في قصة المدينتين . ومع ذلك كان الطريق الى الشهرة والثروة أبعد من أن يكون مغلقا في روسيا قبيل الثورة بما فيها من صناعات جديدة ناشئة وما فيها من نهضة مسرحية وصلات للرقص والموسيقى وما فيها من جامعة ومراكز ادارية مفتوحة امام الشباب الطامحين وذوى الكفايات حتى وان كانوا من الريف . ولربما يعتبر راسبوتين Rasputin نموذجا سيئا للباب المفتوح أمام أصحاب المواهب ولكنك لا تستطيع أن تنكر أن الراهب السييرى قد بلغ القمة .

ان أحد مفاتيح هذه المشكلة الخاصة بدورة الصفوة الممتازة يكمن في توقف تلك الدورة عند نقطة خاصة بالغة الحساسية مثل المهن وخاصة المهن الثقافية أى بين الناس الذين قد يحسون بخيبة الأمل أو الشعور بأنهم محرومون من المراكز الطيبة .

وان المرء ليصدم عند دراسة المجتمع الفرنسى فى السنوات السابقة للثورة بنوع من العوائق التى تقف فى سبيل الشباب النابه المتدفق نحو باريس ليكتبوا ويتحدثوا عن طريقهم الى السعادة . ويبين ميرسيه فى لوحة باريس كيف كان الشبان فى كل يوم تسطع فيه الشمس يرون على الأرصفة يستحمون ويجفون قمصانهم التى لا يهكون سواها كرمز للقلق وسوء الوضع الاجتماعى . وفى روسيا كان هناك دلائل على الصعوبات التى تعترض طريق أولئك الذين يجب أن نسميهم نحن الأمريكين « أصحاب الياقات البيضاء » والمثقفين ، والبيروقراطيين والكتبة وما أشبه . ونحن نعرف أن قيادا مشابها فى مجتمع جمهورية فيمار Weimar كان له دور هام فى ثورة النازى سنة ١٩٣٣ . وهذا العرض — مثل معظم الأعراض الأخرى التى تدل على التوتر الاجتماعى العنيف — يكاد ينعدم فى أمريكا القرن الثامن عشر ومن الصعب الى أقصى حد تعقبه — للافتقار بعض الشيء الى نقص المواد التاريخية الصحيحة فى الثورة الانجليزية ، وطبيعى

جدا أن يؤدي ضد النخبة الممتازة عن النجاح في الصحافة والأدب وغير ذلك من المهن إلى هروب المثقفين .

وأخيرا تبدو العداوة الطبقيّة في أعنف صورها عندما تصل الطبقة إلى الثروة بينما تكون — أو تشعر بأنها — قد حرمت من بلوغ أعلى مراتب الامتياز الاجتماعي أو المراكز ذات السلطة السياسية . وهذا بطريقة عامة يصف موقف اتباع كالفن Calvin والتجار في القرن السابع عشر في إنجلترا والارستقراطيين المستعمرين والتجار في أمريكا الذين كانوا على الأقل مرتبطين بالطبقة الانجليزية الحاكمة البريطانية والبورجوازية الفرنسية في القرن الثامن عشر والبورجوازية الروسية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . ويحتمل في كل مجتمع أن يبرز أفراد من صفوف أقل حتى من مستوى الطبقة المتوسطة وأن يجتازوا كل هذه العقبات . بل أن البورجوازية كطبقة في كل المجتمعات الأربعة كان لها في الواقع صوت حاسم في معظم القرارات السياسية حتى فيما قبل الثورات . ولكن البلاد كان يديرها أناس آخرون لهم امتيازاتهم الخاصة كما أن البورجوازية قد أقصيت كطبقة عن أعلى مراتب الامتيازات الاجتماعية دون أن يترك لها أمل في ذلك . فضلا على ذلك كان هذا الإقصاء مضرب الأمثال وأمثال الحديث دائما في كل مكان عدا المناطق الريفية النائية . فقبل ماركس بزمن طويل وقبل أوسيانا الذي وضعه هارنجتون كان الناس العمليون يعرفون أن السلطة السياسية والشرف الاجتماعي هما اليدان اللتان تعتمد عليهما السلطة الاقتصادية . وحيث لا تستطيع الثروة — ونحن بكل تأكيد الجيل الثاني أو الثالث للثروة — أن تشتري كل شيء — كل شيء في هذا العالم — بأى ثمن — فأنت أمام العلامة الأولية التي يمكنك أن ترتكز عليها ارتكازا تاما في التنبؤ بقيام الثورة .

#### ٤ خامسا — ملخص :

وعندما نلخص ما قلناه فان أبرز ما يجب أن نلاحظه هو أن كل هذه الدلائل الأولية — مثل عجز الحكومة المالي والشكاوى من فداحة الضرائب ومحاباة الحكومة لمجموعة من المصالح الاقتصادية على مصالح



أخرى والتعقيدات والارتباكات الإدارية وهروب المثقفين وفقدان الثقة بين كثير من أعضاء الطبقة الحاكمة وتحول الكثيرين من أفراد هذه الطبقة الى الاعتقاد بأن امتيازاتهم غير عادلة أو ضارة بالمجتمع واشتداد حدة المتناقضات الاجتماعية وغلقت ابواب العمل أمام ذوى الكفاءات ، ( عادة في المهن والفنون وربما في وظائف ذو « الياقات البيضاء عامة ) ، وفصل القوى الاقتصادية عن القوى السياسية ثم التمييز الاجتماعى وبعض هذه الدلالات ان لم يكن كلها قد يوجد في كل مجتمع حديث بوجه عام وفي أى عصر من العصور . وبهذه الحكمة التى تقترن عادة بالنظر الى أمر ما بعد أن مر عليه وقت طويل نستطيع الآن أن نقول هذه العلامات في أربعة أو على الأقل في ثلاثة من مجتمعاتنا هذه . ومما لا شك فيه أننا قد حذفنا علامات أخرى لم نذكرها - وجدت في ترابطات وتعقيدات غير عادية بعض الشيء قبل اندلاع الثورة - ولكن من الواضح أنه يجب علينا أن نستنتج مما انتهينا منه فوراً أن تشخيص الثورة وهى في مراحلها الأولى أمر بالغ الصعوبة ومن غير المستطاع بكل تأكيد ارجاعه الى صيغة محددة أو وصفة معينة أو الى مجموعة من القواعد . ان هذا ايضا مما يصدق على تشخيص أمراض الانسان . ان أقدر المشخصين للأمراض ، كما أخبرنا النفاة ، لا يستطيعون ان يحلوا أو يبينوا في ترتيب منطقى رسمى كل الخطوات التى اتخذوها في تشخيصهم الأكلينيكي للمرض .

على أننا مع ذلك لم نقف عاجزين تماماً أمام منحة صوفية لنبوءة قصيرة المدى يتنبأ بها شخص ناجح . ان طرائقه ليست تلك التى يستخدمها السحر وانما هى - حتى تجعلها الالفه سهلة ميسورة - أقرب الى أن تكون موهبة تحاول تركيب تجربة الماضى (وهو أمر يندر أن يكو صريحا) . وملاحظة الحاضر ثم استنباط حكم عام يلازمه التوفيق - أو ان شئت حكماً شاملاً . كما أننا نستطيع في هذا المجال أن نجازف بشيء آخر خاص بعلامات الثورة في مجتمعاتنا الأربعة . ان فيها جميعاً وبخاصة في فرنسا وروسيا قبيل الاندلاع الفعلى للثورة يتزايد الحديث عن الثورة ويزداد الوعى بالتوتر الاجتماعى والعجز والفضب . ودائماً يوجد من يتنبأ بالشر . ولسنا في حاجة الى أن نركز كثيراً على أية نبوءة خاصة بثورة

معينة مثلها فعل المركيز دى أرجنسون Marquis d'Argenson قبل الثورة الفرنسية بأربعين عاما . ولكن عندما تصبح هذه المخاوف أو الآمال شيئا ما شبيها بالملكية العامة وعند ما تكون منتشرة نستطيع أن نعتبر — ونحن مطمئنون — أن هذه العاطفة العامة علامة نهائية من علامات الثورة . ومع ذلك حتى ذلك الوقت يصعب استخدام العلامة التي لدينا . . ذلك لأن الناس لا يتوقعون أبدا الثورة في زمانهم وإنما في زمن أولادهم أن الثورة الفعلية تجيء دائما مفاجأة . وهذا يصدق حتى بالنسبة لروسيا مع أن الثورة ظلت لفترة طويلة متوقعة . وعلى كل يجب أن تكون منتشرة وليست فقط في أنواء العرافين المحترفين أو المحافظين الهيايين . ويجب فوق كل شيء أن تتجاوز حدود المثقفين . وذلك لأنه مهما تكن قيمة هروب المثقفين كعلامة فلا قيمة لها وحدها الا اذا وجدت مع غيرها من العلامات الأخرى . وبعد هذا كله فان احدى المهام الكبرى التي كان المثقفون في المجتمع الغربي يقومون بها دائما هي أن يهزوا الناس العاديين ليخرجوهم من تفؤلهم الذى لا يقوم على أى تفكير ، وربما كان من حق كاسندرا Cassandra أن يدعى مثل أفلاطون انه مؤسس تراث أكاديمى عظيم ولكن خلفاء كاسندرا لم يحققوا على الوجه الأكمل تنزهها التعس عن الخطأ .



# الفصل الثالث

## المراحل الأولى للثورة

### ١ - فيجارو الخالد :

في مسرحية بومارشيه « زواج فيجارو » التي مثلت لأول مرة في باريس في عام ١٧٨٤ مناجاة مشهورة لفيجارو فيها الكثير مما بذلنا الجهد لتحليله في الفصل السابق وهو مركز تركيزا دراميا في صفحات قليلة . وفيجارو نفسه ليس الا الشاب الذي تتوفر له القدرة ولكنه يظل في الحضيض دون وجه حق نتيجة لنظام اجتماعى قائم على الامتيازات . وحينما يرفع الستار يكون منتظرا في الظلام ليفاجيء عروسه مع سيده كونت المسافيا Count Almavia وتتحول تأملاته الأولى عن طبيعة المرأة المتقلبة بسرعة شديدة الى هجوم عنيف على سيده النبيل . « الأنك سيد عظيم تظن أنك عبقرى عظيم ! ... الى هذا الحد تفعل النبالة ، الثروة ، الرتبة ، المناصب كل هذا فتجعل الانسان مغرورا ! .. ولكن ماذا فعلت لتستحق كل هذه الخيرات الكثيرة ؟ أنك لم تتعب الا في خروجك من بطن أمك ! » وعندئذ يتطلع الى الوراء فيتأمل انواع الكفاح التي ملأت حياة أصله الخامل ودراسته للكيمياء والصيدلة والجراحة كل ما يكاد يكفى - لانحطاط مولده - لكى يعطيه ميزة ممارسة الطب البيطرى ، ومغامرته بتأليف الروايات المسرحية واصطدامه المحتوم مع الرقيب ثم تحوله الى الكتابة فى مالية الدولة وما ترتب على ذلك من قضاء فترة فى السجن ، ومحاولة أخرى فى الأدب وكانت هذه المرة فى الصحافة ثم ما تلا ذلك من زجه فى السجن مرة أخرى ثم رفض طلبه عندما تقدم لوظيفة فى الحكومة ومنعه عنها سوء حظه ، رغم انه كان أهلا لهذه الوظيفة وانقلابه الى مقامر عندما كان سادته من النبلاء يأخذون معظم أرباحه ثم عودته آخر الأمر الى مهنته القديمة كحلاق صحى . ان بعضا من هذا ليس الا سيرة حياته . الا ان

بومارشيه وهو ابن أحد صغار التجار قد كسب لنفسه ثروة ومكانة في النظام القديم وساعد في توجيه المعونات الفرنسية الى الثوار الأمريكيين انه — بالمستويات الدنيوية — شق طريقه في النظام القديم . ولقد كان سيلا من النكت والأمثال يتدفق خلال مناجاة فيجارو . وكانت تدخل البهجة على نفوس المشاهدين العصريين وتداولتها الألسن في طول البلاد وعرضها ، وفي الحق أن العائلات كانت تأتي الى باريس خصيصا لتشهد تمثيلية « زواج فيجارو » وتستمع بالنكت الفرنسية في اطرف صورها موجهة ضد حكومة فاسدة . ونورد هنا القليل من أشهر طرائف بومارشيه . « انهم اذ يعجزون عن اذلال روح الانسان ينتقمون بالاساءة اليها » . « ان الصغار وحدهم هم الذين يخافون من الكتابات القليلة » . « كانت الوظيفة تتطلب محاسب ولكن راقصا هو الذي حظى بها » . « لكى تسهل أمورك في هذه الحياة تعلم كيف تسهلها خيرا من مجرد الحصول على العلم » ثم هناك بطبيعة الحال هذه النكتة المريرة عما حققه الكونت في حياته « ماذا فعلت لتحصل على هذه الأشياء الطيبة كلها ؟ انك لم تتعب الا في الخروج من بطن أمك » . وفي هذا الحديث وحده اشارات عديدة الى الثورة القادمة بحيث اذا أضيفت اليها الحكمة المستمدة من الواقع بعد حدوثه وهى الحكمة التى تتوفر بشكل طبيعى عند المؤرخين تستطيع أن تقول أن الثورة قد اندلعت اندلاعا تاما في فيجارو . وهذا يتضمن بطبيعة الحال حقيقة معينة هى أن الرقيب بعد تردد طويل لم يوقف مسرحية بومارشيه .

ان السنوات التى تسبق اندلاع الثورة الفعلية تشهد سيلا من الاحتجاجات ضد طغيان الحكومة ، واكداسا من الكتيبات ، والمسرحيات والخطب ، وتنجرا في نشاط الجماعات الضاغطة صاحبة المصلحة . ولا شك أن الحكومة لا تستطيع أن ترتفع الى المستوى الذى يطالب به خصومها . وان محاولاتها الطاغية لكبت المعارضة الثائرة ربما تقشل لأن تلك المعارضة على درجة كبيرة من القوة ومزودة بالمعلومات والفضائل أو لأنها تنفذ دون حماس ودون اقتدار من جانب عملاء الحكومة الذين

تكسبهم المعارضة الى صفها . وتبقى الحقيقة وهى أنهم يفشلون فعلا .

وحتى فترة الحكم الفردى فى عهد شارل الاول Charles I التى سبقت الثورة الانجليزية لم تكن كلها بهذا القدر من الهدوء أو النجاح الذى يبدو فى الظاهر . فان كثيرا من اساقفة البيوريتان نجوا من محاولة لود Laud لعزلهم من الكنيسة القائمة كما أن الكثيرين وجدوا عددا وفيرا من المنابر والمطابع المستقلة . . ولربما استطاع سترافورد أن يكتب فى ١٦٣٨ « ان الناس يشملهم هدوء تام واذا لم أكن مخطئا الى حد بعيد فانهم راضون كل الرضا ان لم يكونوا مبتهجين بحكومة جلالته الرحيمه وحمائته » ولكنه كان على خطأ كبير فان السنوات الاحدى عشر لهذه الحكومة الفردية لم تكن على اقل تقدير الا الهدوء الذى يسبق العاصفة .

أما فى مجتمعنا الثلاثة الأخرى فانا لا نجد حتى الهدوء الخادع وانما نجد نموا مضطردا للهيأج الثورى . ومن الصعب أن نجد مستعمرة فى أمريكا خلت من شكل من اشكال الشغب فى الفترة ما بين قانون التمغة وليكسنجتون Lexington وقد شهدت جميعها نموا مضطردا للهيأج عن طريق لجان التجار ولجان المراسلات وأبناء الحرية Sons of Liberty وغيرها من الجماعات المشابهة . وفى سنة ١٧٨٠ اقتربت الحكومة الفرنسية شيئا فشيئا من الإفلاس ومع كل اجراء اتخذته لتجنب الإفلاس كانت تقترب من دعوة مجلس طبقات الأمة والاشارة بقيام الثورة . أما فيما يخص روسيا فقد كان مجتمعها يعى بطريقة رائعة امكانيات الثورة . ان الطبقات العليا هناك كانت لفترة أكثر من جيل قد حولت قلقها الى الحديث الناعم عن « الجلوس فوق فوهة بركان ( أو ) بعدنا الطوفان » ، « العاصفة تهب » . وفى ١٩٠٥ و ١٩٠٦ تحت وطأة الهزيمة على يد اليابانيين حدث نوع من « الاعداد » للثورة الكبرى . ولقد أوقفت لفترة ما الحماسة الوطنية فى سنة ١٩١٤ الاستعدادات العلنية للثورة ولكن الهزيمة العسكرية فى ١٩١٥ و ١٩١٦ أرجعت الظروف الى ما كانت عليه فى عام ١٩٠٥ .

## ٢ — أحداث المراحل الأولى :

بدأت الثورة الروسية تأخذ شكلا أكثر دراميا وتحديدا بحادث واحد — مظاهرة في الشارع في بتروجراد في مارس ١٩١٧ — أكثر مما فعلت أى من ثوراتنا الأخرى . إلا أنه حتى في روسيا استغرق الأمر أربعة أو خمسة أيام لكي يتحقق الثوريون أنفسهم أن هذا الشغب الذى تقوم به الجماهير حول بتروجراد قد يحمل معه سقوط أسرة رومانوف . ان التاريخ والسجل الوطنى قد أبرزوا قصصا مثيرة — مثل معارك ليكسنجتون وكونكورد وسقوط الباستيل — كبدائيات للثورات . لكن رغم أن المعاصرين كانوا يدركون الطبيعة الدرامية لمثل هذه الأحداث فانهم لم يكونوا على يقين دائما من أنهم حولوا الهياج الثورى الى ثورة .

ان الخطوات الأولى في الثورة لا تكون بحال من الأحوال واضحة دائما للثوريين أنفسهم كما أن الانتقال من الهياج الى العمل نادرا ما يكون أمرا مفاجئا وحاسما .

ولقد ارتقى شارل الأول العرش في ١٦٢٤ ولم يلبث أن وجد نفسه داخلا مع مجلس العموم في صراع حول الضرائب . ومن خلال الصراع ظهر الى الوجود ملتهمس الحقوق لسنة ١٦٢٨ الذى اضطر فيه أعضاء مجلس العموم الملك على الموافقة على بيان يضع الحدود للسلطة الملكية . قطع شارلز على نفسه عهدا بالامتناع عن طلب القروض بالقوة والا يجعل الجنود يسكنون المنازل رغم ارادة أصحابها والا يسمح للضباط بتطبيق القوانين العرفى في وقت السلم والا يزوج بأى انسان في السجن دون توضيح السبب الذى من أجله فعل هذا . واذ تشجع مجلس العموم بهذا النجاح واصل أعضاءه بزعامة سير جون اليوت Sir John Eliot الملتهب بالعواطف زحفهم ورفضوا أن يهبوا للملك ضرائب الدخل المعتادة المفروضة على الموازين والمكايل وأصروا في أسلوب هجومى أو هو في الواقع أسلوب ثورى على امتيازاتهم .

وفي المناقشة النهائية التى جرت في الثانى من شهر مارس ١٦٢٩

امسك رجلان هما دينزل هولز Denzil Holles وفالنتين Valentine رئيس المجلس وأبقياه في مقعده بالقوة بينما كان اليوت يقترح اصدار تصريح يعلن بطلان ضريبة الموازين والمكايل دون اذن من البرلمان . واندفع المحافظون الى الامام ليفكوا وثاق رئيس المجلس وتبع ذلك عندئذ مناقشة حامية الوطيس تقف على قدم المساواة مع المناقشات التي دارت فيها بعد في الجمعية الوطنية الفرنسية ، ولكن بطريقة ما أو بأخرى وابان هذا الهرج وضعت قرارات اليوت موضع التنفيذ قبل التمكن من تنفيذ الأمر الملكي بحل البرلمان . ان البرلمانين قد احدثوا لفتة ضخمة في أسلوب الاحتجاج ، ومن ذلك اليوم لم يجتمع برلمان في انجلترا لمدة أحد عشر عاما . وأرسل اليوت الى السجن بتهمة احداث الهياج ولكنه أصر على أن الملك ليس له اى سلطان على عضو في مجلس العموم . ومات شهيدا عام ١٦٣٢ .

وفي سنوات الحكم الفردى بذل شارل — يؤيده مساعده الكبريان سترافورد Strafford ولود Laud — أقصى ما في جهده لتنظيم الحكومة الانجليزية وفقا لأفكار المركزية الناجحة والخبراء في أصول الحكم وهي أهم تراث سياسى من عصر النهضة . وقد قام في هذا المجال بعمل يعتبر من بعض النواحي جيدا الى درجة مدهشة . ولكن قد يكون كما يعتقد مؤرخو القرن التاسع عشر الأحرار أنه كان سائرا في اتجاه مضاد للخلق الانجليزي الأساسى والقالب الأساسى للنظم الانجليزية وأنه لاشك كان سائرا نحو الانفلاس . ويحتمل أن يكون مجرد الصدام مع طائفة البريسبيتريين الاسكتلنديين ( طائفة دينية ) هو الذى أسرع بالتغيير المحتوم . لقد دعا شارل البرلمان الى الانعقاد فى ربيع سنة ١٦٤٠ ولكنه أصدر قرارا بحله بعد أقل من شهر . وكان جيش اسكتلندي قد غزا انجلترا حينذاك وكان على شارلز أن يفتيدها . ولكى يحصل على المال دعا برلانا آخر الى الانعقاد . . وعلى هذا لم يكن البرلمان القصير الأجل الا مرحلة انتقالية لدعوة البرلمان الطويل الذى اجتمع فى الثالث من نوفمبر ١٦٤٠ ، وحل فى ٢٠ ابريل سنة ١٦٥٣ ثم عاد الى الحياة مرة أخرى بعد فترة وجيزة فى عام ١٦٥٩ قبيل عودة آل ستيوارت بوقت قصير وهكذا فان

حياة هذه الجمعية غير العادية تستغرق فترة العشرين سنة للثورة الانجليزية .

لقد بدأ البرلمان الطويل عمله في الحال وذلك لانه في ١١ نوفمبر ١٦٤٠ اى بعد اسبوع واحد من اجتماعه لأول مرة اقترح بيم Pym اتهام سترانورد بالخيانة العظمى . وأيد مجلس اللوردات الأكثر رجعية الاقتراح وفي أوائل ١٦٤٠ صدر القرار باعدامه وحرمانه من الحقوق المدنية وكان الاتهام يتضمن على الأقل انواع الاجراءات القضائية في حين كان الاعدام عملا تشريعيًا بسيطًا . لقد كان اللوردات على استعداد تام للتخلي عن سترانورد فضلا عن محاكمته ، وفي الثانى عشر من مايو سقطت تحت بلطة الجلاد . وفي اقل من ثمانية اعوام كان مقدرًا لهذه البلطة ان تهوى على سيده صاحب الجلالة .

وما كان الصدام الفعلى بين قوات شارل وقوات البرلمان المسلحة ليحدث قبل مضى عام آخر ، فقد صوت البرلمان بأغلبية أحد عشر صوتًا مؤيدا الاحتجاج الكبير وهو تلخيص طويل للمظالم التى تراكمت ضد الملك خلال السبعة عشر عاما التى قضاها في الحكم . ورد شارل على هذا التصويت الذى يحمل عدم الثقة بمحاولة القبض على ستة أعضاء من البرلمان هم لورد كيمبلتون Lord Kimbolton في مجلس اللوردات وبيم Pym وهلبدن Hampden وهيسلريج Haselrig وهولز Holles وسترود Strode في مجلس العموم الذين عرضوا انفسهم للريب عندما قاموا بمفاوضات خيانية من الناحية الفنية مع جيش الاسكتلنديين الغير . ولم يتوان شارل في أن يذهب بنفسه الى مجلس العموم مع حرسه المسلح ليقبض على هؤلاء الأعضاء . وقوبل بشيء من المقاومة السلبية التى أظهرها البورجوازيون الفرنسيون في الجلسة التى عقدت في ١٧ يونية ١٧٨٩ عندما حضر لويس السادس عشر وأمرهم بأن يطرحوا جانبًا محاولة تكوين جمعية وطنية . اذ هرب الأعضاء المهددون الى مدينة لندن ووجد شارل نفسه مرة أخرى مغلوبًا على أمره . ووجد أعضاء مجلس العموم انهم نجحوا في تحديدهم مما شجعهم على أن يقرروا الاستيلاء على



القوة العسكرية فعينوا الضباط في الميلشيا . وبدأ شارل بدوره في تكوين جيشه الخاص واتخذ مقرا له في نوتنجهام Nottingham في أغسطس عام ١٦٤٢ ، وبذلك بدأت الحرب الأهلية .

أما من أين بدأت الثورة الإنجليزية في هذه السلسلة الطويلة من الأحداث الملتئمة بعضها مع بعض فهذا أمر يعتبر الى حد ما ذاتيا فمن نقطة ما تقع ما بين دعوة البرلمان الطويل في ١٦٤٠ واندلاع الحرب الأهلية بعد ذلك بسنتين كانت الخطوات الخطيرة الأولى قد تمت ، ولربما يكون اعدام سترافورد تاريخا مثيرا أو محاولة شارل الفاشلة للقبض على اعضاء مجلس العموم الخمسة .

وعلى أى حال فما كاد يحل صيف ١٦٤٢ حتى كانت الثورة الإنجليزية قد اتخذت شكلا لا يمكن أن نخطئه .

أما الأحداث في أمريكا فلم تتحرك في خطوات أسرع . ويستطيع المرء الى حد ما أن يقول أن الثورة الأمريكية بدأت حقا في ١٧٦٥ بقانون التمفة ، أو على أى حال ان الاضطراب الذى بلغ أوجه كرد فعل لهذا القانون كان نوعا من التجربة استعدادا للحركة الكبيرة التى حدثت في السبعينيات . كانت الحكومة الامبريالية قد صممت على أن تعمل شيئا بالنسبة للمستعمرات الأمريكية وكانت ضرائب تونزهند Townshend الخفيفة على الشاي والزجاج والرصاص وبعض السلع الأخرى الواردة الى أمريكا مصحوبة بحاوله لجمعها بطريقة حديثة فعالة . وبمقتضى قانون تونزهند كانت الجمارك في أمريكا مزودة بهيئة ادارية لها آمالها وقدرتها . وكانت النتيجة سلسلة من الاصطدامات مع الجماعات الأمريكية الحسنة التنظيم . ان رمى المخبرين بالقار والريش وسرقة البضائع المحجوزة امام أعين موظفى الجمارك والاستهزاء بالقوات البريطانية أدت كلها الى الأحداث الأشد اثارة والمدونة في الكتب المدرسية والقبض على الجاسيى في بروفيدنس ، ومذبحة بوستن في ١٧٧٠ وحفلة الشاي في بوستن ثم حريق بيجو، ستيوارت .

ان اغلاق ميناء بوسطن وارسال جيج Gage مع قواته الى ماساشوستس Massachusetts وقانون كويك نفسه كانت كلها في الواقع الاجراءات التي اتخذتها الحكومة الامبريالية ضد المستعمرات الثائرة . وقد تستطيع اذا كنت ممن تستهويهم هذه الامور أن تبحث باسهاب متى بدأت الثورة الأمريكية رسميا ، وقد تستطيع أن ترجع في هذا الى الورا الى المؤتمر القارى الاول في ١٧٧٤ او الى معارك لكسنجتون Sexington وكونكورد في ١٧٧٥ او حتى الرابع من يولية ١٧٧٦ الشهير جدا . ولكن المعارك الجماعية المعقدة التي لا تنمو منها الثورات فعلا الا فيما بعد انما تتحول الى مصادر رسمية لسجل التراث الوطنى . ولقد كانت الخطوات الأولى في الثورة الأمريكية كثيرة وانتشرت على مر الزمن . وليس من السهل أن نفرّد حادثة واحدة ونعتبرها بداية الثورة الأمريكية .

ويمكن القول بأن ثورة ١٧٨٩ الفرنسية ظلت تتبلور لعدة عقود من الزمن . فالمقاومة الصريحة والحاسمة للحكومة الملكية كما كانت في برلمانات شارل الاول وفي جمعيات المستعمرات الأمريكية لا توجد في فرنسا اذ كانت تفتقر كلية الى مثل هذه الهيئات البرلمانية . واقترب الاشياء لهيئة نيابية كان برلمان باريس ، وهو نوع من المحاكم العليا مكون من قضاة من النبلاء ويشغلون مراكزهم بالوراثة . وكان هذا البرلمان وما تبعه من برلمانات المقاطعات ، هو في وضوح الذى بدأ في الثمانينات من عام ١٧٨٠ معركة صريحة مع التاج بلغت أوجها في تحدى السلطة الملكية تحديا مثيرا ونفى القضاة بالقوة . وكان الراى العام على الأقل في باريس مع القضاة ، ورغم أنهم كانوا من النبلاء أصحاب الامتيازات فانهم أضحووا في ذلك الوقت أبطالاً وشهداء .

وفي اثناء ذلك كان الافلاس الوشيك قد أجبر الملك على أن يدعو في ١٧٨٧ مجلس الاعيان وهو نوع من اللجنة الخاصة تستدعى على عجل وتتكون من نبلاء مشهورين توقع لويس السادس عشر بدون شك أن يستنير برأيهم على طريقة القرن الثامن عشر المألوفة . ولقد حصل

عليه بكل تأكيد وذلك لأن المجلس كان يضم عددا كبيرا من مثقفي الطبقة العليا مثل لافاييت ممن كانوا يؤمنون بأنه يجب أن ينتهي الحكم الاستبدادي في فرنسا كما يجب أن تزود نفسها بدستور حديث من ذلك النوع الذي جعلت منه الولايات الجديدة في الاتحاد الأمريكي شيئا عصريا . وانقسم مجلس الأعيان على نفسه انقساما شديدا وانتابته الشكوك في الطرق التي يملأ بها الخزانة الخاوية وان كان من الواضح ان كان لا بد من استشارة الأمة . وأخيرا رضخ التاج وأعاد تعيين نكر Necker في الوزارة وهو سويسرى من العامة كانت له سمعة طيبة كساحر في المسائل المالية . وحدد الملك ربيع ١٧٨٩ لاجتماع مجلس طبقات الأمة ولم يكن هذا المجلس قد اجتمع منذ عام ١٦١٤ وكان هناك شيء من الشك في كيفية انتخابه . وأسرع علماء الآثار لانقاذ الموقف واختير ثلاثمائة عضو عن الطبقة الأولى أو رجال الدين وثلاثمائة عن الثانية أو النبلاء وستمائة عن الثالثة أو العامة وتم اختيارهم في الوقت المناسب تماما لعقد أول اجتماع . ولم يكن لهذا العدد المضاعف الممثل للطبقة الثالثة سابقة ما في ١٦١٤ أو فيما قبل ذلك . لقد كان ذلك في الواقع خطوة ثورية ، وامتيازاً انتزع من الملك واعترافاً بطريقة أو بأخرى بأن الطبقة الثالثة أكثر أهمية من أى طبقة أخرى ، ومع ذلك كانت القرارات النهائية في الدستور القديم تتخذ باعتبار الطبقات أو الوحدات بمعنى أنه إذا ما وافق رجال الدين والنبلاء باعتبارهم مجلسين متفرقين على سياسة ما ففى استطاعتهم تنفيذها باعتبار الأصوات اثنين لواحد حتى ولو كان هذا دون موافقة الطبقة الثالثة . وعندما اجتمع ممثلو الطبقات في مايو ١٧٨٩ كانت المشكلة الأولى هي البحث فيما إذا كانوا سيتبعون الدستور القديم ويصوتون بالوحدات أو سيصوتون في مجلس واحد كبير تعداده ألف ومائتان من الأعضاء وفيه سيكون عدد الطبقة الثالثة المضاعف مضافا اليه « الأحرار » الموجودون بين الهيئتين الآخرين يمثل أغلبية واضحة . والواقع أن لويس كعادته ترك هذه المشكلة غامضة دون حل ، وبعد أن تبين له أن الطبقة الثالثة مصرّة على جمعية واحدة كبيرة عندئذ فقط أصر جلالته على ثلاث هيئات منفصلة .

والحادث الذى بدأت منه الثورة الفرنسية رسميا كان ذلك الحادث البسيط : مسألة التصويت بالطبقات او بالأفراد فى جمعية واحدة . وأصرت الطبقة الثالثة على موقفها ورفضت أن تقوم بأى عمل حتى تنضم الهيئات الأخرى اليها فيما يسمى - الجمعية الوطنية ، وكان الاسم نفسه رنانا يحمل أصداء الدعاية للثوار .

وهناك لحظات مؤثرة فى هذا الصراع الذى استمر شهرين وكان بالضرورة صراعا برلمانيا فى جوهره يفتقر الى العنف ، وعندما منعت الطبقة الثالثة باجراء خاطيء من الملك من عقد اجتماعها فى مقر الاجتماعات المعتاد سارع اعضاؤها فى ٢٠ يونية ١٧٨٩ الى ساحة من ساحات التنس واقسموا الا ينفذوا حتى يضعوا دستورا لفرنسا .

ويرجع بعض الفضل الى لوحة دانييد الشهيرة التى تبدو رمزية اكثر مما تبدو واقعية فى أن أصبح هذا الحدث تاليا فى الأهمية لسقوط الباستيل فى التراث الوطنى للجمهورية الفرنسية الثالثة . واكثر من هذا أهمية ذلك التحدى العنيف من جانب الطبقة الثالثة عند ما طالب الملك بكل ما للتاج من عظمة وابهة فى جلسة ٢٣ يولية بأن يكون التصويت بطريقة الهيئات المنفصلة . وفى هذه الجلسة بقيت الطبقة الثالثة فى الخلف بعد مغادرة الملك للقاعة . ويقال أن ميرابو أطلق رده المشهور عندما طلب اليهم رئيس التشرينات الملكية أن ينصرفوا بدورهم \* « اننا مجتمعون هنا بارادة الشعب ولن نغادر المكان الا بالقوة » وبعد ذلك بتليل اذعن الملك وان تكن خطبة ميرابو بطبيعة الحال ليست هى السبب فى هذا الإذعان . ومع بداية يولية كانت الجمعية الوطنية قد تأسست وكانت على استعداد لوضع نظريات الاستنارة موضع التنفيذ بعد أن ظلت الى وقت طويل مجرد نظريات فى فرنسا . لقد اتخذت الخطوات الأولى للثورة الفرنسية .

أما هؤلاء الذين يصرون على أنه لا بد من قيام أعمال العنف ليقال بأن الثورة بدأت ، فسوف يؤرخون بداية الثورة الفرنسية العظمى

بيوم ١٤ يولية ١٧٨٩ عندما استولى جمع من غوغاء باريس يؤازرهم الجنود الذين انضموا الى الجانب الشعبى على قلعة سجن الباستيل المظلم فى الجانب الشرقى من المدينة ، ويوم الباستيل هو الرابع عشر من شهر يوليو بالتاريخ الجمهورى ، وهو يوم عظيم له قدسيته فى واحد من أحسن المذاهب الوطنية المعاصرة تنظيميا . ومن حيث هو كذلك فقد احيط بالأساطير المزودة بقصص الاستشهاد وأصبح يوما مشهودا فى التاريخ . ولقد يبدو أمام المراقب من بعيد أن الاستيلاء على الباستيل عملية متشابكة ومربكة وأنها على الأتمل نتيجة ضعف قوة الحاكم دى لوناى De Launay بالنسبة لقوة المحاصرين . ولكن ما يهنا هو أن باريس ظلت ثلاثة أيام فى ايدى الغوغاء وأن هؤلاء الغوغاء كانوا يهتفون فى وضوح ضد القصر وتأييدا للجمعية الوطنية . وبعد ما هدات المظاهرات استطاعت الجمعية الوطنية أو بالأحرى الغالبية الثائرة فى الجمعية أن تواصل الزحف وهى على يقين قاطع بأن الشعب يؤيدها واستطاعت أن تشعر أن لديها سلطة مطلقة للتغاضى عن الاحتجاجات الملكية بينما هى تواصل مهمتها فى اعادة بناء فرنسا .

أما الثورة فى روسيا فقد شقت طريقها فى سرعة هائلة . وكما رأينا فى فصل سابق كان هناك قدر كبير من المقدمات لقيام الثورة الروسية وظلت عدة أجيال من الروس تتحدث عن حتمية العاصفة القادمة . ومع ذلك فإن الخطوات الأولى التى أدت الى ثورة فبراير ( مارس فى تقويمنا ) قد فاجأت الى حد ما حتى بعض الزعماء التقدميين مثل كيرنسكى Kerensky ولقد اعتادت الأحزاب الاشتراكية فى أرجاء العالم كله الاحتفال بالثامن من مارس على أنه يوم المرأة . وفى هذا اليوم — ٢٣ فبراير تبعا للتقويم الروسى ، القديم ، الذى أسند اليه اسم ثورة فبراير ومنه ذهب الى التاريخ — تدفقت جموع من النساء والعمالات من أحياء المصانع الى الشوارع هاتفات يطلبن الخبز . ثم أخذت الجموع تزداد يوما بعد يوم وانطلق خطباء الجماعة المتطرفة يلقون الخطب عند منحنيات الشوارع . واختلط جنود من حامية بتروجراد

الحربية الكبيرة بالجموع ، وبدا أنهم في الواقع يشاركونهم شعورهم ، وحتى القوزاق لم يظهروا عداً للشعب أو انهم — على أى حال — لم يرغبوا في الحرب .

وفي اثناء ذلك كانت السلطات تتشاور وعندما أخفقت الاجراءات الجزئية قررت في ١١ مارس أن تخمد هذه الاضطرابات بخطة محكمة كانت قد رسمت على الورق لمثل هذه الحالة . ولكن الخطة أخفقت . ولما كان جنود الحامية لا يرغبون في القتال فقد بدأوا يتأرجحون . وفي ١٢ مارس انفجرت أولى الثورات وتعاقتبت واحدة بعد أخرى فخرجت فيالق الجيش الامبراطورى المشهور من ثكناتها لا لتطلق النار ولكن لتنضم الى الجموع ، وقام الزعماء المجهولون والصاغات والجنود ورؤساء عمال المصانع ومن على شاكلتهم وقادوا جماعاتهم الصغيرة الى مراكز استراتيجية . ومن كل هذا الغموض والصخب الذى يجعل المؤرخ ييأس من تسجيل أحداث هذا الأسبوع بالتفصيل برزت حقيقة واضحة ، لم يكن هناك حكومة امبراطورية باقية في العاصمة أو لم تكن هناك حكومة رسمية على الاطلاق .

وبالتدرج ظهرت هناك نواة الحكومة السوفييتية القادمة التى ستؤلفها النقابات والجماعات الاشتراكية وغيرها من هيئات الطبقة العاملة . أما القيصر ومستشاروه — وقد اشتدت بهم الحيرة وبدا منهم العجز عن السيطرة على الحركة — فقد منعوا البرلمان من الاضطلاع بالمسئولية ، واجتمع المعتدلون من كل الطوائف ليؤلفوا نواة الحكومة المؤقتة . وفي الحق يبدو في مثل هذا الوضع المضطرب أن تصرف المعتدلين يتفق مع الثورات . ان عواطفهم وخبراتهم تجبرهم على محاولة اثناء الاضطراب أو انقاذ ما يمكن انقاذه من الأنظمة الثابتة .

ولقد اتفق الاشتراكيون والأحرار على وجوب تنازل القيصر عن العرش . وكان نيقولا نفسه قد بدأ يتحرك من مركز القيادة الى قصره في تساركو سيلو بالقرب من بتروجراد ولكنه اضطر الى التوقف في بسكوف

نتيجة لتزايد الاضطرابات . وعندئذ . وفي الخامس عشر من مارس قرر ان يتنازل عن العرش لصالح أخيه الدوق الكبير ميشيل .

أما السلطة المركزية في روسيا فيبدو أنها كانت في أيدي لجنة من البرلمان وأن هذه اللجنة كانت ترقب مجيء ميشيل بنفسه . أما كيرتسكى عضو هذه اللجنة فقد بدأ في الأزمة عصبيا بشكل حاد كما هي عادته وعندما رفض ميشيل التاج أبدى سروره الشديد لأن روسيا ستصبح جمهورية . ويبدو أن القرار الخاص الذي اتخذه ميشيل برفض العرش أملاه عليه جبنه الشخصي . ومن المشاكل الطريفة في التاريخ ما يدور من أسئلة حول ما كان يمكن أن يحدث لو أن هذا الرجل من أسرة رومانوف كان يتصف بالشجاعة والحزم والمقدرة . ان أحدا لا يستطيع أن يجيب على هذه الأسئلة الا انها تذكرنا بأن التاريخ حتى وهو في قمة لحظاته الاجتماعية لا يستطيع أن يغفل نسيج المأساة الشخصية والفرصة السانحة بتنازل ميشيل عن العرش في ١٦ مارس سنة ١٩١٧ ولقد كان واضحا أن الثورة الروسية بدأت وأنها أسندت الى المقاطعات ولو أن سقوط أسرة رومانوف ظل غير معروف لمدة أسابيع في بعض الجهات النائية . ولكن العمل الذي استمر في هذه الأيام الثمانية كان حطم حكومة بيروقراطية مركزية في أهم مراكزها الحيوية — رأسها ومركزها العصبى — وظلت أمور كثيرة في روسيا دون تغيير نتيجة لثورة فبراير . أما من الوجهة السياسية فان أسبوعا واحدا تم فيه ما استغرق سنوات لاتمامه في إنجلترا وفرنسا . لقد ذهب آل رومانوف بسرعة أكبر كثيرا من السرعة التي ذهب بها آل ستيوارت والبوربون .

### ثالثا : العفوية أم التخطيط ؟

يجب أن يكون واضحا حتى من البيان السريع السابق للخطوات الأولى في الثورات الأربع بالنسبة للمؤرخ الذى يروى الحوادث أن الاختلافات بين الثورات الأربع اختلافات شديدة . فالثورة الانجليزية بدأت في هيئة من أقدم وأحسن الهيئات النيابية المستقرة . والثورة الأمريكية بدأت أساسا

في نيو انجلند بين اناس اعتادوا اجتماعات المدينة والمجالس التشريعية في المستعمرات . والثورة الفرنسية نشأت من اجتماعات هيئة تشريعية لم يألّف رجالها من قبل الحياة النيابية وليست لهم خبرة بها . أما الثورة الروسية فانها بدأت من مظاهرات في الشوارع في العاصمة ، واستمرت دون معاضدة من أى هيئة برلمانية ، اذ أن البرلمان كان لا ينعقد عن طريق لجنة الطوارئ . هناك اختلافات في الشخصية واختلافات في الزمان والمكان . ان شارل اذ يرتفع بمستوى آماله في نونجهام سنة ١٦٤٢ يبدو بعيدا بعد السماء عن الأرض عن نيقولا الذليل وهو يتلقى اللطمات اثناء شخذه الى السهول الشمالية في احد قطارات السكك الحديدية تحت رحمة عمال مضربين وجيوش ثائرة ، ثم وهو يتنازل عن العرش . بل قد يكون هناك حتى اختلافات عنصرية فان الحرب الأهلية الانجليزية المنظمة التي تكاد تكون حرب فروسية تبدو لأول وهلة شيئا مختلفا تماما عن الجنون الذي حدث في الرابع عشر من يوليه أو هذا المنظر المضحك المبكى لبيتروجراد العاصمة وهى بين أيدي الغوغاء الذين لم يكن لهم شعار محدد .

الا أن هذا الاختلاف الأخير يدعونا الى شيء من التأمل . فبين هذه المراحل الأولى للثورة أوجه تشابه رائعة تماما مثل ما بينها من اختلاف . ان رئيس مجلس النواب وهو يتحدى شارل في محاولته للقبض على الأعضاء الخمسة وميرابو وهو يطلق تحديه كالرعد في وجه رئيس التشريعات المذهول في الجلسة التي حضرها الملك في ٢٣ يونيه وكذلك باتريك هنرى وهو يحذر الملك من المصير المشؤوم الذي واجهه حكام آخرون — كل هؤلاء يبدو عليهم أنهم يتكلمون بلغة واحدة ويتخذون نفس المواقف المثيرة — وان مجلس العموم البريطاني في جلسته النهائية في ١٦٢٩ يشبه الى حد كبير الجمعية الوطنية الفرنسية في لحظاتها التي تتابعت متأججة بنار الحماس وكما يشبه بعض جلسات هامة في المجلس السوفيتى ببيتروجراد .

وذلك لأن انفعالات الناس كجتماعات والبلاغة والحركات الخطابية الضرورية لاحداث الأثر المطلوب أكثر تماثلا مما يظن العقليون . وان أى هيئة نيابية يصل عدد أعضائها الى عدة مئات تستجيب بطرق محددة



لمؤثرات معينة ، ثم هي تفعل هذا دائما وبكل تأكيد لا تستطيع ان تستجيب للمنطق ، ولا تستطيع ان تواجه وضعا جديدا بحرية تجريبية كاملة . وان الهيئات النيابية الثائرة لتتشابه بصفة خاصة الى حد كبير سواء كانت تتألف من الروس غير المسئولين أو الفرنسيين السريعى الانفعال أو الانجليز المتعقلين . ولا عجب اذا ما وجدنا في هذه المراحل المبكرة من الثورة تماثلا واضحا في سلوك الناس في هذه الجماعات .

وعلى اية حال يهمننا كثيرا ان نتبين هل لا يوجد في هذه الثورات الأربع اشياء متماثلة يمكن تجميعها معا ولها علاقة بسير الحركات ويمكن أن يكون لها مكان في خطتنا التصويرية عن الحمى الثورية . ما هو الدليل الذى نملكه هنا على اننا نعالج عملية لها مراحل محددة وعامة ؟ وهل هذه الخطوات الاولى في الثورة تحدث في ظل ظروف متشابهة اجتماعيا حتى وان كانت لا تتشابه في أحداثها ؟

ان أحد التشابهات واضح غاية الوضوح . ففى كل مجتمعاتنا الأربعة حاولت الحكومة القائمة ان تجمع اموالا من الناس رغما عنهم فرفضوا الدفع . وكل ثوراتنا الأربع بدأت تندلع بين أناس اعترضوا على دفع ضرائب معينة ونظموا انفسهم للاحتجاج عليها ثم بلغوا أخيرا نقطة الغليان لازاحة الحكومة القائمة واحلال حكومة اخرى محلها . وليس معنى ذلك بالضرورة ان أولئك الذين قاوموا فرض الضرائب تنبأوا أو رغبوا في ثورة جذرية . وانما يعنى بالضرورة ان الانتقال من الحديث عن التغيرات الضرورية الكبرى — وذلك لان في كل ثوراتنا الأربع كان ثمة شىء ما في الجو — الى العمل الحقيقى قد حدث نتيجة لفرض ضرائب غير مألوفة وهناك تشابه ثان واضح كل الوضوح كذلك وان تكن النتائج المستمدة منه أكثر غموضا بقدر كبير .

⊗ ان الأحداث في هذه المرحلة — وهى تمثل الخطوات الاولى في الثورة — تكشف من بين صفوف المستأثين من النظام القديم عن حزين يعارض أحدهما الآخر ويعنف شديد . وهذان الحزبان يمكن ان نطلق عليهما باختصار حزب النظام القديم وحزب الثورة . وفوق هذا فانه بنهاية هذه المرحلة من المراحل الاولى يكون حزب الثورة قد كسب المعركة .

وزالت الشكوك . . ويبدو عندئذ أن الثورة التي لم تكد قبدأ قد انتهت .  
ففى انجلترا بعد أن تخلص البرلمان الطويل من سترافورد Straford  
وانتزع الامتيازات من الملك . وفى أمريكا بعد انتصار الكونكورد واعظم  
الانتصارات الأدبية فى بنكرهيل . وفى فرنسا بعد سقوط الباستيل . وفى  
روسيا بعد التنازل عن العرش ، كان هناك فترة قصيرة من البشر والأمل ،  
هى بمثابة شهر العسل الخداع والجذاب أيضا فى المزاوجة المستحيلة بين  
ما هو حقيقى وما هو مثالى .

أما أن ثوراتنا الأربع قد اجتازت مثل هذه المرحلة المبكرة حيث  
تبلور التعارض بين القديم والجديد بطريقة مثيرة وانتصر الجديد انتصارا  
مبينا فهذا أمر واضح جدا بحيث لا يستطيع أشد المؤرخين القدامى  
تمسكا بالمنهج القصصى فى التاريخ انكاره . وعلى أى حال لا يزال الجدل  
يحدث حول الأسباب التى من أجلها تطورت هذه المرحلة على النحو الذى  
سارت فيه بين الكتاب الذين يهتمون بمثل هذه الأمور ومنهم المؤرخون  
النظريون السياسيون وعلماء الاجتماع وكتاب المقالات . أما جوهر الجدل  
فأمر يجب تسويته قبل أن يصبح شيئا ما كعلم الاجتماع الخاص بالثورات  
ممكنا . وموجز القول أن احدى الجماعات المتنازعة ترى بأن هذه الخطوات  
الأولى المجيدة فى الثورة قامت بها تلقائيا أمة متحدة ناهضة بكل ما فيها  
من قوة وفضائل لوقف قاهرها ، فى حين تصر جماعة أخرى على أن هذه  
الخطوات الأولى هى ثمرة سلاسل من مؤامرات متداخلة بدأت بها جماعات  
صغيرة من الساخطين تتصف بالعزم والتصميم ، على أن وجهة النظر الأولى  
يتخذها عامة أولئك الذين يؤيدون ثورة ما ، أما الثانية فيتخذها أولئك  
الذين لا يكون لها الولاء أو أنهم على الأثر يضمرون الولاء لذكريات النظام  
القديم . وفيما يخص روسيا : فقد كان ايمان لينين الثابت بالدور الذى  
لعبته الأقلية الماركسية المستقيمة التى لم تصدها وساوس البورجوازية  
القانونية هو الذى وضع نظرية التخطيط باعتبارها الطريقة الرسمية . وعلى  
العكس من هذا فان الأمريكين والفرنسيين وحتى الانجليز يصرون على  
أن هذه الثورات كانت انتفاضات تلقائية من أناس اشتدت بهم سورة  
الغضب . ومع ذلك هناك كل انواع الاختلافات فى هذا الموضوع ، وقد

وازن المعلقون المختلفون بطرق مختلفة بين هذين العنصرين : التلقائية والتخطيط للثورة .

وهذه المخالفة اوضح مايكون — كما أنها تعتبر في بعض النواحي نموذجا كاملا لتحقيق غرضنا — عند تأريخ الثورة الفرنسية . ولقد اعتاد أوجستين كوشين Augustin Cochin أن يصف هذه المخالفة بأنها المخالفة بين البحث في الظروف والبحث في الخطة أو بين التفسير اعتمادا على الظروف والتفسير اعتمادا على الخطط . وأولئك الذين يرون الثورة شيئا حسنا يقولون ان شعب فرنسا وبخاصة في باريس قام — بالثورة نتيجة للظلم الذى عاناه من الملك والحاشية وأن ظروف حياته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في ١٧٨٩ تعتبر في حد ذاتها كافية لتفسير ما حدث . ولو أنك اعطيت مثل هذه الظروف ثم رجالا ونساءا يجرى في عروقهم الدم الفرنسى فستحصل على ثورة بطريقة طبيعية « أو آلية » مثلما تحصل على انفجار عندما تصطدم شرارة بالبارود . وهذا التشبيه يمكن تطبيقه على خطوات معينة في العملية الثورية . فاضطرابات الباستيل كما يقول الجمهوريون الفرنسيون لم تكن مدبرة بأى حال من الأحوال ، وانها استمعت من باريس الى عزل نكر وعرفت أن الملك يحشد قواته حول باريس وفي ملايين المناقشات التى عفى عليها النسيان انتشر الفزع من أن الملك وحزبه على وشك أن يفض الجمعية الوطنية الثورية وأنه سيحكم بالقوة المسلحة . وعلى هذا فان باريس هبت بكل جبروتها وبغريزة واثقة واستولت على الباستيل كرمز للنظام القديم الكريه ودمرته تدميرا . وكان الشعب صاحب السيادة في هذا كله يستمد القيادة من ذاته ، تحركه ان شئت قوة طبيعية وكراهية للظلم وكان يقوده مئات من صفار الرجال صف ضباط الثورة ، ولم يكن فيهم أى ضابط من الجيش لم تحدته أى هيئة عامة أو أى جماعة صغيرة وضعت خطة متعمدة لشن الهجوم .

وتصر النظرية المعارضة على ان كل الحركة الثورية في فرنسا كانت من فعل اقلية مدبرة خبيثة من الماسونيين والمتفلسفين والمهيجين المحترفين . وهؤلاء الناس كانوا في النصف الثانى من القرن الثامن عشر

قد سيطروا على الصحف نفسها في أزمة اقتصادية حادة ومتزايدة عمل هؤلاء المتآمرون على شق طريقهم كالديدان الى مجالسها وأخيرا حصلوا على وعد باستدعاء مجلس الطبقات . وبدعاية انتخابية بارعة وسط جمهور لم يألف المجالس النيابية ملأوا المقاعد المخصصة للطبقة الثالثة بأعضاء من شيعتهم ونجحوا في التسلسل حتى الى صفوف ممثلي الطبقتين الأولى والثانية . لقد اعتادوا على العمل مكتئلين ، والى السنوات التي انقضت في مناقشة الإصلاح السياسي يرجع الفضل في أنهم عرفوا ما كانوا يريدونه . ولهذا فان أكثر هؤلاء المتآمرين تصميميا ومباداة استطاعوا أن يتحكموا في قرارات الجمعية الوطنية الكبيرة التي لم تتحدد ملامحها رغم أنهم كانوا أقلية من أعضائها البالغ عددهم ١٢٠٠ عضوا .

ان يوم الباستيل يبدو مختلفا جدا في نظر الكتاب الذين ينتمون الى هذه المدرسة ، فعندهم ان لويس كان يحشد القوات ليحمي الجمعية الوطنية لا ليحلها ، ليحميها من الأقلية المتطرفة التي كانت تسيء استخدام أجهزتها . وخوفا من الهزيمة راح هؤلاء المتطرفين يهيجون باريس بنات الطرق : أرسلوا الخطباء الى نواصي الشوارع والمقاهي ووزعوا المنشورات والكتيبات الثورية ، أرسلوا المندوبين لينشروا السخط بين القوات الملكية وخاصة بين رجال الحرس الفرنسي ، ولم يتورعوا حتى عن استجبار العاهرات ليكون تأثيرهم في الجنود أشد قوة . كان كل شيء معدا مقدما انتظارا للحظة السانحة وعندما هيات أتالة نكر هذه اللحظة أعطيت الإشارة وثار باريس ، ولكن لم يحدث هـ ذا تلقائيا فميرابو وأكثر الشخصيات الشعبية في الجمعية الوطنية — كانوا يبذرون بذور الثورة في حرص شديد باجراء التغييرات المناسبة يمكن استبعاد هذا النوع من التعارض بين التلقائية والتخطيط في كل ثوراتنا . ففي نظر أنصار أسرة ستيوارت — كانت الثورة الكبرى مؤامرة ناجحة لسوء الحظ قام بها الكلفانيون المحبون لجمع المال ضد انجلترا المرححة ذات التقاليد . ولما كان الأحرار هم الذين أعطوا السمعة لانجلترا الحديثة فان البرلمانيين ينظر اليهم على أنهم أبناء العهد الأعظم المحبون للحرية

الذين قاموا بشكل طبيعي جدا وتلقائى ضد طغيان آل ستيوارت الفظيع . اما الموالون للحكومة من الأمريكيين فقد كانوا يقولون ان خسر العناصر في الأمة تؤازرهم وأن الأحرار انتصروا عليهم بحسن تنظيمهم وخداعهم . ولقد نشأ أكثرنا بطبيعة الحال على أن نعتبر جورج الثالث طاغيا ومستأجرا للهسيانيين المرتزقة ، رجلا كان يرغب في سحق الأمريكيين وارغامهم على الخضوع البشع . لقد كانت الثورة الأمريكية بالنسبة لنا الرد التلقائى من أناس أحرار مجروحين من الوقاحة البريطانية .

وأخيرا يبدو أن بعض المهاجرين الروس لا يزالون يؤمنون بأن أقلية من البلشفيك ممن لا ضمير لهم نظموا بطريقة ما ثورتى فبراير وأكتوبر . أن الماركسية تبرئ الثورة من أى عيب وتعترف بأهمية التخطيط والقيادة في الحركات الثورية . ولهذا فبالرغم من أن التفسيرات الماركسية الرسمية لا تخفف بحال من الأحوال ذنوب القيصرية وطغيانها ورغم أنها تصر على أن الشعب الروسى هب في فبراير ١٩١٧ من كل قلبه باجماع الآراء تقريبا ضد القيصر فان هذه التفسيرات لا تزال تعترف بل وتهدج بالفعل الدور الذى قام به الزعماء والقادة في التخطيط للثورة بوعى أو على الأقل كان هذا هو التفسير المعقول في دوائر الماركسية الصحيحة ، وقد سجل كراى موثوق به في الجزء الأول من كتاب تروتسكى « تاريخ الثورة الروسية » .

وفي الواقع أن نشوء هذين التفسيرين المتضادين أو المتناقضين بصورتها المبالغ فيها فيما يتعلق بالخطوات الأولى للثورة هو في حد ذاته مماثلة واضحة نحصل عليها من المقارنة لثوراتنا . وفي الواقع أن هذين التفسيرين نشأ في وقت مبكر جدا ، فالثوار المنتصرون ينسبون نجاحهم الى قيام الغالبية في وجه الطغيان الفظيع ، أما مؤيدو النظام القديم المنهزمون فانهم ينسبون فشلهم الى خطط أقلية من الاشرار المهرة الذين لا ضمير لهم . وكلا التفسيرين لا يعنى بالحقائق أو التفسير العلمى للحقائق، كلاهما يستهدف ارضاء العواطف البشرية . ومن الطريف أن نذكر أنه حتى تفسير الثوريين يتلمس طريقة لتجنب ناحية العنف ويبدو أنه يستحى

الى حد ما من حقيقة الثورة . وهذا مرة أخرى امر طبيعي جدا حيث ان الثوار حينما يتسلمون السلطة يودون ان تبقى في أيديهم . ومما يساعد على تحقيق هذا الغرض مساعدة نافعة ان هناك احساسا عاما بين المحكومين بانه من الخطأ مقاومة أولى الأمر . وعلى العموم فان الثوار الظاهرين لا يستجيبون غالبا الى رغبة جيفرسون في أن تحدث ثورة كل عشرين سنة أو نحو ذلك . بل هم يكرسون جهودهم ليخلقوا أسطورة حول ثورتهم لتصبح آخر الأمر ثورة ضرورية . ثم أن النظرية الماركسية تتوقع هذا ، ما دامت الثورة البروليتارية تؤدي الى مجتمع لا طبقي انمحي فيه صراع الطبقات فلا حاجة فيه الى الثورة .

ومع كل فنى مقدورنا أن نسترسل الى أبعد من مجرد هذه الملاحظة البسيطة لانقسام الراى بين محبى ثورة معينة وكارهيها فقد يمكننا أن نغامر بالقول بأن ثمة شىء من الحقيقة في كل من التفسير وفقا للظروف والتفسير وفقا للخطة الموضوعية ، ولقد يبدو هذا للكثيرين اليوم انه حل غير دقيق مبنى على الهوى وتمسك غبى بفكرة قديمة عن الوسط بين امرين مبالغ فيهما . ولكن يبدو أن له صلة بالحقائق المرضية أكثر من كل من التفسيرين المتطرفين .

أن يوم الباستيل قد يستخدم مرة أخرى كمثال . وان الشواهد جمة على أن الجماعات المنظمة ساعدت بالفعل على اثاره الاضطراب في باريس في تلك الأيام من يوليه . . وانا لنعرف أن الجماعات المتطرفة — من الوطنيين — في جمعية فرساي كان لها علاقات وثيقة مع الساسة في باريس . وكان نوع من التنظيم السياسى قد بقى بعد انتخابات باريس في أيدي الطبقة الثالثة وكان هؤلاء الناخبون الباريسيون هم الذين ساعدوا كثيرا على قيام تنظيم جديد للبلدية وحرس وطنى جديد من فوضى الاضطرابات . ان معظم وصف المالكين للمندوبين الذين يطوفون وسط الجماهير وللنشرات الملتهبة بل والمومسات المأجورات صادق في جوهره ، ولكن ليس صحيحا أن هذه العناصر القائمة بالتخطيط يمكن ارجاعها الى جماعة واحدة أو جماعتين من الجماعات الصغيرة المتآمرة ، الى دوق أورليانز او فئة قليلة

من الماسونيين . وفي الواقع أن كلمة « مؤامرة » كلمة سيئة فيما عدا ما يتعلق بأغراض اليمينيين في الدعاية إذ أن فائدتها كبيرة . وفي الواقع هناك شواهد على أنواع النشاط المتعدد الذي قامت بها جماعات من ذلك النوع الذي يعرفه جيدا أى مراقب دقيق للمجتمعات — الجماعات الضاغطة ، الأحزاب السياسية ، الشيع الشبيهة بالجماعات الدينية والتجمعات الثائرة . وعلى أى حال ليس هناك دليل على أن هذه الجماعات الشديدة التنافر كانت في يولية ١٨٧٩ تدار من أى مركز أو كانت تسيطر عليها هيئة ادارية صغيرة موجهة .

وعلى العكس من ذلك هناك كل الأدلة على أنه عندما أثارت اقالة نكر هذه الجماعات المتنوعة قام الغوغاء بما فعلوه . ولم يقل أحد حتى الآن الكلمة الأخيرة في سيكولوجية الجماهير ولكن من المتفق عليه الى حد كبير أن أبرع زعماء الجماهير لا يستطيع قياس سلوكها مقدما . ومن الواضح فعلا أن باريس في تلك الأيام لم يكن فيها فريق واحد بل عدة مجموعات على الأقل . فقد خرج الناس الى الشوارع لأن جيرانهم كانوا قد خرجوا اليه قبلهم . . وهاموا على وجوههم هنا وهناك يهتفون وينشدون ويتوقفون بين الفينة والأخرى اما ليعودا الى احتساء الخمر أو الاستماع لخطيب آخر في ناصية الشارع . أما من نصبوا أنفسهم زعماء للجماعات الصغيرة فكانوا قطعما يضيفون جهدهم الى أى خطة مرسومة . ان قرار الزحف على الباستيل اتخذ فيما يبدو بشكل مستقل في احياء متعددة ولا أحد يعرف على وجه اليقين من الذى جاعته أولا هذه الفكرة المتألقة بالذهاب الى مستشفى الانفاليد للاستيلاء على الأسلحة الصغيرة . ويبدو أن المظاهرة قد هدأت لا بسبب سقوط الباستيل بل بسبب الارهاق الذى أصاب المتظاهرين . ان ثلاثة أيام تعتبر فترة طويلة اذا قضاها الانسان متظاهرا أو مخمورا أو كليهما .

وما يصدق في شأن الاستيلاء على الباستيل يصدق على العمل التحضيرى العام والمراحل الأولى للثورات كما ناقشناها في هذا الفصل . ولقد تركزت ثورة فبراير الروسية في بتروجراد طوال أسبوع وهى تبدو

مثل مظاهرات الباستيل ولكن على نطاق أكبر . ان تروتسكى كرس جزءا من افضل كتاباته في وصفه لثورة فبراير وفي وصفه المتزن لما يجب ان يعتبر انتفاضات شعبية تلقائية وما يجب ان ينسب الى الخطط الثورية الواعية . ويقول كيرنسكى في صراحة ان الثورة حدثت من تلقاء ذاتها غير موجهة من احد وولدت خلال الفوضى التي اقترنت بانهيار القيصرية . ويعترف تروتسكى بان احدا لم يخطط او يتوقع الثورة عندما حدثت فعلا ، وانها نبعث من خلال بيانات الاثتراكيين العادية ومظاهر هينة تطالب بالخبز . ولكنه يضيف ان هذا التطور كان يقوده عمال واعون متحكمون في عواطفهم وتلقوا معظم تعليمهم على ايدى حزب لينين . وقد نرتاب في الجزء الاخير من هذا الوصف ولكن لا يمكن ان يكون هناك اى شك في انه خلال الايام الاخيرة من مظاهرات بتروجراد كان زعماء سوفيينت المدينة القادم وزعماء الحكومة المؤقتة الآتية قد اتحدوا لاسقاط الحكومة القيصرية بالقوة .

اما دور الجماعة الضاغطة فهو اوضح ما يكون في المراحل الاولى في الثورة الامريكية . ففى ابريل ١٧٦٣ نظم تجار بوسطن « جمعية لتشجيع تبادل السلع والتجارة مع ولاية خليج مساشوستس تشرف عليها لجنة مكونة من خمسة عشر عضوا لمراقبة شئون التبادل التجارى والدعوة للاجتماعات . وكانت تقارير نشاطهم ترسل الى التجار في المستعمرات الاخرى . ولقاومة قاتون الدمغة نظم المعارضون أنفسهم على انهم « ابناء الحرية » وكانوا يجتمعون علنا احيانا وسرا احيانا اخرى لتشجيع العمل على الثورة . وكانت لجان اليقظة التابعة لهم تتحرى عن مبيعات ومشتريات كل رجل من رجال الاعمال وتتقصى مصروفات وايرادات كل عائلة ، وتفحص آراء الامراء التى ترسل اليها . وكانت المدينة والولاية في الشمال والولاية في الجنوب مسرحا للاجتماعات العامة وللقرارات . وكانت لجان Sam Adams المراسلة التى نظمت في الاصل كمجموعات خاصة ضاغطة يديرها سام آدمز فيما بعد ببراعة حتى حلت جزئيات مكان اجتماعات المدينة الأكثر تحفظا . ولقد دعا آدمز في ١٧٧٣ الى اجتماع لجنة مشتركة من بوسطن ودور شستر و روكسبرى وبروكلين و كمبردج ، تمكنت من التغلب على اصوات التجار المحافظين



وقتئذ . وكان العنف يستخدم كلما بدا ذلك ضروريا خلال الحركة . من الأعمال العظيمة التي تمت حينذاك حفل شاي بوسطن حيث ضرب المحافظون .

ومع ذلك فان أشد الواقعيين من مؤرخينا العصريين لا يذهب بعيدا الى حد التقرير بأن الثورة الأمريكية قد دبرتها أقلية ضئيلة .

ان حصيلة اثني عشر عاما من الأخطاء البريطانية ، ومن منح الامتيازات والغانها ، ومن الهاب المشاعر وتهدئتها بالاضافة الى الاضطرابات الكثيرة في انحاء البلاد كان لا بد أن تؤدي في ١٧٧٥ الى مؤازرة الشعب عامة لمؤتمر القارة في مقاومته لجورج الثالث . ومن المستحيل تماما أن نقول كم من الأحرار وكم من الموالين للحكومة وكم من السلبين أو المحايدين كانوا في المستعمرات الثلاث عشرة عند انفجار الثورة المسلحة . ولربما كان هناك عدد من الموالين للحكومة أكبر نسبيا مما كان من الملكيين المتطرفين في فرنسا ١٧٨٩ وأكبر كثيرا من القيصريين في روسيا في ١٩١٧ . ولربما كان في أمريكا الثائرة عدد من الموالين للحكومة أقل من عدد أنصار آل ستيوارت في إنجلترا سنة ١٦٤٢ . ولكن المسألة في كل هذه الحالات لا تعدو أن تكون نسبية . فقد كانت الثورة الأمريكية كغيرها من الثورات نتيجة الى حد ما لأقلية نشطة قادرة لها مكانتها وأهميتها تعمل للتأثير على أغلبية كبيرة من المستائين الى حد يكفى لاثارتهم حين يجيء الوقت المناسب .

ونلخص الموضوع في شيء من الاستعارة ، ان مدرسة الظروف تعتبر الثورات نموا برييا وطبيعييا ، تلقى بذوره وسط الطغيان والفساد ، يحدد تطوره كله قوى خارج نطاقه ، او على أية حال خارج التخطيط الانسائي ، اما مدرسة الخطة فتعتبر الثورات نموا الزاميا ومصنوعا تزرع بذوره بعناية في أرض أعدت تربتها وخصبها البستانيون الثوار وانها تبلغ النضج بطريقة غامضة على ايدي هؤلاء البستانيين أنفسهم ضد قوى الطبيعة . وفي الواقع يجب أن نرفض هذين الطرفين النقيضين لأن كليهما هراء وأن نؤمن بأن الثورات تنمو فعلا من بذور غرسها اناس يريدون التغيير وأن هؤلاء الناس يبذلون جهدا كبيرا في تنظيم الحداثق ولكنهم

كبيسنايين لا يعملون ضد الطبيعة وانما بالأحرى يعملون في تربة وفي طقس ملائم لعمهم وان الثمار الأخيرة تمثل تعاوننا بين الناس والطبيعة .

### رابعاً - دور القوة :

وهناك تشابه آخر لا يسد ان نتبينه في هذه الخطوات الأولى لثوراتنا وقد يكون أوضحها وأهمها جميعاً . فهناك في كل ثورة نقطة أو عدة نقط فيها تتحدى السلطة القائمة الأعمال غير القانونية التي يقوم بها الثوار . وفي مثل هذه الحالات يكون الرد العادي من جانب أى سلطة هو الالتجاء الى القوة بوليسية كانت أو حربية ولقد قامت سلطاتنا بمثل هذا الرد . ولكن في كل حالة كان الفشل ذريعاً . ولقد اثبت الحكام والمسئولون عن مثل هذا الرد في كل مجتمعنا انهم عاجزون تماماً عن استخدام القوة بطريقة سديدة . ولننظر أولاً الى حقائق حالاتنا التاريخية .

لم يكن في انجلترا جيش دائم كبير ، وبطبيعة الحال لم يكن هناك ما يشبه الشرطة العصرية . وفي الحق أن موضوع السيطرة على ما يمكن ان نسميه جيشاً دائماً كان أحد الموضوعات الكبيرة التي ثار حولها الجدل بين أول اثنين من آل ستيوارت وبين برلماناتهما . ولقد اضطر الملك الى أن يسكن جنوده في بيوت المواطنين الخاصة وذلك لكي يحتفظ بأى شكل من أشكال الجيش . وكان هذا الاسكان من أشد المطاعن ضد شارل الأول . وعندما عبر جيش اسكتلندي الحدود اضطر شارل لدعوة البرلمان الطويل الأمد للحصول على الأموال اللازمة لدفع الفدية . وعندما اقتربت القطيعة الفعلية بين الملكية والبرلمانيين حاول كلا الجانبين ان ينشئ قوة مسلحة . وكان شارل يحظى بولاء الضباط من النبلاء وعدد من المستأجرين اتباع النبلاء والأعيان يكفى لانشاء ما كان في ذلك العهد يعتبر أقوى قوة مسلحة تسيطر عليها الحكومة أو المحافظون أو الحزب الحاكم في أى من ثوراتنا الأربع . الا أن الحرب الأهلية أثبتت افتقاره الى الجنود المهرة وبالنسبة الى المصادر البشرية المتاحة للبرلمان . ولقد هزم شارل في اللحظة الأولى لأن القوة الحربية الحاسمة كانت تعوزه .

وكذلك في الثورة الأمريكية فلم يكن لدى الموالين للحكومة من الأمريكيين ولا الجيوش البريطانية القوة الكافية تماما اللازمة لتقلب على الثوريين . وجدير بالملاحظة انه في المراحل الأولى أخذ البريطانيون على عاتقهم ادخال ما كانوا يعرفون انه تغييرات حكومية غير مألوفة مع عدم الاهتمام المذهل بحاجيات الشرطة . ومما لا شك فيه أن التراث البريطاني القديم في الحكم الذاتى المخلص جعل من العسير على حاكم مستعمرة بريطانية أن يتصور استخدام أى طرق أخرى . ولكن تبقى الحقيقة وهى أن هذه القوات التى كانت موجودة في شمال أمريكا سنة ١٧٧٥ كانت غير كافية تماما لفرض السلطة بالقوة . أما كم كان عدد الجنود اللازمين فعلا لحفظ السيطرة الملكية على خليج ماساشوستس أكثر مما كان لدى جيدج Gage فأمر يعتبر من قبيل التخمين ويعتبر عديم النفع للتاريخ وفقا للظروف . وعلى أى حال فان من الثناء الذى لا موجب له على حب الأمريكيين للاستقلال أن نفترض انه لم يكن في وسع أية قوة حربية أن تسيطر على ماساشوستس . كان هناك نابليون بدلا من جيدج فلربما تبدلت نهاية القتال . أما هل كان يمكن الا تتمخض مثل هذه السياسة القائمة على القهر عن ثورة ناجحة بأى كيفية فهذا أمر ليس من شأننا مناقشته . وان ما يعنينا هو الحقيقة البسيطة وهى أن في أمريكا أيضا كانت الهزيمة الأولية الهامة للحكومة ترجع الى فشلها في استخدام القوة بكفاية وبراعة .

ولقد كان لدى لويس السادس عشر في ١٧٨٩ قوة حربية يمكن الوثوق بها الى حد لا بأس به . ولربما كانت قواته الفرنسية عرضة لدعاية الوطنيين . ولكن كان لديه قوات هامة في القصر ، ومرترقة جنودا من شعوب أجنبية وخاصة من السويسريين والألمان بعبيدين عن متناول المثيرين الفرنسيين . أما أن السويسريين كانوا على استعداد للموت في سبيله أو في سبيل واجبهم فهذا أمر أثبتته الظروف بعد ثلاثة أعوام عند الهجوم على قصر التويلرى . ولقد كان لديه وبخاصة في المدفعية مجموعة من الضباط الأكفاء يمكن الاعتماد على أكثرهم في هذه المرحلة . ومع ذلك فعندما حانت اللحظة الحاسمة وقامت المظاهرات في باريس في شهر يوليو فشل هو ومستشاروه في استخدام القوة الحربية ، ولكن

أحدا لا يستطيع تجنب التساؤل عما كان يمكن أن يحدث لو أن قوات قليلة منظمة مزودة بالبنادق حاولت أخمد باريس في ١٧٨٩ . ولقد كان على نابليون أن يظهر فيما بعد أن مثل هذه القوة تستطيع في الحال أن تخمد مقاومة المدنيين كما كان لا بد أن تؤكد هذه الحقيقة على نطاق واسع في يونيو ١٨٤٨ و ١٨٧١ . ولربما كان لويس قد فشل . ولكن المسألة هي أنه لم يحاول مجرد محاولة . ومرة أخرى فشلت الحكومة في استخدام القوة بكفاية كاملة .

وبتروجراد في ١٩١٧ هي أكمل مثال لهذا الدور الهام الذي تقوم به القوة الحربية والبوليسية . ان الجميع ابتداء من القيصريين حتى التروتسكيين يقررون أن ما حول المظاهرات المضطربة غير الهادفة بعض الشيء الى ثورة انها كان فشل خطة الحكومة في اعادة النظام في بتروجراد . ولقد فشلت الخطة لانه في اللحظة الحرجة رفض الجنود أن يهاجموا الشعب وانضموا فرقة بعد فرقة الى الشعب . ثم هناك ميزة تمتلكها قوة حربية مزودة بالدفعية الحديثة لتتفوق بها حتى على أشد الثوريين المدنيين الهام . وما من شك لو أن فرق القوازي وعددا قليلا من الفرق المشهورة مثل فرق بريوبرازنسكى كانت شديدة الولاء للحكومة فلربما كان في مقدور حتى حكام بتروجراد على عجزهم البادى بعض الشيء أن يخدموا الاضطراب . أما انه كان لا بد من حدوث مظاهرات أخرى اشد سوءا خلال شهور قليلة في ظل ظروف الفشل في الحرب فهذا امر لا يعنينا هنا . وعلى كل فقد يجرنا الموقف الى أن نذكر كجملة اعتراضية أن الفكرة الشائعة في هذه الأيام من أن الأسلحة الحديثة تجعل قيام مظاهرات الشارع مستحيلة في المستقبل فكرة خاطئة . فحتى الأسلحة الحديثة لا بد من أن يستخدمها رجال الشرطة أو الجنود الذين يستبعد التأثير عليهم .

ومع ذلك فان هذا الفشل المذهل من جانب الحكام في استخدام القوة بنجاح ليس ظاهرة منفردة أو جاءت مصادفة . فالواقع أنها تبدو مرتبطة اشد الارتباط بعدم كفاية الطبقة الحاكمة وعجزها على نحو ما لا حظناه في الفصل السابق . ولقد قضت السنوات الطويلة من التدهور على نظام الجيش كما أن سوء المعاملة دفع الجنود الى مشاركة المدنيين

وفقد الضباط ايمانهم بالقيم العسكرية التقليدية الحمقاء . ولم يكن هناك قيادة تتولى التنسيق ولا ثقة ولا رغبة في العمل . وان كان هناك بعض من هذه الاشياء فانها ما كانت توجد الا في بعض الأمراد وتضيع وسط العجز والتردد والتشاؤم الشامل . ويبدو أن قضية المحافظين بل وقضية شارل الأول نفسه — كانت قضية خاسرة منذ البداية . أما الحالة الأمريكية فهي مختلفة بعض الشيء . فهنا نجد حكومة استعمارية عاجزة لا طبقة وطنية حاكمة عاجزة .

ونستطيع اذن ونحن مطمئنون — أن نعزو فشل المحافظين في استخدام القوة ببراعة الى تدهور الطبقة الحاكمة . وفضلا عن ذلك اننا نتناول جماعات كبيرة الى حد ما من ذلك النوع الذي اعتدنا معالجته على أساس انها موضوعات صالحة للتعميم الاجتماعى . ومع ذلك فعندما نحاول أن نضع الرؤوس الأربعة المتوجة لمجتمعاتنا تحت مثل هذه القاعدة العامة فلن نستطيع بسهولة أن نخفى احساسنا بأنه ليس لدينا أسس احصائية كافية . الا أن شارل الأول وجورج الثالث ولويس السادس عشر ونيقولا الثانى يظهرون تشابها ملحوظا حتى أن الانسان ليتردد في القول بأن ذلك جاء مصادفة . ويؤكد تروتسكى مطمئنا أن مجتمعا متدهورا لا بد أن يصيبه العجز الذى أظهره هؤلاء الملوك . ولسنا نجرؤ على أن نقول مثل ذلك ونحن مطمئنون . ولكن علينا أن نسوق هذا التشابه في سلوك الرجال الأربعة على أنه جزء صحيح من التشابهات التى لاحظناها . وعلى أى حال فان كونهم على ما هم عليه كان له دور هام في تلك العملية التى كسب الثوار من خلالها انتصاراتهم الأولية الحاسمة على سلطة عاجزة . وعلى أقل تقدير يستطيع الانسان أن يتبين في كل هؤلاء الملوك أخطاء تشير الى افتقارهم الى المقدرة الفنية اللازمة لحكم الناس . فلو أن لاعبا من لاعبي البيسبول استمر يضرب ضربات سيئة في سلسلة طويلة من المباريات وعدد كبير من الملاعب فربما يرجع ذلك الى ضعف في البصر أو هموم عائلية أو عدة أسباب أخرى . ولكن مع ذلك تبقى الحقيقة البسيطة وهى أنه لاعب كرة سىء . ولقد كان ملوكنا الأربعة ملوكا مساكين بالرغم من أنهم كانوا جميعا ارباب عائلات صالحين وكانوا رجالا ممن يمكن اعتبارهم بصفة عامة اشخاصا طبيين أو على الأقل اشخاصا حسنى النية . ولقد

كان نيقولا بسيطا وغيورا مثلما كان جاهلا يتثبت بالخرافات ، وربما كان بمقاييس المستويات الخلقية المسيحية اسوا الجميع ولكنه أبعد ما يكون عن القسوة والظغيان . وكان لويس رحيما ، طيب القلب ولكنه لا يصلح مطلقا لادارة شئون الدولة . وكلا الرجلين كانا ناقصي العقل وكانا الى حد كبير واقعين تحت سيطرة زوجات ذوات عزم ، متقلبات الأهواء ، متعجرفات وجاهلات . وكلاهما ترك يوميات تظهر شبابها مذهلا في الغباوة . ولقد خرج لويس للصيد في يوم الباستيل وكتب في مذكراته في ذلك اليوم « لا شيء » وفي أزمة متشابهة سجل نيقولا أنه « مشى طويلا وقتل غرابين ، وشرب الشاي اثناء النهار » .

ولسنا بقادرين هنا ان نتمادى في هذا الموضوع الجذاب الخاص بالشخصيات التي كانت لهؤلاء الحكام . وكان جورج الثالث متعجرفا غيبا وعنيدا وهى صفات سيئة في الحاكم ، أما شارل فهو أكثر الأربعة جاذبية من الناحية الانسانية . وهناك أساس سليم للأسطورة الرومانسية التي نسجت حوله . ولكنه كان ملكا سيئا لعدد من الأسباب ربما كان اهمها — أولا — العجز الكامل تقريبا عن تفهم ما يدور في قلوب رعاياه الذين يسمون عادة (البيوريتان) وهذا بالتأكيد يشمل الكالفانيين الاسكتلنديين — ثم — ثانيا — الميل الى تدبير المكائد المحبوكة . وفي السياسة يكون الذكاء والكيد أكثر امانا لو انهما ظلا بعيدين بعضهما عن بعض بطريقة مهذبة . وبهذا القدر من التلخيص يمكن ان نختم الكلام عن ملوكنا . ومهما يكن من اختلافهم كرجال منذ كانوا سواء في كونهم عاجزين تماما عن استخدام القوة بطريقة فعالة حتى لو كانوا يمتلكونها في مراحل الثورة الاولى .

واذن ففيما يتعلق بثوراتنا يمكن ان نسجل هذا التشابه الأخير بكل بساطة ، لقد كانت ناجحة في مراحلها الاولى ولم تصبح ثورات فعلية بدلا من مجرد مناقشات أو شكاوى أو مظاهرات الا بعد ان تغلب الثوار وانتصروا على قوات الحكومة المسلحة . ولا نستطيع هنا أن نحاول أن نقدم التشابهات مع ثورات أخرى أو الثورات عامة . ولكن قد نقترح في شكل تجريبي وافترضى الى أقصى حد تعميم القول بأن الحكومة لا تسقط أبدا امام الثوار الا بعد ان تفقد سيطرتها على قواتها المسلحة أو تفقد

القدرة على استخدامها استخداما فعالا . والعكس صحيح أى أن الثوار لا ينجحون مطلقا الا بعد أن يحصلوا على السيطرة الفعلية على القوة المسلحة ووقفوها الى جانبهم . ان هذا يصدق على كل الأسلحة من الحراب والسهام الى المدافع الرشاشة والغازات .

#### رابعا : شهر العسل :

ان المرحلة الأولى فى كل ثوراتنا الأربع تنتهى بانتصار الثوار بعد شىء أقرب الى المأساة منه الى اراقة الدماء الحارة . لقد تمت هزيمة العهد القديم البغيض بسهولة . أن الطريق مفتوح أمام التجديد الذى ظل الناس يتحدثون عنه وقتا طويلا ويأملون فيه كثيرا . وحتى ثورة فبراير الروسية رغم أنها اندلعت فى خضم من يؤس الهزيمة وعارها على ايدى الألمان والنمساويين قد استقبلت بالأمل والفرح اللذين يبدوان طبيعيا لثوراتنا الأربع . كان الروس فى كل مكان يتلقون الأنباء السارة بكثير من الابتهاج . وكان الأحرار فرحين مثلما كان أجدادهم فى الـ ١٨٧٦ والـ ١٨٨٩ . أما وقد تطهرت روسيا من وصمة الحكم المطلق ، فقد أصبح فى وسعها أن تأخذ مكانها وهى مطمئنة بين اخواتها من ديمقراطيات الغرب وتشارك فى فاعلية جديدة فى حرب صليبية ضد القوى الباقية الوحيدة للظلام من أسرتى الهوهنزولرن والهابسبرج .

ولقد نمت مرحلة شهر العسل للثورة فى فرنسا الى أقصى حد من الكمال حيث قامت الثورة فى فترة سلام وعند نهاية حركة المتقنين الكبرى المسماة بحركة الاستنارة التى أعدت عقول الناس لمعجزة جديدة وعملية . وكتب وردورث فى هذا الشأن :

فرنسا واقفة فوق قمة الساعات الذهبية (وكانما الطبيعة الانسانية قد ولدت من جديد) وأخذ الشعراء فى البلاد المختلفة ينظمون القصائد للاحتفاء بمولد فرنسا والنوع البشرى من جديد . ولم يكن الشعراء فى هذا وحدهم من رجال الأعمال المتزنين المهنيين وأعيان الريف وكل أولئك الذين يميلون فى القرن العشرين الى النظر الى الثورات فى هلع

هم الذين شاركوا في الفرع . بل في أقصى الجهات في روسيا غير المستنيرة  
أضاء النبلاء بيوتهم احتفالا بسقوط الباستيل .

ويروى ستفنز Steffens الأديب الدانمركى في بعض رسائله  
الأدبية كيف أن أباه جاء الى المنزل ذات ليلة في كوبنهاجن وجمع أبناءه من  
حوله وأخبرهم ودموع الفرع تنساب من عينيه أن الباستيل قد سقط ،  
وأن عصرا جديدا قد بدأ وانهم اذا فشلوا في الحياة فعليهم أن يلوموا  
انفسهم لأنه منذ تلك اللحظة « سينمى الفقر ويصبح لاحظ الناس  
وكانت المعارضة في الواقع من فئات مختلفة ، ولم تكن قط على هذا  
مكانة أن يكافح في الحياة على قدم المساواة مع أقوامهم ، بأسلحة  
متساوية وعلى أرض متساوية » . واغتبط الأمريكيون والانجليز ، ان  
العدو القديم قد جاء ليشارك الشعوب التى تريد أن تحكم نفسها  
بنفسها . والفرنسيون انفسهم كانوا لفترة قصيرة سعيدة متحمدين في  
آرائهم . لقد ادرك الملك خطأ المسالك التى سار فيها وعائق البطل  
لافاييت وأتى الى مدينته الطيبة باريس ليسمع هتافات ابطال الباستيل .

الا ان فترة شهر العسل حتى في فرنسا كانت قصيرة وكانت في روسيا  
أقصر . أما في انجلترا وأمريكا فلم تكن أبدا لها نفس هذا الوضوح  
أو نفس هذا التحديد . ففي المراحل الأولى وعند اللحظة الحرجة  
عندما يجيء وقت اختبار القوة كان النظام القديم يواجه معارضة متينة  
وكانت المعارضة في الواقع من فئات مختلفة ولم تكن قط على هذا  
النحو من التبسيط المبالغ فيه شعبا متحدا . ولكن تجمع بينها ضرورة  
المعارضة الفعالة للحكومة وتجعل منها وحدة سياسية حقيقية ، شيئا  
أكثر من مجرد تألف عرضى لعناصر متناقضة وان انتصارها — اذا كنا  
على استعداد لأن نأخذ التعريفات مأخذا نقديا وليس عاطفيا — لهو  
انتصار « للشعب » على « قاهريه » . لقد أظهر انه أقوى وأقدر من  
الحكومة القديمة في هذا الوقت من الأزمة . وأصبح حينئذ هو الحكومة  
ويواجه عددا جديدا من المشاكل . وعندما بدأ فعلا في العمل لمعالجة  
هذه المشاكل انتهت فترة شهر العسل .



# الفصل الرابع

## أنماط الثوريين

### أولا – العبارات المبتذلة :

ولا ريب أننا لو استطعنا أن نعزل الثوري كنمط فإن ذلك يساعدنا في بحثنا في هذا الموضوع . ومواصلة لتشبيها بالحمى نقول هلا يمكن أن يقوم بعض الأفراد بدور « الحاملين لجراثيم المرض » وان في الامكان تصنيفهم وتسميتهم ووصفهم بعبارات اقتصادية واجتماعية مثلها يمكن وصفهم بعبارات سيكولوجية أو عامة . ان هذا على أى حال مقدمة يبدو أنها تستحق منا المتابعة .

ومع ذلك هناك طرق متعددة قد تضللنا فيها هذه المتابعة ، وعلينا أن نحذر اعتبار الثوريين – وزعماء الثورة بصفة خاصة – حاملين بمعنى الكلمة لجراثيم مرض الثورة . وهنا كما هو في كل هذه الدراسة يجب ألا نسمح اطلاقا لخطتنا التصورية أن تقودنا الى الوهم . يجب أن تكون شيئا ملامها ولا خداع فيها . ويجب علينا أكثر من أى وقت آخر تجنب استخدام عبارات المدح أو القدح التي يتردد صداها في كل ركن من أركان هذا الميدان بالذات . وذلك لأن الكلمة البسيطة « الثورى » قد تثير في عقول معظمنا شخصية انسان غير أهل للنقد نسبيا وأن نوعا من التغيرات في الاتصالات اليومية تخدمنا بقدر كاف لفهم سريعا كلمة « شاعر » أو « استاذ » أو « رجل فرنسى » .

وحتى أقدر المفكرين وأكثر الفنانين دقة ومراعاة للكلمات يجبرون في الحياة اليومية على استخدام عبارات قريصة جدا من تلك التي تخدم

رجل الشارع . وانت وأنا بطبيعة الحال لا نتصور الشعراء على انهم مرسلو الشعر رقيقو المشاعر وبوهيميون ومصابون بالدرن ولا الاساتذة على انهم غير عمليين وشاردو الذهن وعطوفون أو ذوو لحي ولا الفرنسيين على انهم مؤدبون يلبسون انخر الثياب وذوو شوارب مشمعة وأزيار نساء . ولكننا لا نستطيع أن ندخل مثل بروسـت Proust في تعقيدات لغوية مع انفسنا عندما نستخدم مثل هذه الكلمات ولا يمكننا كذلك أن نستخدمها استخداما دقيقا كما يفعل العالم المنهجي . انها سنمضي بها على احسن ما نستطيع ونحاول أن نكيفها بقدر الامكان مع تجربتنا وعواطفنا .

والآن كل ما تعنيه كلمة « ثورى » عند هذا المستوى بالنسبة لمختلف الأفراد والفئات هو في حد ذاته عنصر هام في الدراسة الاجتماعية الكاملة للثورات . وان ما يحس به الناس على اختلاف انواعهم بالنسبة للثورة ربما تكون دراستها من أسهل الأمور في العبارات التي تبرز من كلمات مثل «ثائر» و «ثورى» أو مرادفاتها الأكثر واقعية مثل «يعقوبى» ؛ « شيوعى » و « أحمر » وما اليها . ولسنا نستطيع أن نحاول مثل هذه الدراسة هنا ولكن علينا أن ننعم النظر في القليل من هذه العبارات — الا على سبيل التحذير والمقارنة .

ولربما كانت كلمة « ثورى » تحمل بالنسبة لأكثر الأمريكيين في القرن العشرين رينبا غير مستحب . وفي نظر الصحافة المحافظة يبدو الشائر في صورة انسان رث الثياب له عينان كعيون الوحش طليق اللحية جهير الصوت يجيد الخطابة والتآمر ضد الحكومة ومستعد للعنف ومع ذلك يخاف منه . وحتى عند السفسطائيين يخيل للانسان أن كثيرا من مواطنينا يحسون هذا الاحساس تجاه الثوريين أو انهم على اى حال مقتنعون انهم قطعا أشخاص ذوو اطوار غريبة فاشلون في ظروف ما قبل الثورة يعانون من مركبات النقص يحسدون من هم احسن حالا منهم وملتزمون تماما بشعار « ضد الحكومة » وفقا لبدئهم أو استعدادهم . وهناك صور اخرى أكثر اشراقا للثوريين تنبثق بلا شك في اذهان اخرى .

وإذا حكمنا على ضوء ما يكتبه بعض كتابنا البروليتاريين — وان كانوا هم أنفسهم ليسوا ببروليتاريين — الثورى انسان متين البنية من عمال الفولاذ عريض المنكبين لم يفسده زيف البورجوازية الذى يسمونه تعليما ولكنه يحفظ تعاليم ماركس ولينين قوى عطوف له روح المحارب وعليه لمسة من لسات شيلى الفدائية .

والآن فان الفوائد الاجتماعية لمعتدات من هذا القبيل جلية بما فيه الكفاية . ففى مجتمع بورجوازي قديم مثل الولايات المتحدة من المحتمل ان تكون العواطف المعادية للثوريين عوامل هامة فى حفظ الاستمرار الاجتماعى . لقد كان الثوريون على صواب فى ١٧٧٦ ولكنهم ليسوا كذلك الآن . وان أى مجتمع ناجح لا بد وان يضم أعدادا كبيرة من الناس الذين يحسون هذا الاحساس تجاه الثوريين . وحتى فى روسيا حيث الذكريات عن الثورة العنيفة ما زالت حية تبذل الحكومة مجهودا ضخما للحط من شأن الثوريين الديمويين الذين لا زالوا على قيد الحياة . لقد كانت الثورة شيئا حسنا فى ١٩١٧ ولكنها ليست الآن كذلك أو على أقل تقدير تعتبر الثورة الآن فى روسيا كما كانت ابان محاكمات كيروف Kirov فى الثلاثينات من عام ١٩٣٠ « ثورة مضادة » . ومن ناحية أخرى فمن الواضح أن الراديكاليين والمتطرفين الذين يرون فى الثوريين زملاء اعزاء ويعتبرونهم ابطالا وشهداء يزيدون بذلك من عددهم ويقوون أنفسهم لاثارة الاضطرابات .

ومع ذلك فان العالم الاجتماعى لا يستطيع ان يدع المسألة تتوقف عند هذا الحد . فعليه ان يحاول تصنيف الثوريين تصنيفا موضوعيا وهو تصنيف معقد بقدر ما تقتضى معلوماته عنهم . ونستطيع ان نقول مطمئنين ان العرض السريع لثوراتنا الأربع التى يعيننا امرها ابعد ما يكون عن تأييد أى مجموعة من العبارات التى سبق ذكرها . وجدير بالذكر انه رغم أن الحط من شأن الثوار هو الأعم من هذه البلاد فان مثل هذا العرض لا يؤيد القول بأن ثوريينا كانوا اصحاب علل وجهرى الصوت ومن قاذفى المفرتمعات الفاشلين فى ظل النظم القديمة . فاذا ما أدرجنا

— وهذا ما يجب — هؤلاء الذين قاموا بالخطوات الأولى في الثورة وكذلك هؤلاء الذين حكموا في عهد الارهاب فان نمطنا يصبح أقل بساطة .

ولنأخذ كيفما اتفق قائمة بالأسماء التي ترد الى الذهن : هامبدن Hampden وسير هارى نين Sir Harry وجون ملتون John Milton وسام آدامز Sam Adams وجون هاتكوك J. Hancock وواشنطن Washington وتوماس بين Thomas Paine ولاناييت Lafayette ودانتون Danton وروبسبير Robespierre ومارا Marat وتاليران Talleyrand وهبير Hebert وميليوكوف Miliukov وكونوفالوف Konovalov وكيرنسكى Kerensky وشيشيرين Chicherin ولينين Lenin وستالين Stalin

كل هؤلاء ثوريون ، وجميعهم عارضوا السلطة القائمة بقوة السلاح . وتضم القائمة عددا من كبار النبلاء وسادة وتجارا وصحفيين وطالبا يدرس ليكون قسيسا وأستاذا في التاريخ ومحامين وزعيما سياسيا وغيرهم . وهى تتضمن عددا كبيرا من الأغنياء وواحدا أو اثنين من الفقراء . انها تتضمن الكثيرين ممن كانوا يعتبرون بمقاييس العقيدة المسيحية التقليدية من الصالحين ، كما انها تتضمن عددا ممن يعتبرون بهذه المقاييس نفسها من المعنئين في الشر . انها تتضمن بعضا ممن لهم أهميتهم في أيام ما قبل الثورة وبعضا من المغمورين تماما واثنين ربما أو ثلاثة من الفاشلين فشلا واضحا في الحياة الى ان اعطتهم الثورة الفرصة ليرتفعوا . ومؤكد انه ليس من السهل ايجاد قاسم مشترك .

وليس من شك في أننا سنجد العون في مهمتنا من التمييز بين أولئك الذين يسيطرون في المراحل الأولى للثورة — وهم بصفة عامة المعتدلون — وبين أولئك الذين يسيطرون في مرحلة الأزمة — وهم بصفة عامة المتطرفون . ولكن لا فائدة من القول بأن متطرفينا هم وحدهم الثوريون الحقيقيون ، وفضلا عن ذلك فان جورج وشنطن نفسه يبدو انه اقسم يمين الولاء للتاج البريطانى ، وان حنثه لهذا اليمين كان من الممكن ان يعتبر خيانة

لو فشلت الثورة الأمريكية . ولقد تعلمنا من مؤرخى الهويج ( الأحرار )  
الاعتقاد بأن اسكس Essex وبيم Pym كنا يدافعان عن قوانين  
انجلترا المقدسة ومن ثم لم يكونا ثوريين حقيقيين . ولم يكن هذا بأى حال  
هو الرأى السائد فى أوروبا فى الأربعينيات من سنة ١٦٤٠ حيث كان  
البرلمانيون يعتبرون ثوارا أشداء ضد مليكهم ، كما أن الملكية فى أوروبا  
فى القرن السابع عشر كانت عميقة الجذور فى احساسات الناس بحيث  
نعطيها قوة القانون مثلها يبدو الدستور الأمريكى ضاربا جذوره فى نفوس  
أمتنا فى عصرنا الحاضر . كلا ، يجب أن ندرج المعتدلين فى قائمة  
ثوارنا حتى ولو كانوا يدافعون عن القانون الأسمى ضد الأدنى ، ورغم  
أنهم لم يكونوا فوضويين وثورا مكروهين .

### ثانيا - الوضع الاقتصادى والاجتماعى :

ان من أنفع الطرق فى تناول مشكلة الفريق الذى قام بالحركات الثورية  
هو تناولها من زاوية الدلالات الموضوعية نسبيا للوضعين الاقتصادى  
والاجتماعى لهؤلاء الذين يسهمون فى الثورة . ومن الصعب جدا الآن أن  
نجد الشئ الكثير عن مركز الثوريين ومكانتهم . فان الثورى العادى  
مثل الجندى العادى فى اثناء الحرب لا صوت له ولا اسم . ومع ذلك  
ليس من المستحيل بالنسبة للثورة الفرنسية اجراء مثل هذه الدراسة .  
ففى السجلات الباقية لنوادى اليعاقبة التى كانت مراكز النشاط الثورى  
والتي تشعبه المستقلين الانجليز والسوفييتين الروس ولجان المراسلات  
الأمريكية نجد عددا كبيرا من القوائم - غير كاملة بطبيعة الحال  
ولكنها قوائم . ومنذ بضع سنوات درست هذه القوائم وبمساعدة  
كشوف الضرائب وبعض الوثائق الأخرى فى دور المحفوظات الفرنسية المحلية  
أمكننى الوصول الى بعض تعميمات احصائية عامة عن هؤلاء الثوريين .  
ويجب هنا تلخيص بعض هذه التعميمات من كتابى « اليعاقبة : دراسة  
فى التاريخ الحديث » .

ويمكن على وجه العموم أن نصل الى بعض التقديرات الاحصائية  
التقريبية للوضعين الاجتماعى والاقتصادى لهؤلاء اليعاقبة الثوريين فى فترة

ما قبل الثورة الفرنسية . فهناك كشوف ضرائب لسنوات مختلفة فيما بين ١٧٨٥ ، ١٧٩٠ وفيها نجد كثيرا من اليعاقبة . ولما كانت هذه ضرائب مباشرة فهي تبين الدخل ولذا فمن الممكن أن نحصل على تقدير تقريبي لثورة اليعاقبة . وقد كانت الوظائف تعطى لهم عادة وهذه دلالة ذات قيمة على الوضع الاجتماعى . وأخيرا من الممكن أيضا دراسة بعض النوادى فى فترات معينة فى الثورة وبذلك يمكن أن تؤخذ عينة خلال الفترة المبكرة أو المعتدلة وأخرى خلال الفترة التالية التى حكم فيها المتطرفون . وسنورد هنا باختصار بعض النتائج .

فى اثنى عشر ناديا — مجموع أعضائها ٥٤٠٥ طول مرحلة الثورة كلها اى ١٧٨٩ الى ١٨٩٥ — فى المرحلتين المعتدلة والمتطرفة — كليهما — نجد أن : ٦٢٪ من الأعضاء كانوا من الطبقة المتوسطة ، ٢٨٪ من الطبقة العاملة ، ١٠٪ من الفلاحين . وفى اثنى عشر ناديا أثناء فترة الاعتدال فيما بين ١٧٨٩ — ١٧٩٢ كان عدد الأعضاء ٤٠٣٧ ، ٦٦٪ منهم من الطبقة المتوسطة ، ٢٦٪ من الطبقة العاملة ، ٨٪ من الفلاحين .

وفى اثنى وأربعين ناديا فى المرحلة العنيفة من ١٧٩٣ — ١٧٩٥ بلغ عدد الأعضاء ٨٠٦٢ ، منهم ٥٧٪ من الطبقة المتوسطة ، ٣٢٪ من الطبقة العاملة ، ١١٪ من الفلاحين . وتؤكد كشوف الضرائب ما تقترحه التصنيفات الوظيفية والاجتماعية . ففى ثمانية نواد طول مرحلة الثورة كلها كان أعضاء النادى يدفعون ضريبة تبلغ فى المتوسط ٣٢ر١٢ ( جنيها ) بينما كان متوسط الضريبة للمواطنين الذكور الذين يدفعون هذه الضريبة المباشرة فى المدن ١٧ر٠٢ جنيها . وفى ٢٦ ناديا أثناء مرحلة العنف وحدها دفع أعضاء النادى ١٩ر٩٤ ( جنيها ) والأعضاء من الذكور ١٤٤٥ جنيها . وهكذا رغم أنه كان هناك اتجاه الى انزال النوادى أثناء فترة العنف فى السلم الاجتماعى درجة أدنى فان الانسان ليضطر الى أن ينتهى الى النتيجة التالية وهى أن « اليعاقبى لم يكن نبيلًا كما لم يكن متسولا ولكن بين هذا وذاك تقريبا وان اليعاقبة كانوا يمثلون قطاعا كاملا فى مجتمعاتهم » .

وهناك أدلة أخرى موضوعية نسبيا تساعدنا بعض الشيء . فلقد كان من الممكن غالبا تسجيل أعمار أعضاء النوادي خلال الثورة . وعلى قدر ما كان لهذه النوادي من مركز ومكانة ، فان القول بأن الثوريين كانوا يختارون من الشباب وغير المسئولين لا سند له . ففي عشرة نواد تبأينت نسبة متوسط الأعمار من ٣٨٣ سنة الى ٤٥٤ سنة . وبالنسبة للنوادي العشرة جميعا وصلت النسبة الى ٤١٨ سنة . ومن الواضح أن هؤلاء لم يكونوا من الشباب المجازف . كذلك لم يكونوا من هواة التجوال أو من فرق العاصفة التي تستورد من مراكز الثورة في المدن مثل باريس . فمن بين ٢٩٤٩ من الأعضاء المنتمين الى خمسة عشر ناديا نجد أن ٣٧٨ فقط أو ١٣٪ قد نزحوا الى المدن منذ قيام الاضطرابات في ١٧٨٩ . ولقد تبأينت العضوية الفعلية للنوادي كلما ازدادت الثورية تطرفا — او بالتعبير الحديث كلما جنحت أكثر فأكثر ناحية اليسار — ولقد هاجر كثير من المعتدلين أو سقطوا تحت المقصلة . وكثير من المتطرفين ممن ساءت سمعتهم — حتى وان لم يكونوا من الطبقات الدنيا — لم يلتحقوا بالنوادي الا فيما بعد . ومع ذلك في ستة نواد مجموع أعضائها ٣٠٢٨ فيما بين ١٧٨٩ — ١٧٩٥ نجد أن حوالي ٣١٪ عملوا على بقاء أسمائهم في سجلات العضوية طوال المدة كاملة وأنهم نجحوا في أن يكونوا ملكيين وجيرونديين وجبيليين صالحين . وليس صحيحا أن هذه النوادي أصبحت تسودها الطبقة الدنيا أو طبقة العمال بعد سقوط الملكية في ١٧٩٢ بل ليس صحيحا أن الملتحقين الجدد بها كانوا غالبا من الطبقة العاملة . ومن الواضح تماما أن هؤلاء الناس لم يكونوا بصفة عامة من الفاشلين في بيئتهم الأولى ، بل هم يمثلون الأقدم والأشد طموحا والناجحين من سكان المدينة التي ينتمون اليها . انهم يبدون كما لو كان أعضاء نوادي الروتاري الحالية ثوريين . وقد لا يكون من المستطاع اجراء دراسة احصائية مشابهة للثورة الانجليزية حيث أن القوائم المشابهة لقوائم أعضاء نوادي اليعاقبة ليست في المتناول . ومن المؤكد وجود المادة اللازمة لمثل هذه الدراسة في العضوية الفعلية للسوفييتات في عام التأزم ١٩١٧ ولكن لا بد من جمعها من مصادر مختلفة لا توجد الا في روسيا وحدها . ونحن على

علم كاف بأعضاء جماعاتنا الثورية الأمريكية من لجان التجار ولجان التبادل الى مؤتمر القارة . وحتى بالنسبة للثورة الانجليزية لدينا المادة المتناثرة الكافية التى تسمح بتكوين احكام عامة عن أشخاص الحركة .

ففى المراحل الاولى للثورة الانجليزية لا يمكن الشك فى المكانة المحترمة والرفاهة الاقتصادية للرجال الذين ساندوا البرلمان . ويقول باكستر Baxter فى شىء من المبالغة ولكن لا تخلو من الحقيقة أنه عندما نشبت الثورة الكبرى ، كان أنصار الكنيسة المعتدلون والبروتستانتيون الكنائسيون الذين كانوا من قبل يستنكرون البدع وينددون بمنكرى القدرية من اتباع ارمانىوس الهولندى وبالباوية والاحتكارات والضرائب غير الشرعية يشكون من خطر الحكومة الطاغية هم الذين اشعلوا الحرب . وقام تجار لندن وبريستول وغيرها من المدن وكبار اللوردات وصفغار وملاك الأراضى جميعا ضد مليكهم . وحتى فى مرحلة ما يمكن أن نسميه بالتطرف أو الأزمة فى الثورة الانجليزية التى تبدأ سنة ١٦٤٦ أو سنة ١٦٤٧ عندما أصبح التوتر بين الجيش النموذجى الجديد وبين البرسيبتاريين حادا فان الثوريين لم يكونوا أبدا من الأوغاد . وحتى باكستر يقول « وجدت فى هذا الجيش — وقد كان بالنسبة للثورة الانجليزية مثلما كان اليعاقبة بالنسبة للثورة الفرنسية والبلشفيك بالنسبة للثورة الروسية عددا وفيرا من الجنود العاديين والضباط الشرفاء المتزنين المستقيمين وآخرين على استعداد لسماع الحقيقة ولهم مقاصد خيرة » . وقدر احد المؤرخين أن الجيش النموذجى الجديد عندما استولى على الميدان فى سنة ١٦٤٥ كان من بين ضباطه الكبار السبعة والثلاثون تسعة من النبلاء وواحد وعشرون من أصل رفيع وليس منهم الا سبعة لا ينتمون الى فئة السادة . ان الطبقات الانجليزية الدنيا أو على الأمل العناصر الأكثر انتماء الى الطبقة العاملة كانت بصفة عامة تقف بعيدا عن المعركة . وحتى الطائفيين الأشد شراسة فيبدو أنهم كانوا مستمدين من فئات متواضعة ولكنهم لم يكونوا بأى حال من الأحوال ممن أخنى عليهم الدهر وكانوا ممن علموا انفسهم متابعة الجدالات اللاهوتية ، وهم على وجه العموم يمثلون



العناصر الأنيشط والأكثر تطلعا في طبقتهم . وأما الفلاحون الأشد بؤسا وحاجة في الشمال والغرب فقد انحازوا فعلا الى جانب الملك ووقفوا ضد الثوريين .

وقد سبقت الاشارة في أمريكا الى الحقيقة المعروفة وهي ان التجار هم الذين نظموا لأول مرة المقاومة للتاج . . وهذه المقاومة تولى نشرها كثير من الزراع في السهل الساحلى الجنوبى ، وكذلك كثير من الفلاحين ذوى المكانة من ملاك الأرض في بيدمنت Piedmont وفى الحق هناك دلائل متعددة على مشاركة اولئك الذين يعتبرهم المحافظون من حثالة الناس . وانباء الحرية في بوسطن الذين قاموا بمعظم الأعمال العنيفة هناك كانوا ينتمون الى فئة العمال وكانوا فعلا يجتمعون في احدى حجرات معمل التقطير . أما المحافظون ممن أصبح الآن يطلق عليهم اسم المواليين للحكومة فقد كان من الطبيعى ان ينظروا الى معارضيتهم على انهم فئة من الرعاى . ويكتب هتشنسون Hutchinson عن اجتماع مدينة بوسطن فيقول انه « يتألف من أدنى طبقة في الشعب من الواقعين تحت تأثير فئة قليلة من الطبقة العليا من ذوى الميول المتطرفة الشرسة واليائسين . ولقد أعرض كل من كان له ملك أو خلق رفيع عن هذه الاجتماعات اذ أيقنوا انهم سيقابلون مقابلة عدائية .

وفى الواقع ان الحد الفاصل بين المحافظ والحر خط غير مستقيم الى حد بعيد ، يعتمد على أشياء كثيرة علاوة على المركز الاقتصادى ، كما يتبين من كتاب ج.ف. J.F. Jameson « الثورة الأمريكية كحركة اجتماعية » واذا كان السادة الاغنياء من « تروى رو Troy Row » في كمبردج قد وقفوا الى جانب التاج فان هناك كثيرا من الفلاحين والتجار والمخاميين المتزنيين المحترمين قد تحولوا الى ثوار . ولقد فجع هؤلاء الرجال فى نتيجة الأعمال التى قام بها صبية الصناعة الصغار المتهورون فى جماعة ابناء الحرية ولكن هذا لم يحولهم بالضرورة الى الجانب البريطانى وان كان قد جعلهم ينقدون الكونجرس . ومن الدلائل الجيدة

على المكانة المحترمة للثورة تأييد رجال الدين تلك التأييد الذي كان باستثناء فئة « الكنائسيين » تأييدا شاملا في معظم المستعمرات . ويقول أحد الموالين للحكومة الساخطين « ان ذوى المكانة من أبناء الحرية يضمون رجال الدين الذين بدلا من أن يعظوا رعاياهم للتمسك بالوداعة والوقار والالتفات الى أعمالهم المختلفة واحترام قوانين بريطانيا اندفعوا بقوة من فوق منصات الخطابة الى الحديث عن الحرية والاستقلال ومواصلة الجهاد ليتخلصوا من التبعية لبريطانيا . لقد كان القساوسة المستغلون دائما المحرضين والمثيرين لكل اضطراب وتدبير كل مؤامرة .

وتلخيصا لما سبق لا بد من الاتفاق مع جيمسون على أن قوة الحركة الثورية على مر الأيام كانت تعتمد على البسطاء من الناس — لا على الغوغاء أو السوقة ، وذلك لأن المجتمع الأمريكى كان مجتمعا ريفيا وليس مدنيا — على أصحاب الحرف في الريف وصغار الفلاحين وسكان الحدود . ولكن لا بد من الاتفاق أيضا مع ألكسندر جرايدون Alexander Graydon في أن المعارضة لمطالب انجلترا نشأت بين اناس أرقى مستوى من ذلك : لقد كانت بحق أرستقراطية في بدايتها .

ويبدو أن ثورة فبراير في روسيا قد لاقت الترحيب من كل الطبقات فيما عدا أشد المحافظين تحفظا — وهم قلة من ضباط الجيش وقلة من رجال الحاشية وطبقة النبلاء القديمة . ولا أحد يعرف من الذى صنع ثورة فبراير ولكن لا يمكن أن يكون هناك شك بالنسبة لشعبيتها . فكل فرد سواء في ذلك النبيل المتحرر أو صاحب المصرف أو رجل الصناعة أو المحامى أو الطبيب أو الموظف أو العامل كان يسره أن يعاون في توجيه الضربة المقاضية الى النظام القيصرى ، حتى البلاشفة الذين كان انتصارهم الفجائى فى ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧ سببا في أن تختلف الخطة الزمنية للثورة الروسية كل الاختلاف عن نظيرتها في الثورتين الانجليزية والفرنسية ، لم يكونوا بحال من الأحوال مثلما يطلق عليهم الحائقون على الثورة من الرعاع ، أو السفلة أو « الغوغاء » اذ يبدو أنهم كانوا عناصر مستمدة أساسا من أفضل العمال واقدروهم كفاية في مصانع بتروجراد وموسكو والمراكز الصناعية المتخصصة

مثل ايفانوفو فوسنسك أو حوض الدون . وكان أهم زعمائهم من بين صفوف الطبقة المتوسطة . وقد يحق للمرء أن يقول ان الشباب تحت قيادة ميلوكوف وقد حرّموا التشجيع منذ وقت مبكر لا يعتبرون حزبا ثوريا . ولكن المنشفيك وحزب الاشتراكيين الثوريين — الذين احتقرهم المؤرخون البلاشفة المنتصرون فيما بعد كمساومين — كانوا بكل تأكيد عناصر ثورية . ربما كان أكثر المنشفيك من المثقفين . ولكن الاشتراكيين الثوريين كانوا كذلك مختارين من الفلاحين الموسرين ومن الأشخاص الذين يديرون الجمعيات التعاونية ومن أصحاب الحوانيت الصغار وأشباههم .

### ثالثا : الوضع الاجتماعى والاقتصادى :

#### الزعماء

حتى هذه اللحظة كنا ندرس الهيئات الرئيسية للثوريين وقد وجدنا بصفة عامة أنها لا تمثل بحال من الأحوال حثالة الناس ، حتى في الثورات البروليتارية الكبيرة وأنها تضم في العادة أعضاء ينتمون الى كل فئة اجتماعية واقتصادية في المجتمع فيما عدا ربما أولئك الذين يكونون في قمة الهرم الاجتماعى . ومع ذلك فان أمثال اسكس ووشنطن ولافاييت قرييون جدا من هذه القمة . وحتى في روسيا عاش بروسيلوف وهو جنرال قيصرى ممتاز ليخدم الحكومة السوفييتية في زحف ١٩٢٠ على وارسو .

ولنتظر الآن ماذا يمكن أن نفعل في الزعماء ولنحكم عليهم أولا بالمقاييس الموضوعية نسبيا لمعرفة أصولهم الاجتماعية وأوضاعهم الاقتصادية . وفيما يختص بالعاقبة كان في امكان مؤلف هذا الكتاب أن يجرى دراسة ما عن القادة المحليين الصميين ، والرجال الذين جرت العادة ألا يدخلوا التاريخ العام . ومن حياة عشرات من هؤلاء الأشخاص الثانويين في الثورة تبدو نتيجة ما واضحة : « أن القادة ينتمون من الناحية المادية الى الطبقة الاجتماعية التى ينتمى اليها الانتصار . ومن الممكن أن يكون بين القادة خلال عهد الارهاب عدد اكبر ممن كانوا يبدون في ١٧٨٩ فاشلين قطعاً أو أنهم

على الأقل ليسوا على وفاق مع بيئتهم ومع ذلك فان نسبة هؤلاء الممارتين (نسبة الى مارات) القرويين ليست مثيرة للدهشة .

اما بالنسبة للقادة الوطنيين في الثورة الفرنسية فانهم — اذا حكمنا عليهم بهذه المقاييس — كانوا جماعة تختلف عن ذلك فنى السنوات ما بين ١٧٨٩ — ١٧٩٢ كانوا يضمون رجالا من النبلاء مثل ابن عم الملك دوق اورليان ورجلا مثل ميرابو واللامثيين ولافاييت ومحامين كثيرين منهم المعروفون جدا من محامى باريس مثل كامو Camus ومنهم غير المعروفين وان كانوا الى حد بعيد محامين محترفين في المقاطعات مثل روبسبير الشاب من آراس Arras (والذى كتب اسمه في احدى المرات دى روبسبير) ومن المحامين الناشئين مثل دانتون Danton الذى جاء الى باريس من احدى النواحي الريفية في شامبين Champagne ورجال من العلماء مثل الفلكى بايلى Bailly والكيمائى لاموازييه والرياضى مونج وصحفيين مثل مارا وديمولان اللذين احتضنتهما الصحافة بسلطتها الجديدة وناشرين مثل بريسو Brissot وهو بورجوازي ريفى من شارتر Chartres وكوندورسيه Condorcet وهو ماركيز وفيلسوف . وبعد ١٧٩٢ كان الزعماء الذين وصلوا الى القمة قلة نادرة . والذين وجهوا فرنسا من ١٧٩٣ — ١٧٩٤ كانوا لا يزيدون مكانة او شهرة عن المثقفين ذوى الآمال من مريدى مدام رولان Mme. Roland's Corcle الذين ربما كانوا يبدون غرباء في فرساي فى ١٧٩٣ . ولم يكونوا على اى حال من اصول اجتماعية مختلفة اختلافا كبيرا عن اولئك الذين وجهوا فرنسا حقيقة فى عهدهم القديم — الا وهم البورجوازيون المتعلمون الذين تمخضت عنهم البيروقراطية فى النهاية .

ومعظم الأمريكيين يدركون المكانة المحترمة والمركز الاجتماعى الرائع للرجال الذين وقعوا وثيقتنا الخاصة باعلان الاستقلال . فمن بين الستة والخمسين الذين وقعوها كان ثلاثة وثلاثون يحملون درجات جامعية ولم يكن هناك غير حوالى اربعة ممن تلقوا تعليما متواضعا او عاديا وكان من بينهم خمسة من الأطباء واحد عشر تاجرا واربعة من الفلاحين واثنان وعشرون

محاميا وثلاثة قسوس . وكان هناك اثنا عشر من أبناء الوزراء وكانوا جميعا من الموسرين تقريبا . ان سام آدامز الذى يبدو واحدا من أشد زعمائنا تطرفا ينتسب الى عائلة تاجر متوسط الحال ، وتخرج فى جامعة هارفارد فى سنة ١٧٤٠ حيث كان ترتيبه الخامس من بين اثنين وعشرين فى تلك القوائم الغامضة التى كنا قبل أبحاث الأستاذ س. أى. موريسون S.E. Morison نعتقد جميعا أنها تبين الوضع الاجتماعى . وحتى الموالين للحكومة رغم أنهم كانوا يكثرون من استخدام كلمة « الفوغاء » كانوا لا يستطيعون أن يهجوا الزعماء الثوريين بشيء أكثر من القول أنهم مجرد هواة فن الحكم . وكتب أحد المحافظين أو المعتدلين فى صحيفة ميدلسكس فى ٦ أبريل سنة ١٧٧٦ « خرج من بين أصحاب الحوانيت والتجار ووكلاء الدعاوى سياسة الدولة والمشرعون . . . ان كل فرد تقريبا من الحزب الحاكم فى أمريكا يشكل حاليا ، وفقا لهواه الخاص ، مركزا ليس أعلى من كل ما كان يشغله من قبل فحسب بل أعلى مما كان يتوقع من قبل أن يشغله فى يوم من الأيام » .

ولسنا فى حاجة الى الخوض فى الأصول الاجتماعية لزعماء المعتدلين فى الثورة الإنجليزية . فواضح أنهم من بين أعلى الطبقات فى البلاد . أما غير المعتدلين فقد كانوا خليطا من رجال نشأوا نشأة حسنة ومن العصاميين ومن رجال متواضعين يلهيهم الغضب وان كان غضبا ساميا لا يصلح للتخليل النفسى . ولا شك أن كرومويل نفسه كان من اعيان الريف فى شرق إنجلترا وكانت عائلته تحظى بقدر لا بأس به من الثروة الجديدة التى يرجع أصلها الى مصادرة الأملاك فى عهد آل تيودور . وكان ايرتون Ireton الذى أصبح زوجا لابنته من سلالة مشابهة . وهكذا كان الوضع بالنسبة لكثير من الزعماء الاستقلاليين فى إنجلترا القديمة والجديدة . وكان لودلو Ludlow قاتل الملك ابن السير هنرى لودلو أف ويلتشير Sir Henry Ludlow of Wiltshire وقد تعلم فى تربييتى وكمبردج . وحتى جون ليلبرن John Lilburne الاشتراكى يوصف بأنه من أسرة طيبة ، ترجع فى أصولها الى القرن الرابع عشر وهو صورة طبق الأصل من الأعيان الأقل ثراء ممن لم يتحول أبناؤهم كثيرا الى الدجاره واسنا نعرف الا القليل عن الأصول الاجتماعية لرجال من

أمثال وينستانلى Winstanley الشيوعى أو ادوارد سكسبى Edward Sexby أحد جنود فرقة كرومويل والذى يظهر فيها بعد عميلا دوليا لفكرة الجمهورية . أما روبرت افرارد Robert Everard — فقد كان ضابطا فى الجيش ويوصف بأنه « سيد مهذب ذو ثقافة متحررة » . وكان جون روجرز John Rogers — الذى يعتقد فى رجوع المسيح — ابن أحد رجال الدين الانجيليين وكان ملكيا .

وتشبه روسيا دولنا الأخرى فيما يختص بالاصول الاجتماعية لزعماء نورتها بأكثر مما يبدو عند أول وهلة فى ثورة بروليتارية — ولربما كان المعتدلون فى روسيا قد أمسكوا زمام السلطة فترة قصيرة وغير مريحة الى درجة لا يكاد يقام لهم وزن . ولكن واحدا من الكاديت مثل ميليوكوف وهو مؤرخ ينتهى الى أسرة طيبة ، وتريشنكو Tereschenko صاحب ملايين الجنيهات فى كييف وجوشكوف Guckhov أحد تجار موسكو الأثرياء والأمير المسن المسكين لوفوف Lvov . كل هؤلاء يذكروننا بلوردات المتطهرين الأغنياء والتجار ابان الثورة الانجليزية والرجال ذوى الاصول الطيبة فى الثورة الفرنسية — ولقد كان زعماء المنشفيك والاشتراكيين الثوريين فى الغالب من المثقفين ومن صغار الموظفين وزعماء النقابات والجمعيات التعاونية ، وكان بعض خطبائهم المبرزين من جورجيا مثل جيرو وكان كيرنسكى محاميا متطرفا من بلدة صغيرة تقع على الفولجا كانت تسمى فى ذلك الوقت سمبرسك وتسمى الآن أوليانفشك Ulianovsk تذكرنا للشخص أعظم من كيرنسكى جاء أيضا من سمبرسك . والحقيقة التى لا شك فيها أن ف. آى. أولياتوف V.I. Ulianov الذى عرف جيدا باسمه الثورى لينين Lenin انصدر من الطبقة الاجتماعية نفسها التى كان ينتمى اليها كيرنسكى ، كان أبوه مفتشا على مدارس سمبرسك وهو منصب بيروقراطى هام فى روسيا القيصرية أكثر مما قد تبدو لنا — وهو على وجه التحديد احد مناصب البورجوازية الممتازة .

أما الزعماء البلاشفة الآخرون فهم طائفة تختلف عن ذلك : مثقفون مثل تروتسكى وكامينف Kamenev وكلاهما من المتعلمين ، وفليكس

زرشنسكى Fleix Dzerzhinsky وهو من قطاع النبلاء البولنديين اللتوانيين ثم سفردلوف Sverdlov وهو كيميائى بالتمرن ، وكالنين وهو فلاح ثم ستالين (واسمه عند ولادته جوجاشفيلى Djugashvili ) وهو من عائلة تشتغل بالزراعة فى جورجيا وكانت أمه تعده ليعمل قسيسا وقضى بالفعل فترة من الزمن طالبا فى إحدى مدارس اللاهوت وشميشيرين من عائلة أرستقراطية تكفى كى يعتبر نفسه من ناحية نسبه مثل لورد كيرزون Lord Curzon على الأقل ، ثم انتونوف أوفسينكو Antonov-Ovsečko أحد قواد الجيش الأحمر وهو وارث العراقة البورجوازية التى جعلت اسمه مكونا من مقطعين . وعلى أى حال فان المفاوضات التى جرت فى برست ليتوفسك Brest-Litovsk تعطى فكرة دقيقة عن قيادة البلشفيك وتقدم الدليل على طابعهم غير البروليتارى . فعندما أرسل أول وفد روسى الى هذه المدينة ليقابل الألمان كان يتألف من عينات الانجازات البروليتارية. احداها تضم بحارا وعاملا وفلاحا ، ويقال ان الفلاح — وهذا القول يردده بلا شك الأعداء الحقودون للطبقة العاملة — امتاز أساسا باهتمامه بالخمر . ومع ذلك فعندما تقدمت المحادثات فعلا بعد فترة توقف الروس بحارهم وعاملهم وفلاحهم الذين كانوا يمثلون مجرد منظر وشكلوا وفدا من رجال ليسوا بطبيعة الحال على قدم المساواة اجتماعيا بالنسبة لنظرائهم من الألمان ذوى الأصل العريق ولكن الانسان لا يشك فى أنهم من ذوى الثقافة الممتازة مثل جوفى Joffe وكامينيف Kamenev وبوكرفسكى Pokrovsky وكاراخان Karakhan كما كان من بينهم سيدة بلشفية عصبية بعض الشيء هى السيدة بيتزنكو Mme. Bitzenko التى أدركها المجد لاطلاقها النار على أحد رجال القيصر فى الأيام القديمة العصبية . ولكن بطبيعة الحال نجد أن الماركسية الصحيحة على استعداد للاعتراف بأن البروليتارية لا تستطيع أن ترفع مستواها بسيور أهديتها ولذلك يجب أن يخرج قادتها من طبقات متميزة تميزا كاميا بثقافة تؤهلهم لترجمة دقائق النظرية الماركسية .

وأخيرا فان عدم خبرة القادة الثوريين وحدثتهم فى شئون السياسة قد بولغ فيها فى كتبنا الدراسية . لقد كان لهم وبخاصة فى روسيا مران

طويل في توجيه المجتمعات الصغيرة المتنازعة والمضطهدة والجماعات الثورية. وان الثوريين كجماعة ليشبهون كثيرا اى جماعة أخرى من الناس وتتطلب قيادتهم قطع شوط طويل في الدربة السياسية .

وحتى في فرنسا لم يكن أعضاء الجمعية الوطنية من السذاجة السياسية كما يظنون . اذ كان لكثيرين منهم خبرة في الأعمال أو كانوا من قبل دبلوماسيين أو موظفين في الحكومة أو أسهموا في السياسة المحلية في الأقاليم التي كانت فيها اقطاعياتهم الخاصة . انهم جميعا اعتادوا على سياسة الجماعات الضاغطة . وهؤلاء القادة الثوريون لا يكونون أبدا من أصحاب النظريات الأكاديمية غير الدنيوية والمجردة ، وهم لا يخرجون فجأة من الدير الى قاعة مجلس الوزراء . ولربما كان تدريبهم لا يؤهلهم في دقة لقيادة مجتمع مستقر . ولكن هذه مشكلة أخرى لا يمكن حلها الآن والمؤكد انهم انكفاء لقيادة مجتمع غير مستقر .

اذن لقد وجدنا ان كلا من الأنصار والقادة في الجماعات الثورية النشيطة لا يمكن ادراجهم بطريقة قاطعة على أنهم قد خرجوا من قطاع اقتصادى معين . وانهم ليسوا من الشبان الذين نبغوا قبل الأوان . ان زعماءها عادة من متوسطى العمر في الثلاثينيات والأربعينيات ولذلك فهم أصغر سنا من معظم الساسة البارزين في المجتمعات المستقرة ، التي تميل بدون شك الى حكم كبار السن . ولكن أمثال جوستس St. Justs وبونابرت والشباب الذين في العشرينات هم الاستثناء وليسوا القاعدة . ان قادة الثورة الروسية الذين نهيل — نتيجة لحملة التشويه — الى اعتبارهم متطرفين الى أقصى حد ، كانوا في المتوسط أكبر القيادات سنا في ثوراتنا . ان الثوريين يميلون الى أن يمثلوا قطاعا كاملا من مجتمعاتهم مع وجود شخصيات لامعة من أعلى الطبقات شأنها في مجتمعاتهم كلافاييت مثلا وعلى قدر المدى الذى تبلغه الفئة الحاكمة من النجاح نجد انهم يمثلون أيضا فئة قليلة الى أقصى الحدود من المغمورين والمساكين والطبقات الدنيا ان هذا يصدق على البلاشفة مثلما يصدق على (البيورينان) واليعاقبة . ان المرشدين ، والفوغاء والسوقة والأوغاد قد يكونون اهلا لاحداث المعارك



في الشارع وحرق المساكن في الثورات . ولكن من المقطوع به أنهم لا يصنعون الثورات ولا يدبرونها حتى ولا الثورات البروليتارية .

#### رابعا : الخلق والاستعداد :

نواجه الآن مهمة أشق بكثير ، مهمة فيها معلوماتنا ليست موضوعية ولا مبوية كما هو الحال في معلوماتنا عن الوضع الاجتماعي والاقتصادي للثوريين . انها المشكلة — السيكولوجية في أعماقها — في تبين مدى ما ينتهى اليه هؤلاء الثوريون من الأنماط التي يراها جون جونز (١) John Jones عادة غريبة الأطوار وشاذة أو بعبارة صريحة بها مس من الجنون . والآن قد يقول أحد من الناس — وهو محق في ذلك — ان من البديهيات أن الانسان الراضى عن حاله كل الرضا لا يمكن أن يكون ثوريا . ولكن المشكلة هي أن هناك عددا لا حصر له من الحالات المؤدية الى السخط والرضا . وفي الحق أن الماركسيين غير الناضجين ، وكذلك الاقتصاديين الكلاسيكيين ممن يتصفون أيضا بهذه الصفة يرتكبون خطأ يكاد يكون متماثلا وكلاهما يفترض أن علم الاقتصاد يبحث في كل ما من شأنه أن يجعل الناس سعداء أو أشقياء . فالتناس لهم حوافز متعددة تدفعهم للعمل الذي لا يمكن للاقتصادي الذي يقتصر على دراسة أعمال الناس المعقولة أن يدرجها في بحثه فمن الملاحظ أنهم يعملون أشياء كثيرة ليس لها أى معنى. اذا افترضنا فيهم أنهم يسيرون كلية على هدى من دافع اقتصادى معقول مفهوم فمثلا التضور جوعا في المتحف البريطانى لتأليف كتاب رأس المال Das Kapital “ أو الاستيلاء على الصحراوات بتأثير وهم مريح بأن التجارة تتبع الراهية أو جعل العالم آمنا بقدر كاف لقيام الديمقراطية . الا أن من الواضح أن الشخص الذى يسهم في ثورة قبل أن يثبت بالدليل القاطع نجاحها — وبعد نجاحها قد يقال انها لم تعد بعد ثورة — يكون ساخطا أو هو على الأقل ثاقب الفكر بالقدر الذى يجعله يقدر أن هناك عددا كبيرا من الساخطين يمكن أن ينصهروا في جماعة تستطيع أن تقوم بثورة ما . وعلينا أن نبذل

(١) الرجل العادى في بريطانيا .

بعض الجهد لدراسة طبيعة هؤلاء الساخطين على ضوء ما نراه في الأفراد. وذلك لأن منهج الدراسة الإحصائية لجماعات كبيرة من الثوريين كاليقابلة لن تفيد في هذا المجال . فان هؤلاء الأئصار على أكثر تقدير عبارة عن أسماء لها حرفة ، وربما بعض الدلالات الأخرى على الوضع الاجتماعى . وان الاهتمام الحديث بدراسة التاريخ الاجتماعى والرجل العادى قد جعل في المتناول بعض المذكرات وخطابات الأفراد العاديين كما بذلت الثورة الروسية قصارى جهدها لى تبقى ذكرى عامل هنا فى مصنع بيوتيلوف Putilov أو بحار هناك كان يعمل على الأورورا Aurora حية فى الأذهان ، وتروبتسكى نفسه يشيد فى كتابه «تاريخ الثورة الروسية» بدور هؤلاء العمال والبحارة والفلاحين الأبطال . الا أنه يحرص على أن ينفق معظم وقته على الأسماء الكبيرة كما لو كان مجرد مؤرخ بورجوازى . ولدينا بطبيعة الحال التشهيرات — ومن الصعب اعتبارها أوصافا — التى كان كل طرف يهجو بها الآخر . وهى كلها عاطفية الى حد كبير بحيث لا يمكن أن يكون لها قيمة الدليل فيما عدا ما يتعلق بحدّة العواطف التى تفجرت ابان الثورات . وحتى فى ثورتنا التى يفترض فيها الاعتدال نسبيا يلحظ الانسان ما يذكر عن أحد الموالين للحكومة من أنه قال « سوف يكون أمرا يدعو الى الغبطة أن اخوض فى الدم الأمريكى حتى يبلغ المدارات فى عجل عربتى » وطبيعى أن هؤلاء الموالين للحكومة من الأمريكيين كانوا يظنون أن الثوريين متطرفون وحشيون وسفلة دساسون وأوغاد حقودون ، ومن ناحية أخرى فان الكثيرين منا قد تعلموا فى المدرسة أن يعتبروا المحافظين أشرارا وخونة وسيئى الخلق وليس لهم أى ميزات اقتصادية او اجتماعية أو أى ميزات أخرى تفرقهم عن مثل هؤلاء الأشرار الذين تصورهم قصص سيمون ليجرى Simon Legree . وهكذا الحال فى الثورة الفرنسية ، كل جانب كان يتهم الآخر بكل أنواع الآثام ونادرا ما يدخلون فى التفاصيل الحقيقة للحياة اليومية .

واذا لم يكن فى مقدورنا لهذه الأسباب أن ندرس الحالة النفسية والسياسية والاجتماعية لجماعات الكبيرة من الثوريين فاننا نستطيع على الأقل أن نلقى نظرة على بعض الزعماء آملين أن القائمة التى نعتمد

عليها لن تكون بعيدة جدا عن تمثيلهم . وهنا على الأقل نستطيع الوثوق في بعض المعلومات الخاصة المستمدة من ترجمات الأشخاص أنفسهم لحياتهم . ويرجع الفضل الى تلك المؤلفات العجيبة مثل « قاموس السير الوطنية » و « قاموس السير الأمريكية » في أننا نستطيع حتى ان نتناول نمطا من الزعماء الأقل شأنا ، ضباط الثورة غير الرسميين . ويعمل الفرنسيون حاليا في قاموس السير الخاص بهم . ويبتظر أن يكون أكثر دقة من نظيره الانجلو سكسوني ، ولكن ما دام لم يكتمل بعد فانه لن يفيدنا في شيء . كما ان من العسير الحصول على معلومات عن زعماء الثورة في روسيا ، ومع ان هناك قدرا وفيرا من التعليقات الباهرة على حياة لينين وتروتسكى وستالين الا انها متناقضة الى حد كبير . وأما عن الشخصيات الأقل شأنا فليس لدينا باللغات الغربية أو بالروسية الكثير من كتابات السير التي يمكن الوثوق بها . ومع ذلك نلاحظ هنا أن الكثرة الهائلة في الأسماء المنتحلة في الثورة الروسية لم تنشأ بالنسبة لأكثر هؤلاء الأبطال ذوى الأسماء المستعارة من أى احساس بالخجل من ماض اجرامى أو مشين . ان جرائمهم كانت كثيرة من غير شك ولكنها لا تعدو أن تكون جرائم ضد الطغيان القيصرى ولربما كان هناك أصلا فكرة درامية طفيفة ان هذه الأسماء المستعارة كانت أميد في التهرب من البوليس القيصرى . ولكنها سرعان ما أصبحت مجرد موضة أو تقليعة ثورية .

وعند هذه النقطة نخشى الوقوع في قائمة كئيبة ومع الخطر الذى يبدو اننا سنتعرض له بالتحدى عن التنظيم العلمى المنهجى الدقيق سيكون من واجبنا أن نجمع حقائقنا هذه أثناء البحث في سير بعض الانماط أو الشخصيات البشرية ، وهذه عملية نجح في آدائها عدد كبير جدا من ثاقبى الفكر الذين راقبوا السلوك البشرى منذ ثيوفراستوس Theophrastus الى مولير Molière وسانت بيف Sainte-Beuve وباجو Bagehot ولربما تكون هذه العملية في بعض الجوانب طريقة أكثر نفعا في تصنيف الأفراد من التقسيمات الشكلية السيكولوجية والاجتماعية التى عملت حتى الآن . وهذه النماذج ليست كما يرجى شخصيات خيالية . ولو بلغت في حقيقتها عشر واقعية آلسست Alceste أو هارباجون Harpagon فانها تكون بذلك واقعية أكثر من أى شخصية عاجها عالم اجتماعى عادى .

ويمكننا أن نبدأ بالثورى المذهب ، الرفيع المنزلة الذى أسىء توجيهه الانسان الذى ولد فى القمة ولكنه — تمردا منه — لا يريد البقاء هناك . انه ليس بحال من الأحوال انسانا ساذجا وفى الواقع انه يعمل فى بعض الأحيان على أن يجمع فى نفسه عددا مذهلا من الملامح الثورية . ويجب أن نعترف بأن نفور هؤلاء الممتازين فى مجتمعاتنا الأربعة من الطرق التى تسلكها طبقتهم كان الدافع عليه الى حدما عجزهم عن النجاح فى ممارسة بعض أنواع الأنشطة التى تمجدها تلك الطبقة . ولست فى حاجة الى تكون مؤرخا لكى تعترف بأن لافاييت ثار ضد حاشية لويس السادس عشر ومارى أنتوانيت لأنه كان الى حد ما انسانا ثقيل الظل هناك — لحسن الحظ — أن الحرية لا تحتاج أن يخطب المرء ودها فى الملامى ومن واجبا الا نبدو ساخرين فى مثل هذه الأمور . ومما لا شك فيه أن حب لافاييت للحرية كان من الناحية الأخلاقية شيئا أفضل بكثير مما لو كان قد أحب المركز أو المرتب أو سيده . ولكن يجب أن نستدل من أعماله على أنه قد أدرك منذ وقت مبكر جدا أن ليس هناك شيء يدفعه الى أبعد مدى يتناهى سوى حبه للحرية . والأمر كذلك اليوم . فعندما تجد فى احدى كليتنا الجامعية شابا ممتازا قد تحول الى شيوعى وعلى اية حال الى ماركسى فأنت تستطيع أن تتأكد تماما انه ليس رئيسا لفريق كرة القدم أو سكرتيرا لجماعة الشى بى ديجاما Chi Phi Digamma وقد يكون فى الواقع سكرتيرا لجماعة دراسة اللغة اليونانية . وهذه الحالة لسنا هنا فى حاجة الى تقريرها أو استهجانها ، ولكن نذكرها فقط ، وسوف يكون على أى حال من السخرية — ومن ثم فليس من العلم فى شيء — أن ننكر أن كثيرا من هؤلاء الممتازين الذين ضلوا كانوا مدفوعين أيضا بذلك الشيء الذى سوف نطلق عليه المثالية المخلصة . اذ تبدو الفئة الاجتماعية التى ينتمون اليها جماعة منحلة أو غبية أو قاسية أو فاترة الهمة . انهم يرون امكانيات عالم أفضل . وهم يتأثرون بما يكتبه المثقفون الذين يكونون قد بدأوا الهروب من النظام القائم . انهم يكافحون لاقامة عالم أفضل فوق هذه الأرض . ولا شك انهم يشعرون بالضيق على هذه الأرض ، وذلك لكثير جدا من الأسباب التى لا يمكن استبعاد الكثير منها باعتبارها من اختصاص الطبيب النفسانى . ان شيللى Shelley الذى لم تتح له فرصة للثورة خارج نطاق الشعر يعد نموذجا مألوفنا لهذا النوع الحساس الذى غالبا

ما يكون عصيبا . ودرزشنسكى Dzerzhinsky ذلك الأرستقراطي البولندي الذى وهب الحياة للعمل فى الشرطة السرية الرهيبة ، كان متعصبا رقيقا وصادقا . والماركيز دى سانت هوروج St. Huruge الذى اشتهر بطريقة مشينة خلال الاضطرابات ومعارك الشارع فى الثورة الفرنسية كان انسانا مخبولا بشكل واضح وليس فيه صفة الانسان المهذب ، وكوندورسيه Condorcet وهو ماركيز أيضا كان انسانا مهذبا وعالما واذا ما كان لديه قدر من الكبرياء مما يتناسب تناسبا طبيعيا كافيا مع كلا هاتين الصفتين وقدر كبير جدا من الاحساس الذى يصاحب ايا منهما فى بعض الأحوال فانه كان فى سريرة نفسه رجلا طيبا وحساسا .

ان آخرين يتنكرون لطبقتهم ويشتركون فى الثورة لسبب خسيس وان كان احيانا على قدر كبير من الفائدة من الناحية الاجتماعية وهو أنهم يظنون ان الدلائل تشير الى انتصار الثورة . وهؤلاء الرجال احيانا مثل ميرابو اقرب الى ان يكونوا شخصيات غامضة ممن أرضوا انفسهم لفترة ما بسلوكتهم الشاذ . وهم فى احيان اخرى رجال مثل تاليران Talleyrand حذرون عقلاء كل همهم ان يحتفظوا بمكانة رفيعة وثروة ولا يفهمون الولاء للافكار المجردة الخاصة بالعدل والظلم ، كما أننا بطبيعة الحال نجد فى المراحل الاولى لثوراتنا وحتى الثورة الروسية ان كثيرا من الاغنياء وذوى النفوذ ممن لا يميزون بشدة الذكاء أو الغباء ينضمون الى الثورة لأن الثورة كانت سمة العصر كما كانت تمثل نجاحا واضحا . وغالبا ما كان يداعب الأمل الرجال الذين لم يكونوا فى مراكز السلطة السياسية بالحصول على مثل هذه المراكز — مثل دوق أورليانز Duc d'Orléans أو بيللى Bailly أو تريشينكو Tereschenko أو كونوفالوف Konovalov — ولكنهم كانوا أساسا رجالا عاديين الى حد ما ولم يكونوا أصلح منك أو منى كموضوعات لتاريخ القديسين سواء أكانوا مسيحيين أم فرويديين أم ماركسيين .

واذا ما تركنا هؤلاء الناس الذين يفتمون بمولدهم أو نشأتهم الى الطبقات الحاكمة ، ومع ذلك يقفون الى جانب الثورة وتحولنا الى الزعماء الذين جاءوا من طبقات دون الطبقة الحاكمة فسوف نجد هذا النوع

الشديد الذى نطلق عليه تلك العبارة المبتذلة لكثرة استعمالها وهى الطبيعة البشرية . ولسوف نجد الحمقى والأوغاد والمثاليين والمهيجين المحترفين والدبلوماسيين والمعتوهين والجناء والأبطال .

والآن قد يكون من غير المفيد أن ننكر أن بين أولئك الذين يتربعون على القمة فى أوقات الثورة المضطربة كثيرين ممن يحتمل الا يسمع بهم على الإطلاق فى الأوقات العادية . وبعض هؤلاء كانوا من الفاشلين يقينا فى المجتمع القديم ، وكانوا عاجزين عن الوصول الى أهداف طموحهم . . ورغم كل ما كتبه مدافع مثل البرفسور ل. ر. جوتشوك L.R. Gottschalk ليثبت تبحر مارا فى العلم وحظه الكبير من الاحترام فلا تزال هناك حقيقة قائمة وهى أن صديق الشعب لم يصب نجاحا قبل الثورة . لقد كان مارا من أصل وضع وعلم نفسه بنفسه ، اعتاد أن يقدم نفسه على أنه من الحاصلين على الدرجات الأكاديمية والقاب الامتياز التى لم يستطع كتاب سيرته أو حتى معاصريه أن يثبتوها دائما . ولقد حاول جاهدا أن يهاجم الفلاسفة ، ولكن أحدا لم يسمح له بذلك قط ، وكمعظم الأدباء المستنيرين فى القرن الثامن عشر خاض فى العلوم الطبيعية وظهر بنظرية مخالفة لنظرية الاحتراق الفلوجيستونى القديمة ، ولكن معاصريه الذين كانوا يغارون منه لم يولوها ما تستحقه من التقدير . وعندما اجتمع مجلس طبقات الأمة فى ١٧٨٩ كان هو مثقفا خائب الرجاء وانسانا كان قد فشل فى أن تتقبله هذه الحفنة القليلة من الكتاب والمتحدثين ممن كانوا فى أواخر القرن الثامن عشر الفرنسى يستمتعون ربما باعجاب خالص من الشعب لم تستمتع به هذه الفئة من قبل . ولم يكن فى استطاعة أى فرنسى فى ذلك العصر أن يصوغ عبارة مثل « الخبراء الذين يوجهون أو ينعون الحكومة » ومع ذلك فانها ما كانت تحمل من السخرية والاحتقار ما كانت تتحمله فى أمريكا فى القرن العشرين . ولما شعر مارا بأن قادة الفكر ينفرون منه امتألا قلبه خلال ١٧٨٩ بالحققد والكراهية لكل ما هو قائم ومبجل فى فرنسا .

وسرعان ما هيات الصحافة الثورية مخرجا واسعا . واصبح حارسا للثورة — كلبا مسعورا فى صحيفة « لامى دى بيل » كان يكتب دائما عن

المؤامرات التي تحاك ضد الشعب وكان دائما يكره أولئك الذين في يدهم السلطة حتى ولو كانوا من حزبه نفسه وكان دائما ينادى بطلب الدماء والانتقام ولا شك أنه كان شخصا سيئا الى أقصى حد . ولكن من الصعب أن نقول انه كان سيئا أكثر من بعض الصحفيين في أمريكا العادية والغير ثورية في القرن العشرين ، فلقد كانت الصحافة شيئا جديدا جدا في فرنسا في ١٧٩٠ وكان الناس يتوقعون الشيء الكثير منها . وكان لمارا على الأقل عذر واحد . كان يعانى من مرض جلدى عضال جعله لا يطيق الحياة الا أن الفاشلين ليسوا كلهم من نمط مارا البسيط نسبيا . فلقد كان سام آدامز بكل تأكيد انسانا فاشلا اذا قيس بمقاييس نيو انجلند المقتصدة المتزنة . الا أن آدامز استطاع أن يؤدي أعمالا جيدة للغاية . واذا كانت هذه الاعمال لم تجد في السبعينات ( في عام ١٧٧٠ ) جزء ماليا مثلما تجد الآن ، فان آدامز نال مكافآت ليست مملوسة في عصره اذ أصبح فعلا حاكما لولاية ماساشوستس ، ولا شك أن مواهب آدامز كما حللها بمهارة مستر ج. س. ميلر J.C. Miller في دراسته هي مواهب الخير بالدعاية والتنظيم ، ومن الصعب الاعتقاد بأن الخبرة بوسائل الاعلام قد تترك رجلا له تلك المواهب دون أن يكتشف ودون أن يكافأ .

وتوماس يبين الذي نجح في الانضمام الى ثورتين : الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية هو أيضا ثورى آخر لم يتوصل قبل الثورة الى شيء يذكر ، وعندما أبحر الى أمريكا في ١٧٧٤ كان يبلغ الثامنة والثلاثين أى أنه بكل تأكيد لم يعد شابا . كان ينتمى الى جماعة الأصدقاء في شرق انجلترا ، ودرس شيئا من العلوم السائدة في القرن الثامن عشر وخاصة العلوم الطبيعية وفي فلسفة الاستنارة ، بينما كان يمارس عددا من الأعمال المختلفة من العمل في السفن وصنع الكورسيهات والاشتغال في مجال التجارة . وتزوج زواجا فاشلا والتحق بخدمة الجمارك مرتين وتركها وعرف بالاحاد في بلدة لويس Lewes في سيسكس ، وقام بمحاولة فاشلة وغير ناضجة بعض الشيء للحصول على أصوات الناخبين من زملائه في الجمارك . وهذه المحاولة التي تسببت في طرده للمرة الثانية والأخيرة من الخدمة لفتت اليه أيضا نظر بنيامين فرانكلين Benjamin Franklin الذي شجعه على

الهجرة ، لكن بين وصل الى فيلاديفيا مثل كثيرين غيره من الأوربيين انسانا ناشلا يبحث عن بداية جديدة . وقد هيات له الثورة هذه البداية وجعلت منه صحيفة كومن سنس محررا مشهورا . هوبين الثورى المتطرف المحترف والصحفى المناضل والمفكر الدينى ولو أنه فى الأوقات الهادئة لم يكن أكثر من برادلو اخر أو انجرسول آخر .

ومن ناحية أخرى فان الثورة توصل الى القمة فى أحوال كثيرة رجالا لهم خبرات عملية فذة ، رجالا من ذلك النوع الذى لا بد أن يعترف لهم بأنهم يستحقون الاحترام ( حتى من أشد الرجعيين حذرا وصلابة ) . ولقد يعيش أمثال هؤلاء الرجال مغمورين لأنهم لم يصادفوا ما يقلق راحتهم أو أنهم قد يكونون ضحايا شىء مثل توقف دورة الصفوة الممتازة ، أو سد الباب أمام الكفائيات ، كما عرفنا فى الفصل السابق . ويعد كرومويل مثالا كلاسيكيا لرجل كان من المحتمل أن يظل انسانا ريفيا بسيطا ليس له عمل ممتاز فى مجنس العموم لو لم تندلع ثورة البيوريتان (المتطهرين) ، ومثل ذلك يمكن أن يقال عن وشنطن نفسه ، ولسوف نعود مرة أخرى الى هذه المسألة الخاصة بسلامة القيادة الثورية . وحتى الآن لم نقل شيئا عن أولئك الذين يتعطشون للدماء ، لم نقل شيئا عن كاريير Carrier وعن اغراق المسجونين فى نانت Nantes وعن كولوت دى هيربو Collot d'Herbois وعن ضرب ليون بالدافع وعن مندوبى اللجان الذين لا نعرف أسماءهم والذين جعلت أعمالهم عهد الارهاب يبدو هينا اذا قورن بهذه الأعمال ، ولا عن أولئك المندوبين الانجليز فيما يسمى بالجالية الكرومولية فى ايرلندة والذين يحتفظون بالرقم القياسى بين الارهابيين لطول الفترة التى مارسوا فيها نفوذهم وسوف نتناول فيما بعد شكلة الوسائل الارهابية ابان فترة الأزمات فى ثوراتنا ، وهنا لا يهمننا الا ان نشير الى انه من بين لفيف الثوار ويوجد عدد من الرجال الذين ينظر اليهم الناس فيما بعد الثورات على أنهم الشر الذى يظهر فى وقت الثورات . ولا احد يستطيع ان ينكر ظهور هؤلاء الرجال ا كما لا يستطيع أحدا منهم دون مساعدة من علم الجريمة وعلم النفس الخاص بالشواذ .



وكارير Carrier نفسه يمثل هؤلاء الرجال تماما . ومهما قد يحاول المدافعون الجمهوريون التخفيف من المآسى التى سجلها أعداؤه لأنشطته فى نانت فستبقى الحقيقة وهى أنه كان يستحث المحاكم الثورية للعمل السريع على اغراق المدانين بالجملة فى نهر اللوار بدلا من انتظار المقصلة البطيئة الحركة ، كان كارير محاميا فى الأقاليم ، أفلح فى الفوز بالانتخابات لعضوية المؤتمر وذلك حين انضم الى ناديه المحلى وأخذ يردد مجموعة العبارات التى اختص بها المستثرون . ولقد أرسل ممثلا للمؤتمر الى مدينة نانت فى مهمة ما ، وهناك يبدو أن السلطة أسكرته . وفوق ذلك كانت نانت على حافة نهر فانديه الخطيرة دائما ، ولربما كان كارير قد استحسن أن يمحو أعداءه بالجملة متعللا بأن هناك مؤامرة على حياته . ولا شك أنه أتم جبهة قوية ، ومشى مختالا فى المدينة وأقام حفلات الترفيه والتى الخطب الرنانة وترك وراءه جروحا من الكراهية لا تندمل جلبت له السقوط والحكم باعدامه بعد أن انتهى الإرهاب .

ان كارير يذكركنا برجل من رجال العصابات التى يصفها مستر جيمس فارل James Ferrel ففيه هذه الشجاعة الجوفاء والشعور بالحياة التى يحيها الفرد على مستوى المأساة العنيفة والاحساس الجديد الفج بالقوة والخوف الدائم من الانتقام والأغراض التى تتصف بالطفولية المباشرة . والشئ الذى لا يلمسه المرء فى كارير هو ذلك الحب المرضى لسفك الدماء والعقيلة المريضة من ذلك النوع الذى يقترن باسم الماركيز دى ساد . وفى الواقع أن هذا النوع الأخير من الجنون يوجد غالبا بين السجانين والقتلة والشناقين فى الثورات أكثر مما يوجد بين الزعماء — حتى الزعماء الذين فى مستوى كارير . ولا شك أن أعنف الأعمال الثورية بصفة عامة هى تلك التى يقوم بها الغوغاء الثائرون — مثلا مذابح باريس فى سبتمبر ١٧٩٢ التى تشبه الى حد كبير المحاكمات العرفية فى التاريخ الأمريكى . ففيها أعنف الأمثلة على القسوة الانسانية ، ولكنها تربط بالثورات . أن المذابح والأحكام العرفية لا تقل عنها سوءا . ان الثورات والغوغاء ليسا لفظين يمكن تبادلها ، فأنت تستطيع وعادة تستطيع أن تجد واحدا منهما دون الآخر . والقسوة التى تكون أشد ارتباطا بالثورات هى قسوة — تعتبر

في نظر الناس أكثر اشارة من قسوة الفوغاء — الاحكام بالاعدام عن طريق المحاكمات والتي تصدر بدون اكثراث ووفقا للمبادئ .

وهناك نمط آخر يعتقد عموما — وان كان خطأ — أنه يرتفع الى القمة في الثورات . هذا هو المخطط المخبول والمذهبي الخيالى والرجل الذى يملك جهازا مسلوب العقل يتوهم أنه سيحقق بها عالما أفضل . وباختصار ربما تسنى في مرحلة شهر العسل للبهجة غير المتعلقة أن يكون لها ثمار ، ولكن فيما يختص بالثورة الانجليزية فقد كان لها أكثر مما ادعته من ثمرات أو على الأقل فيما كتب عنها . ولكن الثورات ليست الا عملا جادا لا يمكن أن يضلّه شذوذ المنحرفين المخبولين . فاذا ما تحدد الخط المستقيم للثورة — ومع أنه — كما سنرى خط عبوس وجامد الا أنه متزن غير منحرف — فإن الحمقى سواء كان حقهم هينا أو مبالغ فيه سوف يخذلون . وهناك الثورات الماركسية وثورات الحقوق الطبيعية ولكن ليس هناك ثورات للضريبة الموحدة أو الائتمان الاجتماعى أو التصوف أو الاقتصاد على أكل النباتات أو الادراك الحسى الزائد . انها مجتمعاتك المعنة فى الاستقرار وحدها مثلما كان المجتمع الانجليزى فى العصر الفيكتورى هى التى تستطيع أن تحتل تسليم هايد بارك لتطرف المخبولين . وحتى لو ظننت أن كومويل وواشنطن ورولسيد ونابليون ولينين وستالين جميعا ينتمون الى فئة المعتوهين فانه يتحتم عليك أن تقر بأنهم فى يوم سطوتهم نزلوا فى شىء من العنف على معتوهين آخرين يخالفونهم .

وليس من الممكن كذلك أن تعزل نمطا ثوريا وندمغه بأوصاف مثل « مجرم » و « منحط » ، تتفق تماما مع بعض المقاييس الجسمية الخاصة بالشواذ . ومن المؤكد أن محاولات من هذا القبيل قد بذلت — ويحتمل أن يكون هناك من يعتقدون أن الثوريين يتناولون أدوية خاصة أو ان شعرهم داكن السواد . وقطعا هناك كثير من الثوريين من أمثال كارييه الذين يسلكون سلوكا يماثل المجرمين فى المجتمعات المستقرة ، ولكن نسبة هؤلاء الثوريين ليست فيما يبدو مرتفعة بطريقة غير مألوفة وهناك نمط ثورى آخر وهو الشخص الذى يهوى خلق المنازعات ، ويحمل عقلية المعارضة ،

ويجب ان يشذ عن جمهور المؤيدين . والواقع ان احدى جماعاتنا الثورية ونعنى بها فئة البيوريتان الانجليز كانت مليئة بهذه الفوضوية الفظة خصوصا ولم يكن الأمراد وحدهم هم البارزون في هذه الناحية وانما كانت الجماعة بصفة عامة تخرج عمدا على كل ما هو عظيم وعصرى ويقول أحد المؤرخين الاجتماعيين : « يرفض البيوريتانى ارتداء كل ما هو عصرى . فعندما كانت الموضة لبس القباء المشكشكس كان البيوريتانى يلبس شريطا مرسلا ، وعندما أصبحت هذه الأقبية غير مألوفة حوالى عام ١٦٣٨ وحل محلها اشرطة عريضة مرسله رقيقة الجواف محلاة بالدنتلا الدقيقة الصنع كان هو يرتدى شريطا ضيقا جدا . وعند ما كانت الأحذية العصرية عريضة عند الأصابع كان حذاؤه ضيقا . وعندما كانت القاعدة هى ارتداء الجوارب من اى لون ما عدا الاسود ارتدى هو الاسود ، وكانت جواربه قصيرة ثم قبل كل شئء كان شعره قصيرا . وحتى في أواخر حكم اليزابيت كان الشعر القصير علامة من علامات التطهر .

ومع ذلك فان هذا النمط يتضح اشد الوضوح في بعض الأشخاص ومع ان جون ليلبرن John Liburne الاشتراكى الانجليزى كان الفضيلة مجسدة الا انه كان غير مريح ، ويبدو انه انحدر من أسرة اشتهر أفرادها بالفظاظة . وذلك لأنه يقال عن ابيه وقد كان سييدا من ديرهام انه آخر رجل انجليزى لجأ الى الحق الاقطاعى لينال حكما بالتعذيب عن طريق الضرب في قضية مدنية . وكان دائما مغرما بالجدل وهاجم البرستاريين Presbyterians والاستتلايين بنفس المرارة التى كان قد هاجم بها القصر من قبل . والواقع انه كان كما كتب أحد المؤرخين : « حوكم ليلبرن في كل محكمة من المملكة تقريبا تحت ظروف متباينة خلال حوالى عشراة عاما وذلك للقتف في حق الحكومة و الملك والبرلمان ونائب الملك وكان من أول الواجبات التى فرضت نفسها على قضاة الكومنولث معالجة هذا السيد » .

ولكن يبدو انه كان يحتفظ بقدر كبير من العزة الاجتماعية مع العزة الثقافية والروحية التى تعد من سمات المتطهر الانجليزى . وفى خلال

محاكمة جرت له سنة ١٦٥٣ قال لقاضيه وكان رجلا عصاميا من أسرة من الحرفيين ومن الثائرين مع كرومويل « كان من الأنسب له ( للقاضي ) أن يبيع كستبانات ودبابيس الشعر من أن يجلس للحكم على شخص أرفع منه مكانه » .

وقال هنرى مارستن Henry Marsten قاتل الملك والذي ينبغي أن يكون حكما جيدا في مثل هذه الأمور انه اذا خلا العالم من كل الناس الا من جون ليلبورن فانه من المقطوع به أن ليلبرن كان سيتشاجر مع جون وكان جون سيتشاجر مع ليلبرن . وكتيبات ليلبرن مليئة بالحديث عن صلاح واستقامة أولئك الذين يكافحون دائما من أجل الحق والذين يبدو أنهم يغتبطون بما يلاقونه من متاعب في سبيل الحق ويقول جيمس رسل لورل : « الحق دائما أبدا على المشنقة والظلم دائما أبدا على العرش » . اننا قرييون من الشهداء .

لقد كانت دواعي ليلبرن بلا شك من أسمى الدواعي . كان يؤمن بالديمقراطية المطلقة كما أن دعوته لحق البالغين في الانتخابات واجراء الانتخابات كل سنتين والتسامح الدينى والمساواة أمام القانون كانت تلقى في يوم ما القبول الكامل جدا في انجلترا . غير انه في عام ١٦٤٥ لم يكن في مقدور أحد غير متطرف مذهبي أو متعصب أن يؤمن بأن هذه الدعوة ممكنة التنفيذ مباشرة . ولم يكن ليلبرن رجلا مشاكسا فحسب بل كان كذلك داعية للاستشهاد اذ كان ما يسميه الناس عادة بالمثالي ، وكثيرا ما نرى أمثاله في الثورات . وليس من الحكمة فيما يبدو أن نعتبر أيا من هذه الأنماط الثورى الكامل ولكن اذا كان لا بد من ايجاد هذا النمط فيحسن الا يكون ذلك الذى امتلأ برارة الفشل وذلك الذى ارتفع على أساس من الحقد والحسد وذلك المعتوه المتعطش للدماء وانها يكون المثالى . ان المثاليين على وجه اليقين هم في عصرنا الحاضر أعمدة المجتمع المستقر السوى . ومن الخير لنا جميعا أن يوجد رجال تعتمل فيهم الآمال النبيلة ، رجال طرحوا وراء ظهورهم كل ما في هذا العالم لاعلاء راية الكلمة النقية والفكرة والمثل الأعلى كما عرفها انبل الفلاسفة . ولكن يبدو

في الأوقات العادية أن هؤلاء المثاليين لا يشغلون — على الأقل في المجتمعات الغربية — مراكز السلطة والمسئولية . ونحن في الأيام العادية في عصرنا هذا نتطلع الى المثاليين فينا ونمنحهم أحيانا الجوائز والدرجات الشرفية ، ولكننا لا نختارهم ليحكمونا . بل ونرفض على وجه أخص أن ندعهم يرسمون لنا سياستنا الخارجية .

والواقع ان احدى العلامات المميزة للثورة هي : أنه في الأوقات الثورية يحصل المثالي في النهاية على فرصة يحاول فيها تحقيق مثله العليا . والثورات مليئة بالرجال الذين يتمسكون بمستويات بالغة السمو للسلوك الانساني ، نوع من المستويات التي ظلت لعدة آلاف من السنين توصف بكلمة أو عبارة ما ترتفع فيها النعمات التي تعنيها كلمة المثالي بالنسبة لنا اليوم . ولسنا في حاجة الى أن نتعب أنفسنا في معاني اللفظ العقلية أو حتى اللغوية ، فنحن جميعا نعرف المثالي عندما نراه أو على وجه التأكيد عندما نسمعه .

ان روبسبير كان لا بد أن يكون مثاليا في أي مجتمع من المجتمعات . وهناك قصة شائعة تروى كيف أنه فضل الاستقالة من منصبه كقباض على أن يصدر حكما بعقوبة الاعدام ، التي تتعارض مع تربيته الانسانية في القرن الثامن عشر . لقد دمر المؤرخون هذه القصة تماما اذ لديهم الكثير من القصص الأخرى يروونها عن المثاليين . الا أن هذه القصص لا تصدق عادة الا في أضيق الحدود . فهذه القصة عن روبسبير تشير الى أنه كان ابنا بارا من أبناء حركة الاستنارة . ولا يحتاج المرء الا الى قراءة بعض خطبه المليئة بالأفكار البسيطة والحكم الأخلاقية والآمال الواسعة لذلك العصر البريء ليتحقق من انه كان قادرا تماما على الاستقالة أو التخلي عن منصبه القضائي بدلا من التخلي عن مثله العليا . والحق أنه كان مستعدا للقتل دفاعا عن مثله العليا .

وتلك المثل العليا — عندما ظهرت مع بداية ١٧٩٣ — وقد تبدو لنا أقل من البطولة بعض الشيء وكانت مدعمة بقدر لا بأس به من الطموح الشخصي والغرور الواضح في روبسبير . ولكن هكذا كانت ، فان روبسبير

أراد فرنسا بحيث لا يكون فيها غنى أو فقر وحيث لا يتسنى للرجال أن يقامروا أو يسرفوا في تعاطى الخمر أو يرتكبوا الزنا أو أن يغشوا أو يسرقوا أو يقتلوا ، أرادها بايجاز بحيث لا يكون فيها رذائل صغيرة أو كبيرة — فرنسا يحكمها رجال فيهم استقامة وفيهم ذكاء منتخبون وبالاقتراع العام للناس جميعا ، رجال بلا جشع أو حب المناصب ، رجال يتركون مناصبهم بطيب خاطر على فترات سنوية ليخلوا أماكنهم لخلفائهم ، فرنسا تعيش في سلام مع نفسها ومع العالم — ولكن هل كان ذلك كافيا ؟ ان استقامة روبسبير الشخصية ليست موضع شك الآن حتى من المؤرخين الذين يعادون ما كان يدافع عنه . ففى زمانه وخاصة فى الأيام التى أعقبت سقوطه مباشرة اتهم بكل جريمة ممكنة وبكل الانحرافات الخلقية . ولكن يبدو فعلا انه كان بريئا من أى رذيلة من الرذائل الشائعة فى ذلك الوقت — فلا شراب ولا مقامرة ولا نساء . ان المؤرخين المحدثين يدعون أن لديهم الدليل على أنه لفترة وجيزة اتخذ فى باريس عشيقة . ولو أنه فعل فقد يفترض الانسان أن ذلك مرجعه دوافع صحيحة وهمية وقد يمكن أن يكون المحامى الريفى قد ارتأى أن يحيا لمدة أسابيع قليلة على نحو ما كان الباريسيون يحيون فى تلك الأيام . ومع ذلك فلا شك فى ان روبسبير عهد الارهاب كان قد طرح وراءه هذه الأفكار ، وكان كالمعصوم من الخطأ : رمزا حيا لجمهورية الفضيلة فى حياته العامة والخاصة .

والآن فان هذا النمط المثالى ليس بحال من الأحوال نموذجا بسيطا ومن الواضح أن كرومويل لا يمكن أن يدرج مبدئيا تحت هذه الفئة . الا أن هناك شيئا من صفة الباحث البيوريتانى فى كرومويل ، شيئا ما يصنع سياسته اللتوية — اذ كان فى الواقع مرائيا — التى يصعب جدا فهمها ، اذا ما أصرت على أن نرى الكائنات البشرية فى صورة منطقية متكاملة . وأما لينين وترولسكى فكلهما خليط غريب من المثالية والواقعية . وهذا الازدواج بين المثالية والواقعية لا يعنى ببساطة أنها كانا يستطيعان فى الوقت المناسب استخدام وسائل واقعية لبلوغ أهداف تمليها عليهما مثلها العليا . ان روبسبير أو كرومويل أو جلاستون أو وودرو ويلسون كان فى وسعه أن يعقل ذلك .. وهذا يعنى أنهم كانوا أيضا قادرين على

تحقيق غايات واقعية قريبة . ولقد كان لينين بطبيعة الحال داعية ومنظما بارعا للغاية مع قدر كبير مما نسميه قدرة على التنفيذ . ولكن يبدو على الأمل في ١٩١٧ أنه كان يظن أن الثورة العالمية قاب قوسين أو أدنى .

وان في الامكان ادخال المساواة الاقتصادية المطلقة في روسيا فوراً ، الا ان السياسة الاقتصادية الجديدة في ١٩٢١ تدل تماما على ان لينين لم يعمل على تحقيق مثله العليا حتى النهاية المريرة للهزيمة والاستشهاد . ولقد كان تروتسكى من خير العقول الناقدة بين الماركسيين ، بل كان له القدرة في بعض اللحظات على نوع من التشكك حتى في اهدافه نفسها . ولقد قدمت الحرب الأهلية فيما بين ١٩١٧ - ١٩٢١ برهانا قاطعا على قدراته في كل من مجالى الخطابة والتنفيذ تحت الضغط . الا انه في سنوات النفي يبدو كمن يطلب المستحيل وهو تعريف ربما كان فيه قسوة شديدة ولكنه أحد تعاريف المثالية ، ولو بقى تروتسكى في السلطة فلربما تسنى له حقاً أن يسالم البيروقراطية ويتقبل فكرة عدم المساواة ومبدأ اقتتار الاشتراكية على بلد واحد والتدهور الترميدورى وكل الشرور الأخرى المقترنة فيما بعد باسم ستالين . ومع هذا فيبدو أن هذا العناد من تروتسكى وهذا الاصرار على انزال جنة السماء الى الأرض فوراً ، وهذا الامتناع عن مواعمة اهدافه للضعف البشرى أو ان شئت للطبيعة البشرية ، تساعد كلها على تفسير السبب في أنه لم يستطع البقاء في روسيا بعد الثورة .

ولا شك ان المثالية العاطفية لم يكن لها مكان في روسيا عام ١٩١٧ . اذ حلت الحقائق الجافة أو على أية حال التعاليم الجافة للاشتراكية الماركسية محل الآمال الساذجة التى بدأت بها الثورة الفرنسية لتجعل من هذا العالم شيئاً أفضل . ويمكنك في كل من لينين وتروتسكى أن تقتفى أثر هذه الرغبة الشديدة ، ولن يفيد في شيء أن ندلل على أنهما لم ينجحا في بعض الأحيان . ومن الواضح تماما أن ستالين نجح على هذا النحو . . وهناك مثالى تقى واحد من بين الزعماء

الروس ، واحد يقدم لنا صورة أخرى لهذا النمط ، ذلك هو لوناشارسكى Lunacharsky وزير التعليم لرحلة طويلة ، الفنان ورجل الثقافة في الحركة . ان لوناشارسكى بالرغم من ماضيه كمهيج ثورى كان بلا جدال رجلا طيب القلب الى اقصى حدود الطيبة ، وكان يملك القدرة على الحديث المؤثر في شئون الحياة والتعليم والفن وينتقل الى الحديث عن روسو ويول وفرجينى . وان العالم لمدین له لانه ساعد بقدر كبير على عدم تدمير الأعمال الفنية التي تمثل الماضى الراسمالي المنحل .

ان مستر اريك هوفر Eric Hoffer في كتابه الشيق عن الحركات الجماهيرية « The true believer » ينتهى الى أن الثورات يعدها رجال يجيدون الكلام « — أو بتعبيرنا نحن ، المثقفين المستائين — ويحققها المتحمسون المتعصبون — رويسبير على سبيل المثال — وأخيرا يروضها ، ويعيدها الى مستوى المجتمعات العادية » رجال عمليون مثل كرومويل ، وبونابرت وستالين . أما « الرجال الذين يتقنون الكلام » فانه يراهم مثقفين لهم مواهب غير عادية ، يقومون بالدور المألوف للمثقفين في المجتمع الغربى وهو الشكوى من هذا العالم الفظ ، ولكنهم ليسوا في حد ذاتهم مؤهلين اطلاقا للعمل الشاق الذى تتطلبه الثورة الفعلية ، أما « رجال العمل » فانه يجدهم أيضا مثل كل الرجال العمليين في جميع العصور بهمهم أن تقوم الحكومة بمهامها . وهو يجد العامل الحقيقى في القيادة الثورية للجماهير في « المتحمس » الذى غالبا ما يكون كما يقول مستر هوفر المثقف الخلاق الخائب أو هو الرجل الذى لم ينجح في التأثير على رفاقه بما فيه من عمق وبعد الرؤية كمفكر وفنان . ان مارا العالم الكم المهمل ورويسبير الفاشل في كتابة المقالات والقصائد في آراس ولينين الفيلسوف الطامح الفكر الذى قد يتفوق على ماركس أو على الأقل يفوق بليخانوف وموسولينى الذى كان يرجو أن يكون ضمن المثقفين ، وهتلر الرجل الذى فشل ككفاش وكذلك معظم قادة النازيين . كل هؤلاء جميعا يملأون تصنيفه تماما . ان حماسهم انما يتغذى من احساسهم بالفشل الشخصى في الفن الخلاق الذى سعوا للتفوق فيه . والآن فانهم في دورهم الثورى يريدون أن يحطموها مجتمعها لم يقدرهم . انهم حقا مثاليون ولكن تملؤهم المرارة وكان بهم مس



شيطاني ومثاليون غير انسانيين ذواتهم هي المحاور التي يرتكزون عليها بعيدا عن اصول الفلسفة .

ويوضح مستر هوفر أن « رجال الكلام » الذين قاموا بالكثير لاعداد الثورة لا يستطيعون أن يواجهوا خضم الثورة نفسها . ويقول : « وليس هكذا المتحمس . ان الفوضى عنصره . فعندما يبدأ النظام القديم في التصدع ينزل بكل جبروته وطيشه لينسف كل الحاضر المكروه ويذروه الى أعلى . انه يشعر بالوجد حين يرى عالما يسير الى نهايته المفاجئة ولتذهب الاصلاحات الى الجحيم ، ان كل ما هو قائم لا قيمة له وليس هناك اى حكمة في اصلاح شىء عديم القيمة . انه يبرر الرغبة في نشر الفوضى بالقول انه ليس من المستطاع ايجاد بداية جديدة ما دام القديم قابضا على الزمام . انه ينحى جانبا رجال الكلام المذعورين اذا ما كانوا لا يزالون موجودين ولو انه يستمر في تمجيد مذاهبهم وترديد شعاراتهم . انه وحده الذى يعرف أعق النزعات في سريرة الجماهير المتحركة اى الرغبة في الاجتماع والاحتشاد للعنف والرغبة من أجل القضاء على الفردية اللعينة لتندمج من جديد في جلال الجماعة الجبارة وعظمتها . ان الخلف هو الذى يحكم والويل لهؤلاء الذين — في داخل الحركة او خارجها — يستمسكون او يتعلقون بالحاضر .

واخيرا فان هناك الرجل الذى في استطاعته ان يمتلك زمام الجموع ويأخذ بالبابهم وتعنى به الخطيب الثورى . ويمكن ادراجه في قائمة المثاليين وذلك لانه رغم ان عليه ان يدفع الجماهير لارتكاب ألوان العنف الا انه مع هذا يعمل على تهدئة النفوس ويعظ الناس بالطقوس ، ويعمل على لم شملهم . ولاداء هذا الدور لا تحتاج كلماته الى المعانى اطلاقا وانما تملأ النفوس بالأماني السعيدة . وكثير مما كان يقوله روسبير يمكن ادراجه تحت هذا العنوان وكذلك باتريك هنرى Patrick Henry وفرنيود Vergniaud وتسيرتلى Tseretelli ان هذا النمط يوجد طبعا في كل المجتمعات السوية ويلقى عادة الاحترام اللازم . ويبدو ان زينوفيف Zinoviev أدى في الثورة الروسية هذا الدور الى حد ما .

ولقد أدرك لينين مدى ما كان لزينوفيف من نفع كخطيب بل حتى كنوع من الزعماء في بتروجراد ولكن يبدو أنه كان يحمل له قدرا لا بأس به من الاحتقار لعقليته وذكائه .

### خامسا — تلخيص :

تلخيصا لما سبق يتعين أن يكون واضحا الآن أن الأمر يكاد يستلزم أنواعا عديدة من الرجال والنساء لصنع ثورة مثلما يستلزم صنع هذا العالم . ويحتل أن تكون ثوراتنا في أوقات شدتها قد دفعت الى مراكز الصدارة أو حتى الى مراكز المسؤولية برجال من الصنف الذى لا يمكنه فى مجتمعات طبيعية أو سوية أن يحتلوا مثل هذه المراكز . وجدير بالذكر أن الثورات العظيمة — كما يبدو — تضع المثاليين المتطرفين ابان فترات الشدة فى مراكز السلطة التى لا يصلون اليها فى الأوقات العادية . كما يبدو كذلك أنها تعنى بالمواهب الخاصة وذلك مثلما فعل مارا بالنسبة للصحف الصفراء والبذاءة الحادة . انها بكل تأكيد تخلق عددا من الأماكن الشاغرة لكى تملأها وتتيح الفرص أمام شبان بارعين قد يكونون أيضا ممن لا خلاق لهم . وهى تولى — لفترة ما على الأقل — قدامى الثائرين والمستائين اهتماما كبيرا وكذلك الذين يوزعون مثل العقاقير الاجتماعية والسياسية سرا .

ولكن الثورات لا تعيد خلق البشرية ولا هى تستفيد حتى من مجموعة جديدة من الرجال والنساء ظلت حتى وقوعها معطلة . وفى كل ثوراتنا الأربعة — حتى الثورة الروسية تتكون من أنصار عاديين جدا رجلا كانوا أم نساء — ممن كانوا بطبيعة الحال أكثر امتيازاً بعض الشيء عن قرنائهم الأقل نشاطا سواء فى طاقتهم أو قدرتهم على التجربة . وفى كل من الثورات الإنجليزية والأمريكية والفرنسية حتى فى فترات الشدة نجد أنهم رجال ذوو أملاك كبيرة . وهذه الثورات لم تكن بصفة عامة مبتلاة بأى شيء مما يتطلب استدعاء الأطباء النفسيين . فهؤلاء الأنصار لم يكونوا قطعاً من الغوغاء أو الأوغاد أو من حثالة الناس . بل لم يكونوا كالديدان

التي تتلوى . كذلك لم يكن زعماءهم بأى حال فئة من الوضعاء ارتقت  
نجاة لتحفل مراكز للسلطة لا يستطيعون أن يشغلوها بجدارة . ولا جدال  
في أنه ابان غليان الثورات يرتقى عدد كبير جدا من الأوغاد الى القمة  
ولو انهم يستطيعون أن يرتفعوا الى هذه القمة دون حاجة الى ثورة ،  
الامر الذي تثبته بوضوح نظرة سريعة نلقيها الى بعض المراحل الخاصة  
من حكومتى جرانت وهاردنج . ولكن مستوى القدرة ، بمفهومها الفنى  
في أبعد حدوده والقدرة على معاملة الرجال أو ادارة نظام اجتماعى  
معقد ، مستوى القدرة الذى يقترن بأسماء مثل هامبدن وبيم وكرومويل  
وواشنطن وجون آرامز وهاملتون وجفرسون وميرابو وتاليران وكارنو  
وكامبون ودانتون ولينين وتروتسكى وستالين هو مستوى رفيع جدا بكل  
تأكيد .

ان هذا لا يرتفع الى الحد الذى يؤكد القول بأن ليس هناك فوارق  
حقيقية بين الثورات وبين الأزمنة العادية . بل على العكس من ذلك  
وبخاصة في فترات اشتداد الثورات نجد أن الثورات لا يمكن أن تتأرن بأى  
شئ آخر على وجه الأرض . ولكنك لا تستطيع أن تفسر كلية الفوارق  
بين المجتمعات ابان ثورتها والمجتمعات ابان توازنها بأن تفترض بأن طاقما  
جديدا للقيادة قد خلق لده خلال ثورة ما ، أو أن تقول اذا ما كنت تنفر  
من ثورة معينة ومن كل أعمالها ان الأوغاد والسفلة قد أشعلوها  
لتدمير جماعة الطيبين أو اذا كنت تؤيد وتقر ثورة ما بأن الأبطال والعقلاء  
قد تصدوا للقضاء على الطغمة الفاسدة القديمة . ان الامر ليس بهتل  
هذه البساطة . ولما كانت الدلائل تشير الى أن الثوار ليسوا بحال  
أو آخر الاقطاعا من الانسانية عامة فان شرح الحقيقة التي لا شك فيها  
وهى أنه في اثناء بعض مراحل الثورة يتخذ الأفراد سلوكا لم تكن نتوقمه  
من أمثالهم امر يجب أن يبحث عنه في التغيرات التي تحدثها فيهم والظروف  
التي يعيشون في ظلها وكذلك بيئتهم الثورية .

# الفصل الخامس

## حكم المعتدلين

اولا : مشكلة المعتدلين :

في صيف ١٧٩٢ ترك لانماييت ولفيف من ضباطه الجيش الفرنسي وعبروا الى الخطوط النمساوية . وسرعان ما اودعه النمساويون السجن اذ كانوا يعتبرونه شعلة ثورية خطيرة . ولقد كان لانماييت على اى حال اوفر حظا الى حد كبير من كثير من رفاقه ابطال ١٧٨٩ الذين اختاروا البقاء في فرنسا والذين شنقوا بالمتصلة باعتبارهم رجعيين ومناهضين للثورة . ان فيدور ليند Pedro Linde الاشتراكي المعتدل الذي حرض في ابريل ١٩١٧ الفرقة الفنلندية على القيام بمظاهرة ثورية ضد مليونكوف احد انصار الحلفاء والذي يعتبر اكثر اعتدالا قد ارسل فيما بعد الى الجبهة على انه مستشار الحكومة التي يرأسها كيرنسكى . وهناك حاكمه الجنود الثائرون الذين رفضوا اطاعة اوامره محاكمة عرفية . وفي ١٦٤٧ نجد ان دنزيل هولز Denzil Holles الذي اخذنا فكرة مختصرة عنه في ١٦٢٩ عندما اشترك في انزال رئيس الجلسة بشدة من مقعده ، قد استبعد مع عشرة آخرين من الاعضاء البرسببتيين من البرلمان وذلك لانهم كرسوا جهودهم للقضاء على الحقوق والحريات الخاصة بالرعايا . وعاد الى البرلمان لفترة قصيرة في ١٦٤٨ ولكن سرعان ما اضطر للهرب الى فرنسا لانقاذ حياته . وفي ذلك يقول فرنيود الفرنسي المعتدل قوله المشهور « ان الثورة مثل زحل تلتهم من نشأ في ظلها » .

ان شهر العسل في هذه الثورات كان قصيرا ، فلم يكذ يمضى وقت قصير على سقوط النظام القديم حتى بدأت علامات واضحة على ان المنتصرين لم يكونوا متفقين على ما يجب عمله لاعادة بناء البلاد الى الحد الذي

كان يبدو في خطب الانتصار واحتفالاته الأولى . إذ كان الذين تسلموا إدارة شئون الحكومة في كل من مجتمعنا الأربعة رجالا من النوع الذى نطلق عليه عادة لفظ المعتدلين وكانوا يمثلون الفئة الأغنى والأكثر شهرة والأعلى مكانة في المعارضة القديمة للحكومة . وكان من الطبيعي توقع تسلمهم زمام الأمور من تلك الحكومة . وفي الواقع كما رأينا يكاد أن يكون اضطلاعهم بالمسئولية تلقائيا . ولقد كان الاحساس بضرورة تولى المعتدلين زمام الأمور قويا حتى انه انتشر في روسيا في فبراير من عام ١٩١٧ . ويبدو لنا الآن كما لو أن ائتلافيا اشتراكيا من نوع ما — الاشتراكيون الثوريون ، وجماعات المنشفيك مع امكان انضمام البلشفيك انفسهم — قد استولى تماما على السلطة في ذلك الشهر . وكان واضحا أن للكادتس Kadets والفئات الأخرى البرجوازية جذورا قليلة قوية في البلاد . ومع ذلك فان لوفوف والقادة المخلصين من المعتدلين لم يجدوا صعوبة كبيرة في فرض سيطرة اسمية على الأقل في الاسابيع الأولى عندما تسنى للمعتدلين أن يصبحوا في مراكز السلطة استبان أن ما لديهم من الانسجام والنظام الحزبي أقل مما كان يبدو عندما كانوا في المعارضة . ولقد واجهتهم المهمة الصعبة وهى اصلاح الأنظمة القائمة أو وضع دستور جديد مع العناية في نفس الوقت بأعمال الحكومة العادية . وسرعان ما واجههم أيضا اعداء مسلحون ووجدوا انفسهم مشغولين في حرب خارجية أو حرب أهلية أو كليهما معا . ووجدوا ضدهم جماعة متزايدة قوية وعنيدة من الثوريين ومن المتطرفين الذين أصروا على أن المعتدلين يحاولون وقف زحف الثورة وانهم خانوها وانهم من السوء كحكام العهد البائد تماما — بل انهم في الواقع أشد سوءا حيث انهم خونة بالقدر الذى هم فيه اغنياء واوغاد . وبعد فترة قصيرة في روسيا وأطول في كل من فرنسا وانجلترا ظهر على مسرح الحوادث صراع القوة بين المعتدلين والمتطرفين ، صراع القوة بصور متعددة يشبه تماما ذلك الصراع الذى قام من قبل بين الحكومة القديمة والثوريين وانهمز فيه المعتدلون وهربوا الى المنفى ووضع آخرون في السجون ليواجهوا في النهاية المشائق والمقاصل أو الموت ضربا بالرصاص . فاذا ما كانوا سعداء الحظ أو مغبورين بقدر كاف اختفوا عن الاضطرار وأسدل

عليهم ستار النسيان . وقبض المتطرفون بدورهم على زمام السلطة . ان هذه العملية لم تحدث على هذا النحو تماما في الثورة الأمريكية حيث يمكن القول بوجه عام أن المتطرفين من أمثال الاستقلاليين واليعاقبة لم يصلوا الى الحكم وهم منقسمون على انفسهم ومع ذلك — كما سنرى — قام في أمريكا صراع بين المعتدلين والمتطرفين في وقت مبكر نسبيا من العملية الثورية ، وانتهى بانتصار المتطرفين . وكانت ثمرة ذلك الانتصار اعلان الاستقلال .

ولذلك يمكن القول بأنه يوجد في كل ثوراتنا اتجاه السلطة الى التحول من اليمين الى الوسط الى اليسار : من المحافظين في النظام القديم الى المعتدلين الى الثوريين أو المتطرفين . وبينما تسير السلطة في هذا الاتجاه فانها تركز شيئا فشيئا وتضيق قاعدتها شيئا فشيئا في البلاد وفي الناس اذ يعد كل أزمة هامة تضطر الجماعة المهزومة الى أن تتوارى من الميدان السياسى . أو بعبارة أخرى بعد كل أزمة يميل المنتصرون الى الانقسام الى جناح أكثر محافظة يمسك بزمام السلطة وجناح أكثر تطرفا في المعارضة . وعند مرحلة معينة تشهد كل أزمة انتصار المعارضة المتطرفة . وطبيعى أن تتباين تفاصيل هذه العملية من ثورة الى ثورة . فمراحلها لا تتماثل في طولها أو في تتابعها الزمنى وفي أمريكا لم تذهب السلطة اطلاقا الى اليسار بالقدر الذى ذهبت اليه في الدول الأخرى .

ومع ذلك فان هذا الصراع بين المعتدلين والمتطرفين يعتبر مرحلة في ثوراتنا محددة تماما مثل تلك المراحل التى فرغنا من دراستها في الفصول السابقة ، وقيامه يبدنا بتماثل نافع وأن يكن بسيطا بعض الشيء ، وقبل أن نحاول تمحيص هذه الملاحظة وقبل أن نحاول أن نتبين ألوان التماثل في سلوك المعتدلين والمتطرفين علينا أن نستعرض في اختصار سير الحوادث ابان حكم المعتدلين .

### نتايا : الأحداث خلال حكم المعتدلين :

مع اندلاع الحرب الأهلية في صيف عام ١٦٤٢ وقف الملكيون والبرلمانيون وجها لوجه مدججين بالسلاح . وبنشوب معركة مارستون مور Marston Moor

في عام ١٦٤٤ ، وقطعا بنشوب معركة ناسباي Naseby في عام ١٦٤٥ ، صارت قضية انصار الملكية بالمفهوم الحربى ميثوسا منها . ولكن منذ الصدام الاول الواضح مع شارل كان البرلمانيون قد كسبوا ثورتهم تقريبا . ولم يفعل الملكيون شيئا سوى أنهم قاموا بالدور الذى قام به في أمريكا الموالمون للحكومة ، وفي فرنسا الملكيون ورجال الدين في المقاطعات والمهاجرون في الخارج ، وفي روديسيا الجيوش البيضاء العديدة التى جابهت البلشفيك حتى عام ١٩٢١ . ولسنا هنا نهتم كثيرا بالملكين مثلما نهتم بالبرلمانيين . ففى نطاق هذه الفئة الاخيرة يوجد منذ ١٦٤٢ انقسام واضح ومتزايد بين الجماعات التى يمكن أن نطلق عليها بوجه عام المعتدلين والمتطرفين . وهذا الانقسام ليس اولا انقساما بسيطا بين حزين . ففى أقصى اليمين للبرلمانيين وجدت فئة قليلة من المعتدلين من طائفة الأسقفيين الذين مستهم حينذاك أفكار البيورتيان المتطهرين الملكيين الدستوريين . وكثير من أفراد هذه الجماعة كانوا بوجه عام لا يكثرئون بالمسائل الدينية ويشعرون بأن أمور الكنيسة قد تحل في هدوء اذا ما أمكن حل المشاكل السياسية خلا سلميها . ولم يكن بين هؤلاء الرجال وبين الملكيين المعتدلين الذين فضلوا كارهين بعض الشيء الوقوف في جانب مليكهم الا اختلاف ضئيل جدا . ثم جاء حزب المعتدلين الكبير أتباع الكنيسة البرسبترية والبيورتيان المتطهرين من الناحية الخلقية والملكيين بقلوبهم ولكن ملكيين من ذلك النوع الذى سيتأصل على أيديه فيما بعد تقليد الأحرار القائل بأن الملك يملك ولكنه لا يحكم . ان الجناح اليسارى من الكنسيين البريسبتريين الذين ضللتهم فكرة الملكية في البداية قد دفعهم كرههم لشارل الى الانضمام بسهولة الى الفئة الرئيسية من المتطرفين ، وهؤلاء يطلق عليهم في الثورة الانجليزية اسم الاستقلاليين وهم من الكلفنين المتطرفين الذى أصروا على استقلال كل اسقفية منفصلة . وكانت أفكارهم عن حكومة الكنيسة في جوهرها هى المعروفة جيدا في هذه البلاد باسم الطائفية الكنسية وكان يشاركهم في معظم الأغراض السياسية جماعات أخرى صارت فيما بعد تؤلف المنشقين الانجليز أو المخالفين الانجليز — وبصفة خاصة العمديين . وكان الجيش النموذجى الحديث الذى جعل المتطرفين قوة فعالة في الثورة يضم أفرادا

يعتقدون كل المذاهب الدينية الانجيلية تقريبا ، وكثيرا من العقائد الاقتصادية والاجتماعية المتنوعة . ولكن الجماعة كانت تعمل فعلا كجماعة وكان جوهرها بالتأكيد طابع الاستقلاليين . وفي اليسار كانت هناك جماعات أخرى مثل الاشتراكيين والفلاحين ورجال الملكية الخامسة الذين سوف نعنى بهم في فصل مقبل .

والآن فان الحقيقة الواضحة وهى أن الأسقفين والبريسبترين والاستقلاليين كانوا في الثورة الإنجليزية من المحافظين والمعتدلين والمتطرفين على التوالي مما يربك القارئ العصرى . ذلك لأن المثالى الذى ينتهى الى طراز قديم كان يرى أن من السخف أن يسوى في القرن السابع بين هؤلاء الانجليز والذين يكافحون من أجل أمور دينية ومن أجل مثل عليا وبين الفرنسيين الذين كانوا يكافحون من أجل الحرية والمساواة والاخاء في هذه الحياة الدنيا ولا يقبل أن يقارنهم بالروس الذين كانوا يكافحون من أجل مصالح اقتصادية فجة . ومن ناحية أخرى فان المؤمن العصرى بالتفسير الاقتصادي للتاريخ يميل الى النظر الى هذه الاختلافات الدينية على أنها مجرد « مذاهب فكرية » أو ستارا لمعركة كانت في حقيقة الأمر معركة اقتصادية بسيطة . وعنده أن البريسبترين فئة صغيرة من الأعيان أو من رجال الأعمال البورجوازيين وان الاستقلاليين تجار وحرفيون بورجوازيون ومزارعون تشاحنوا بعد أن تخلصوا من الطبقات العليا الاقتصادية . المثالى والمادى هنا كلاهما على خطأ بين . فان الأمور السياسية والاقتصادية والكنيسة واللاهوت كانت مختلطة اختلاطا معقدا في أذهان الانجليز وقلوبهم في القرن السابع . وكانت معاركهم تدور بين بعضهم البعض وليست بين الأفكار المجردة التى يتمسك بها الفيلسوف أو الاقتصادي أو عالم الاجتماع . وعلينا هنا أن نلاحظ الطرق التى سلكتها هذه المعارك ، ومن المفيد من وجهات نظر كثيرة أن ننظر الى هذه المعارك على أنها تبين تتابع السيطرة للمحافظين أولا ثم للمعتدلين ثم للمتطرفين . ومن الطبيعى أن هؤلاء المحافظين والمعتدلين والمتطرفين لم يشبهوا جماعات مماثلة في الثورات التالية وهم اذا ما قورنوا برجال ١٧٨٩



او ١٩١٧ فانهم قرأوا كتباً مختلفة وتباحثوا حول أفكار مختلفة كما كانوا يلبسون ملابس مختلفة . الا ان خط سير ثورتهم يشبه تماما ثوراتنا الأخرى وذلك فيما يختص بالعلاقة بين التنظيم السياسى والطبعا البشرية . فان البرسبتيريين « المعتدلين » قد نحوا جانباً من رجال أشد عزمًا وتطرفاً تماما مثلها نحى الجيرون فى فرنسا Cirondes ومثلها حدث للكاديت Kadets والفئسات المعتدلة من جماعات الاشتراكيين فى روسيا .

ولقد استطاع مجمع البرسبتيريين الذى بدأ اجتماعاته فى صيف عام ١٦٤٣ بزعاية جمعية وستمنستر ان يخضع ذلك الجزء من انجلترا الذى كان تحت اشراف البرلمان الى الميثاق الاسكتلندى المشهور ، مزقت الصلبان والصور والتمائيل التى تمثل صلب المسيح ، كما أزيل الزجاج الملون من الكنائس وأطيلت مدة العظات الدينية وبسطت الطقوس الدينية . وأصبح البرلمان هو السلطة القانونية العليا فى البلاد . ولكن كان هناك ما يدل على أن حكم البرسبتيريين لم يكن ليستمر دون تحد . ولم تكن معركة مارستون مور Marston Moore انتصاراً للبرسبتيريين . لقد كان المنتصر فيها كرومويل و « أتباعه من الجنود » ويطلق عليهم الحرس الحديدى 'Ironsides' وهؤلاء الرجال لم يكونوا برسبتيريين صالحين لقد كانوا استقلاليين وكان بعضهم ممن يعارضون فكرة التعميد ويناقضون الشرائع والقوانين وغيرهم ممن لا يعرف مذهبهم الا الله . ويقال أن أحدهم اشتكى لكرومويل من أن أحد ضباطه كان يعارض فكرة التعميد فتلقى الرد التالى :

« هب انه كذلك هل سيجعله ذلك عاجزا عن خدمة الشعب ؟ حذار أن تكون على مثل هذه الحدة ضد أولئك الذين يمكنك أن تعارضهم قليلا ولكنهم لا يتفقون معك فى كل رأى يتعلق بأمور الدين » .

وعندما كان الجيش النموذجى الحديث مؤلفا من خلاصة جنود كرومويل وكان قد كسب معركة نسبأى فان الجيش والبرلمان ، والاستقلاليين والبروسبتيريين المتطرفين والمعتدلين ، قد وجدوا انفسهم جميعا متعارضين

في قضايا متنوعة وبخاصة فيما يتعلق بالتسامح الدينى وما يجب عمله بالنسبة لشارل الأول . اذ كان البرسبيتريون يريدون دولة كنسية مستقرة مبنية على آرائهم الخاصة المتعلقة بالحكومة الكنسية وفلسفة اللاهوت مع حد أدنى من التسامح مع أنصار الأساقفة .

وأنصار البابوية والشيع الدينية الأخرى . كما أنهم كانوا بكل تأكيد يريدون ملكا حتى ولو كان هذا الملك هو شارل ستيوارت . أما الاستقلاليون فكانوا يريدون ما يطلقون عليه التسامح الدينى ، ولم يكونوا قطعاً يعنون به التسامح الدينى الذى يعنيه الرجل الانجليزى أو الأمريكى فى القرن التاسع عشر ، وعندما تملكوا زمام السلطة لم يظهروا أبدا شيئا من التسامح حتى بالمعنى الذى كانوا يعطون به . ولكنهم على الأقل حين كانوا فى المعارضة وافقوا على أن العقيدة الدينية مسألة شخصية وأن الدولة يجب عليها ألا تسعى الى فرض شعائر أو تنظيمات دينية واحدة على مواطنيها . أما فيما يتعلق بالملك فان معظمهم كان متأكدا فى سنة ١٦٤٥ من أن شارل ستيوارت لم يعد له قيمة أو نفع . ومن المحتمل أن كرومويل لم يكن أبدا جمهورى المذهب ولكن عددا كبيرا من رجاله كان كذلك على وجه التأكيد .

وليس هناك حادث واحد يحدد بالضبط تحول السلطة من أيدي المعتدلين الى المتطرفين فى انجلترا . أن الأمور ذهبت الى مدى بعيد الى حد ما عندما قبض أحد أفراد الجيش وهو كورنت جويس Cornet Joyce فى يونيه من عام ١٦٦٤ على الملك فى هولبى هاوس Holmby House عندما كان على وشك الخضوع للبرلمان ، والموافقة على أن يحكم لمدة ثلاثة أعوام كملك بريسبيترى . واكمل الوضع تقريبا عندها وافق البرلمان على مفض بعد ذلك بشهرين بأمر الجيش على ابعاد أحد عشر عضوا من أعضائه وكتاتوا من الزعماء البارزين فى طائفة البرسبيتريين . وانتهمز شارل فرصة هذا النزاع لمحاولة الحصول على مزيد من المكاسب . ولم تنته دسائسه المعقدة الى شيء أفضل من حرب قصيرة المدى بين جماعة البرسبيتريين والكرومويليين التى استطاع فيها المعتدلون لفترة ما أن يتطلعوا

الى الانتصار .. وهزم كرومويل الاسكتلنديين فى موقعة برستون بانز Preston Pans فى أغسطس من عام ١٦٤٨ ، وكان الجيش يسيطر على بريطانيا العظمى دون منازع وبعد ذلك لم يكن للوضع الرسمى للمعتدلين فى عملية التطهير التى قام بها برايد Pride فى ديسمبر أية أهمية . ولقد وقف الضابط برايد وعدد قليل من الجنود على باب مجلس العموم ليرجعوا الاعضاء غير المناسبين عند قدومهم وعلى هذا النحو ابعثوا ستة وتسعين من البرسبيترين وتركوا خمسين أو ستين من الاعضاء المواطنين على التصويت الذين كان المتطرفون يستطيعون الاعتماد عليهم . وأصبح البرلمان الطويل هو بقايا البرلمان القديم .

وفى أمريكا لم يأخذ النزاع قط مثل هذه الخطوط الواضحة . ويمكننا أن نقول ان المحافظين كانوا المواليين للحكومة الذين لم يشكوا قط من الحكومة الامبريالية وأن المعتدلين كانوا التجار وملاك الاراضى الاقوياء الذين بدأوا الى حد ما الحركة كلها بهياجهم ضد « قانون التمتع » وأن المتطرفين كانوا بلا جدال تلك الجماعة التى انتزعت فى النهاية « اعلان الاستقلال » . وهكذا كان هناك نوع من الصراع بين هذه الجماعات فى السنوات العشر التى سبقت نشوب الحرب مع الجيش البريطانى . وفى هذا الصراع اظهر المتطرفون قدرة فنية غير عادية فى السياسة العملية للثورة . ويقول جون آدمز فيما بعد عن المنظمات التى بدأت بلجان المراسلة المحلية ولجان الأمن والتى تطورت الى مؤتمرات القارة الأمريكية . ياله من جهاز ، لقد قلده فرنسا ومن ثم انتجت ثورة . . . . . وكانت أوروبا كلها تميل الى تقليده من أجل الغرض الثورى نفسه . لقد كسب المتطرفون فى الواقع انتصارهم الحاسم بتنظيم أنفسهم مثلما نظمو أول مؤتمر للقارة فى عام ١٧٧٤ .

ويلخص الأستاذ أ. م. شلزنجر ، الاب ، فى اعجاب عمل هذا المؤتمر قائلا :

لقد حقق الراديكاليون عدة أهداف هامة . كانوا قد انشأوا على المستوى الوطنى نوعا من التنظيم وأنواعا من الخطط التى مكنت فى كثير من أجزاء أمريكا البريطانية اقلية حازمة من السيطرة على الامور . . .

لقد خطفوا من طبقة التجار الأسلحة التي كانت قد صنعتها للدفاع عن مصالحها الذاتية الخاصة في السنوات السابقة — واستخدموها ضدها — وذلك في محاولة لضمان الأهداف التي لا يريدونها الا الراديكاليون المتطرفون . وأخيرا فانهم كانوا قد حددوا المسألة المثارة او اعطوها الطابع الوطنى بطريقة من شأنها أن تجلب الهيبة للجماعات الراديكالية حيثما وجدت وتضعف قبضة العناصر المعتدلة على أساس أن هذه العناصر الأخيرة كانت في خلاف مع مؤتمر القارة » .

وفي فرنسا كان الاستيلاء على الباستيل في ١٤ من يولييه ١٧٨٩ خاتم الهزيمة لغلاة المحافظين وهم المليون الحقيقيون . ولم يتسن للشوار المنتصرين أن يظلوا في وفاق ، وبدأت عملية تحول السلطة الى جانب اليسار في خلال شهور معدودة . ففي أكتوبر من العام نفسه كان الملك والملكة قد أعيدا وسط مظاهر الصخب الى باريس من قصر الفرساي فيما يعرف بأيام أكتوبر . ولقد أدت هذه الأحداث الى نفى زعماء المعتدلين من المحافظين مثل مونيه Mounier الذى كان يكن اعجابا شديدا للدستور الانجليزى ويتمنى أن يكون لفرنسا هيئة تشريعية من مجلسين : مجلس اللوردات ومجلس للعموم وملك حقيقى . وعلى مدى السنوات القليلة التالية واجهت جماعة المعتدلين التى التفت حول رجال من أمثال ميرابو ولا فييت واللامثيين The Lameths جماعة من المتطرفين التفت حول رجال مثل بيتون Pétion ورويسبير ودانتون وبريسوه Brissot الذين سرعان ما صاروا زعماء الجماعات الجمهورية المناهضة من الجيرونديين والجبليين ولكنهم كانوا حينذاك متحدين ضد المعتدلين . ونجح المعتدلون في عمل الدستور وتدشين النظام الجديد . ولكن الحرب نشبت بين فرنسا ودول وسط أوروبا المؤلفة من النمسا وبروسيا . وفشلت مواد معينة من الدستور وخاصة ما كان يتصل بالناحية الدينية والملكية في أن تؤدى عملها . واتهم لويس نفسه بالخيانة من جانب كثير من رعاياه وفي خلال الاضطراب السياسى العام عصفت المتطرفون النشيطون والحسنو التنظيم بالملكية في الهجوم المشهور على قصر التويلرى في باريس في أغسطس من عام ١٧٩٢ .

وهكذا أبعد عن السلطة الملكييون المعروفون ودعاة الإصلاح والأحرار المعتدلون من أمثال لاناييت وأصبحت فرنسا جمهورية . ولكن الهزيمة الأخيرة والنامة للمعتدلين في فرنسا كانت في ٢ من يونيو عام ١٧٩٣ . وفي أمور مثل هذه كما هو الحال في أى تقسيم للأحداث الى فترات قد يكون هناك اختلافات حقيقية في التأويل . ان المحافظين والمعتدلين والراديكاليين والمتطرفين ليسوا قطعا في أى من مجتمعاتنا جماعات ذات أصول واضحة محددة ولم يكن انتقال السلطة من جماعة الى أخرى في أغلب الأحيان حادثا تمت الموافقة عليه من الجميع . وقد تشعر أنه لم يكن في وسع أحد المعتدلين أن يقترح على انهاء الملكية الفرنسية . ومع ذلك فقد يبدو أن الجناح اليميني من الجمهوريين ممن يعرفون في التاريخ باسم الجيرونديين والذين يعرفهم معاصروهم باسم البريسوتيين كانوا معتدلين حقا فرضت عليهم الظروف الأحداث التي كانت بالنسبة اليهم ثورية . وهم بصفة خاصة لم يكونوا راغبين في موت الملك ، إذ كانت غالبيتهم من البورجوازيين الموسرين والمحامين والمثقفين . وبعد محاكمة الملك في يناير من عام ١٧٩٣ أصبحوا واثقين تماما من أن الثورة تجاوزت المدى وأنه يتحتم وقفها عند ذلك الحد . ومهما كان ماضيهم فقد أصبحوا حينذاك من المعتدلين . ومع بداية الشهور الأولى من عام ١٧٩٣ كانوا قد فقدوا السيطرة على نادى اليعاقبة في باريس وعلى معظم النوادي الثورية الأخرى وكل شبكة التنظيمات التي ساعدت الراديكاليين على تحقيق أهدافهم في الأيام الأولى من الثورة . ولم يكن في استطاعتهم أن يضمنوا معاونة كتلة النواب المترددين أو المحايدين الى حد ما من أعضاء المؤتمر الذين كانوا يسمون بالبسطاء . وكان أعداؤهم أكثر تنظيما وأكثر بغيا وربما أكثر استهتارا ولكنهم كانوا بالتأكيد أكثر نجاحا .

وكما حدث تماما مع البرسبتاريين في انجلترا ظهرت المطالبة بوجوب تنحية هؤلاء الذين صاروا معتدلين من المؤتمر والقبض عليهم . واطهارا للقوة في مؤتمر ٢ يونيو ١٧٩٣ عمل المتطرفون على محاصرة مكان اجتماع هؤلاء الناس بعسدد من رجال الميليشيا الباريسية الذين يشاركونهم الرأي والذين تجمع وراءهم جمع كبير متحفز للعداء . وحاول المؤتمر أن يدافع عن كرامة النواب وأن يرفض السماح بالقبض على اثنين وعشرين عضوا على

نحو ما طالب الجبليون وسار النواب في خطوات رزينة وفي مقدمتهم رئيسهم الى الخارج لكي يؤكدوا وجوب احترام وضعهم كهيئة تمثل ارادة الشعب . واخذ النواب يطوفون حول الحدائق فوجدوا الحراب المشرعة عند كل باب من الأبواب ، و « شعبا » له ارادته الوقتية . وعادوا ادراجهم داخل الأبواب واقتنعوا بالموافقة على القبض على الاثنين والعشرين عضوا الجيرونديين . وبذلك أصبح الجبليون الراديكاليون أصحاب السلطة بلا منازع .

أما الحوادث فقد سارت بخطى أسرع بعض الشيء في روسيا ولكن تتابعها يكاد يشبه ما حدث في انجلترا وفرنسا . اذ كانت الحكومة المؤقتة الأولى التي يرأسها الأمير لوفوف اسميا ، وميليكوف فعليا تتألف في أغلبيتها من الكاديت وهم الجناح الأيسر من جماعات الطبقة الوسطى في البرلمان القديم ، ولكنهم لا يزيدون عن « التقديمين » أو « الأحرار » أو « الديمقراطيين » — في التعاريف السياسية العربية — وكان هناك عدد من ممثلي الجماعات المحافظة . وعضو اشتراكي واحد هو كيرنسكى . وبعد أقل من شهرين سقطت هذه الوزارة من جراء استمرار الحرب «الاستعمارية» في جانب الحلفاء . وارغم ميليكوف على الخروج لموافقة التامة على سياسة الحلفاء الاستعمارية ووافق عدد من المنشفيك والثوريين الاشتراكيين على قبول مناصب في الحكومة الجديدة . وفي يولييه تولى كيرنسكى القيادة الرسمية بعد حدوث أزمة ، وفي سبتمبر انسحب الكاديت نهائيا بطريقة جماعية تاركين كيرنسكى على رأس حكومة اشتراكية معتدلة مهزوزة أشد الاهتزاز .

أما الاشتراكيون الذين وافقوا على التعاون مع الحكومات البرجوازية في متابعة الحرب فقد ساهم البلاشفة « مساومين » . وكان هؤلاء الاشتراكيون ينتمون تقريبا الى كل الفئات التي انقسمت اليها العقيدة السياسية في روسيا ابان القرن العشرين حيث تعقدت الاختلافات العقيدية العادية في الماركسية عن طريق هؤلاء الذين أخذوا يبحثون في تاريخ روسيا القديم عن شيوعية عميقة الجذور في القرية السلمية . وفيما يتعلق بالوضع الرومسي خاصة فان هؤلاء الثوريين الاشتراكيين والترودنيكيين Trudoviks والنارودنيكيين Narodniks والمنشفيك لا بد أن يقال عنهم المعتدلون .

فهم لم يعملوا من أجل دكتاتورية البروليتاريا وانما أرادوا أن يكسبوا الحرب وكانوا مستعدين لاستخدام الطرق البرلمانية لضمان تنفيذ الإصلاحات الاجتماعية . وكانوا منذ أمد طويل لا يثقون في الكاديتيين ولكن تحت ضغط الحوادث وافقوا على التعاون معهم . والكاديت انفسهم عانوا من المصير الذى واجهه المتطهرون الأسقفيون والفيياتيين وذلك عندما دفعهم اعدائهم لليسار .

ولقد رفض البلاشفة أن يسهموا فى أى من هذه الحكومات . وأصروا على أن ثورة فبراير البورجوازية لا بد أن يتبعها عاجلا أو آجلا الثورة البروليتارية التى بشر ماركس وتنبأ بوقوعها . أما لينين الذى عاد من منفاه فى سويسرا لينعم بالحرية البورجوازية لمدى أشهر قليلة فانه قرر أن فى الامكان تحقيق الثورة البروليتارية فى روسيا . ومع أن حزبه لم يكن موافقا باجماع الآراء الا أن زعامته كانت كفيلة بحفظ تماسك هذا الحزب الصغير وساعده على ذلك تحبب المنحرفين من المساومين بالاضافة الى تراث الهزيمة وسوء التنظيم . وفى يولييه قام العمال بثورة غير منظمة فى بتروجراد بقيادة محلية متردة من بعض رجال الحزب وادى فشلها الى اختفاء لينين وسجن تروتسكى Trotsky ولوناشارسكى Lunacharsky اما نذبذة البندول التالية الى ناحية اليمين فانتتهت بمحاولة الجنرال كورنيلوف Gen. Kornilov العقيمة للزحف على بتروجراد . وفى هذه العملية كلها ازدادت شجاعة البلاشفة بالتدرج واكتسبوا اتباعا جديدا . وكان لينين فى مخبئه يمسك زمام القيادة وأطلق سراح تروتسكى وانتخب رئيسا لحدى سوفياتات بتروجراد التى أصبحت حينذاك خاضعة لأشراف البلاشفيك . ولما عاد لينين سرا الى بتروجراد رأس الجلسة الأخيرة للجنة المركزية للحزب وتقرر القيام بثورة جديدة . وفى استعراض نذ للخطط الثورية حرصت لجنة ثورية حربية على التأكد من ولاء حرس بتروجراد ، كما دبرت جماعات أخرى عرقلة الصحافة ووسائل المواصلات . وفى اليوم المتفق عليه استولى البلاشفة على بتروجراد بقليل من الصعوبة ودون اراقة دماء تقريبا بشكل يثير الدهشة . وحتى محاصرة قصر الشتاء التى تمثل قمة المد الثورى كانت خالية من كل عنف . ان ثورة أكتوبر فى

بتروجراد تبت دون اراقة دماء مثلها في هذا مثل عملية التطهير التى قام بها برايد او احدات ٢ يونيه سنة ١٧٩٣ وهى الأحداث المماثلة فى الثورتين الانجليزية والفرنسية . أما فى موسكو فكانت هناك معركة حقيقية الا ان البلاشفة أحرزوا النصر خلال أسبوع واحد . وعند ذلك هرب كيرنسى وانتهى حكم المعتدلين فى روسيا .

### ثالثا : السيادة الثنائية :

ان الثورة الروسية تقدم أدق الأمثلة على ذلك التماثل الذى يكمن خلف التماثل الظاهرى بعض الشيء فى تتابع انتقال السلطة من أيدى المحافظين الى المعتدلين الى المتطرفين ، ومن اليمين الى الوسط الى اليسار . ان هذا يمثل على الفور نظاما وعملية أو بالأحرى عملية تجرى من خلال مجموعة من الأنظمة المتشابهة . والمشتغلون بالأمور النظرية والمؤرخون للثورة الروسية يشيرون اليها بقولهم «دغوى فلاستى» "dvoevlastie" وهى كلمة تترجم عادة بالسلطة الثنائية ، الا ان ما تحويه من رنين ربما يجعل من الأنضل ترجمتها « السيادة الثنائية » . وعلينا أن نتناول باختصار الوضع العام الذى تشير اليه هذه الكلمة .

ان مشكلة السيادة كانت لمدى طويل كافية لكى تشغل مئات من الفلاسفة السياسيين وتسعدهم . ولكن لما كان لدينا مهمة أخرى فعلينا أن نعنى أنفسنا من هذه المباحج الفلسفية . وقد يكون من الصعوبة بمكان فى مجتمع سوى أو قد يكون من المستحيل أن يسمح لفرد — أو لجماعة — ممن يملكون السلطة المطلقة بحسم مسائل تتعلق بما يجب على المجتمع أن يعمل . ولقد يبدو أن أصحاب فكرة التعدد من وجهة نظر وصف العمليات الاجتماعية على حق تماما . وحتى السياسات العريضة للدولة الحديثة تبدو وقد أدركت بعملية طبيعية محكمة ضرورة التوفيق بين رغبات الجماعات المتنازعة بحيث أصبح القول بأن حاكما واحدا هو الذى يحدد هذه السياسات هراء . ومع ذلك ففى مجتمع سوى يوجد على الأقل سلسلة منسقة من الأنظمة التى من خلالها تسوى



الجماعات المتنازعة منازعاتها اثناء العمل ولو لفترة قصيرة على الاقل .  
وقد يبدو ذلك التنسيق غير فعال وغير معقول عند تحليله تحليلًا  
اكاديميًا كما أنه يكون معقدًا حتى أن السياسيين الذين يحركونه لا يفهمونه .  
وذلك لأن الناس غالبًا لا يدركون كيف يعملون الأشياء التي يعملونها  
بنجاح كبير .

ولكنه يعمل فعلا وبه تخسم المشاكل المثارة أو تنسى ، مما يعتبر  
كذلك نوعًا من الحسم . أما أولئك الذين لا يعجبهم حسم المشاكل بما اتخذ  
من قرار يحاولون تغيير القرار بأعمال متباينة . من اثاره الفتن الى التآمر  
أو التخريب . ولقد تذهب الجماعات القومية اجتماعيًا أو العديدة  
في ظل ظروف مواتية الى حد أن تلغى قرارًا معينًا : ويذكر كل انسان  
التعديل الثامن عشر The Eighteenth Amendment في الولايات المتحدة  
وأيا كان الأمر فإنه على وجه الاجمال تصبح القرارات قوانين والعصيان  
العنفي يصبح جريمة .

وعندما تقوم سلسلة أخرى من الأنظمة المتصارعة بتقديم مجموعة  
أخرى من القرارات المتعارضة فعندئذ يكون لدينا سيادة ثنائية . ويطلب  
من المجتمع الطاعة لجموعتين من الأنظمة والزعامات والقوانين لا في عمل  
واحد وإنما في كل الأعمال المتداخلة في بعض والتي تكون الحياة بالنسبة  
للانسان العادى . وهكذا فان قيام عدد كبير من المواطنين في مناطق  
شاسعة من أراضى الولايات المتحدة بالغاء القرار الخاص بتحريم بيع الخمر  
لم يكن في حد ذاته يعنى أنه كان هناك في هذه البلاد وضع ثورى  
تتمثل فيه السيادة الثنائية . ولو أن مثل هذا الالغاء اتسع نطاقه  
مثلا باندماج قوى بين اتحاد العمال في أمريكا ولجنة التنظيم الصناعى  
ابتداء من التعديل الرابع عشر حتى القاتون العام للملكية ، ولو أن  
هذا الاندماج استطاع أن يعرض قوانينه الخاصة على العمال في المصانع ،  
ولو تسنى له القيام بالكثير من وظائف الحكومة المحلية الخاصة بالأسواق  
والرعاية الصحية والشرطة وهلم جرا — لكان لدينا بوضوح سيادة ثنائية .  
وكان لا بد في الواقع أن يكون لدينا حالة شبيهة بعض الشيء بها حدث  
في روسيا صيف ١٩١٧ .

ومع ذلك ففى كل ثوراتنا لا تواجه الحكومة الشرعية — عندما تكون الخطوات الاولى فى الثورة الفعلية قد اتخذت — مجرد افراد واحزاب معادية فحسب — فهذا تجده كل حكومة — بل حكومة منافسة احسن تنظيميا واحسن تكوينيا واكثر استحوادا على الطاعة . ولا شك ان هذه الحكومة المنافسة غير شرعية ولكن ليس كل زعمائها واتباعها يهدفون فى وعى منذ بداية الأمر الى الحلول مكان الحكومة الشرعية . وفى الغالب يظنون أنهم مجرد مكملين لها وربما كذلك حانظين لها بطريقة ثورية . الا أنهم ليسوا فى حقيقة الأمر الا حكومة منافسة وليسوا مجرد نقاد أو خصوم . وعندما تشتد الثورة يتقدمون بطريقة طبيعية وبسهولة لاخذ مكان الحكومة المهزومة .

وفى الحق ان هذه العملية تبدأ البروز فى النظم القديمة قبل اتخاذ الخطوات الاولى للثورة . فالتطهرون فى انجلترا والأحرار فى أمريكا ، والطبقة الثالثة فى فرنسا ، والكاديت والاشتراكيون المساومون فى روسيا ، كانوا جميعا لهم منظماتهم التى تتطلب ولاءهم والتى مكنتهم من محاربة النظام القديم بالثورة على الأقل كشيء قائم فى باطن عقولهم . ولكن العملية تكون أشد وضوحا وأكثر حدة — ربما فيما عدا أمريكا — فى المرحلة التى وصلنا اليها الآن .

وعندما تنتهى المرحلة الاولى فى الثورة يتحول الصراع الذى يقوم بين المعتدلين والمتطرفين الى صراع بين جهازين حكوميين متنافسين ، جهاز المعتدلين — وهو الحكومة الشرعية — الذى ورث بعضا من المكانة المستمدة من قيامها ، وبعضا من الموارد المالية — الفعلية او المحتملة — للحكومة القديمة ومعظم التزاماتها وكل أنظمتها . ولقد تحاول قدر ما تستطيع ان تغير من تلك الأخيرة ، فنجد أنها عنيدة لدرجة الازعاج وصعبة الالغاء الى اقصى درجات الصعوبة . والحكومة الشرعية تكون غير محبوبة لدى الكثيرين للسبب نفسه ، وهو أنها حكومة واضحة ومسئولة ومن ثم يتحتم عليها ان تحمل على كاهلها بعضا من الكراهية التى كانت لحكومة النظام القديم .

ومع ذلك لا تواجه حكومة المتطرفين غير الشرعية هذه الصعوبات .  
ان لها تلك المكائنة التي تضفيها الحوادث القريصة على الثائرين وعلى  
اولئك الذين يستطيعون ان يطالبوا بأن يكونوا في الجبهة الامامية للثورة .  
وليس عليها مثل سائر الحكومات الا مسئوليات قليلة نسبيا . فليس عليها  
ان تحاول ان تستخدم ، فيما عدا فترات مؤقتة ، تلك الاجهزة والانظمة  
العتيقة في النظام القديم ، بل على العكس من ذلك يكون لديها تلك  
الميزة الضخمة وهي استخدام الاجهزة الفعالة التي اقامها بالتدريج الثوريون  
من المعتدلين والمتطرفين على حد سواء منذ الوقت الذي بدأوا يظهرون  
فيه في ظل النظام القديم كجماعة ضاغطة حتى ولو كانت مثلها حدث  
في روسيا جماعة سرية من المتأمرين . والحق ان الاستيلاء نهائيا على  
هذا الجهاز — أو هذا التنظيم ان شئت — يبدو انه الشيء الذي يحسم  
في الواقع النصر الاخير للمتطرفين على المعتدلين قبل ان يتضح هذا النصر  
الاخر من خلال الحوادث بوقت طويل . اما السبب الذي من اجله لا يحافظ  
المعتدلون على تحكمهم في ذلك التنظيم الذي فعلوا الشيء الكثير للبدء فيه  
وتشكيله فليس من السهل التعليل له . ولقد نأمل ان تظهر اجابة ما من  
خلال دراسة اكثر تفصيلا للمصير الذي يلقيه المعتدلون . ومع ذلك علينا  
اولا ان نرى الى اى مدى يتناسب التحليل السابق مع وقائع ثوراتنا الأربع .

ولقد كان من الواضح ان شارل والبرلمان الطويل سلطتان ثنائيتان  
منذ قيام الاضطرابات في ١٦٤٢ ان لم يكن منذ دورته الاولى في ١٦٤٠ .  
فما ان تقرر شن الحرب الاهلية ضد شارل حتى وجد البرلمان الذي  
يسيطر عليه المعتدلون انه الحكومة الشرعية . ولكن لم يكن يمضى وقت طويل  
حتى واجهه الجيش النموذجي الحديث المتطرف الذي سرعان ما بدأ يمارس  
ذلك النوع من النشاط الذي لا يمارسه في ذلك العالم الا الحكومة .  
والحقيقة ان شارل كان لا يزال موجودا على مسرح الحوادث وأن وجود  
الجيش الاسكتلندي عقد الموقف في السنوات الثلاث أو الأربع التي سبقت  
اعدام شارل في ١٦٤٩ . ولكن الخطوط العريضة للصراع بين الحكومة  
الشرعية الحديثة العهد التي يتولاها البريسبيتريون المعتدلون في البرلمان  
من ناحية وحكومة الاستقلاليين المتطرفين غير الشرعية في الجيش النموذجي  
الحديث من ناحية اخرى كلها واضحة .

أما في أمريكا فان هذه السلطة الثنائية اشد ما تكون وتوضوحا في السنوات السابقة للانفجار النهائي في ١٧٧٦ . اذ كانت الخطوط الفاصلة بين الحكومة الشرعية وغير الشرعية يحوطها الغموض وبخاصة في مستعمرة مثل ماسا شوستس ، وذلك من جراء الحقيقة الواقعة وهى أن اجتماعات المدن والهيئات التشريعية في المستعمرات كانت جزءا من الحكومة الشرعية ولكنها غالبا ما كانت تدار عن طريق رجال لهم نشاطهم في الحكومة غير الشرعية . ورغم هذا فان الجهاز الذى بلغ اوجهه في المؤتمرات القارية — وقد كانت في حد ذاتها هيئات غير شرعية — كان الثوار يستخدمونه ضد السلطة القائمة .

وفى حين كان المعتدلون فى فرنسا من الفيئات او المالكين الدستوريين لا يزالون يديرون دفة الامور فى الهيئة التشريعية والجهاز الرسمى للدولة المركزية فان خصومهم الجمهوريين المتزايدين كانوا يديرون دفة الامور فى شبكة جمعيات اليعاقبة التى كانت بمثابة الاطار للحكومة الأخرى او غير الشرعية . ومن خلال سيطرتهم على الجمعيات كانوا يعملون للسيطرة على كثير من الوحدات الخاصة بالحكومة المحلية . ومن مكانهم فى هذا الوضع المواتى كان فى مقدورهم أن يطردوا المعتدلين من الفيئات ويقضوا على الملكية . وعندئذ تكررت هذه العملية مع المعتدلين من الجيرونديين الذين كانوا يسيطرون على الهيئة التشريعية ، والجبليين والمتطرفين الذين يسيطرون على الوحدات الهامة من شبكة جماعات اليعاقبة او على الأقل وحدة بالغة الأهمية من وحدات الحكومة المحلية — الا وهى كوميون باريس . ومرة أخرى فى اثناء أزمة ٢ يونية ١٧٩٣ انتصرت الحكومة غير الشرعية على الحكومة الشرعية .

ومن ناحية أخرى كان البلاشفة والجمعيات القليلة المتطرفة المتحالفة معهم قد سيطروا فى أواخر الصيف على شبكة السوفييتات التى تعتبر الى حد ما تراث ثورة ١٩٠٥ الفاشلة ووقفوا حكومة غير شرعية تواجه الحكومة الشرعية . وكلمة السوفييت لا تعنى شيئا أكثر من « مجلس » ولم يكن لها فى روسيا أصلا دلالة أكثر مما يعنيه عندنا مرادفها فى اللغة الانجليزية .

كانت السوفيات مجالس محلية تضم النقابيين والجنود والبحارة والفلاحين والمثقفين المتجاوبين .. ولقد برزت هذه السوفيات بروزا طبيعياً نتيجة لانحلال السلطة القيصرية في ١٩١٧ ، فضلاً عن ذلك منذ ذكريات الثورة التي قامت سنة ١٩٠٥ وأدى فيها سوفيت سانت بطرسبرج دوراً ضخماً وقد كانت لا تزال ماثلة في أذهان الجميع . ولما ركز البلاشفة اهتمامهم بالسوفيات في حين أخذ المعتدلون يعملون على المشاركة في الحكومة الشرعية — استطاعوا أن يقبضوا على زمام السوفيات الرئيسية في بتروجراد وموسكو والمدن الصناعية الكبرى ويتزعموها من المعتدلين . وهنا شبه كبير يثير الدهشة بالثورة الفرنسية . فان النصر الأخير الحاسم للبلاشفة قد تحقق دون سيطرة كاملة على الشبكة العمامة للسوفيات تماماً مثل النصر الذي تحقق للجبلين دون سيطرة على شبكة نوادي العاقبة كلها . وفي كل من الحالتين كانت السيطرة على معظم الوحدات الهامة للحكومة غير الشرعية كافية .

#### رابعا — مواطن الضعف في المعتدلين :

واذن ففى هذه المرحلة من الثورة يواجه المعتدلون ابان سيطرتهم على الجهاز الرسمى للحكومة بالمتطرفين الذين يسيطرون على الجهاز المخصص للدعاية والعمل الجماعى الضاغط بل والقيام بالثورة نفسها وان يكن عندئذ يتزايد استخدامه كجهاز للحكومة . وتنتهى هذه المرحلة بانتصار المتطرفين واندماج السيادة الثنائية فتصبح واحدة لا غير . وعلينا الآن ان نتحرى اسباب فشل المعتدلين فى هذه الثورات فى القبض على زمام السلطة .

هناك اولا التناقض الذى لاحظناه من قبل وهو ان السيطرة على الجهاز الحكومى فى المراحل الاولى للثورة هى فى حد ذاتها مصدر من مصادر الضعف لهؤلاء الذين يسكون بمقاييد هذا الجهاز . اذ يجد المعتدلون شيئاً فشيئاً انهم فقدوا الثقة التى كانوا قد كسبوها كخصوم للنظام القديم وان الكثيرين الذين كانوا يعلقون عليهم الآمال بصفتهم ورثة

النظام القديم أصبحوا يرتابون فيهم . واذا يضطرون الى الدفاع عن انفسهم فلنهم يرتكبون الخطأ وذلك يرجع الى حد ما الى أنهم لم يعتادوا حالة الدفاع عن انفسهم . انهم يكونون في وضع لا يمكن أن يخرجهم منه الا حكمة فوق مستوى البشر في حين أن المعتدلين يعدون بين الثوريين أشدهم انسانية .

وعندما يواجه المعتدلون بمعارضة الجماعات الأكثر تطرنا المنظمة في الشبكة التي اطلقنا عليها اسم الحكومة غير الشرعية لا يكون امامهم على وجه العموم الا ثلاثة حلول يختارون منها : فقد يحاولون تمع الحكومة غير الشرعية أو قد يحاولون السيطرة عليها بأنفسهم أو قد يدعونها وشأنها وفي الواقع تدور سياستهم حول هذه السياسات الثلاث ويربطون احداها بالأخرى . وفي هذه الظروف تكون النتيجة النهائية اخراج سياسة رابعة من شأنها تشجيع اعدائهم في الحكومة غير الشرعية .

وفي الثورات التي ندرسها لا يستطيع المعتدلون تمع هذه التنظيمات المعادية . اذ ان كل الثورات قامت باسم الحرية ، وكانت جميعا — حتى ثورة فبراير في روسيا — ترتبط بما يسميه الماركسيون « الأيدولوجية البورجوازية » ولقد وجد المعتدلون أنفسهم مجبرين على مراعاة حقوق معينة لأعدائهم — وخاصة ما يتعلق منها بحرية الخطابة وحرية الصحافة والاجتماع . وأكثر من ذلك يؤمن كثير من المعتدلين ان لم يكن معظمهم باخلاص بهذه الحقوق ويعتقدون أن الحق شيء كبير ولا بد من سيادته . ألم يكن سائدا ضد طغيان النظام القديم ؟ وحتى عندما يبدأ المعتدل تحت الضغط في محاولة مصادرة جريدة متطرفة أو الحيلولة دون عقد اجتماع متطرف أو سجن عدد قليل من زعماء المتطرفين فان ضميره يؤنبه . وأهم من هذا ان المتطرفين الذين لا يقع عليهم ضغط ما ، لا يفتأون يجأرون بالصراخ : ان المعتدلين يخدعون الثورة وانهم يستخدمون الوسائل نفسها التي كان يستخدمها الطغاة الأوغاد من حكام النظام القديم .

والثورة الروسية نموذج رائع في هذا الموضوع . فان الكاديتين والمعتدلين لم يتمكنوا فيما بين فبراير وأكتوبر من كبت دعاية البلاشفة بطريقة ملائمة بل ولم يستطيعوا أن يمنعوا أى لون من ألوان النشاط السياسى للبلاشفة . وعند ما حاولوا أن يفعلوا ذلك بعد ثورة من ثورات البلاشفة السابقة لأوانها وهى اضطرابات الشوارع فى بتروجراد التى عرفت باسم « أيام يولية » ، قوبلوا باحتجاجات من فئات الناس جميعا ومنهم البلاشفة بشكل خاص . واعتبر عملهم استبدادا ، واسلوبا قيصريا فى أسوأ صورته . الم تحمل ثورة فبراير معها الحرية السياسية وحرية الصحافة والاجتماع الى روسيا الى الأبد ؟ يجب على كيرنسى الا يستخدم نوع الأسلحة التى كان القيصر يستخدمها . لقد استطاع ستالين أن يستخدم فيما بعد طرقا جديدة ببطرس الأكبر أو ايفان الرهيب . ولكن هذا لا يعنى شيئا سوى أن المرحلة المعتدلة من مراحل الثورة الروسية انتهت بلا جدال عندما استولى ستالين على السلطة . ومع ذلك ففى ١٩١٧ لو أن كيرنسى كان من ذلك الصنف من الرجال الذى يستطيع أن ينظم بنجاح اجراءات القمع — ومن الواضح أنه لم يكن هذا النوع من الرجال — فان مانسميه بالرأى العام ما كان ليسبح فى تلك الأيام بتنفيذ هذه الاجراءات . وهذا يشبه كثيرا ما حدث فى فرنسا حيث سمح لليعاقبة بحرية القول وحرية الاجتماع وقد أصروا فى ثبات وعلنا على حقوقهم كرجال أحرار استعدادا لفرض الدكتاتورية .

ولم يكن المعتدلون كذلك أكثر نجاحا فى محاولاتهم للسيطرة — أو على الأقل للمحافظة — على ادارة الجهاز الذى كانوا قد بنوه بالاشتراك مع المتطرفين كوسيلة للتطويع بالنظام القديم . ويبدو أن ليس هناك سبب واحد مرجح لهذا الوضع . ولا شك أن المعتدلين مشغولون بشئون الحكم الفعلية الكثيرة وليس لديهم وقت يصرفونه فى عقد لجان للجيش أو حضور نوادى اليعاقبة أو اجتماعات السوفيات . ولربما يحسون أنهم أرفع بعض الشيء من مزاولة مثل هذا النوع من النشاط . انهم من الناحية العاطفية غير صالحين للعمل السياسى المباشر العنيف القذر . انهم ذوو مبادئ خلقية ولكنهم ليسوا تماما تلك الأرواح النبيلة التى تصنعها الأسطورة التاريخية عن المعتدلين من الجيروندي فى الثورة الفرنسية . حقا ان كثيرا منهم مثل بريسو

وكيرنسكى يتمتعون بقدر كبير من مواهب السياسى الماهر . ولكنهم عندما يملكون زمام السلطة يعملون عادة على غرس بذور الفضائل الصحيحة التى تتمشى مع السلطة . الا أن هذه الفضائل تجعل منهم زعماء غير أكفاء لقيادة مجتمعات ثورية مناضلة .

ومهما يكن من أمر هذا التفسير فان حقيقة التماثل واضحة . وهذا الفشل البارز الذى يبنى به المعتدلون يتضح جيدا فى الثورة الفرنسية . ان جمعيات اليعاقبة المعروفة باسم : « أصدقاء الدستور » كانت فى بدايتها الاولى تقف بالكاد على يسار لانماييت وأصحابه ومع ذلك بدا نشاطها أكثر جنوحا الى اليسار عندما بذل اللافاييتيون جهودا قليلة ضعيفة للاحتفاظ بسيطرتهم . وبعد ذلك انطلقوا وأسسوا جمعيتهم المعروفة باسم الفيانتيين . ولم يستطع الفيانتيون أن ينتشروا الى أبعد من دوائر الطبقة العليا ودوائر المثقفين الباريسيين الضيقة . وفيما بعد حاولت الجماعات التى تكونت هنا وهناك فى طول البلاد وعرضها بأسماء «أصدقاء الملكية» أو «أصدقاء السلام»، ان تنافس اليعاقبة ولكن بقدر قليل جدا من النجاح . كانوا اذا اعطوا الخبز للقراء صاح اليعاقبة بأنهم يحاولون الرشوة . واذا لم يفعلوا شيئا جأ اليعاقبة بالشكوى من أنهم يفتقرون الى الضمير الاجتماعى . وأخيرا لجأ اليعاقبة الى اجراءات منظمة الى حد كبير . كانوا يستأجرون قليلا من « البلطجية » — وفى بعض الأحيان لم يكن الأمر يحتاج الى استئجارهم — لكى ينفذوا اجتماعا لأصدقاء السلام المنافسين وقد يرسلون بعدئذ وفدا الى سلطات المدينة يطالب باغلاق جمعية أصدقاء السلام باعتبارها مصدرا لازعاج الجمهور . . . وكان أصحاب السلطة اما يعاقبة أو يخافون من اليعاقبة أكثر مما يخافون من أصدقاء السلام ولذلك كان الأمر يلقى الحبل الثورى المناسب .

وكذلك وجد البرسبيتاريون أنفسهم عاجزين عن السيطرة على انتشار فكرة الاستقلالين ليس فى الجيش فحسب بل وفى الاسقفيات المحلية . وكذلك فى روسيا وجد المعتدلون أن البلاشفة يتمتعون بمركز متين فى كل السوفيات الهامة . وسوف تظهر الدراسة التفصيلية لسوفيت بتروجراد



من فبراير حتى أكتوبر مدى البراعة التي تصيد بها حزب لينين كل خطأ صدر من خصومه ومدى نجاحه في التمكن من الداخل ناشرا سيطرته ابتداء من سوفيات المصانع حتى استطاع آخر الأمر الاستيلاء على زمام سوفيت المدينة . وهذه الدراسة سوف ترينا كذلك المعتدلين وهم يفقدون مراكزهم بالتدريج رغم الميزات الخطابية للزعماء من أمثال تسرتلى Tseretelli وتشخيدز Chkheidze وكيرنسكى

والحق أن هناك ضعفا يكاد يكون عضويا في مركز المعتدلين . انهم يجدون أنفسهم بين جماعتين : الساخطين من المحافظين والذين لم يفرض عليهم الصمت بعد ، والمتطرفين المعتدين الواثقين بأنفسهم . وقد كانت لا تزال هناك بعد حرية الخطابة وغيرها من الحقوق السياسية الأخرى ولذلك استطاع المحافظون أنفسهم أن يعبروا عن آرائهم . والآن يبدو أن المعتدلين في كل هذه الثورات يتبعون الشعار الذي كان يستخدم بوضوح تام سنة ١٩٢٤ تعبيرا عن السياسة الفرنسية لجماعة احتكار اليسار ، وهو شعار ما زال يثير المشاكل امام اليساريين غير الشيوعيين في كل العالم الغربى اليوم وهو : « لا أعداء للييسار » . انهم لا يثقون في المحافظين الذين ثاروا ضدهم منذ عهد قريب جدا . وكذلك هم يشمئزون من الاعتراف بأن المتطرفين الذين اتحدوا معهم منذ عهد قريب جدا يستطيعون بالفعل أن يكونوا أعداء لهم . ان قوة الأفكار والاحساسات التي دخل بها المعتدلون الثورة تجعلهم يميلون الى اليسار . وليس في مقدورهم عاطفيا أن يتحملوا الاعتقاد بأنهم متخلفون عن العملية الثورية وفضلا عن ذلك فان كثيرا منهم يأملون أن يتفوقوا على المتطرفين في الحصول على التأييد الشعبى وأن يهزمهم في نفس اللعبة التي يتقنونها . ولكنك لا تستطيع في غير الأوقات العادية أن تثق في التعبيرات السياسية اللطيفة الناعمة مثل « اهزمهم في لعبتهم الخاصة » . ويفشل المعتدلون نتيجة لهذه السياسة القتالة : « لا أعداء للييسار » في التوفيق بين هؤلاء الأعداء واليسار ، كما أنهم يجعلون من المستحيل تماما كسب تأييد أى من المحافظين الذين لم يصبحوا بعد كما هملا . عندئذ وبعد أن يمتلئ المعتدلون خوفا من موقف المتطرفين التهديدى يتجهون الى المحافظين طلبا للمساعدة فلا يجدون عندهم أى شئ على الاطلاق ، لقد هاجروا أو عادوا الى الريف وفي أعماقهم يأس واستشهاد .

ولا حاجة للقول أن المحافظ الذى يتملكه روح الاستشهاد لا يعود محافظا بل يصبح انسانا آخر غير متلائم . ومع ذلك فان هذا الاستجداد من جانب المعتدلين بالمحافظين يقضى عليهم نهائيا . ولما كانوا يقفون وحدهم ولا سند لهم فى السيطرة على جهاز الحكومة ولا سند لهم كذلك فى السيطرة على المدنيين أو العسكريين فانهم يستسلمون فى يسر للثورة . وانه لأمر له دلالة ان عملية التطهير التى قام بها بريد والأزمة الفرنسية فى ٢ يونية ١٧٩٣ وثورة أكتوبر فى بروجراد لم تكن أكثر من انقلابات سياسية مفاجئة .

وفى الثورات الانجليزية والفرنسية والروسية يمكن أن نميز اجراء خطيرا تتجمع حوله كل التيارات ، اجراء يتخذه المعتدلون فيقطع عنهم تأييد اليمين ويترك المتطرفين فى وضع يمكنهم من استخدام هذا الاجراء ضد مبتدعيه . مثل قانون « الجذر والفرع » فى الثورة الانجليزية والدستور المدنى لرجال الكنيسة فى الثورة الفرنسية والأمر رقم واحد فى الثورة الروسية.

والأصل فى قانون الجذر والفرع كان عبارة عن ملتمس عليه ١٥٠٠٠ توقيع مقدم الى مجلس العموم فى أواخر ١٦٤٠ يطالب بالغاء النظام الأسقى بكل جذوره وفروعه . وطبيعى أن الأسقفين المعتدلين من هايد Hyde وفولكلان Falkland الى ديجبى Digby كانوا ضد أى اجراء من شأنه أن يحطم كنيستهم تماما بينما كان البروسبيطاريون يميلون الى تأييد هذا المطلب . ولقد كان ممكنا أن يتغاضى المعتدلون من ذوى العقليات السياسية مثل بيم Pym عن هذا القانون ولكن يبدو أن رفض الأساقفة التنازل عن مقاعدهم فى مجلس اللوردات شحذ عزيمة بيم للوقوف الى جانب اصدار القانون . وهذه المساندة جعلت كل أسقى تقريبا ملكيا ، وعندما نشبت الحرب الأهلية فى ١٦٤٢ اتخذ البروسبيطاريون مكانهم فى أقصى اليمين من التجمعات الحزبية داخل المنطقة التى سيطر عليها البرلمانيون . ولم يكن فى مقدورهم أن يجدوا حلفاء لهم الا من اليسار . واستطاع الاستقلاليون — وقد كان كرومويل بالمثل أول من قدم قانون الجذر والفرع الى المجلس — حينذاك أن يقولوا أن الكنسيين الطائفيين ليسوا خيرا من الأسقفين وأن الأسباب التى تدعو الى ابطال أحدهم تدعو كذلك وبلا نزاع

الى أبطال الآخر . وفيما بعد عندما اثبت المعتدلون أنهم عاجزون عن الوصول بالحرب الى نهاية ناجحة كان لا بد أن تقبل الغالبية من البروسيتاريين — الذين لم يكونوا قطما أغلبية مهيمنة وإنما قد تركت نفسها بلا أى إمكانية لكسب تأييد المحافظين — اجراءات مثل قانون انكار الذات وانشاء الجيش النموذجي الحديث .

أما الدستور المدني لرجال الكنيسة فقد صدر بعد شهر من المناقشة في الجمعية الوطنية كقانون لتجديد المسيحية في فرنسا . ويبدو أن المعتدلين الذين قاموا بوضعه كانوا الى حد كبير مخلصين ، وقد يكونون كاثوليك سيثيين من بعض النواحي ولكن كان ذلك راجعا الى أنهم اكتسبوا بعضا من الروح الدنيوية العملية في عصرهم أكثر مما كانوا ضد حقوق رجال الكنيسة مباشرة . ومع ذلك فإن الاجراء الذى اتخذه أقصى عنهم الكاثوليك الطيبين ولم يفعل شيئا سوى أن شجع العناصر العنيفة المعادية لرجال الكنيسة على محاولة القضاء على كل « الخرافات الوضيعة التى ادخلت على المسيحية » . ولقد نص الدستور المدني بصراحة على أن تكون انتخابات قسس الأبرشيات عن طريق الهيئات المحلية الانتخابية نفسها التى كانت تختار الموظفين للمناصب الحكومية الجديدة كما نص على انتخاب الأساقفة عن طريق الهيئة الاقليمية نفسها التى تنتخب الممثلين في الجمعية التشريعية . ولقد محى الدستور كل الأسقفيات التاريخية التى اقترنت بفرنسا القديمة وأحل محلها أسقفيات اللف وأكثر انسجاما واثلانا مع الأقاليم الجديدة التى قسمت اليها فرنسا من حيث أجهزة الحكومة . كما وافق فعلا على « ابلاغ » البابا بمثل هذه الانتخابات .

ولما تم الاستيلاء على أملاك الكنيسة باعتبارها هيئة من الهيئات لكى تستخدم كغطاء لأوراق النقد التى أصدرتها الثورة والمعروفة باسم « أسينيات » التزمت الدولة بتحمل نفقات رجال الدين بحكم الدستور الجديد . ولكن انتخابات القسس والأساقفة بواسطة هيئات ينتسب اليها البروتستانت واليهود والمحدون علنا كان أمرا غير متلائم اطلاقا مع الشرع بحيث لم يكن أحد من البابوات يستطيع ولو للحظة واحدة يعتبره مقبولا . ورغم أنه كان

هناك ذلك التعطيل الدبلوماسي العادي فان القطيعة بين البابا وبين الحكومة الثورية كانت أمرا لا مفر منه ، واقترن بهذا أن جماعة الكاثوليك المحافظين الأقوياء اضطرت الى اتخاذ موقف . وبدأ شقاق امتد الى كل قرية في البلاد . ولكن الكنيسة الدستورية الجديدة لم تكن أكثر قبولا لدى المتطرفين الحقيقيين من الكنيسة الكاثوليكية الرومانية القديمة وعندما اقتربت الأيام الخطيرة لعهد الإرهاب وجد المعتدلون أنفسهم مرتبطين بحماية كنيسة لا تقدم لهم تأييدا له أهميته .

أما الأمر رقم واحد فلم يبرز الى الوجود بعد مثل هذه المناقشة الطويلة التي حدثت في قانون « الجذر والفرع » و « الدستور المدني » لرجال الدين . حقا انه ليس من العدل أن نعتبره اجراء نهائيا صدر تحت رعاية المعتدلين ، وأن يكن الزعيم السوفييتي الأشهر في الجماعة التي أعدته كان ن. د. سكولوف N. D. Sokolov المعتدل ، كما أن المعتدلين قد ساندوه بحماس بالغ على اصداره . ولقد ظهر الأمر في نهاية الأيام الأخيرة من ثورة فبراير عن قيادة سوفييت بتروجراد . لقد كان موجها للجيش كما انه بالاضافة الى الاجراءات الثورية المعتادة تجاه جيش قائم في ظل النظام القديم — من الفاء التحيات العسكرية والمساواة الاجتماعية والسياسية بين الجنود والضباط . . . الخ — فقد دعا الى انشاء لجان منتخبة من الفصائل والكتائب تلتزم بالاشراف الكامل على الأسلحة وبخاصة منها اسلحة الضباط كما انه أمر بأن تدین كل وحدة حربية بالطاعة للسوفييتات في الأمور السياسية . وقرر أن اللجنة الحربية في البرلمان قد تطاع في الشئون الحربية اذا لم يعترض السوفييت في حالة معينة . لقد صدر الأمر أولا وفي الذهن حامية بتروجراد ولكن مواده الرئيسية سرعان ما نقلت الى الجبهة . ولقد اتفق هذا الأمر المحافظين على الفور بأن لا رجاء مطلقا من الثورة بل انه وضع حتى أكثر الضباط تحررا في حالة ذهنية جعلتهم يرحبون بالمحاولات التي قامت فيما بعد لاحداث انقلاب رجعي . وكان من شأنه أن جعل المهمة التالية للمعتدلين وهي اعادة روسيا الى درجة من الكفاية الحربية لمواصلة الحرب ضد ألمانيا أمرا أكثر صعوبة عن ذي قبل . كما أنه لم يساعد بحال على اقناع الجنود بمواصلة الحرب ، وترجع معظم الشعبية التي كسبها الأمر

رقم واحد في نهاية الأمر الى الثقة التي اولها اياه البلاشفة وانصبت كراهيته على المعتدلين . ان هذا هو المصير النموذجي للمعتدلين في هذه الثورات .

ثم ان المعتدلين في مجتمعاتنا جميعا كانوا يواجهون عاجلا او آجلا بمهمة خوض غمار حرب ما ، ولقد أثبتوا عجزهم كقواد للحروب . ففى انجلترا نشب القتال ، وقبيل انتهاء الحرب الاهلية الاولى جعل كرومويل والاستقلاليون من انفسهم اشخاصا لا غنى عنهم ، ووقفوا على اعتاب السلطة . ونشبت الحرب الخارجية في فرنسا في ربيع عام ١٧٩٣ وبعده شهور معدودة كانت الملكية قد سقطت وسارت الحرب على أسوأ ما تكون في ربيع ١٧٩٣ وفي يونية كان الجيروندي وهم في الجانب الفرنسي اشد المتحمسين للحرب قد ازبحوا على أيدي الجبليين . ونشبت الثورة الروسية وسط خضم من الحرب المريعة ولم يتسن للمعتدلين الروس اى فرصة لتصرف الأمور في ظروف سلمية . والحقيقة واضحة . ان المعتدلين لا يستطيعون ان يظهروا نجاحا في قيادة حرب ما . اما أسباب ذلك فأقل وضوحا . ومما لا شك فيه ان التزام المعتدلين حريات الفرد يعتبر عاملا من العوامل . فانك لا تستطيع ان تنظم جيشا اذا ما أخذت الحرية والمساواة والاخاء مأخذ الجد .

ويبدو ان الحروب الحديثة تحمل معها ضرورة تنظيم الحكومة المدنية على الأساليب الحربية ، وذلك لممارسة السلطة الحكومية القوية والمركزية حيث لا تعتبر لحرية الفرد الأهمية العظمى وفيها قليل جدا من الجدل وقليل جدا من نوع الحكومة التي تقوم على المناقشة والتي يعتبرها المعتدلون شيئا ثمينا يجب الحرص عليه وقليل جدا من الوفاق والاعتدال . ان الحرب كما قال مادسون Madison هي الام لكل توسع يتم انجازه في الجهاز التنفيذي وحتى في أمريكا أيدت حروبنا هذا الرأي ولكن وسط ثورة ما فان الجهاز التنفيذي الذي يتم التوسع فيه لا يكون جهاز المعتدلين — فعهود الارهاب في فرنسا وروسيا يمكن الى حد ما تفسيرها على أساس أنها تركيز السلطة في يد حكومة للدفاع الوطني كضرورة تقتضيها الحرب . وليس هذا بحال تفسيرها كاملا لعهود الارهاب . ولكن من المقطوع به ان

ضروره حكومة مركزية قوية لادارة الحرب هي أحد الاسباب التي جعلت المعتدلين يفشلون . انهم لم يستطيعوا أن يوفروا النظام ولا الحماس ولا الاخلاص التام اللازمة لخوض غمار حرب ولهذا تنحوا عن امكانهم .

### خامسا : فشل المعتدلين :

يعتبر المؤرخون نوو القلوب الرحيمة الذين استقينا منهم معلوماتنا عن الثورات الحديثة أن الفشل الذي أصاب المعتدلين مأساة ضخمة . فالمعتدلون يبدوون رجالا طيبين شوهتهم الظروف المحيطة والخصوم غير الشرفاء ، أو يبدوون مثاليين سحقهم عالم لا يرحم ، ولكنهم واثقون بالبعث الذي يكفله التاريخ لما هو حق وعدل . ان فولكلاند الرقيق وكوندورسيه العالم بيتسمان لنا من السماء الوحيدة التي لا يملك مفتاحها الا الاموات . وصحيح انه حتى المؤرخين الاجانب لم يعدوا السماء بعد لميليكوف أو كيرنسكى . ان فشلهم لأمر ما لا يزال شديدا للغاية ولأمر آخر فان المعتدلين من الروس لا يزالون محرومين من التكريم في بلادهم .

ولربما كان معظم المعتدلين افضل أو على الأقل أكثر استواء من خصومهم المتطرفين . ومع هذا فانهم كقادة ومقودين معا يؤلفون جمعا متباين الصفات لايسهل بحال من الأحوال أن يصنفهم ماركسي أو سيكولوجي . والفكرة التقليدية القائلة بأنهم كانوا مثاليين وانهم فشلوا لأنه في عملية المساومات غير المهذبة لا بد ان يفشل المثالي أمر يعتبر هنا تضليلا واضحا . وانه لأكثر دقة أن نقول نقيض ذلك وهو انهم فشلوا لأنهم كانوا في كثير جدا من النواحي ما يسمى عادة واقعيين ، بمعنى أن بعضهم كان بدرجة ملموسة يتلاءم جيدا مع عالم حسن الادراك .

ان بيم وميرابو اللذين قضيا نحبهما في سلام قبل أن تتضح هزيمة المعتدلين لا يزالان يستمتعان بالشهرة كسياسيين محنكين ومعتدلين معقولين . اما الآخرون فمعظمهم لا يزال يعلق بهم بعض هذه السمعة وهذا واضح غاية الوضوح في حالة كيرنسكى . ويبدو لنا ان الزعيم البليغ انسان يجيد الكلام أو خطيب يستطيع أن يحرك الجماهير ولكن ليس

في مقدوره أن يقودهم ، شخص غير عملى وغير كفاء في مجال العمل . ويبدو ان الجيرونديين يشبه ذلك الى حد كبير وكذلك زعماء البريسبيترين الأثقل تعصبا لمذهبهم من أمثال هولز . وقد يبدو من التناقض الشديد أن نعتبر هؤلاء الناس واقعيين . ومع ذلك فقد كانوا واقعيين على صورة ما من الصور . ولقد استعملوا كلمات وتعبيرات ضخمة على سبيل الترسية والامتاع لمستمعهم وأنفسهم . ولكنهم لم يكونوا يؤمنون بها كما كان الراديكاليون يؤمنون بها ، لم يكونوا يقصدون محاولة التأثير بها لكي يصلوا بها الى نتائجها المنطقية في مجال العمل . وموجز القول كانوا يستعملون الكلمات مثلما يستخدمها معظم الأفراد في معظم المجتمعات العادية — بما فيهم الساسة الواقعيون أمثال جلاستون Gladstone . وقد لا يبدو واقعيين في نظر تاجر عنيد من تجار الخيول . ولكن في نطاق الحدود التي تخطها التقاليد والشعائر للعمل الذي يقوم به أمثال هؤلاء الناس — وهم ما بين رجل دين وادارى وممثل ومدرس طبيين .

ولكن الأيام قد انقلبت رأسا على عقب ، وعندما تشتد الثورة فلا يستطيع الا الشخص الذى يحظى بشيء من المثالية المتعصبة — او بما هو أكثر من ذلك — او على الأقل بالقدره على أن يلعب دور المتعصب الوصول الى الزعامة . ان الأدوار الاجتماعية العادية الواقعية والمثالية تنقلب الى عكسها في المراحل الحادة للثورة . وسوف يكون لنا عودة الى هذا الموضوع في فصلنا القادم . وكل ما نحتاج اليه هنا هو أن نلاحظ أن الشواهد الخارجية لاقترب اشتداد الثورة تظهر في صورة كراهية طبقية شديدة . والمعتدلون — كما يعرفون — لا يتصفون بالحقد البالغ ولا بالعمى الذى يجعل رجلا مثل روبسبير ولينين لا يضلون في صعودهم الى السلطة . وفي الأوقات العادية لا يستطيع الرجال العاديون الاحساس تجاه جماعات من زملائهم بهذه الكراهية الشديدة المستمرة القلقة على تلك الصورة التي يبثها المتطرفون في الثورة . ان مثل هذه الكراهية هي عاطفة بطولية والعواطف البطولية تستنفذ الجهد . ان الفقراء قد يكرهون الأغنياء ، والبروتستانت قد يكرهون الكاثوليك والبورجوازيون قد يكرهون النبلاء واهل الجنوب يكون هذا الشعور لاهل الشمال وهكذا . ولكن هذا الكره

في الكائنات البشرية أمر مألوف وهو جزء من الحياة مثل الطعام والشراب والحب .

فالمعتدلون اذن لا يؤمنون في الواقع بالكلمات الضخمة التي يضطرون الى استعمالها . وهم لا يصدقون أن نوعا من الكمال السماوى سوف يهبط نجاة على الناس في هذه الأرض . انهم جميعا يؤمنون بالتوفيق والادراك والتسامح والراحة . وفي المجتمعات العادية تكون هذه الرغبات جزءا من قوتهم وتشد من قبضتهم على رفاقهم الذين يشاركونهم على الأقل رغبتهم في الراحة . ولكن في هذه الثورات الثلاث كانت هناك أعداد كبيرة من الناس قد وصلت بدافع الرغبة والعاطفة الى نقطة بدوا فيها يبغضون كل شيء حتى الراحة . ولم يكن في استطاعة المعتدلين أن يتعاملوا سياسيا مع هؤلاء الناس ، ولم يستطيعوا القيام بالخطوات الاولى اللازمة اذا ما أريد فهم امثال هؤلاء . لقد انعزل المعتدلون عن غير المعتدلين وأصبح بينهما هوة لم يكن في استطاعة الفلسفة او الادراك أن يملأها. وفي القول المأثور أن «الأعور ملك وسط العميان» . ولكن احدى قصص ه.ج. ويلز القصيرة الحكيمة وهى مملكة العميان ، كشف ضعف هذا المثل وعند احتدام ثورة عنيفة يكون ضعفها فيما يحتمل أكثر وضوحا من الضعف البادى في وادى آنديان الوهمى في قصة ويلز . ان المعتدلين الذين كنا نتحدث عنهم كانوا جميعا بشرا وغير معصومين من الخطأ ولكن حتى ولو كانوا في حكمة أبطال بلوتاخ Plutarch وفي كلمة واشنطن فلا بد من سقوطهم كما يبدو . وذلك لأننا هنا في أرض أسطورية ولكنها واقعية لا تعتبر فيها الحكمة والبصيرة التى يتصف بها المعتدلون حكمة أو بصيرة وانما حماقة .





# الفصل السّاس

## استيلاء المتطرفين على الحكم

### ١ - الانقلاب :

ان الصراع بين المعتدلين والمتطرفين ، الذى يبدأ فى اكثر الاحوال عندما يتم التخلص المثير من العهد القديم ، يتميز بسلسلة من الاحداث المثيرة : فهنا معركة فى الشارع وهناك الاستيلاء بالقوة على الاملاك وفى كل مكان تقريبا مناقشات حامية ومحاولات للقمع وسيل مستمر من الدعاية العنيفة . وتضيق الصدور الى حد الانفجار من أجل أمور فى الامكان حلها بدون أى مجهود فى مجتمع مستقر - ويكاد أن يكون هناك حالة توتر شامل وتزيد الحماسة من تعقيد ازمة . وكما هى العادة فى كثير من الحميات يكون تزايدها فى تفاصيله مصحوبا برعشة ثم يبدو تحسن ظاهر يتبعه بعد فترة ارتفاع مفاجيء فى الحرارة . ولكن التأثير التراكم يكون واضحا للغاية ، وحين يطاح نهائيا بالمعتدلين يمكن أن يقال أن الثورة دخلت مرحلة التآزم .

وقبل أن نحاول وصف سلوك الناس فى المجتمعات فى اثناء هذه الازمة ، لا بد لنا أن نتوغل قليلا فى العملية التى يستولى بها المتطرفون على السلطة ولسوف يكون مثل هذا التحليل الى حد ما عكس كل ما سبق أن قلناه عن المعتدلين . ان الأسباب التى جعلت المتطرفين ينجحون ليست الا الجانب الآخر للأسباب التى جعلت المعتدلين يفشلون ، فحيثما كان المعتدلون ضعفاء كان المتطرفون أقوىاء ، ومع ذلك فالخطوات الفعلية التى وصل بها المتطرفون الى الحكم تبلغ من الأهمية حدا لا يمكن معه الاكتفاء بهذه العبارة العامة . فلا بد أن نقارن تحليلنا لجوانب الضعف عند المعتدلين بتحليلنا لجوانب القوة عند المتطرفين .

ان المتطرفين يكسبون لأنهم يضمنون سيطرتهم على الحكومة غير الشرعية ويستعينون بها في القيام بانقلاب حاسم ضد الحكومة الشرعية كما ان مشكلة السلطة الثنائية تحل بالاجراءات الثورية التي يمثلها استطاع الاستقاليون واليعاقبة والبلاشفة الاستيلاء على الساطة . ولكن المعتدلين كانوا قد شاركوهم في وقت ما الاشراف على التنظيمات التي انقلبت على الحكومة . ان مفتاح نجاح المتطرفين يكمن في احتكارهم لادارة هذه التنظيمات : الجيش النموذجي الجديد والكنائس المستقلة ونوادى اليعاقبة والسوفيات .

وهم انما يحصلون على هذا الاحتكار بطردهم — عادة بسلسلة من المعارك — كل خصومهم النشيطين من هذه التنظيمات . ان النظام ووحدة الفكر والمركزية في السلطة التي تميز حكم المتطرفين المنتصرين انما يتم نموها أولا وبلوغها حد الكمال في المجموعات الثورية للحكومة غير الشرعية . وهذه السمات التي كانت قد تكونت خلال نمو الحكومة غير الشرعية تظل كما هي السمات نفسها للعناصر المتطرفة بعد ان تتحول الحكومة غير الشرعية الى حكومة شرعية . وفي الحق ان كثيرا من هذه السمات النافعة ظهرت منذ عهد طويل ربما يرجع الى النظام القديم عندما كان هؤلاء المتطرفون جماعات ضئيلة ومركزة وعرضة لشدة طغيان الحكومة .

لقد اكتسب الاستقاليون النظام وانكار الذات نتيجة سلسلة طويلة من الاضطهادات التي بدأت في عهد اليزابث التي لم يمتد حبلها للتسامح الى الكاثوليك او اتباع براون Brownists ولم يعامل المتطرفون الفرنسيون ابان العهد القديم تلك المعاملة السيئة التي يحلو لخلفائهم ومؤرخيهم ان يتصوروها ، ولكن الرقابة والباستيل والأوامر الملكية بالسجن كانت حقيقية بقدر كاف حتى ولو كان من النادر وقوع اتباع المستترين وأنصارهم تحت طائلها . أما في روسيا ، فان المتطرفين فيها قد كانوا معرضين لأقسى أنواع القهر وكانت تعاونهم التنظيمات السرية التي تكونت منذ قرن تقريبا والمؤامرات وايمان القسم والاستشهاد . وسنرى فيما بعد أن الثورة الروسية الكبرى قد انتهت بالفعل ولكن الكثير من ملامح السلطة المتوارثة عن فترة التطرف ما زالت باقية في وضوح في روسيا المعاصرة . وأحد

أسباب ذلك البقاء — وان ظل الكثير غير مفهوم تماما — هو تلك القوة الجبارة التي عرفت بها السلطة في النظام الشيوعي والتي صقلتها سنوات من التآمر السرى والرقابة المحكمة من الجهات العليا ومن الداخل .

وان ما يبرز من هذا الماضى الطويل ومن المعركة الجديدة ضد المعتدلين هو جماعة محاربة اكتسبت العادة الجديدة وهى الاصرار على النصر . ولن نستطيع أن نقول بالضبط لماذا يحرز فريق معين فى كرة القدم النصر فى جميع المباريات حتى ولا لماذا انتصر جيش ما أو حزب ثورى . ان الأسباب المتنوعة لهذه الظواهر تبلغ من الكثرة — حتى فى أبسط الحالات — حدا يتعذر معه على أى انسان عاقل أن يدلى بتنبؤات تقوم كلية على أكثر هذه الأسباب وضوحا أو ربما أشدها أهمية ألا وهو جودة المادة البشرية . ان المقامرين يعرفون هذا وان لم يعرفه المؤرخون أن علماء الاجتماع . أما أن ثوارنا أحرزوا النجاح وأنهم كانوا جماعات منظمة تنظيما يثير الإعجاب فهذا أمر نعرفه كما أننا نستطيع أن نبذل شيئا من المحاولة لإبراز الطرقة التى نجحوا بها أو أنواع القوة التى أظهروها ولكننا لا نستطيع أن نعطي صيغة كاملة للنجاح فى بناء جماعة ثورية كما أننا لا نستطيع أن نقرر بالضبط لماذا نجح هؤلاء الثوريون وفشل غيرهم .

### ثانيا — تنظيم المتطرفين :

ان ما يلفت النظر لأول وهلة فى انتصار المتطرفين فى الثورات الانجليزية والفرنسية والروسية والوطنيين غير المتطرفين ممن قاموا بالثورة الأمريكية إنما هو قلة عددهم . فأعضاء هذه المنظمات الرسمية الذين قاموا بضرب المعتدلين لم يكونوا مطلقا أكثر من قلة ضئيلة من مجموع السكان . ولا شك أن العناصر النشيطة من هؤلاء الأعضاء كانت دائما أقل مما تضمه السجلات . وليس من السهل الحصول على أرقام دقيقة سواء بالنسبة للأعضاء أو بالنسبة لتعداد السكان الا أن الأرقام التالية ليست من الخطأ الى الحد الذى يضللنا . فالجيش النموذجى الحديث كان يتألف من ٢٢ر٠٠٠ فرد ولم يزد على ٤ر٠٠٠ فرد

في أشد أيامه سخبا . وكان تعداد انجلترا يتراوح ما بين ثلاثة وخمسة ملايين نسمة . ولم يكن اليعاقبة على أقصى تقدير يزيدون ابلان صراعهم مع المعتدلين على ٥٠٠.٠٠٠ فرد ، وكان تعداد فرنسا ربما يزيد ولا يقل عن ٢٠ مليونا . وكان الحزب الشيوعي في روسيا يفخر دائما بقلته عدده . فهو ليس حزبا بورجوازيا كبيرا يزخر بأعضاء سلبيين يدلون بأصواتهم في اهمال أو قد لا يدلون بها على الاطلاق ونكرر القول بأن الأرقام غير دقيقة ولكن الذي يبدو أميل الى الوضوح انه لم يحدث في وقت من الأوقات خلال فترة نشاط الثورة ولا حتى في تلك الأيام التي انتهت باستيلاء ستالين نهائيا على زمام السلطة بعد طرده للمعارضين اليمينيين في ١٩٢٩ أن بلغ تعداد الحزب الشيوعي واحدا في المائة من تعداد السكان الذين كانوا يزيدون على مائة مليون . أما في أمريكا فالصعوبة أكبر حتى بالنسبة لهذه الأعداد التقريبية لأن الوطنيين لم ينتظموا في هيئة واحدة . وواضح أنه ليس من الانصاف أن نتخذ من جيوش القارة وهي القليلة العدد نسبيا مقياسا دقيقا نقيس به مدى قوة جماعة الوطنيين أو الأحرار . ومع ذلك فان أوثق المصادر المسؤولة تتفق على أنك اذا ما أسقطت من حسابك تماما فئة الموالين للعرش أو جموع السلبيين أو الحيايين فان الفريق الذي راح في نشاط يدير ويؤيد ويخوض معارك الثورة الأمريكية هو اقلية من المحتمل الا تزيد عن ١٠٪ من مجموع السكان .

ومن السهل أن نلاحظ انه رغم أن الحقائق تشير بوضوح الى أن هذه الجماعات الثائرة عبارة عن اقليات صغيرة الا أن كل الجمعيات ذات النشاط السياسي عبارة عن اقليات صغيرة وأنه في هذه الثورات كان المتطرفون بطريقة ما « يمثلون » أو « يحققون » روح أمتهم واراتها وبعبريتها ومطالبها . وقد يكون هذا أمرا ميسورا على هذا النحو للمؤمنين بالغيبات ( الميتافيزيقيات ) . ولكن العلاقة المتضمنة في هذا الشأن تظل أمرا لا نستطيع في الوقت الحاضر أن ندعى القدرة على دراسته بالوسائل التي سبق أن قررناها في هذا الكتاب . وربما كان اليعاقبة هم الذين تتمثل فيهم الإرادة العامة

للشعب الفرنسى ولكن الارادة العامة ليست الا تصورا غيبيا ليس فى  
امكاننا أن نحدد مدى علاقته بواقع اليعاقبة المموس . ولقد  
عمل تروتسكى فى احدى حالاته الأقل واقعية على التوفيق بين  
القلة العددية للبلاشفة فى سنة ١٩١٧ وبين تعداد روسيا الكبير  
وكذلك بينهم وبين التجمعات العديدة الأخرى المعادية للبلاشفة . فهو يكتب  
فى رقة كأنها كان يبشر برواية جورج أورول Orwell ألف وتسعمائة  
وثمانية وأربعون أن البلاشفة أخذوا الناس على الصورة التى كان التاريخ  
السابق قد خلفهم عليها وعلى أنهم قد استعدوا لتحقيق الثورة . ان البلاشفة  
راوا أن رسالتهم هى ان يقودوا هذا الشعب . وكان أولئك الذين  
يقفون ضد الثورة « هم جميع الناس » فيما عدا البلاشفة . ولكن  
« البلاشفة كانوا هم الشعب » .

والحقيقة أنه لا ثوار اليمين ولا اليسار فى القرن العشرين جرؤا على  
أن يتخذوا موقفا نثاويا ( نسبة الى نيتشه ) ملائما فى هذا الأمر  
الخاص بالعلاقة بين فئاتهم المنتقاة القليلة العدد وجماهيرهم الخاصة نفسها  
بمعنى أنهم لم يجرؤا على أن يقولوا بأن الصفوة يجب أن تسود بالمعنى  
التام لهذا التعبير وان الباقين يتحتم عليهم أن يكونوا عبيدا بالمعنى  
التام لهذا التعبير وغالبا ما يبدو لينين وكأنه على حافة هذا الموقف  
النتشوى كما أن هتلر فى « كفاحى » يتردى فى هذا الموقف مرات  
غير قليلة . ولكن الوضع الرسمى لكل من الأحزاب — الشيوعية والنازية  
والفاشية — كان ان الحزب والصفوة والأقلية القابضة على زمام السلطة  
هى فى الواقع الأمانة على مصالح الشعب وانها الراعية للشعب وانها  
تحكم لتحسين احوال الشعب . ولا زالت الشيوعية حتى يومنا هذا  
تصر على الوعد بأنها فى آخر الأمر — وقد يطول « أخيرا » — بعد  
هزيمة الرأسمالية العالمية ، سوف يزول التمييز بين القادة والمقودين وبين  
الحزب والشعب فى المجتمع اللاتبقى .

وفى كل مجتمعاتنا كان هؤلاء المتطرفون على درجة كبيرة من العلم  
والاعتداد الشديد بأعدادهم القليلة ويحسون احساسا قاطعا بأنهم سبقوا

مواطنيهم في العمل من أجل الثورة وأنهم كرسوا حياتهم لأداء رسالة لا يستطيع أداءها بكل تأكيد هؤلاء المواطنون . ان بعض هؤلاء المعارضين ربما أرضوا أنفسهم بأنهم يمثلون في الواقع أحسن العناصر من المواطنين ، وانهم يمثلون الجانب الحقيقي للقوة الكامنة التي يمثلها الآخرون . ولكنهم كانوا على يقين من أنهم فوق مستوى الجموع الخاملة الهزيلة .

في القرن السابع عشر — وهم الصفوة التي اختارها الله اختيارا مطلقا بأكثر مما فعل أى من ملوك الحياة الدنيوية البؤساء — لم يحاولوا اخفاء ازدرائهم لعامة الناس الملعونة ولاشك ان الدوقات والايولات كانوا في نظر هؤلاء القديسين من عامة الناس . أما اليعاقبة فقد ورثوا من طائفة المستنيرين ايمانهم بان الانسان العبادى مجبول على الخير بطبيعته ولقد أدى هذا الايمان الى عدم احتقارهم لأتباعهم . الا أن هذا الاحتقار كان كامنا في نفوسهم . وكانوا مثل الاستتاليين يحسون برفعة منزلتهم وكان البلاشفة قد تربوا على الاعتقاد بأن المادية الجدلية تشق طريقها وسط صفوة الطبقة العاملة ، وأن الفلاحين بصفة خاصة عاجزون عن أن يحققوا خلاصهم بأنفسهم . ولذلك فضالة البلاشفة العددية أمر طبيعي كاحساسهم بتميزهم .

وهناك أيضا أدلة كثيرة على أنه عندما تقوم الثورات يختفى عدد كبير جدا من الناس من الميدان السياسى ولا يبذلون أية محاولة لابداء آرائهم . وقد تكون الغالبية العظمى من هؤلاء الناس أيضا ممن يشاركون بقلوبهم الراديكاليين آراءهم ولكنهم بصفة عامة محافظون أو معتدلون جيناء — الرجال منهم والنساء على غير استعداد للاستشهاد . بل وهم عاجزون عقلا وخلقيا وجسما عن أن يكونوا متطرفين مخلصين ابان اشتداد الثورة .

ولدينا دليل واضح على عدم قيام الرجل العادى بأى عمل سياسى فى « ثورتين » من ثوراتنا ومن حقنا أن نؤكد أنه من أوجه التشابه التي نبحث عنها .

وفي روسيا نتيجة لثورة فبراير أصبح الاقتراع العام امرا لا مفر منه . وبذلك لحقت روسيا بالغرب . وفي الانتخابات الأولى انتهر كل فرد رجلا كان أو امرأة الفرصة ليدلى بصوته في مختلف الانتخابات المحلية . لكن سرعان ما ظهر نقص كبير في عدد الأصوات التي أدلى بها وفي يونيو ١٩١٧ جرت في موسكو انتخابات وحصلت جماعات الثوريين الاشتراكيين فيها على ٥٨٪ من مجموع الأصوات ، وفي انتخابات سبتمبر حصل البلاشفة على ٥٢٪ .

أهذا كسب كبير للبلاشفة بوسائل ديمقراطية ؟ أبدا ففى يونية حصل الثوريون الاشتراكيون على ٣٧٥٠٠٠ صوت من ٦٤٧٧٠٠٠ صوت، وحصل البلاشفة فى سبتمبر على ١٦٨٠٠٠ من ٣٨١٠٠٠ أى فى خلال ثلاثة شهور تخلف نصف عدد الناخبين . ولتروتسكى نفسه تفسير بسيط لهذا « أن كثيرا من سكان المدن الصغيرة الذين انضموا الى المعتدلين سرعان ما اعتزلوا أى نشاط سياسى نتيجة بعض الأوهام » . ان هذه القصة تردد حرفيا فى انتخابات البلدية والجمعية الوطنية الفرنسية بين عام ١٧٨٩ ذات الأيام الوردية التى أدلى بصوته فى انتخاباتها كل من كان فى استطاعته أن يذهب الى السجلات حتى ولو كان يترنج ، وبين ١٧٩٣ عندما بلغ فى بعض الحالات عدد الذين أدلوا بأصواتهم أقل من عشر الذين لهم حق الانتخاب . انهم لم ينتخبوا البلاشفة أو اليعاقبة ، ومن المحتمل كثيرا أنه لو أدلى معظم الانجليز بأصواتهم فى ١٦٤٨ فانهم ما كانوا ينتخبون الاستقلاليين أو الاشتراكيين أو الفلاحين أو رجال الملكية الخامسة أو أصحاب مذهب عودة المسيح . ان الأعداد الكبيرة ممن لهم الحق فى الإدلاء بأصواتهم هم الذين لا يدلون بأصواتهم . انهم على حد تعبير تروتسكى الطريف « انهم سياسيا لا وجود لهم » .

وانعدام وجودهم السياسى لا يتحقق دون قدر كبير من مساعدة المتطرفين . ومن المفروض أن الانتخابات حرة علنية الا أن المتطرفين لا تربطهم أى رابطة من روابط الايمان بالحرية التى كانوا يتشدقون بها من قبل . وسرعان ما يتخذون اجراءات عرفتها هذه البلاد من تاريخ

جماعات كوكلوكس كلان Kuklux Klans أو التاماني هول Tammany Hall .  
انهم سينكرون بالأرستقراطيين المعروفين جيدا وأمثالهم من الأعداء الطبقيين .  
ويثرون القلائق في أماكن الاقتراع أو في الاجتماعات الانتخابية ويحيطون  
النوافذ ويبدأون المعارك في الشوارع وينادون بسقوط المرشحين المعتدلين  
ويستأجرون أقدر الصحفيين على الهجوم والغمز ، كما انهم يلجأون الى  
مئات الوسائل التي لا يمكن لأي دارس واقعي للعلوم السياسية أن يلم  
بها جميعا لكي يجعلوا من الصعوبة بمكان على الانسان العادى المسالم  
البسيط سواء كان رجلا أو امرأة أن يخطو خطوة واحدة الى صندوق  
الانتخابات ليبدى بصوته للمعتدلين الذين يتعلق بهم . وليس الارهاب  
وحده هو الذى يخيف الرجل العادى . ان مجرد الخمول وعدم القدرة على  
اعطاء النواحي السياسية الاهتمام الذى تتطلبه الثورات هما  
أيضا عاملان هامان يحولان بين رجل الشارع وبين التعبير عن رايه . انه  
يضيق ذراعا بالاجتماعات المتوالية والوفود والصحف والمفتشين العامين  
والرؤساء واللجان والطقوس الدينية والمتاعب التي لا تنتهى من أجل حكم  
ذاتى يقوم على أسس تفوق الأسس الأثينية . وعلى أى حال فانه ينسحب  
وبذلك يجد المتطرفون المجال خاليا لهم ، ان ضآلتهم العديدة هى في الواقع  
أحد المصادر الضخمة لقوتهم . الا أن الأعداد الضخمة تصبح في السياسة  
عبئا ثقيلا تماما مثلها هى في ميدان القتال . وان أهم شئ في سياسة  
الثورات هو القدرة على الحركة السريعة واتخاذ القرارات الواضحة  
والحاسمة والنفاز الى الهدف دون اقامة أى وزن للنزعات الانسانية  
الجريحة . ومن أجل هذا الغرض يجب أن تكون الجماعة السياسية الفعالة  
قليلة العدد والا فانك لن تستطيع أن تحصل على الوحدة الفكرية والتفانى  
والنشاط والنظام — الضرورية لهزيمة المعتدلين . كما انك لن تستطيع في  
أعداد ضخمة أن تحافظ على حمى التعصب لمدى طويل حتى تضمن النصر  
النهائى . ان الجماهير لا تصنع الثورات ، وانما قد تستخدم في احتفال له  
اثره الفعال وذلك بعد أن تكون هذه الفئة القليلة قد نجحت في الثورة .  
ومع أن ثورات القرن العشرين التي قام بها اليمينيون أو اليساريون قد  
حققت المعجزات بسبب المشاركة الجماهيرية ، الا أن المظاهرات المؤثرة



التي سجلتها آلة التصوير في ألمانيا وإيطاليا وروسيا يجب ألا تخضع الباحث الدقيق في الأمور السياسية ، فلا انتصارات البلاشفة أو النازي ولا انتصارات الفاشست على المعتدلين جاءت بفضل مشاركة الجماهير وإنما جاءت جميعا على أيدي حفنة قليلة من الأفراد المنظمين ذوى المبادئ والمتعصبين .

وحتى حين تبلغ الثورة هذه المرحلة فان الراديكاليين المنتصرين لا يجرون استفتاء عاما . انهم لا يرهبون أية مخاطرة مثلما يخشون الانتخابات الحرة . ولن تأتى مرحلة الاستفتاء الا بعد مضي بعض الوقت وبعد انتهاء مرحلة التآزم وعودة الحياة الطبيعية . ومن المحتمل ألا تستغرق هذه المرحلة فترة طويلة ، وقد تكون في حالة الثورة اليمينية قصيرة جدا إذ ان الغضب العنيف من أجل المثل الأعلى قلما يستثير الأفراد من ذوى الميول اليمينية . ولكن من المؤكد انه فيما يختص بتلك الثورات التي ندرسها فاننا نقول بوجه عام ان الانتخابات النزيهة لا وجود لها في الصراع بين المتطرفين والمعتدلين ولا يجريها المتطرفون حتى فيما بعد استحوادهم على السلطة ، وهذه الحقيقة تصدق على روسيا والدول الموالية لها .

ان المتطرفين لا يوصفون فقط بأنهم فئة قليلة وإنما هم أيضا متعصبون ومتفانون في تحقيق أهدافهم . ويبدو أن ادراكهم أنهم أقلية له صلة بشدة تعصبهم . وكل من هاتين الصفتين لا تتعدى على الأخرى فحسب بل وتقويها كذلك . وسوف نشغل أنفسنا فيما بعد أولا بوسائلهم ، وثانيا بما يساورهم من غبطة وهم يحلمون بعالم أفضل . وقد يبدو لهؤلاء الذين يظنون أن ألوان الاحساسات « بالتعصب » لا يتصف بها الا الذين يسهرون على خدمة الله شخصا . ان استخدامنا لهذا اللفظ في وصف اليعاقسة أو البلاشفة غير صحيح . ولكن هذا بكل تأكيد تضيق غير لائق في استخدام لفظ نافع وواضح . فلقد كان البلاشفة واليعاقبة على اقتناع كأي من أتباع كالفن بأنهم وحدهم فقط على صواب ، وأن ما يقدمونه من مقترحات إنما هو فقط المنهاج الممكن . لقد أظهر كل

ثوارنا من اليساريين رغبة في العمل بهمة لا تعرف الملل وفي التضحية  
بسلامتهم وأمنهم والفناء في النظام واذابة شخصياتهم في المجموع .  
وكانوا جميعا يشعرون بالصعوبات الروحية « التي يتطلبها دائما الوقوف  
على قمة الظروف السياسية » على حد التعبير الذي اعتاد اليعاقبة أن  
يستخدموه ، ولكن مما يثير الدهشة أنهم قد ذللوا هذه العقبات وأقاموا على  
هذه الأرض نوعا من العصبية ، وحدة أدبية فعالة لا تستطيع قدرات  
الرجل العادي في الظروف العادية أن تحققها وتحفظ بها .

ثم أنهم منظمون ، وهذا يرجع الى حد ما كما سبق أن أوضحنا الى  
ما توارثوه من ما ضيهم الذي لقوا فيه ألوان القمع . ان هذه الصفة  
أيضا مرتبطة بقلتهم العددية وبقوتهم التعصبية ، والجيش النموذجي  
الجديد مثل رائع على ذلك ، اذ هزم التجمعات العشوائية التي واجهه  
بها الملكييون وسحق خلاصة القوات بها وجحافل الفرسان التي  
اختيرت من أعيان البلاد وأتباعهم المخلصين وكان الجيش النموذجي يتألف  
من جماعة البيورتيان المتحمسين بعد أن زكاهم رجال يعرفونهم ، ثم  
دربوا تدريبا فعالا رغم قصر مدته ولا يمكن أن يقارن به في صرامته أي من  
التدريبات في كل تاريخ إنجلترا العسكري . وكانت النتيجة جيشا قويا —  
جماعة متينة من الثوار الأشداء تستطيع أن تشق طريقها وسط أشد  
المعتدلين عزيمة وأقدرهم فصاحة . ومع أن نظام اليعاقبة لم يكن عسكريا  
الا أنه كان صارما ويشبه في الواقع ذلك النوع من النظام الذي تفرضه جماعة  
دينية محاربة على أعضائها . ولقد كان اليعاقبة يتحرون دائما عن  
أعضاء طائفتهم ، ويجرون عملية تطهير ، فكان أقل انحراف من جانب العضو  
عن النظام اليومي المقرر يؤدي الى انذاره وربما طرده . ولقد أصبح معظمنا  
( يعنى الأمريكيين ) ملما بالأساليب الاسبرطية التي اتبعها الحزب الشيوعي  
الروسي في الأيام الأولى من قيام الدولة السوفيتية . وهى نقطة قد أصبح  
كل المراقبين الذين يعطفون أولا يعطفون على الحزب متفقين عليها .

لقد وضع المتطرفون مهاراتهم المنظمة لتحقيق الأغراض الثورية .  
وإذ أستخلص من القرون القليلة الأخيرة فن متقن للعمل الثوري ، وكان

الروس آخر من ورثوه . ولقد كتب كثيرا عن هذا الفن الذى ما هو الا عبارة عن الأساليب التى تستخدمها مجموعة ضاغطة ناجحة كالدعاية والمطالبة باجراء انتخابات ، ونشر الإشاعات واقامة الاحتفالات ، واثارة المعارك فى الشوارع وارسال الوفود ، والضغط المباشر على الحكام وارهاب المعارضة من وقت لآخر .

ولقد اتبع اليعاقبة والشيوعيون وابناء الحرية الكثير من هذه الوسائل ولكن مما يدعو الى شىء من الدهشة أن نجد كثيرا من هذه الأساليب فى انجلترا وبخاصة فى لندن فى القرن السابع عشر . ومن هذه الناحية كما فى نواح أخرى كثيرة يظهر بوضوح أن الثورة الانجليزية نمط حديث من الثورات . واليكم نبذة مما ورد عن الثورة الفرنسية : حدث خلال المناقشة التى دارت حول قانون الميليشيا ان مظهرة من صببة بعض الصناعات أتت الى مجلس العموم وجعلوا الباب مفتوحا ووضعوا قبعاتهم على رؤوسهم . . . وكانوا يقولون وهم واقفون « أدل بصوتك . . ادل بصوتك » . وظلوا على هذا الوضع المتعجرف حتى انتهى أخذ الأصوات . ويظن المرء أن هؤلاء الصببة لم يأتوا من تلقاء أنفسهم . انه نوع من التنظيم .

وأخيرا يسير المتطرفون وراء زعمائهم منكرين لذواتهم ومفتقين على رأى واحد مما لا يوجد عند المعتدلين . ان نظريات المساواة الديمقراطية التى ترتفع عالية فى بداية كل ثوراتنا لم تكن عقبة فى وجه المتطرفين لتطوير شىء يشبه كثيرا مبدأ الفوهرر الذى تربطه بالحركات الفاشية . . وهنا يتضح أن المعتدلين الذين يعيشون من أجل نظرياتهم ، وفى المراحل المبكرة للثورات تكثر الشكاوى من أن فلانا يدعى لنفسه سلطات لا يريدونها رجل طيب . .

فميرابو وكيرنسكى — اذا ما أردنا أن نضرب امثلة واضحة — قد اتهما من جانب المعتدلين والمتطرفين على السواء بأنهما يهدفان الى اقامة دكتاتورية فردية . ومع هذا فان روبسبير ولينين سارا على نهجها تماما فى الغالب ولم نسمع غير الهتاف لهما على الأقل داخل أوطانها . . ان

تنظيم مبدأ القيادة يسرى في كل تنظيم من أصغر جندي الى أعظم الأبطال القوميين من أمثال كرومويل وروبسبير ولينين .

وعلى العموم فهذه القيادة ذات أثر فعال ، ويمتلك هذه الخاصية على وجه أدق أولئك الذين يتربعون على أعلى قمة . وإذا نظرنا اليهم نظرة شاملة وعلى أنهم آدميون أصحاب مواهب مختلفة فلا شك في أننا نجد اختلافات لا يمكن انكارها بين هؤلاء الرجال الذين يشكلون الأركان العامة للمتطرفين . ان المشتغل بعلم النفس والقصاص وكذلك المؤرخ لن يستطيعوا أن يساواوا بينهم جميعا . الا أنهم عادة يشتركون في سمة واحدة لها أهمية كبيرة من وجهة نظر المشتغل بعلم النفس ، أنهم يتحدثون جميعا بدرجات متفاوتة — في المثل العليا وفي منتهى الاحتقار للمبادئ التي يستخدمها غيرهم من الرجال كمثل عليا . أنهم يمثلون لونا غريبا عما ذكره أفلاطون في خطته اللطيفة : أنهم ليسوا ملوك الفلاسفة ولكن سفاحي الفلاسفة . أنهم يمثلون الواقعية التي لا يحظى بها الا القليل من المعتدلين ثم ان فيهم حمية النبي لجمع الأتباع الذين يتوقعون أن تكون أورشليم الجديدة على قيد خطوات . أنهم رجال واقعيون لا يصدهم أى شيء عن الجرى لتحقيق مآربهم . أنهم في خدمة الجمال والخير .

ومثلا صغيرا نقتطفه من حياة لينين يوضح هذه النقطة . في أحد الاجتماعات السرية للجنة المركزية للحزب الشيوعى البلشفي قبل ثورة أكتوبر مباشرة ، كان لينين يحرض زملاءه على الثورة وقد كانوا يظنون أن على البلاشفة أن يحترموا رأى غالبية الروس الذين كانوا ضدهم بصورة واضحة . قال لينين : « اننا نميل الى اعتبار التحضير المنتظم للقيام بثورة كأنه جريمة سياسية . وليس من العقل في شيء أن ننتظر حتى يجتمع المجلس التأسيسي الذى لن يكون معنا أبدا » ، هذا هو لينين العملى الذى لا يقيم وزنا لشعار ديمقراطى يقف في سبيله . وبعد ثورة أكتوبر كتب في البرافندا عن « الأزمة التي كانت قد حدثت كنتيجة لانعدام الصلة بين الناخبين والمجلس التأسيسي واردة الشعب ومصالح الطبقات الكادحة المستغلة » . وهنا تبدو ارادة الشعب على صورة ما في القاع بالنسبة لارادة الحزب

البشنى الذى يضم الاقلية . وهناك حالات مشابهة بالنسبة لروبسبير وكرومويل ، ونخشى ان نقول ذلك بالنسبة لرعيم مثل جفرسون . نفاق ؟ قد تبدو تلك الاعمال نفاقا عند أولئك الذين لا يملكون الا تصورات ضئيلة او خبرات عملية قليلة عن العالم . ولكنها — على مستوى بطولى اقل — تعتبر الى حد بعيد جدا من الاعمال العادية للانسان حتى انها لا تستحق هذه الوصمة المهينة فهذا الروبسبير الذى حمل خطأ عبء حكم الاعداء وهو بعد شاب مثقف لم يدفع اعداءه الى المشنقة نفاقا . لقد اقنع نفسه بان اعداءه ليسوا بشرا على وجه الاطلاق بل آتمين وذوى نفوس ملوثة وعملاء لما هو اشد نكرا من الشيطان وأن ازالتهم من الوجود لم تكن فى الواقع عقوبة بالاعداء بالمعنى التقليدى بأى حال من الأحوال . وانك لتستطيع أن تعامل المجرمين العاديين وفق أعظم المبادئ الانسانية فى القانون . وكثيرا ما يقوم معظمنا بهذا التوفيق مغ انفسهم فى حياتهم اليومية . الا ان الاحساس بالراحة والظروف المناسبة والعادة وحتى الادراك يضع حدود التوفيق ولكن لاقيمة لهذه الحدود فى نظر المتطرف الثورى . ففى أثناء الثورة وخلال الأزمة تنقلب بصورة غير عادية المهام التى كان يقوم بها الواقعيون والمثاليون فى الظروف الطبيعية . وهنا بايجاز يصبح الأعمى — أو المتنبئ — ملكا ، أما الرؤية العادية وهى التى تهم اطباء العيون فلا محل لها ولا فائدة ترجى منها . ان لدى هؤلاء المتنبئين ما يجعلهم يتشبثون بهما كزعم القيادة . ولا شك أن كرومويل كان على قدر كبير مما يتصف به الانجليز من التنبؤ . ولم يكن لينين أبدا مثاليا اكاديميا . اما روبسبير فانه فى بعض الحالات أكثر هذه المجموعة اتصافا بالتنبؤ الصحيح .

ومع هذا فانهم جميعا — ولا يستثنى من ذلك روبسبير نفسه — كانوا ممن يسميهم الناس رجال أعمال . كان فى استطاعتهم تحقيق أى شىء . كانوا ذوى قدرة على الادارة كما كانوا ذوى قدرة على التنفيذ ، وكانوا يديرون التنظيمات التى يحول العرف والروتين دون اقامتها الا بالقدر الضئيل الذى يحقته العمل الآلى . واذا كانوا قد خلفوا وراءهم سمعة تدمغهم بالمبالغة فى القسوة فان هذا الى حد ما انعكاس لما يتركه الارهاب

في نفوس غالبيتنا . ثم ان الغرض من هذه التسوية التي يعاملون بها خصومهم هو تدعيم قيادتهم . فكمرومويل اكتسب ثقة جماعة القديسين عند ما ارتكب مذابح الايرلنديين . كما أن الجيلوتين في فرنسا ظلت لبضعة شهور الجيلوتين المقدسة . وتروتسكى عند ما كان يلم شمل الجنود البلاشفة ابان الحرب الأهلية أمر بقتل القائد ومأمور التعيينات وجنديا من كتيبة عمال بتروجراد كان قد هرب من الجيش ولم يتردد اطلاقا في العمل على اقرار النظام باراقة الدماء مما بث الرعب في قلوب زملائه الأرق قلبا . وبذا أصبح تروتسكى منقذا وبطلا . هذا كله والمدى لا يزال شاسعا قبل أن يصدر الأمر رقم واحد .

وفي نظر معظم الرجال توجد هوة بين انفعالهم وبين مهنتهم بين ما يعملون وبين ما يجبون أن يعملوا ، بين ما يعملون وما يظنون أن في استطاعتهم عمله ، وحين تسير الأمور سيرا عاديا فانهم يحاولون أن تظل هذه الهوة ضيقة بقدر الامكان أو أنهم يحولون انظارهم بعيدا عن جانب منها الى الجانب الآخر وذلك حتى لا يفرقوا في المتاعب التي يسببها لهم هذا الجانب الذي تحولوا عنه . فاذا ما طبقنا هذا على زعماء المتطرفين في أوقات الثورة فان الهوة تبدو لمن يراقبها وهو بعيد شيئا ضخما وأكبر مما في الأوقات العادية . وهناك قليل من الرجال — كفوشيه مثلا — يبدون كراهبيين حتى يتمكنوا من أن يحموا أنفسهم . ولكن المتطرف المخلص في ثورة ما هو وحده الذي يستطيع أن يقتل الناس لأنه يحب الإنسان ، يستطيع أن يقر السلام بالعنف ويحرر الناس باستبعادهم . ان هذه التناقضات في الأعمال قد تشل حركة الزعيم العملي ولكنها لا تقلق أبدا الزعماء المتطرفين . وحينما ينزعج الرجل العادي من شيء كأنقسام الشخصية وحينما يؤلمه ضميره أو احساسه لما يجري من الأمور يسير المتطرف قدما بعزم وشجاعة . ومهما كان اتساع الهوة بين ما هو واقع وما هو مثالي ابان فترة التأزم فانه قادر على اجتيازها وقتما يشاء . فلدیه في تلك اللحظة أحسن ما في العالمين عالم الواقع وعالم المثاليات . وانه لقادر على انتقاء الأمراد للجان والوفود والمكاتب والوزارات

ومشاكل الإدارة . ثم انه يستخدم الالفاظ الجميلة المقنعة التى تعمل ابان الثورات عمل السحر فى جموع الناس الفقيرة . ان هذه الموهبة الأخيرة هى التى تبدو وقد تركز فيها كل ما هو فوق أى قدرة لأشد الوان المنافقين طموحا . فالزعماء الكبار لعصور الارهاب يصلحون لمهتهم بموهبة عبقرية — موهبة تقف حائلا فى الأوقات العادية بينهم وبين السلطة — السياسية وايمانهم « بالمطلق » ليس ادعاء انما امر واقعى تماما كقدرتهم على انتهاز أية فرصة . وما المطلق الا السياسة العملية . وهناك فترة كتبها ف.و. ماتلاند F. W. Maitland استوحاها من كولردج وتوضح هذه النقطة .

« لقد لاحظ Coleridge كيف أنه فى أوقات اشتداد الاثارة السياسية تكون العبارات التى تصاغ فى السياسة غير واقعية وانما تصبح مجردة وغير عملية » وفى مثل هذه الأوقات يصوغ الناس نظرياتهم فى عبارات عامة وتسود روح التجريد ، ويبدو الخير النسبى أو الجزئى مثلا أعلى سيئا . وبعد فلسنا نعنى بهذا أشخاصا معينين أو امما معينة أو عصرا من العصور وانما نعنى « الانسان » .

### ثالثا — كفاية المتطرفين :

لم يكن الانتقال من المعارضة الى السلطة أمرا مفاجئا بالنسبة للمتطرفين . ان المسألة كلها ليست صراعا بين الحكومة والمعارضة ، بين من فى الحكم وخارجه ولكنها بين حكومتين داخل الدولة . وفى النظام القديم ربما لا يكون المتطرفون أكثر من مجموعة « ضاغطة » للثوريين تستولى تدريجيا ابان الاضطرابات فى المراحل الأولى للثورة على السلطات الحكومية التى لم تخضع للحكومة المؤقتة الوارثة شرعا للنظام القديم . وهذه العملية ظاهرة بصفة خاصة فى روسيا ولو أنها ظاهرة مشتركة فى كل ثوراتنا .

كان السوفيتيون يقومون بكل الأعمال الإدارية ويعطى تروتسكى خلال دوره كمؤرخ لذلك أمثلة طيبة . « لقد اضطر السوفييت فى ساراتوف

الى التدخل فى معارك اقتصادية والى اعتقال رجال الصناعة. ومصادرة الترام التابع للبلجيكين ، وادخال أجهزة الرقابة على العمال والى تنظيم الانتاج فى المصانع المهجورة . . . وفى كثير من الاحايين كان السوفييت فى الأورال يؤلفون المحاكم لمحاكمة المواطنين ويكونون الميليشيا الخاصة بهم فى المصانع ويدفعون ثمن عتادهم من ميزانية المصنع وينظمون التفتيش على العمال ويزودون المصانع بالمواد الأولية والوقود ويشرفون على بيع المنتجات الصناعية ويحددون الأجور . وفى بعض مناطق الأورال كان السوفييتيون يأخذون الأرض من أصحابها ويزرعونها جماعيا .

وفى بعض المناطق فى روسيا كان من الواضح أن شعاع « كل السلطات للسوفيت » قد أصبح زائدا عن اللازم حتى قبيل ثورة أكتوبر .

أما فى فرنسا فاننا نجد أن « جمعيات أصدقاء الدستور » لم تكن عند تكوينها فى ١٧٨٩ أكثر من جماعات ضاغطة ولكن لم يحل اليوم الثانى من يونيو ١٧١٣ حتى أخذوا يقومون بقدر كبير من الأعمال التى كانت الأجهزة الحكومية تنجزها عادة . وعند ما كانت « السلطات المسئولة » — وهو الاسم الذى كان اليعاقبة يطلقونه بكل احترام على المجالس الحاكمة والهيئات التشريعية — تفشل فى تحقيق ما يريده اليعاقبة كان اليعاقبة يقومون فوراً بتحقيقه بأنفسهم ومما هو جدير بالذكر أن كل قوانين القمع صدرت عن أندية اليعاقبة فى المقاطعات . لقد نظمت تلك الأندية على نمط يشبه الهيئات البرلمانية ، بقواعد تحدد المناقشة وفيها لجان وموظفون ولها مضابط . وفى الواقع كان لها كل ما يجعل منها هيئة تشريعية صحيحة . وفى بعض الاحايين كان النادى يرغم المسئولين على اتباع السياسة التى يريدها اليعاقبة أو يقنعهم باتباعها .

وأحيانا — اذا فشل فى ذلك — يصدر القوانين والمراسيم . وكان الأعضاء الذين يحتجون على هذا التدخل الشنيع فى أعمال المسئولين الذين اختيروا فى انتخابات شبه عامة يوصمون بأنهم من المعتدلين والسعيد منهم من نجا من الجيلوتين ( المشنقة ) فيما بعد .



أما إن الرجال الذين قاموا بالثورة الأمريكية كانوا غير مدربين على فن الحكم ، فهذا أمر معلوم لدى كتاب الأنجلوساكسون على جانبي الأطلنطى . ويجب علينا أن نذكر هنا أن ذلك الاستعداد لم يكن من النوع التقليدى القانونى . ولم يكن الراديكاليون الأمريكيون يتلقون الدراسات التى تؤهلهم لتولى الحكم من عملاء التاج فى اجتماعات المدينة والمجالس التشريعية فى المستعمرات فحسب بل ومراكز الدعاية الانتخابية واللجان والمؤتمرات التى تحمل نفس طابع السوفيتات ونوادى اليعاقبة . وفى الفصل التالى سنرى أنهم لم يترددوا فى استخدام الأساليب الإرهابية للاحتفاظ بالسلطة كما استخدموها للوصول إليها . ويعزى تعقد الموقف فى إنجلترا الى تلك الحقيقة وهى أنه رغم أن السلطة غير الشرعية كانت فى يد قيادة الجيش الحديث النموذجى فقد كانت جماعات الاستقلاليين تستخدم كعملاء للمتطرفين فى زحفهم لتولى الحكم . ولا شك أن الجيش بعد موقعة ناسبى أخذ يتدخل فى الأمور السياسية بأسلوب لم يمارسه من قبل أى جيش عادى . ولقد كان طرد البرسبتيريين من البرلمان لأول مرة بناء على قرارات اتخذها الجيش ولجنة الجيش ، ولكن جماعة الاستقلاليين وخاصة الاستقلاليين من رجال الكنيسة كانوا منذ فترة طويلة قد ائتمروا فى أمور دنيوية صرفة .

وفى هذا يقول الأستاذ جريرسون : « ليس الذى أقدم عليه لود Laud هو ما كان يشكو منه باكستر ( أحد قديسى المتطهرين ) انه يشكو من اشتراك رجال الدين فى الأمور الدنيوية المعاصرة »

ولذلك فالمتطرفون ليسوا سذجا أو عديمى الخبرة من الناحية السياسية . انهم يتمرسون بالخبرة الطويلة ابان ضغطهم كما أنهم يتدربون على القيام بشئون الحكم تدريبا شديدا وان بدت فترته قصيرة قبل أن يتمكنوا من السيطرة على الحكم سيطرة كاملة . ولئن نظرنا الى القواد أو الأتباع على أنهم عديمو الخبرة أو « مجرد نظريين » أو « من الغيبين » كما اعتاد البعض أن ينظر اليهم وخاصة الكتاب الانجليز ،

لئن فعلنا ذلك فانما يكون ذلك ضربا من التضليل ، فلا اهدافهم ولا وسائلهم يمكن ان يوافق عليها أولئك « الطيبون » من العصر الفيكتورى من أمثال باجو Bagehot أو مين Maine أو حتى مما يمكن أن يعطفوا عليها . ولا شك أنهم مثاليون وأنهم يكون الاحتقار للحل الوسط الا أنهم ليسوا من النظريين الاكاديميين الذين لا يصلحون كلية للعمل . بل الأمر على العكس من هذا . فانهم كانوا مهياين للواقع بصورة تثير الاعجاب ويتلاءمون مع ظروف بيئتهم . والى هذا السبب يعزى نجاحهم .

ان عملية اقصاء المعتدلين تدل على البراعة وهى بعد نموذج ممتاز يوضح مقدرة القادة الثوريين ومدى تلاؤم التنظيمات الثورية للاضطلاع بمهامها . وهى كما رأينا ليست ثورة كبيرة شعبية . ان الجوع كانت تكيل الضربات العشوائية أثناء هجومها على الباستيل أو خلال قيامها بثورة فبراير فى بتروجراد على صورة يستحيل معها على المؤرخ أن يخرج منها بتقرير دقيق . ان هذه الجموع لم تتدخل فى عمليات التطهير التى قام بها بريد والجيرونديون وثورة أكتوبر .

وفى فرنسا وصل المتطرفون الى الحكم فى انقلابين كان أولهما الاطاحة بالملكية فى ١٠ أكتوبر سنة ١٧٩٢ ، التى تمت عن طريق الاسهام الدقيق من العناصر المختلفة التى تتألف منها الحكومة غير الشرعية : اليعاقبة ومختلف النوادى السياسية وأفراد الميليشيا المحلية الذين أتوا من مختلف أنحاء فرنسا لكى يحتفلوا بالذكرى السنوية لسقوط الباستيل والمنظمات المختلفة التى انبثق منها كوميون باريس الثورى . وكانت كل هذه العناصر تقريبا هى نفسها التى اجتمعت بعد ذلك بعشرة شهور لانجاز المهمة الأسهل وهى تهديد المؤتمر للتخلى عن الجيرونديين . وقد كان دانتون وماران ومن المحتمل أيضا روبسبير وبكل تأكيد عدد آخر من الزعماء المهرة ولو أنهم أقل شهرة قد كونوا الهيئة العامة التى رسمت خطة الانقلابيين .

أما ثورة أكتوبر فقد تم اعدادها بطريقة متقنة ووصفت وصفا

واضحا في كتاب تروتسكى عن «تاريخ الثورة الروسية» ولن نحتاج هنا الى الدخول في تفاصيل هذا الاعداد ولكن هناك عبارة مقتبسة عن تروتسكى تكشف لنا « مدى العناية بالتفاصيل » لقد وجه عمال المطابع عن طريق اتحادهم نظر المجلس ( مجلس الثورة العسكرى فى بتروجراد والهيئة العامة لثورة اكتوبر ) الى ازدياد المنشورات والمطبوعات المعادية للثورة ومن ثم تقرر انه فى كل حالات الشك يجب على الاتحاد أن يلتمس المشورة من مجلس الثورة العسكرى . ولقد كان لهذا التنظيم أعمق الأثر فى الرقابة على كل المطبوعات المثيرة المناهضة للثورة » .

ومن الطبيعى أن كان للمطبوعات المثيرة من يقومون بطبعها كما كان لها الحرية القانونية التى تتمتع بها الصحافة . ان بيرون فى الأرجنتين قد استخدم نفس الأسلوب ليتخلص من صحيفة « برنسا » المستقلة . وكان المعتدلون يلتقون العنت قبيل الثورة البلشفية من مثل هذه الطرق . ولم يكن هناك أى تفكير فى اضراب عام ، وانما كان هناك سلسلة منسقة للاستيلاء على مراكز السلطة والصحافة والبريد والتلغراف والبنوك والوزارات .

ولربما كان القبض على شارل الأول على يد كورنت جويس Cornet Joyce فى ٣ يونية سنة ١٦٤٧ فى هولبى هاوس Holmby House أول ظاهرة من ظواهر سيطرة الجيش النموذجى الجديد على السلطة . وعندما سأل شارل جويس عن كلفه بخلعه يقال أن جويس أجاب وهو يشير الى جنوده الذين اصطفوا أمام القصر « هؤلاء هم الذين كلفونى » . وهذه الاجابة ستعيننا على فهم كل ثوراتنا . فعند ما يقبض المتطرفون على زمام السلطة ينتهى كل اعتبار للحريات الفردية أو القانون . فالمتطرفون وهم فى المعارضة ينادون بالحرية والتسامح ولكن سرعان ما يصبحون دكتاتوريين عند ما يصلون الى الحكم . ولسنا فى حاجة الى أن نتألم من أجل ذلك أو أن نستشيط غضبا أو نتكلم عن النفاق اذ أننا نعمل على بيان التشابه فى سلوك الناس ابان بعض الثورات فى مواقف اجتماعية معينة .

ولربما كان المثال التالي أحد هذه المتشابهات . كتب جاردنر يقول أنه لم يمض أكثر من ستة أشهر على الزعيمين الاستقلاليين كرومويل Cromwell وفين Vane حتى وافقا على طرد بعض مئات من جامعة أكسفورد وهما اللذان كانا من قبل يجاهدان من أجل وضع دعائم نظام أثبتاه على رأس قائمة مقترحاتهما يقضى بنبذ أى تعصب بل انهما كانا يطالبان بوضع خطة للتسامح مع القساوسة الكاثوليك . وفي عهد البرلمان الطويل فرضت رقابة محكمة على المطبوعات كما اتجهت سياسة الحكومة بكل امكانياتها الى أن تفرض قسرا شرائع المتطهرين وأذواقهم . ولقد حدث نفس الشيء في فرنسا وروسيا ، اذ سرعان ما طوقت كل من الحكومتين الجديديتين أعداءها ثم بدأت تضع أسس الارهاب للمرحلة التالية . وعند ما دبت الفوضى في الجيش كما حدث في روسيا وفرنسا تحت ضغط محاولات تطبيق مبادئ الحرية والاخاء والمساواة ، أعيد النظام في شىء غير قليل من الحزم . ويصف تشمبرلن الوضع في روسيا بقوله : « لقد بدأت السلطات العسكرية البلشفية تتحدث عما للجان العسكرية من أثر سىء هدام كما تحدث في ذلك كورنيلوف ودينكين وغيرهما من كبار ضباط الجيش في سنة ١٩١٧ وبالتدرج أصبحت الطاعة العمياء لأوامر الضباط من الأمور الراسخة في نظام الجيش الأحمر » .

وكانت رؤوس الاقتراحات ، و « موافقة الشعب » وهى الموضوعات التى تبناها الجيش تحت تأثير الاشتراكيين . عبارة عن اقتراح أشياء قريبة الشبه جدا مما سيكون فيما بعد من سمات ديمقراطية القرن التاسع عشر : دوائر انتخابية متساوية وبرلمانات متكررة وحدود معينة للسلطة التنفيذية بل ومنح حق الانتخاب لكل رجل . ولا يبدو مطلقا أن كرومويل كان من ذلك النوع من الثوار الذين يتمسكون بالعقائد والأثرب الى الاحتمال حقا أن نفسه كانت تجيش باحساسات تجاه السلطة والتقاليد من لون يتوقعه الانسان من أعيان الريف . واذا كان قد ضاق ذرعا بالحالة فمن المحتمل أن يكون ذلك منعا لعودة النظم البرلمانية القديمة ولا شك أن آخر ما كان يمكن عمله هو اجراء انتخابات مفتوحة وحررة . ولم يكن هذا

البرلمان المعروف باسم « برلمان القديسين » Parliament of Saints الذى انعقد فى سنة ١٦٥٣ بعد حل البرلمان الطويل بأكثر من مجلس مؤلف من المستقلين الموثوق بهم والذين اختبروا بالوسائل التى تختار بها الأندية أعضائها .

لقد ظل البلاشفة يهاجمون الحكومة المؤقتة لعدة شهور بسبب عدم دعوة جمعية تأسيسية . وأخيرا تكونت هذه الجمعية نتيجة انتخابات عامة قبيل الانقلاب الذى قام به البلاشفة ، وكان البلاشفة أقلية فيها . وقام لينين بحل هذه الجمعية التأسيسية فى يناير سنة ١٩١٨ ببساطة متناهية ، الأمر الذى أزعج كثيرا من أتباعه رغم تمرسهم بالماركسية اذ راوا فى هذا العمل تنكرا لأى احساس بالديمقراطية وبالتقاليد تماما كما تألم كثير من اليعاقبة الطيبين عند ما جابهتهم حقيقة الديكتاتورية الجديدة .

ثم جاءت النظرية بمثابة بلسم للضمائر الجريحة . فان نظرية الديكتاتورية الثورية تكاد تكون واحدة تماما فى كل من ثوراتنا الثلاث . الحرية لكل فرد ، الحرية الكاملة ، الطليقة من كل قيد ، والعدالة ، هذا هو من غير شك الهدف النهائى . ولكن مثل هذه الحرية فى الوقت الحاضر تعنى أن الأشخاص الذين أمسدتهم الأساليب القديمة الفاسدة قد يتمكنون من تحقيق خططهم الشريرة ، واستعادة النظم القديمة الفاسدة ، واعاقمة المواطنين الصالحين . ويمضى المتطرف فيقول عند اعيال الفكر يتضح وجوب التفرقة بين الحرية لمن يستحقونها ، والحرية لمن لا يستحقونها ، وهذه الأخيرة بالطبع حرية زائفة ، شبه حرية ، أو فوضى . فالله منح الحرية للقديسين — الحرية الحقيقية التى هى طاعته ولكنه لم يمنح الحرية للآثمين . فأنت تحمد البابويين كما تحمد الشياطين . وكان القول بأن مثل هؤلاء الآثمين ينبغى أن يتركوا وشأنهم يبدو لجماعة البيوريتان من الانجليز فى القرن السابع عشر من الجنون كما يبدو لنا القول بأن البعوض الناقل للحمى الصفراء ينبغى أن يترك وشأنه . وقد عبر روبسبير نفسه عن ذلك أوضح تعبير فقال : ان الحكومة الثورية هى

السلطة المطلقة للحرية ضد الطغيان . أما ماركس فيرى ان دكتاتورية الطبقة العاملة هي مرحلة انتقال ضرورية فيها تزول كل آثار النظم الرأسمالية والعقلية الرأسمالية . ان استعمال القوة يكون ضروريا في هذه الفترة — ولسوء الحظ انها فترة غير محدودة . فالرأسمالي يظل رأسماليا على الدوام . ولكن عند ما يصبح الناس أخوة في النهاية ، تبدأ حرية المجتمع اللاطبقى آخر الأمر .

والمتطرفون الذين يطربهم أن يعلموا أنهم يخدمون الحرية — بمعناها الحقيقي السامى — بتطبيق ما يبدو طغيانا لن لا يرى رأيهم ، هؤلاء المتطرفون يمضون قدما لدعم سلطانهم عن طريق المنظمات . وقبل أن نحاول تقديم وصف موجز عام لهذه المنظمات ، يجدر بنا أن نلاحظ تماثلا آخر . فانه بانتصار المتطرفين كما عرفناهم ، تتوقف عملية انتقال السلطة من اليمين الى اليسار . فالمتطرفون ليسوا في الواقع خلوا من المشاكل التي واجهتها الجماعات المنتصرة منذ بداية الحركة الثورية . فهم ينمون الصراعات الداخلية ، ويميلون الى أن ينقسموا الى جماعات متخصصة فيما بينها بحيث يستحيل عليها التعاون . ولكن هذه الجماعات لا يمكن أن تنتقل من اليمين الى اليسار ، وسرعان ما ينتهى خلافها وما بينها من نزاع وما يسببه الانقلاب من شغب واضطراب . فان هذه الانقسامات تصبح عندئذ مذهبية الى حد دقيق وبعيدة عن جماهير الشعب بحيث يمكن أن تتركز في نفر قليل من القادة . ويحسمها النفى أو « القتل المشروع » — كما يبدو للأنصار المنهزمين — لبعض هؤلاء القادة . فالانتفاضات الشعبية التي بدأت على نطاق واسع قد انتهت الى ما يشبه قاعة المحكمة وما يتصل بها من مشاهد عنيفة ..

وأوضح حالة لذلك هي فرنسا . فان الجبلين المنتصرين في الثمانى من شهر يونيو انقسموا الى ثلاثة أحزاب كبرى ، حزب روبسبير ، وحزب دانتون ، وحزب هيبرت . وكانت هناك بالطبع أحزاب داخل تلك الأحزاب ، وقوى متصارعة ، ولو لم ينته الأمر باغتيال مارا في صيف

١٧٩٣ لسارت الأمور الى أعقد من ذلك . وحينما انتصر روبسبير في نهاية الأمر ، صور الموقف على أنه صراع بين الثوار الحقيقيين من ناحية والثوار المتطرفين ( هيبرت ) والثوار المعتدلين ( دانتون ) من ناحية أخرى . وكان يعتبر نفسه وسطا بين الرذيلة والبروليتارية والفساد البورجوازي . هكذا بلغ الموقف من التعقيد حدا لا يصدق انسان . ولا يستطيع ازالة ما به من غموض الا بما لديه من معلومات . وقد أدين كل أتباع دانتون وهيبرت « الخونة » و « الفوضويون » أمام محكمة الثورة ، وذهبوا جماعتين كبيرتين أو أكثر الى المقصلة . وخلال الأشهر القليلة التالية أصبح « حزب روبسبير » يسيطر سيطرة تامة على فرنسا .

أما المستقلون المنتصرون في إنجلترا في عام ١٦٤٩ فقد وجدوا أنفسهم في مواجهة طوائف مختلفة اختلافا يدعو الى العجب ومنتصرة في مجال الصالح العام من أجل التسامح التام مع كل « المنشقين » . وسوف نذكر كلمة سريعة عن الناحية المذهبية لهذه الجماعات . وفي الوقت نفسه ينبغي أن نلاحظ أن كرومويل لم يستمر في اخماد البابويين والبروبستريين والأساقفة فحسب بل انه هو وضباطه راوا أن رجال الملكية الخامسة ، والفلاحين والاشتراكيين ، والقديسين وأنصار السلام ، وغيرهم يجب الا يسمح لهم بممارسة خطتهم الشرسة . الفلاحون لن يتمكنوا من مواصلة الحفر في الأرض . والأساليب القديمة التي تنادى بأنه « لا أعداء لليسار » ، والتي كانت سارية منذ بداية الثورة قد تركت عندئذ تماما . ويقول الأستاذ تريفيليان ان كل الثوار عند ما يوظفون بالمسئوليات الحقيقية ( الفعلية ) ، يصبحون محافظين الى حد ما . فقد أعدم روبسبير الفوضويين . وكان القانون الإداري الأول لقاتلي الملك شارل هو اسكات الاشتراكيين . فهناك اذن ، اذا شئت ، أولئك الأشد تطرفا من الجماعة التي أطلقنا عليها اسم المتطرفين . غير أن هؤلاء الناس من طبقة المخبولين ، هم القوم غير العمليين الذين يظنهم بعض المحافظين — خطأ — خير من يمثل الثوار . وهم قطعاً لا ينجحون في الوصول الى الحكم .

والوضع الروسى لا يزال غامضا نوعا ما بالنسبة للمعارضة ضد البلشفية الرسمية بعد أكتوبر ١٩١٧ ، وهذا الغموض يبدو — من بعض الوجوه — أكثف . ومع ذلك فمن الواضح انه حتى أثناء حياة لينين ، ولا سيما فى السنة أو نحوها التى تلت ثورة أكتوبر كانت هناك أزمات كثيرة داخل الحزب البلشفى ولقد قمع لينين وأتباعه الجماعات المعارضة حتى حينما كانت هذه الجماعات تدعى أنها أكثر « ثورية » من أتباع لينين — ولم يكن هناك مثل هذا الهراء حول « لا أعداء للييسار » . وبفضل النظام البارع للحزب البلشفى وخصوصا لطبيعة الحزب الضاغطة ضد البيض والحلفاء ، لم تكن هذه المنازعات شائعة شيوعها فى إنجلترا وفرنسا . ولكن بعد وفاة لينين ظهرت هذه المنازعات واضحة أو أقرب ما تكون الى الوضوح . فان تروتسكى « المتطرف » وبوخارين « المعتدل » سقطا أمام ستالين كما سقط كل من دانتون وهيرت أمام روبسبير . ويبدو أن المحاكمات والاعترافات الروسية التى جرت عام ١٩٣٠ وعمليات الارهاب التى صاحبها تنتمى الى وجه مختلف من وجوه الثورة أو هى مشاكل داخلية لاجتمع فى احدى مراحل الثورة . ورغم بعض التشابهات السطحية ، فانها لا تبدو كجزء من التشابه الذى نبخته هنا .

وهذه الأحزاب الصغيرة المعارضة قد نسجت فى غير نظام على يد جماعات شاذة متنوعة لم تقمع تماما حتى بلغ الارهاب ذروته . فهى تمثل ، كما رأينا ، طبقة المخبولين المعروفة فى أى حضارة معقدة ، وهى بوجه خاص تنشط ويرتفع صوتها فى المراحل الأولى لثوراتنا وخلال الصراع بين المعتدلين والمتطرفين . وهى أقل أهمية فى سير الثورات ، مما يلحظ للمؤرخين المحافظين ، والمحافظين بوجه عام أن يصوروهما . ولكنها عناصر ذات شأن فى صلب العقيدة الثورية ، وهى توضح من نواح كثيرة التاريخ العام للانشقاق والمنشقين .

يقول ليتون ستراتشى « لم يصل العقل البشرى أبدا الى مثل تلك الدرجة العظيمة فى توكيد الذات مثلما وصل فى إنجلترا حوالى



سنة ١٦٥٠ . وبالتأكيد فان ما نظنه الآن من تأصل حب البريطانيين للحلول الوسط ليس ظاهرا تماما في هذه السنين . ويذكر ستراتشي في سخرية أن في مقدور المرء أن يصبح بهيميا ، بيد لينيا ، كوبيتا ، أو سالمون أو ممن ينكرون وجوب تعمييد الأطفال أو تيروينا أو فيلادلفيا أو كرسناد لينا أو أى شىء آخر صارفا النظر عن الموضوع الذى كان يكتب عنه في الواقع ، وهو لودفيك ماجلتون مؤسس الحزب القائم حاليا ، والمعروف باسم «الماجلتونيين Muggletonians» وهذه المصطلحات تكاد تعنى قليلا بالنسبة لنا اليوم كما كانت الحال بالنسبة للمصطلحات التى كان يشار بها الى جون جودوين في الجزء الثالث من «جانجرينا» شيع متشابهة هى خليط من السوسينانية والبابوية والاحداد والحرية ونكران التقديرية والاباحية والاستقلال وهذا خليط عجيب من المتناقضات ، كما لو كان الانسان اليوم مزيجا من الشيوعية ، والنازية ، والفاشية ، والجمهورية ، التحريمية . ويقول مسبر جوش : « ان الثورة الانجليزية تقدم لنا بعض التأملات الشيوعية الهامة جدا في التاريخ . فمئذ ١٦٤٧ طبع جون مير كتيباً هاجم فيه نظام الملكية الخاصة دون أن يوضح تماما ما الذى يمكن أن يحل محلها . حث تشمبرلين في كتابه « نصر الفقير » Poor Man's Advocate على تأميم ممتلكات التجار والكنيسة ، وعلى اعادة كل الاراضى المشاعة التى شملها نظام الوقف ، وعلى تسمية هذه الاراضى بالرصيد الوطنى ، وعلى ادارتها لمنفعة الفقراء .

ومع ذلك يعتبر الحفارون (The Diggers) أشهر هذه الجماعات الشيوعية ، لاشىء سوى أنهم حاولوا أن يضعوا آراءهم موضع التنفيذ . وقد قدمت الحركة بكتيب غامض ظهر في ديسمبر ١٦٤٨ وكان عنوانه من سمات العصر « شعاع ضوء في باكنجهامشير Light Shining in Buckinghamshire » . وفي أبريل ١٦٤٩ ذهب انفارارد ، وهو جندى من الجيش النموذجى الحديث ، مع نفر من أتباعه الى تل سان جورج في سوراي « وباداوا يحرثون الأرض ويزرعون الفجل ، والجزر ، والفول » وقال انفارارد ان صوتا أمره أن يحفر الأرض ويحراثها ويجنى ثمار عمله .

ولم يكن في نيتهم أن يتدخلوا في الأرض المسورة ، ولكن فقط أن يأخذوا الأرض المشاعة والبور ويستصلحوها . وفي ذلك الوقت تركهم الجنرال فيرفاكس لشأنهم اذ يبدو أنه اعتبرهم متعصبين لا ضرر منهم .

وكان رجال الملكية الخامسة يقولون ان ملكية الانجيل الرابعة قاربت النهاية ، وان الملكية الخامسة أو حكم القديسين قاب قوسين أو أدنى . . وكانوا هم بالطبع — القديسين . على أنهم انقسموا حول مسألة ما اذا كان لهم أن يساعدوا العناية الالهية أم لا . فبعضهم كان يرى أن الله بنفسه قادر على أن يقهر الأتقياء في هذا العالم ، وكان البعض يرى أنه من المطابق للقانون ومن المفيد محاربة أعداء الله بالأسلحة المادية ، والتعجيل باليوم الذى يستولى فيه القديسون على الثورة وأن يحكموا معه على الأرض . وتذكرنا مشكلتهم بالمشكلة التى واجهت الاشتراكيين في القرن التاسع عشر وهم الذين كان عليهم أن يختاروا بين المكافحين والمصلحين .

وبالنسبة الى ثروة الخيال كان الانجليز يطمون بجنة على الأرض ، فانه يبدو أن الثورتين الأخيرين المتطرفين قد حركهما الفقر . وربما كان الاعتقاد الانجلو — سكسونى القديم فى افتقار الفرنسيين الى الخيال صحيحا ، ولكن من المؤكد انه لا يمكن أن يؤخذ هذا على الروسيين . ربما كانت الاجابة هى ببساطة أنه كمصادر للالهام الخيالى ، لا التنوير الذى قام به فلاسفة القرن الثامن عشر ، ولا المادية التاريخية عند الماركسيين صالحتان لتفسير احدى آيات الانجيل . ومع ذلك كان بفرنسا كثير من المخبولين . فان « الغاضبين » الذين كان يقودهم فارليت ورو والذين كانوا يستندون الى حد بعيد على الفئات الفقيرة فى باريس ، كانوا يعتقدون — كما يبدو — مذهباً شيعوياً الى حد ما . وعلى أية حال فقد كانوا ضد الأثرياء بشكل واضح ، وضد الأرستقراطية الجديدة من التجار . والهيبيرتيون Hébertistes ، وهم جماعة شعبية باريسية اخرى — يحدث خلط أحيانا بينهم وبين « الغاضبين » — وكان لهم قادة من الكتاب والصحفيين

ولكن صلب دعوتهم كان لا بد مغذيا الأحلام الخيالية الى حد ما . وكانت هناك جماعة صغيرة حول كاترين تيو « أم الله » — متخذة روبسير على الأقل انه من آيات الله . ويبدو في الواقع ان الأساتذة الجمهوريين في فرنسا على حق وأن كثيرا من هذا قد أثاره أعداء روبسير ليظهره بمظهر مضحك ، اذ انه حتى في اوقات تأزم الثورات يميل بعض الناس الى الى الدعاية . ومع ذلك تبقى الحقيقة وهي ان كاترين تيو وجماعتها كانت موجودة .

أما في روسيا فان تمام النصر البلشفي وسرعته قد يفسر الافتقار النسبي للعالم الخيالي . حقا أنه من ١٩١٨ الى ١٩٢١ كان على البلشفيين أن يحاربوا البيض والطفاء في كثير من الجبهات ، وانه في منطقة أوكرانيا ، مثلا ، تستطيع أن تجد كل شيء من الحكام القياصرة الى الشعبين ومن مؤدى حكام العصابات الى الحمر الصميين . ولكن هناك قسوة بالغة الشدة في الثورة الروسية هي التي أبعدت الأحلام الوديعة لايفارارد وكاترين تيو .

#### رابعا : جهاز الدكتاتورية :

تجسدت دكتاتورية المتطرفين في أشكال حكومية كتركيز مؤتمت سريع . أما تفصيلا ، فان هذه الأشكال تتنوع في مجتمعاتنا المختلفة ، ولكن الكومنولث في إنجلترا ، وحكومة الثورة في فرنسا والدكتاتورية البلشفية خلال فترة « حرب الشيوعية » في روسيا كلها تبين تماثلات من النوع الذي لا يتردد الدارس في علم الحيوان أن يسميها تماثلات . خصوصا وأن اصدار القرارات النهائية في كثير من الأمور قد انتزع من السلطات المحلية الثانوية لا سيما اذا كانت تلك السلطات قد انتخبت بطريقة ديمقراطية وتركز في نفر من الأشخاص في العاصمة الوطنية . ومع ذلك فان أسماء كرومويل وروبسير ولينين تبرز كأمثلة لأولئك الحكام ، وعلى الرغم من أن هؤلاء الرجال قد مارسوا سلطات لا تحد ، فان الشكل المميز

لهذه السلطة العليا هو شكل اللجنة وهذه الهيئة التنفيذية المركزية - لجنة الأمن العام - اللجنة المركزية التنفيذية لكل الروس تنفذ أوامرها بواسطة بيروقراطية غير مؤهلة ، اختيرت الى حد بعيد من العاملين في الأحزاب ومن الجماعة الضاغطة التي رأينا أنها صلب الجماعة المتطرفة . ولاتستطيع المحاكم القديمة أن تعمل على الأقل وفق طريقتها التقليدية . ولذلك وضع بجانبها محاكم استثنائية ، ومحاكم ثورية ، أو غيرت كلية بتعيينات جديدة وتشريعات خاصة . وأخيرا يظهر نوع خاص من البوليس الثورى . والشيكال الروسية معروفة لكل من له المصام بسيط بالتاريخ الحديث . واستمرار وجودها تحت أسماء مختلفة الى الوقت الحاضر أمر واضح لا يدل كثيرا على أن روسيا في ثورة مستمرة دللته على أن روسيا الستالينية هي من نواح كثيرة روسيا القيصرية التي كان لها هي الأخرى بوليس سرى . وفي فرنسا كانت لجنة الأمن العام واللجان الثورية تنفذ مهام البوليس هذه . وفي الثورة الانجليزية كانت تنفذ بكل دقة بواسطة الأسقفية المستقلة الجديدة ، تساعدها لهذا الغرض لجان من الجيش . ولكن في انجلترا كان كل جهاز التركيز الحكومى بدائيا وبسيطا - دكتاتورية كرومويل غير المألوفة ، والقضاء الجديد الذى انشأه الثوار في مارس ١٦٥٠ والذى ارتبطت فيه السلطات التشريعية والادارية والقضائية ارتباطا وثيقا كما كانت الحال في مجلس تيودور واستيوارت والتجربة الغريبة للجنرالات الغريبة الكبار في ١٦٥٥ - ١٩٥٦ . وحقيقة التركيز في انجلترا أمر مسلم به . فان المهام المقدسة الملقاة على عاتق أقدس حارس للحرية الانجليزية المحلية - قاضى الصلح - كانت موضع هجوم طوال سيطرة المتطرفين .

وهذه الدكتاتوريات الارتجالية لم تواجهها المشاكل العادية للحكومة فحسب ، بل انها الحرب الأهلية والخارجية كذلك ، وعدد غير قليل من اجراءات الاصلاح الحقيقية التي كان عليهم أن ينفذوها . وبوجه خاص في الثورتين الفرنسية والروسية ، كان على الحكومة الجديدة - لكى تتجنب الخلاف حول معنى الاشتراكية - أن تنفذ ما يمكن أن نطلق عليه اسم اجراءات التخطيط الاقتصادى - تثبيت الأسعار والأجور ، والعملية

الموجهة ، وتوزيع الطعام ، وغير ذلك . ولا يعني هنا ان نبحت في مشكلة ما اذا كانت هذه الاجراءات في فرنسا اجراءات حرب خالصة ام لا . المهم ان الحكومة وجدت نفسها مضطرة لمحاولة اجرائها .

وفي روسيا كانت هناك بالطبع جهود واضحة لتجسيد الاشتراكية الماركسية في نظم عمالية .

ولكن هذه كلها اشكالا سريعة مؤقتة للدكتاتورية . فحكومات الارهاب كانت بوجه عام اقل فاعلية ، وذات سلطة مطلقة اقل من كثير من حكومات زمن السلم بشكل لا يتناسب مع شهرتها في التعسف والميل الى القتل . وكانت حكومة ستالين مركزة تركيزا قويا اكثر من حكومة لينين . وكذلك حكومة نابليون اذا قورنت بحكومة روبسبير . والحقيقة ان أحد الأسباب التي من أجلها تبدو حكومات الارهاب بمثل هذا الطغيان وصعوبة الاحتمال بل والرجعية ، هو بالتحديد انها كانت عاجزة . وكانت تؤدي واجباتها الضخمة — ما عدا انجلترا وفرنسا وروسيا عن طريق الانحلال او الغزو ولكنها كانت تقوم بها بطرق غير شريفة للغاية ، وبالتفصيل ، بطريقة سيئة جدا . وكان المنفذون الحقيقيون عادة عديمي الخبرة ، وكانوا غالبا من المتعصبين التامهين الذين وصلوا الى الشهرة في النوادي أو الحزب . وكانوا يتعرضون لضغط شديد من أعلى كى يصلوا الى نتائج . وكانوا في أغلب الأحيان يقومون بأعمال ترتضيها الثورة — مثل مصادرة اقطاعيات الملاكين والمخصصات الكنسية في انجلترا ، والتصرف في ارض الكنيسة المصادرة والمهاجرين في فرنسا ، وتأميم الأرض والمصانع في روسيا — مما اتاح لهم فرصا واسعة للوصول . وكان عليهم أن يتعاملوا مع جمهور كثير منه ان لم يكن أغلبه ممن لا يوثق به أو هو يقف موقف العداء . فلا يأخذنا العجب كثيرا اذن اذا رأينا ان عهود الارهاب هذه أصبحت تمثل أعمال العنف الشديد وأن تاريخها الكامل معقد أشد التعقيد . وليس أكثر توضيحا في دراسة هذه الثورات من دراسة التاريخ المحلى . فانت هنا ترى الارهاب على نحو ما كان في الواقع ، ليس حكما ثابتا ولا فعلا من أعلى ،

كما هي الحال في الجيش أو في أسبرطة ، ولكن حالة من القلق والخوف ،  
وانحلال للقولنيين القليلة الجادة للحياة الاقلمية . والكثير يتوقف على  
مظاهر الشخصية — مواطن صالح ، أو مواطن ثورى معتدل أو الاثنين  
معا ، وقد تستطيع قرية ما المضى في الثورة بثبات . وفي أخرى قد يسود  
الارهاب بشراسة كما في العاصمة .

وعجز الحكومات في فترات التأزم يظهر واضحا جليا في محاولاتها  
لتنظيم الحياة الاقتصادية للدولة والسيطرة عليها . وهذا الموضوع برمته  
قد يكون قليل الصلة جدا بالمشكلة العامة التي يطلق عليها « التخطيط  
الاقتصادى » وعلينا أن نؤكد من جديد أن الذى يعنينا هنا هو تشریح  
ثورات معينة . ويكفى أن نقول انه في فرنسا في ١٧٩٣ — ١٧٩٤ ، وفي  
روسيا في ١٩١٨ — ١٩٢١ كانت الجيوش عامرة بالذخيرة ، وبقي بعض  
المدنيين أحياء في ظل سيطرة تامة مطلقة على النشاط الاقتصادى . والحد  
الأقصى عند الفرنسيين كان يعنى بالطبع تثبيت الأسعار والأجور ، والحرب  
الشيوعية الروسية كانت صورة أكثر كمالا للتخطيط المركزى . ومع ذلك  
ففى فرنسا كان الخروج على هذا الحد الأقصى شائعا جدا ، والتاريخ  
التفصيلى للحد الأقصى باعتباره جزءا من التاريخ المحلى يمدنا لا محالة  
ببعض الحوادث المسلية . وفي روسيا كانت التجارة غير المشروعة في  
سنى الحرب كبيرة الشبه جدا بالسوق السوداء عندنا . وسوق سوخاريفكا  
الشهير في موسكو كان يهاجم من وقت الى آخر ، ولكن حكومة لينين غضت  
الطرف عنه . وكان كل المقيمين في المدن القادرون يذهبون الى الريف  
ليساوموا الفلاحين على كميات الأطعمة المحرمة . وهنا نجد مرة أخرى  
أن التفاصيل القليلة لدقائق الحياة اليومية ساحرة ، وتحتاج الى كل  
مواهب المؤرخ الاجتماعى . ويبدو أن هناك شبه تسليم اجماعى من  
المؤرخين ، حتى المعادين منهم للثورات عامة ، بأنه خلال فترات التأزم تندر  
جرائم العنف العادية . وقد يكون هناك كثير من القسوة والفساد بين  
هؤلاء الحكام والقضاة الجدد ، وقد يكون العهد الجديد أبعد شئ عن اقرار

السلام والنظام ، ولكن اللصوص المعروفين ، وقطاع الطرق ، والخطافين وأمثالهم لا يكونون شديدي النشاط . وتعليل المحافظين لذلك هو أنهم حصلوا جميعا على مناصب حكومية . ومع ذلك فاننا لا نقبل هذا على انه تفسير جامع . ويبدو محتملا أن المجرمين العاديين قد ذعروا في ذلك الوقت نظرا للحملة الشديدة ضد الرذيلة العادية والجريمة التي هي جزء من فترة التأزم والتي سنعود اليها بعد قليل . فاللصوص الذين لا خطر لهم بل والبغايا في احيان كثيرة قد تم التصرف فيهم بلا محاكمة بواسطة الأحكام العرفية في أثناء الثورة الفرنسية ، وحدث مثل ذلك في انجلترا وروسيا . على أنه ليس من المسلم به دائما أنك تستطيع ارباب المجرمين بالمحاكمات العرفية . وهنا كما في سائر أجزاء هذا الكتاب نقوم بدراسة مجموعة خاصة من الأحداث ، باحثين عن بعض التشابه ، غير محاولين الوصول الى نتائج عامة في ميدان كميدان علم الجريمة . ومن الجائز أنه في حالات التوتر العام ، وفي أثناء توسيع مجال الشئون العامة بشكل غير عادى بحيث تصبح الأمور الخاصة شبه مستحيلة تكون الجريمة العادية — وهى من الأشياء الخاصة — صعبة الحدوث . فالجرم يتزعج ، ليس فقط خوفا من تطبيق الأحكام العرفية ، بل من خوف غامض عام يشترك فيه مع المواطنين العاديين . فالخوف لا يحتاج الى موضوع وفي عهد الارهاب لا موضوع في يوجد الغالب وعلينا أن نذكر أن فترة التأزم تكون قصيرة — بضعة شهور أو بضع سنين على الأكثر . وعلى أية حال ، يبدو تشابه بسيط مرة اخرى من جديد وهو أن انخفاض ملحوظا في عدد الجرائم العادية يبدو واضحا خلال تلك الفترة . ويلاحظ مستر تشمبرلين أن موسكو كانت في ١٩١٨ — ١٩١٩ مكانا آمنا جدا للمعيشة — اذا استطعت أن تحصل على كفايتك من الطعام والدفع .

وهناك عادة فترة قصيرة بين التخلص من المعتدلين وبين ظهور الارهاب بشكل كامل . فأجهزة الارهاب ، على الرغم من تجمعها على عجل ، لا يمكن أن تتجمع بين عشية وضحاها . ورغم أن الثورة في أيامها الأولى كان لها نصيب من العنف ، فقد كانت تتخللها فترات من السلام

الظاهرى خلال اوقات الصراع بين المعتدلين والمتطرفين . ولا يصل ضغط الأعداء الخارجيين وحلفائهم المهاجرين مباشرة الى أقصى حدود قوته . ومع ذلك فبمرور الأيام تأخذ القوى الممهدة للإرهاب فى العمل بأقصى طاقاتها .

وقد وصفنا بايجاز فى هذا الفصل ظهور المتطرفين وحاولنا أن نحلل أسباب انتصارهم . وقد سرنا معهم الى حيث استغلوا كل الخلافات الهامة بين الجماعات ، ودعموا موقفهم باقامة نظام مركزى للحكومة . وخلال الشهور القليلة التالية أو خلال سنة أو نحوها ، يستطيع المتطرفون أن يسيروا فى تطرفهم كما يشاءون . فلا أحد يجرؤ على تحديهم . ثم وصلنا الى تلك الفترة الحرجة فى حمى الثورة التى يطلق عليها الناس عادة حكم الإرهاب . وهذا الموضوع البالغ الأهمية يجب أن يعالج فى فصل منفصل .





# الفصل السابع

## عهد الإرهاب والفضيلة

### ١ - انحراف الإرهاب :

« ٨ أغسطس ١٧٧٥ . أخذ قطاع الطرق رجلا من نيوملفورد كونيتكت - وهو من المحافظين الذين لا رجاء في اصلاحهم ، وكان قد وصفهم بأنهم من الثوار الملعونين ، الخ ، وأجبروه على السير أمامهم الى لتشفيلد ، وهى تبعد عشرين ميلا ، حاملا احدى أوزاته طول الطريق في يده . وحينما وصلوا الى هناك لظخوه « بالزفت » وأمره بنزع ريش أوزته ، ثم وضعوا الريش عليه ، وطرده خارج القاعة واضطروه أن يركع على ركبته ويشكرهم لتسامحهم . وكذلك أعد يعاقبه روديز في جنوب فرنسا قائمة بأسماء « الكلاب اللعينة من النبلاء » وبأسماء غير الجديرين بشوارب الرجال ، وهى الرمز الجديد للوطنية ، والرجولة الجمهورية ، والاستقامة . ثم أمروا لجنة المراقبة بالقبض على أى شخص من هؤلاء يجرؤ على اظهار شارب وانتزاع لحيته وشاربه ، « وبأن تكون حريصة على أن تتم العملية دون صابون وبأسوا موسى يمكن الحصول عليها » . ويبدو أن حلقة الذقن من العمليات التى تفوق اجراءات الزينة العادية فى الأهمية لأنه فى ٣ أكتوبر ١٧٧٥ حدث أن اجتمع أبناء الحرية بنيويورك فى مؤتمر هام ، وصمموا على « شكر مستر جاكوب فريدنبرج ، الحلاق ، لسلوكه الحازم الوطنى حيث رفض اتمام العملية التى يطلق عليها العامة حلقة الذقن وكان قد بدأها على وجه الكابتن جون كروز ، قائد احدى سفن نقل صاحب الجلالة . . . ومن المرغوب فيه أن يحتذى كل الحلاقين هذا المثال الحكيم ، الحذر ، الهام » .

والتفاصيل الصغيرة غير الخطيرة مهمة ، لأنها تساعدنا على معرفة مدى عوج حكم الإرهاب . فالأمر لا يقتصر على مسرحية المقصلة وفرقة الرمى بالرصاص أو الصراع الشديد من أجل الحكم بين قادة النظام الجديد ، أو التوتر الناشئ عن الحرب الأهلية أو الخارجية ، بل يمتد أيضا الى مأساة آلاف الأرواح الصغيرة التى غزتها المسائل البطولية

التي لا تعنيها — من وجهة النظر العادية — على الاطلاق . فالارهاب يمس الكبار والصغار بما للبدعة من قوة شريرة ، وهو قلما يأخذ الرجال للصالح العام ، الا اذا كانوا بحكم عملهم متفرغين لدراسة السياسة او ممارستها . وخلال عهد الارهاب أصبحت السياسة أمرا لا مفر منه ولازمة لجون جونس أو جاك دييون أو ايفان ايفانوفتش لزوم الطعام والشراب ، والزوجة أو الخلية ، والعمل والطقس . فاللامبالاة السياسية التي هي قوام الدولة الحديثة تصبح مستحيلة حتى بالنسبة لأشد الناس أنانية وأكثرهم عزوفا عن الدنيا .

وهذه المشاركة في الأشباه العامة ، في مسرحية الدولة الثائرة ، تعنى أشياء مختلفة بالنسبة لمن يجوز أن نسميهم بالمراقبين من الخارج ولن يصح أن نسميهم بالمراقبين من الداخل . والتعارض هنا أمر ملائم جدا . فمما لا شك فيه أن هناك تدرجات غير محسوسة ابتداء من المتطرف الثورى المتحمس — ايفاريسست جاملان الذى صوره بمهارة اناتول فرانس في « الآلهة عطشى » مثلا — الى الوسط الحياذى الذى لا لون له الى المعادين للثورة من المضغوط عليهم . ولكن فى الخطوط العريضة فان الفضل بين الكثرة ممن هم خارج العقيدة الثورية وبين القلة من جماعات المؤمنين « المستقيمين » فى النظام الجديد أمر جدير بالذكر . ولنبداً النظر أولا الى الارهاب من حيث تأثيره على حياة المراقب من الخارج .

## ٢ — الارهاب والمراقب من الخارج :

هذا المراقب العادى من الخارج ليس هو الشخص المعادى بطريقة فعالة ، الهارب فى الحقيقة أو ، كما يطلق عليه الفرنسيون حاليا ، الهارب روحيا ، الهارب بروحه ان لم يكن بجسمه الى بعيد . فليس هو المعتدل الذى خاب أمه . وانما هو الرجل الذى يكون معظم المجتمعات الحديثة ، الرجل الذى يتقبل بوجه عام ما يفعله الآخرون فى ميدان السياسة هو الرجل الذى سرعان ما يلحق بالركب . وفى فترة

التأزم بصفة خاصة تكون الثورة قاسية جدا على هذا المراقب من الخارج .  
فهى قد تمده بعدد معين من المظاهر فى شكل احتفالات متنوعة للعقائد الثورية  
الجديدة — كالاتعراضات ، وأشجار الحرية ، وما الى ذلك . ولكن  
من المؤكد أن هناك فى الثورة الفرنسية دلائل كثيرة على أن المراقبين من  
الخارج سرعان ما أجهدهم ذلك جدا ، وأنهم وجدوا على المدى الطويل  
أن الاحتفالات الكاثوليكية القديمة اقرب الى مشاربهم . وأن المرء ليتساءل  
ان كان الناس قد سئموا الاحتفالات التى يبدو أن ستالين كان يجيد  
اقامتها . ومن ناحية أخرى ، فليس من شك فى أن ثوارنا الحديثين يديرون  
المسرح بمهارة أكثر من سابقهم ، ولا شك أن نماذج ثوراتنا ليست  
متماثلة تماما .

ويبدو أن الجنون الثورى بتغيير الأسماء يميل الى أن يصيب المراقب  
الخارجى بالارتباك والغضب . وقد قصر الانجليز جهودهم الى حد بعيد  
على أسماء الأشخاص ، وحصلوا على نتائج هامة . فلم تعد غريبة  
علينا جميعا أسماء مثل Praise God Barebone ( بربون حمد الله )  
وفورتيكىش وليمز الواثق بالمسيح واللاجئ اليه Put thy Just in Christ  
أما اسم وليمز ابن السفاح فقد كان أكثر أسطورة . أما البيوريتان  
( المتطهرون ) فقد استمدوا من الانجيل ومن التجريدات الانجيلية كلمات  
الايمان والحذر والاحسان وما اليها ، أما الفرنسيون فقد استمدوا  
اسماءهم من الأيام الفضيلة عند الجمهوريين من الرومان ومن تجريدات  
فلاسفة عهد الاستنارة ، ومن قادتهم وشهادتهم . فقد أصبح بابيف ،  
المبشر بالاشتراكية ، جراكوس بابيف ، أما كلود هنرى ، كونت سان  
سيمون ، فقد احتفظ كل منهما بأسمائه الأولى ولكنه الصق بنفسه  
اسم قديس فأصبح كلود هنرى بونوم . واصحاب الحظ السئ الذين  
كانوا يسمون ليروا ( الملوك ) وجدوا من الأوفق تغيير اسمهم الى لالوا  
( القوانين ) أو شىء وطنى من هذا القبيل . وقد عمد أحد اليعاقبة المؤمنين  
طفله باسم جمهورى . ومع ذلك لم يقف الفرنسيون عند حد الأشخاص .  
فأسماء الشوارع تغيرت ، فميدان لويس الخامس عشر أصبح اسمه  
ميدان الثورة ، وشوارع التاج أصبح اسمه شارع الأمة . وقد أصاب

أسماء الأماكن تغييرات بالجملة لا بد أنها أضافت الى متاعب فترة الحرب اعباء جديدة بالنسبة للخدمة البريدية . ومعظم القديسين سقطت أسماؤهم . وهذا وحده أدى الى كثير من المتاعب . وليون ، حينما أخطأت في حق الثورة بانحيازها الى الفيدراليين ، أعيدت تسميتها باسم « المدينة المحررة » وذلك حينما استولت عليها قوات « المؤتمر » . والهافر أصبحت هافر — مارا . وعند التحية استبدلت كلمة « مواطن » بالسيد . ولفترة ما كانت كلمة « ملك » من المحرمات بشكل واضح مثل المحرمات التي يدرسها عالم الأجناس ، وحذفت بشكل حقيقى عند الكتاب الكلاسيكين مثل راسين . وكانت هناك محاولة ، لعلها جادة ، وعلها صحفية ، لتغيير اسم « ملكة النحل » الى النحلة « النحلة التى تبيض » .

ولتغيير كل شئ من الماضى البغيض ، قرر الثوار الفرنسيون أن يغيروا التقويم وأن يزيلوا أسماء مثل يناير الذى كان يذكرهم بالاله الرومانى الشرير القديم حانوس أو يوليو الذى كان يذكرهم بالطاغية الرومانى الأشد ميلا الى الشر ، يوليوس قيصر . ولذلك أدخلوا اثنى عشر شهرا جديدا ، وأسماؤها ، بالفرنسية العذبة ، بأسماء الأعمال الرائعة للطبيعة — مجرمينال ، شهر البذور ، وفريكتيدور ، شهر اليضوج ، وبرومير ، شهر الضباب . وعلى الرغم من أن الفرنسيين كانوا يفاخرون بعالية أهدافهم ومبادئهم ، لم يبالوا على ما يبدو بذلك التحديد الضيق لتقويمهم الجديد وقصره على الأحوال الجوية الفرنسية . فالتقويم بالطبع لا يتلاءم مع استراليا ولا وسط أمريكا الغربى .

والروسيون ، الى جانب ولعهم بأسماء الحرب الثورية والشخصية ، أصبحوا أشد ولعا بتغيير أسماء الأماكن ، وعلى عكس الفرنسيين ، قد جعلوها الى الآن تلصق بالذهن طالما أن هذه الأسماء للصالحين من أنصار ستالين . فكاترين العظيمة ، بوجه خاص ، لها أعمال مجيدة مثل الاسكندر الأكبر ، ولكنها اختفت مع ذلك من روسيا السوفيتية ، فاسم اكاتيرينودار ، أصبح كرازنودار واکاتيرينبرج أصبح سفيردلفسك واکاتيرينوسلاف أصبح دنبرويتروفسك . كما أن نيزنى ذوفجودود المألوفة ، أصبحت لنقص في

موسيقية اللفظ ، جوركى . وقد فعل ستالين لنفسه خير ما يفعل رجل في حياته. ولعل ستالين اباد أعجب ما في أسماء المدن الستالينية ، ولكن اكثر الأمور دلالة هو بلا شك تغيير تساريتزين الى ستالينجراد وهو ليس المكان الوحيد الذى غير فيه ستالين اسم قيصر . ولعل دورها في الحرب الأخيرة قد ثبت اسم ستالينجراد ضد أى شئ ، ولكنه تغيير ثورى بشكل لا يتصور أصاب هذه الأسماء كلها بما فيها ستالينجراد نفسها التغيير بعد وفاة ستالين وبدء خروشوف لكشف أخطائه . ومنذ قديم حلت كلمة « رفيق » في العرف الاشتراكى محل « مواطن » في الثورة الفرنسية . والأطفال ، كذلك ، أطلقت عليهم أسماء مناسبة لأيامهم . وفلاديلين ، وهو اسم ناتج عن تداخل فلاديمير ولينين ، هو أحد الأسماء غير الملائمة للروسى القديم .

وواضح أن هذا التغيير في الأسماء أحد التماثلات التى يمكن أن نعددها في كل ثوراتنا . حتى الثور الأمريكية المعتدلة اندفعت الى شئ من هذا التغيير للأسماء . فقد حلت بوسطون محل شارع الملك ، كما أن شارع الملكة حل محله أسماء مثل الاتحاد والدولة ، وهى أسماء تتناسب تماما مع النظام الجديد ، ولكن لسبب أو لآخر لا يزال اسم شارع هانوفر الكريه مستعملا . وهناك حشرة ضارة تعرف باسم هسيان الذى أطلق عليها في أيام الثورة ، وهناك نوع من فروع هذه الحشرة لا يزال معروفا في بعض أجزاء الجنوب باسم حشرة لنكونلن للتذكير بهذه الحقيقة وهى أن ما نسميه بالحرب الأهلية كان في الأساس ثورة فاشلة .

ولا حاجة بنا لأن نشغل أنفسنا كثيرا بتفسير هذا الاندفاع الى تغيير الأسماء . فالأسماء ترتبط في ذهن البدائين بالسحر ، ونحن في حالة تذكير دائم في هذه الأيام بقربنا من البدائين . غير الاسم بتغيير الشئ . وهذا كله بسيط غاية البساطة . فالذى يعنينا هنا بوجه خاص هو تأثير هذا التغيير في الأسماء على المراقب من الخارج ، ونستطيع أن نؤمن بطريقة معقولة أنه يمدنا بمثال لنوع الأشياء التى بدأت تحدث تأثيرها فيه . والثورة في الأسماء أمر من التفاهة بكان . ولكن جون جونز يرى أن الحياة مجموعة من الأمور التفاهة ، وليس بالذى

يتحمل مجموعة كاملة من التغييرات في التفاصيل التافهة التي صنعت منها عاداته .

وهناك أيضا ، بالطبع ، التوتر الناشئ عن المعيشة في ظل ذلك النوع من الحكومات الذي وصفناه في الفصل السابق بأنه حكومة الارهاب . فحتى أكثر الأشخاص تواضعا ، وأقلهم اكتراثا بالسياسة لا يستطيع أن يعرف متى يحل الأذى به أو بأهل بيته ، ومتى يساق الى المحكمة على أنه عدو طبقي أو مناهض للثورة . والدراسة التفصيلية لهذا التهديد المستمر وهذا الحضور للحكومة في كل مكان وبالنسبة لكل فرد لا يمكن أن تقوم بها هنا . ومع ذلك فسوف نذكر بايجاز وجهين يؤثران بصفة خاصة على المراقب الخارجى .

أولا — كما سنرى بعد قليل من وجهة نظر المراقب من الداخل — ان هذه الثورات تتميز في غترات تأزمها — بلا شك — بأنها بيوريتانية ( متطهرة ) أو هي تتميز بالزهد والتقشف أو — لكى نستعمل لفظا أكثر انتشارا — مثالية . فهناك محاولة جدية من القائمين على السلطة لاستئصال الرذائل الصغرى أو ما قد يميل البعض الى أن يطلقوا عليه اسم الملذات الكبرى . وقد اعتاد معظم الأمريكيين ما حاول القديسون في إنجلترا ان يفعلوه في القرن السابع عشر ، نظرا لأحداث في نيوانجلند . ولكن الأمريكيين ، الذين يبالغون دائما في شدة ميل الفرنسيين للملذات الحسية ، قد لا يكونون ملمين بهذه الواقعة وهي أنه في « السنوات » ٩٣ ، ٩٤ كانت هناك محاولة جدية لتطهير باريس ، ولاغلاق بيوت الدعارة ، ونوادى الميسر ، ولتحريم الخمر . وكانت الفضيلة هي طابع العصر . وما كان للكسول مكان فيها . اذ لا بد أن يبلغ أحد اليعاقبة النادى منه مقترحا ضمه للجيش ليشفى من الكسل الضار بالجمهورية . وقد تبدو بيوريتانية البلاشفة أكثر تناقضا ، ولكنها وجدت كل تأكيد ، وسوف نعود بعد قليل الى النظر فيها .

ليس ثمة شك الآن في أن العالم الأفضل الذى نتطلع اليه جميعا

بقدر ما سوف لا يكون فيه مجال للخمر ، والعهر ، والميسر ، والكسل ،  
والعجرفة ومجموعة كاملة من الأشياء التي نستنكرها . ولكن لا يمكن كذلك  
أن ينكر أنه على هذه الأرض في هذه الأيام والأيام السالفة ، كان عدد  
كبير من الناس منكبين على واحدة أو أكثر من هذه الأشياء ناظرين إليها —  
ليس دائما بوعى عن طريق العقل — على أنها تعويضات لا زمة للكسل  
أو نواحي النقص الأخرى في حياتهم اليومية . ويجب مرة أخرى أن نذكر  
انفسنا بأننا لانبحث في مسائل أخلاقية ، لا نمدح ولا نذم ، ولكننا نحاول  
أن نرتب الوقائع بنظام منيد : فإن محاولة المتطرفين إقامة نوع من الحياة  
خلو من الرذائل العادية خلال فترة قصيرة أمر شاق بالنسبة للمراقب  
من الخارج من العسير عليه ، أو عليها ، أن يطيقه .

وليس في المحذور على المراقب من الخارج أن يحظى بما قد يعتقده  
متعة مشروعة فحسب ، بل إن السلطات الجديدة لن تتركه وشأنه .  
فالثورات قاسية جدا في الواقع فيما يتعلق بالأمور الخاصة . ويقول جوركي  
أن « لينين منع الناس من أن يحيوا حياتهم التي اعتادوها وهو ما لم يفعله  
انسان من قبل » . ولا شك في أن هذه مبالغة خطابية ، ولكن الانسان  
يستطيع أن يرى ما يقصد اليه جوركي . ولما كان لدى الناس نوع من  
التصور الذاتي في اتجاه ممارسة « حياتهم التي اعتادوها » ، فقد  
نستطيع أن نفهم بطريقة أفضل لماذا أثبت ستالين ، أكثر من تروتسكي ،  
أنه خليفة لينين . وفي فترة التأزم تعمل الثورة على أن تطارد جون جونز  
في كل ما يفعل . ففى الثورة نرى أنه حتى النميمة العادية ، والوشااية  
والضغائن الشائعة في الحياة الاجتماعية العادية تتجسم الى حد يفوق  
ما يحتمله الانسان . فاليعقوبيون وبخاصة في الأقاليم ، كانوا شغوفين بأن  
يلتقطوا أى كلمة تدور على السنة الناس تظهر الحاجة الى نوع من  
الاصلاح . فالمواطن « و » عليه أن يحتفظ بقلبه متيدا ، والمواطن « س »  
عليه أن يتزوج الفتاة « أ » والمواطن « ي » عليه أن يحذر من  
الانفعال ، والمواطن « ز » الغنى عليه أن يوافق على زواج ابنته من  
يعقوبى فقير لأنه شاب فاضل وعلى علاقة طيبة بالنادى . قد يتوقع الانسان  
مثل هذه الأشياء من عائلته وأصدقائه ، ولكن ليس من الحكومة ، حتى في

الدولة الدكتاتورية . وللأسان مثل مهدى : « الحساء لا يؤكل أبدا ساخنا كما يكون عند طهيه » . ولكن من المؤكد أنه في فترة التأزم للثورات تكون هناك محاولة لأرغام المواطن العادى على ابتلاع الاشياء ساخنة . وبمرور الأيام لا يطبق ذلك ويتعلم طهاته أن يتركوا الحساء ليبرد قليلا . ولكن هذا لا يكون الا في فترة النقاهاة من الحمى الثورية . فاذا ما حيل بينه وبين لذاته — ورذائله المعتادة ، واذا ما أرغم على أن يحارب ، او على الأقل أن يهتف طويلا ، وعاليا ، وبشكل واضح للدولة الثائرة في صراعها مع الأعداء الخارجيين والأهليين ، معرضا نفسه للحرمان والالام الناجمة عن الحرب ، وعدم كفاية الحكومة الجديدة ، مدفوعا الى « قمة الظروف الثورية » ، في كل الحالات ، في الصحافة ، والمسرح والمنبر ، والمنصة ، واثارة الجماهير ، ونوق هذا كله متورطا بشكل لا مفر منه في حالة الاضطراب العصبى الشائعة والتي تتسم بها فترة التأزم ، فان جون جونز اى الانسان العادى ، عاجلا أو آجلا ، ان هذه القيود غير محتملة ، ويصبح على استعداد لأن يرحب بأى فرد يستطيع أن يطرد المتطرفين .

وقد لا يكون أحد هذه القيود في حد ذاته غير محتمل ، رغم أنه قد يكون هناك نوع من درجة التشبع في الدعاية السياسية الموجهة على نطاق واسع والتي بعدها تصبح مثل هذه الدعاية غير محتملة . ولعلنا نأمل في أن نستفيد أكثر في هذه الناحية من تجربة الدكتاتوريات المعاصرة . فقد يمل الناس ايفا بيرون حتى الأرجنتين ، وعلى اية حال يبدو أن المراقب من الخارج في ثوراتنا يضيق ذرعا بهذه الأنواع من الضغوط التي تهدف الى غرض واحد والتي ذكرناها آتفا .

### ٣ — الارهاب والمراقب من الداخل :

التشابه الدينى تبدو الثورة للمراقب من الداخل ، للغرض الحقيقى كشيء مختلف تماما في هذه الفترة الحرجة ، على رغم ما قد يظنه المرء من أن بعض المراقبين من الداخل ممن هم اقل حماسا يكاد ينطبق عليهم



ما قيل بالنسبة للمراقبين من الخارج . فالثورة تبدأ فتأخذ الكثير منه ، ويتولد لديه التردد والشك ، ويضيق بالحفلات التي لا تنتهى ، والوفود ، واللجان ، والمحاكم وأعمال الميليشيا ، والواجبات الأخرى اللازمة لاقترار حكم الفضيلة على الأرض . فهو ، أيضا ، يصبح مراقبا من الخارج . وهكذا يجب أن يكون أملنا عظيما في تلك الأيام التي تشتد فيها السياسة جدا بالنسبة لكل فرد . ولكن المخلص الصادق يظل حتى النهاية ، الى الإعدام ، الى المقصلة ، الى فرقة الرمي بالرصاص او النفى .

والآن فان هذا المراقب من الداخل ، فيما يبدو ، يجد في خدمته المخلصة للثورة معظم أوجه الرضا النفسانى الذى يمدنا به عادة ما نطلق عليه اسم الدين . وكثيرا ما أقيم التشبيه بالدين . ولم يقتصر استخدام هذا التشبيه على الثورة الانجليزية حيث لا نزاع في صلاحيته فحسب ، بل استخدم أيضا في الثورتين الفرنسية والروسية . فمنذ أن كان اليعاقبة والبلاشفة معادين بشدة للمسيحية ، وكانوا يفاخرون بكونهم لا دينيين أو على الأقل منكرين للوحى والأنظمة الدينية ، فان هذا التشبيه أساء كثيرا الى المسيحيين وأعدائهم على السواء . وبالنسبة للماركسى بوجه خاص فان القول بأن سلوكه يشبه سلوك المتدينين يثير غضبه . وللماركسى الحق في غضبه لأن العبارة الشائعة « أوه ، ان الشيوعيين ليسوا الا شيعة اخرى متعصبة » كثيرا ما يقولها المحافظون والسطحيون كماخذ وكسبب للاستبعاد في آن واحد . والواقع انه في وسع المرء على أساس التجربة السابقة أن يقول ان من الممكن الاستعانة بكثير من الناس لأداء أشياء هامة جدا من النوع الذى يريد الشيوعيون أداءه تحت تأثير ما نسميه الدين ، أى بعض نماذج من العاطف التي تتشابه كثيرا أو قليلا ، والمثل الأخلاقية والطقوس العملية . فالماركسية كدين قد حققت الشيء الكثير ، أما الماركسية « كنظرية علمية » فقط فلم تصل الى أبعد من « رأس المال » والصحف .

ولكن النزاع الذى أشرنا اليه آنفا لا ينتهى ، ولسنا من التهور بحيث ندعى أننا نستطيع أن نحسمه . فالذين يستخدمون لفظ « الدين » في هذه

المناسبة بيدون لنا كمن يحاول أن يصف ظاهرة من عالم التجربة الحسية ، ظاهرة تحتاج الى أن تكتمل بظواهر أخرى للثورات . فمن الثابت حقا أن هذا الاستعمال يثير — ظاهريا — في كثير من الأشخاص انفعالات غير ملائمة للدراسة الموضوعية المتصلة بالموضوع . فأى فرد يستطيع أن يقترح لفظا محايدا يشير بدقة الى نفس الظاهرة التي تشير اليها كلمة « الدين » يكون قد أدى خدمة جليلة لعلم الاجتماع . ولما كان مثل هذا اللفظ لا يوجد حاليا ، فاننا سوف نستمر في استعمال كلمة « الدين » . ويجب أن نصر على أن هذه الكلمة لا تشير بالضرورة الى شريعة الهيئة رسمية كالمسيحية ، وفوق هذا كله أنها لا تتضمن بالضرورة الاعتقاد فيما هو « فوق الطبيعة » . ولكن نأخذها باعتبار أن أهم شيء عن العقيدة الدينية في هذا التحليل هو أن الناس تحت تأثيرها يعملون عملا شاقا جدا وبشكل جماعى كى يحققوا هنا أو هناك مثلا أعلى ، نمطا من الحياة ليس متحققا في الوقت الحاضر بشكل كلى أو حتى على نطاق واسع . فالمحاولات الدينية التى تسعى — فى سبيل تحقيق الآمال الانسانية — الى سد الثغرة بين ما عليه الناس وبين ما قد يرغبون فى أن يكونوا عليه ، على الأقل فى صورته الشابة ، النضرة النشيطة ، لن تسلم لفترة ما من ان مثل هذه الثغرة يمكن أن تستمر طويلا .

على أن تميز عنصر الدين فى السلوك المتطرف المتحمس ليس معناه أن ننكر وجود الدوافع الاقتصادية . وفى الحق يمكننا فى هذه المرحلة أن نلاحظ بعض الأوجه الحادة للصراع بين الطبقات ، ذلك الصراع الذى يعتبر أحد التماثلات والتشابهات التى يمكننا أن نعتبرها قائمة بوضوح — وأيا كان مكان الصراع الاقتصادى بين الطبقات فى الأيام السابقة تماما للثورة — وهو فى ثورتنا الأربع يأخذ أشكالا متغيرة يمكن اجمالها بشكل كاف فى عبارات مثل « النبلاء الاقطاعيون » ، « الطبقة المتوسطة » ، « الطبقة العاملة » — فان الثورة اذا سارت فى طريقها نجد أن هذا الصراع بين الطبقات يصبح له على الأقل وجه واحد مشترك فى كل من المجتمعات الأربعة . فملكية الكثير ، ان لم يكن الاغلب من تلك الأحزاب

السافرة العنيدة والتي هي بعينها الأحزاب المهزومة تصادر لصالح الأحزاب الناجحة التي هي بعينها « الشعب » . وأكثر من هذا فان الجماعات المعتدلة المختلفة التي هزمت تصادر أملاكها أيضا بنفس الطريقة .

ففى الثورة الانجليزية فقد المليون جزءا كبيرا من ملكياتهم ، ومعظمها فى الأرض ، وعلى الرغم من أن عامة البروسبيطاريين لم يكونوا — عادة — خاضعين لمصادرة ملكيتهم ما لم يكونوا — بشكل فعال — فى الجانب الخاطئ سياسيا ، فلقد كان هناك عدد كبير من البروسبيطاريين الموسرين ، وعدد آخر من رجال الدين غير المقبولين جردوا من مصادر عيشهم . فلورانس واشنجتن ، وهو من رجال الكنيسة ، و والد جوف أوف فيرجينيا ، ومن سلالة جورج المباشرة ، قد « نهب » — كما كان يقال فى عام ١٦٤٣ — لأنه اشيع عنه أنه قال أن الجيش البرلمانى كان يضم عددا من البابويين أكثر ممن كانوا حول الملك . ومعنى هذا أنه حرم من مقومات معاشه . ولسنا حاجة لأن نذكر أنفسنا بأن ممتلكات الموالين للملك قد صودرت خلال الثورة الأمريكية . والحق أن ج. ف. جيمسون انتهى الى أن الثورة الأمريكية أحدثت — بطريقة هادئة ، على الأقل بالنسبة للثورات — خلال سيرها كله تأثيرا ديمقراطيا محسوسا ، أو أحدثت مثل هذا التأثير أثناء انتشارها فى وحدات أصغر ، فيما يتعلق بنظام الملكيات . وفى كل من فرنسا وروسيا شاهدت الثورة مصادرة الأرض أولا ، ولكن حتى فى فرنسا صودر الى حد ما رأس المال ، واعادة توزيعها جميعا . ولسنا فى حاجة الى أن نذكر هنا بالتفصيل مشاكل الزراعة وما يتعلق بها . ويكفى أن نذكر أن كثيرين ممن وصلوا الى القمة فى فترة التأزم سواء من الزعماء أو الأتباع ، كان لديهم من الأسباب ما يبعث فيهم الأمل على أنهم يبقائهم فى القمة سوف يكون وضعهم الاقتصادى ، بطريقة مستمرة خيرا مما كان عليه . وهذا صحيح بغض النظر عما كانت تقوله النظريات أو المثل العليا ، أو ما كانت الحرية الاقتصادية أو الاشتراكية ، تنوى أن تفعله فيما يتعلق بالتوزيع الجديد .

ولكن رغم وجوب الاعتراف بالدافع الاقتصادى ، وبالاتجاه الى

المركزية لصد الهجمات من الداخل والخارج ، فان الصورة التى تتكون لدينا تكون ناقصة ما لم ندخل فى اعتبارنا تلك العناصر التى لا مفر من تسميتها دينية . فمن ناحية لأن العناصر الاقتصادية والسياسية بمعناها الاصطلاحى صارت مألوفة لأغلب الناس فى هذه الأيام ، ومن ناحية أخرى لأن هذه العناصر الدينية — أو — على أية حال — السيكلوجية تبدو من أهم العوامل التى نوليها اهتماما كبيرا . وهى تبدو من أهم العوامل لأن وجودها بشكل حاد من شأنه أن يعطى العناصر السياسية والاقتصادية طابعا مختلفا أثناء الصراع التى غالبا ما تحدث من تلقاء نفسها بشكل مشابه جدا بل وحتى بشدة مشابهة نوعا ما فى المواقف التى لا نطلق عليها عادة اسم الثورية . ومن الحقيقى كذلك أنه أثناء نمو حركة ويسلى فى إنجلترا فى القرن الثامن عشر ، مثلا — فى أوقات لا يمكن تسميتها بالثورية — يجد المرء سلوكا دينيا نشيطا بين أعداد كبيرة من الناس ، سلوكا يشبه من وجوه كثيرة ذلك الذى سوف نقوم بتحليله فى المراقب الثورى من الداخل . ولكن حركة ويسلى كانت من الناحية السياسية محافظة بوجه عام ، وليست موجهة الى نظام اجتماعى وسياسى معين . والأمر كله ، فى الواقع ، فى الثورات الثلاث التى نحن بصدد تحليلها هو أن الحماس الدينى ، والتنظيم ، والطقوس تبدو ، مرتبطة دون انفصام بالأهداف الاقتصادية والسياسية ، وببرامج تغيير « الأشياء » ، وليس مجرد تغيير « الناس » .

ويبدو أن المراقبين من الداخل فى ثوراتنا الثلاث الكاملة والى حد ما فى الثورة الرابعة وهى الثورة الأمريكية ، أرادوا أن يدخلوا على حياة الانسان فى الأرض بعض الترتيب ، والنظام ، والاحتقار للرزائل السهلة ، تلك الأشياء التى حاول اتباع كالفن أن يضعوها هناك . والحق أن ثورتنا الأولى ، وهى الثورة الانجليزية ، يطلق عليها عادة اسم الثورة الكفينية أو البيوريتانية . وهنا قد نتوقع معارضة من الشيوعيين ، وتوكيدا شديدا بأن ماركس وضع مثل هذا الضعف المسيحى كرجبة لاخضاع الضعف الانسانى وراءه ، وأن أتباعه ينادون بوفرة الطعام والشراب ، والأشياء الطيبة الأخرى لكل فرد . وسوف نعود الى هذه المسألة حالا .

وفي نفس الوقت يمكننا أن نبدأ في مشاهدة اتجاه تقشفي منتظر في الشيوعية إذا تأملنا كيف أن الشيوعيين الصالحين يرتفعون فوق شعار « الخمر والنساء والغناء لكل مرد » .

أما أن البيوريتان كانوا الى حد ما متمسكين بأصول الدين فقد نأخذ هذا الادعاء على أنه معقول رغم الميل في عصرنا هذا الى الاهتمام بمعاني الألفاظ . ولا يستطيع حتى الأمريكيين المحافظين المعاصرين أن يقنعونا بأن البيوريتان كانوا متحررين شهوانيين . أما فيما يتعلق باليعاقبة ، فان تشريعهم وفوق ذلك تنظيمهم العادي في ١٧٩٣ — ١٧٩٤ كان يتضمن وجوه شبه ملقطة للنظر مع نوع الأشياء التي حاول البيوريتان الانجليز أن يدخلوها . فاليعاقبة كانوا — أساسا — ضد الميسر والسكر والشذوذ الجنسي بكل أنواعه والفقر المدقع ، والبلادة والسرقة وبالطبع ، كل أنواع الجرائم . وفي الواقع شعروا بحرية في توكيد الامتناع عن هذه الرذائل والاصرار على تنفيذ الجوانب والأعمال الايجابية للفضيلة — مثل بيع البضائع دائما بالسعر المقرر المشروع ، حتى ولو بدا أن تهريب المسكرات شيء مأمون تماما ، وحضور الاحتفالات تعظيما للكائن الأعظم ، والتعبير علنا عن الفكرة القائلة بأن وليم بت كان شريرا فاسدا وأن الأمة الانجليزية مجموعة من العبيد الذين يثيرون الشفقة . ولقد حاولوا أن يؤكدوا هذا المنهج في العمل بأن يجعلوا كل انسان رقيقا على نفسه ، وفي خدمة الله ، وكثيرا مما قيل انه طبق عند كلن في جنيف .

وكان الذين يقومون — أساسا — بالرقابة هم أعضاء النوادي المحلية وكان القادة المحليون يدفعونهم الى العمل ، تماما كما كان بيوريتان يفعلون مع القسس في الأقاليم يساعدهم رجال الكنيسة النشيطين من المسنين . وأكثر الأمور منافاة للكرامة ، والتي تبدو بصورة واضحة تافهة جدا ، قد تؤدي في هذه الظروف الى غلق الكنيسة او الجمعية . وأول انشقاق في الكنيسة الانجليزية الانفصالية بأمرستردام — كما علمنا — لم ينشأ حول نقطة مذهبية او الطقوس ، وانما حول الرباط الذي كانت تضعه مسز فرانسيس جونسون حول ذراعها . ويستطيع المرء أن

يجد كثيرا من هذه التصرفات في سلوك اليعاقبة . فقد كانت هناك مناقشة حامية في احد نوادي نورماندى الصغيرة حول موضوع ما اذا كان المواطن الدكتور س يطيل في تأدية واجبات مهنته بالنسبة للأرستقراطيين ويختصرها بالنسبة للوطنيين . والضجة الكبيرة في بورجوان حينما اعلن للسكرتير أنه سوف لا يرتدى قبعة الحرية ذات اللون الأحمر لأنها غير لائقة به . لقد اثار هذا الغرور الفظيع الذى يتنافى مع الوظيفة كل كوامن الغضب عند الجمهوريين الفضلاء في بورجوان وكان السكرتير موقفا في أن نجا بحياته .

أما اهمال الثوار الروس للأمور الروحية فانه يخلق مشكلة ظاهرة أكثر منها مهمة أو حتى واقعية . فمن الحقيقى تماما أن الشيوعية الحديثة ، « من الناحية الفلسفية » تقوم على أساس من المادية ، وأنها تنكر خلود الروح بل وجود الروح ، وأنها تصر على أن الناس يجب أن يكونوا سعداء هنا على الأرض ، متمتعين بالأشياء الطيبة على هذه الأرض . ولكن من المؤكد أن الأمر الأكثر أهمية اذا أردت أن تفهم مشاكل الناس في المجتمع هو أن تعرف ماذا يفعل هؤلاء الناس ، وكيف يسلكون ، كما يجب أن تعرف ماذا يقولون على الورق أو على المنبر أنهم فاعلوه أو يريدون أن يفعلوه أو ينبغي أن يفعلوه . ومن الحقيقى تماما أيضا أن الشيوعيين ، والعاطفين عليهم وأخوة اليسار بوجه عام في هذا البلد ( امريكا ) يميلون الى أن يكونوا غاضبين بشكل متطرف حينما نحلل سلوكهم على نحو ما نرى أن نحله . وهنا ، كما يحدث غالبا ، لا يدحض الغضب الحجة .

ومن المعروف ان الزعماء البلاشفة كانوا كلهم تقريبا متقشفين لقد كان لينين متقشفا بشكل ملحوظ يحتقر الراحة الاعتيادية ، وكانت مساكنة في الكرملين وهو في أوج قوته أشبه شىء بالثكنات من حيث البساطة . وبعض أقوال لينين تشبه أقوال كلفن كما حلها ماكس فيبير أو حتى مستر ه. تونى : « أحمل معك حسابا صحيحا ومبلغا شريفا من المال ، ودبر شئونك اقتصاديا ، ولا تضع وقتك سدى ،

ولا تسرق والتزم أقصى النظم في العمل » . والحق كانت النعمة السائدة بين القيادة العليا للبلشفية في تلك السنين المبكرة نعمة مقدسة بل وتكاد تكون لجماعة الرهبان . ففى روسيا حيث كان الناس يتضورون جوعا وقد قسا عليهم البرد لدرجة التجمد كان من عدم الحكمة عند القادة أن يظهروا بمظهر أنيق وقد بدت على وجوههم النعمة وطيب المأكل . وكما أن ضغط الحرب ليس تفسيرا كاملا للارهاب ، كذلك ليست الحاجة ولا سياسة الدولة مبررا لتقشف البلاشفة . فقد شعروا ، كما شعر البيوريتان من قبل بأن الرذائل العادية وضعف الكائنات البشرية مما يبعث على النفور ، وان الحياة الطيبة لا يمكن أن تستقيم ما لم تستأصل وجوه الضعف هذه . فمئذ زمن مبكر حرم البلاشفة الشراب الوطنى الفودكا ، وكل السوفيت الأوائل تقريبا اتخذوا خطوات ضد البغاء ، والميسر ، وحياة الليل ، وهكذا . ومن الناحية النظرية فكر البلاشفة في أن النساء ينبغى أن يكن متحررات من القيود الصارخة التى قيدتهن بها القوانين البورجوازية : ومن هنا كانت الحرية التى سمح بها في أوج الثورة في روسيا فيما يتعلق بالزواج ، والطلاق والاجهاض ، ووجوه أخرى للعلاقات العائلية والجنسية . ولكن البلاشفة لم يقصدوا بذلك أن النساء لهن الحرية في أن يسلكن على النحو الذى كانوا متأكدين من أنهن يسلكنه سرا — أو أردن أن يسلكنه — في مجتمع بورجوازي منحل قديم . ولكنهم توقعوا ، على العكس ، أن تسلك نساؤهم كما ينبغى أن يسلكن في مجتمع لا طبقى — وعلى الرغم من غموضه ، فهو قانون صريح جدا .

وحتى في الثلاثينات من ١٩٣٠ ، حينما انتهت مرحلة الازمة في روسيا ، كان هناك عديد ممن طال بهم العمر من أتباع التقشف الصارم من أعضاء الحزب الشيوعى الحقيقى خلال فترة التأزم . ففى كتاب « روسيا السوفيتية » يجاهد سيدنى ديب وزوجته بياتريس بأن لا تقشف في روسيا ، ويستطردان فيشرحان كيف أن الشباب الشيوعى قد تشجع ليعاهد نفسه — ليس بدافع دينى أو سماوى ، على أن تعاطى أى شراب كحولى هو « خرق للقاعدة التى تتطلب الاحتفاظ بالصحة كاملة . » واللهم ، كذلك لا يشجع بتاتا باعتباره غير لائق بالشباب الشيوعى ، لا سيما اذا

تم علانية . « ليس هناك ادب مكشوف يسمح به في الأدب أو في أى صورة من صور الفن . والجاذبية الجنسية الواضحة اقل انتشارا في روسيا منها في أى بلد غربى . ومنذ أن كتب وب وزوجته هذا ، يبدو أن الروم قد خففوا قليلا من هذه القيود . ولكن لا يزال صحيحا أن الصحافة الروسية ليس لها مثيل في صحفنا . ويمكن لروسيا حتى في أيامنا هذه ، أن تبدو للروحيين من ورثة الوبز مكرسة نفسها الفضائل البسيطة .

ولقد كان الروسيون القدماء معروفين بقذارتهم فيما يتعلق بالإماكن العامة — قذرين مثلنا تقريبا نحن الأمريكيين — ولذلك جعل العهد الجديد نقطة من نقط النظام ألا تترك الأوراق والأشياء المهملة ، في الحدائق العامة أو الشوارع أو المحطات . والحق أن أعضاء الحزب الشيوعى نفسه ، وهم دائما قلة مختارة ومنظمة جدا طالبوا لعدة سنوات ، والى حد ما لا يزالون يطالبون ، بممارسة قدر كبير من ضبط النفس ، والاستعداد للعيش ببساطة ، والعمل الشاق ، والسير وفقا لأعلى المستويات الأخلاق الشخصية . وكما هى العادة في مثل هذه الظروف ، وكما رأينا سابقا عند البيوريتان واليعقوبيين ، لم يكن ضبط النفس كائيا في الظاهر ، وظهرت في روسيا كل أنواع الأساليب الرسمية وغير الرسمية في التجسس ، والرقابة ، ومراجعة تصرفات الأفراد ، والإشراف عليهم بأساليب ارهابية . فالشيكا أو البوليس السرى ، كان يعمل على احياء الارهاب الستالينى في ١٩٣٦ — ١٩٣٩ باخلاص تام لو كان هذا الارهاب هو الارهاب البكر المستمد من الدين في فترة التأزم .

ولقد وجدت لفترات طويلة نسييا جماعات منظمة تنظيما دقيقا وتكاد تكون متقشفة تقشفا غير طبيعى من ذلك النوع الذى حاول البيوريتان ، واليعقوبيون والبلاشفة فرضه . فلقد جاهد الاسبرطيون لاقامة شيوعية بطولية لقرون عدة . ولكن هنا النظام بطيء النمو لارتباطه الوثيق بنوع السلوك عند الناس وهو الذى يتغير ببطء جيولوجى . فالثورة لا تستطيع أن تنتج هذا النوع من النظام بين عشية وضحاها ،



وربما كان العنف — والمقصود هنا بالعنف العنف الروحي لا مجرد اراثة الدماء — خلال الارهاب هو بمعنى ما تعويض عن عدم مقدرة المتطرفين على اقتناع اخوانهم العاديين بما يفعلون . فالارهاب يحدد عن الهدف . ومرة أخرى نقول ان وجود شيء من الميل لدى الأفراد الى الاهتمام بشئون جيرانهم الخاصة ربما كان شيئا مفيدا ، اذ انه مما يمزج المجتمعات بعضها ببعض . ولكن هنا ، ايضا ، يجيد الثوار المتحمسون عن الهدف ويجعلون الحياة غير محتملة بالنسبة لجيرانهم .

وهناك آثار لهذا النوع من التقشف المنظم ، هذه الحملة ضد الرذائل العادية ، حتى في الثورة الأمريكية التي لم تكن مرحلة التآزم فيها شديدة شدتها في ثوراتنا الأخرى ، فقد كانت هناك اجراءات تحفظية أساس تبريرها أنها ضرورية لتنفيذ الحرب بطريقة فعالة ضد جورج الثالث . وكانت هناك اجراءات أخرى املتها بوضوح التقاليد الخلقية للطبقة الوسطى من البروتستانت التي استقرت منذ زمن طويل في المستعمرات الوسطى وفي نيوانجلند . ولكن هنا وهناك يلتقى المرء بالنعمة الصادقة للمثالية الثورية . وهاك فقرة جديرة بالذكر لرويسبير .

« ان الألقاب وليدة الحكومات الملكية والتعسفية . وبينما كان موضوع الحرب الحاضرة مع بريطانيا هو التوفيق ، فان القاب صاحب السعادة ، والعزة ... الخ . كان يخضع لها الشعب في أمريكا . ولكن منذ اعلان الاستقلال قطعت المستعمرات صلتها بالملكية الى الأبد ، وأصبحت دولا حرة مستقلة . فيصبح من الضروري اذن أن نستعير اللفظة البسيطة من الحكومات الحرة . ودعنا نترك القاب صاحب السعادة والعزة للخدم المهملين عند ملك طاغية ... بينما نرضى أنفسنا بمراقبة ممثلينا ( النوابيين ) وحكامنا ، وقوادنا الذين هم أثرياء ثراء حقيقيا في السعادة والشرف » .

ولجنة بلتيمور التي « أوصت أهل المقاطعة في أبريل ١٧٧٥ » بعدم تشجيع أو حضور السوق القادم لاتجاهه الى تشجيع سباق الخيل ،

والرهان ، والسكر ، ونواح اخرى من الانحلال « كانت متجاوزة مقتضيات الموقف الضرورية . ومرة أخرى نجد تصويرا دقيقا كتبه احد الوطنيين في كونيكتيكت في يوليو سنة ١٧٧٥ ، قال : « في مساء يوم الأربعاء ، اجتمع نفر من السيدات والرجال في مكان يطلق عليه المزارع الشرقية في كونيكتيكت ، حيث حصلوا على ترفيه غير لازم لهم ، وجعلوا يمرحون مرحا يتجاوز الحد بتناول اكواب من الخمر . ومثل هذا الترفيه من الصعب تبريره لأى ظرف من الظروف ، ولكن في مثل هذا اليوم ، حينما يكون لكل شيء من الأشياء المحيطة بنا وجه تهديدي ، كان من الواجب على كل فرد فيهم أن يظهر نفوره منه كما كان على كل رجل صالح أن يستعمل نفوذه للقضاء عليه » .

فالتطرفون الحقيقيون الناجحون ، اذن ، محاربون ومتعصبون ، ومتشيفون ، قوم يحاولون خلق عالم أفضل . ولا شك أن الكثيرين منهم منافقون ، وصوليون يتزبون بزى المؤمنين . ومما لا شك فيه أن الكثيرين منهم يتصدرون الركب لدوافع أنانية . ومع ذلك فانه من الخيال القول بأنه ، لا يصح أن يسمح للناس بالتوفيق بين مصالحهم وآرائهم . فكم من مخلص متحمس من اتباع روبسبير ، وكم من ساع وراء الحقيقة عند كلفن كان قادرا ، مع ما له من ضمير حى ، على أن يشتري الأرض المصادرة من غير الجمهوريين أو غير المؤمنين . والمتطرفون عندنا أيضا ، كما تدلنا على ذلك أدق تفاصيل حياتهم ، هم في أغلب الأحيان قوم عاديون يضطرون فيما يضطرب فيه عامة الناس من حب وكراهية ، وطموح ، وشك ، وأمل وخوف . فاذا ما انقضت فترة التأزم فانهم فيما عدا القلة الذين يولدون شهداء ، يكونون عن أن يكونوا محاربين ، ومتعصبين ، ومتشيفين .

وتأخذ عقائدهم الثورية مظهر الطقوس المريحة ، وتصبح سلوى وعادة أكثر منها سعيا دائما وراء المثل الأعلى . ولكنهم ، في فترة التأزم ، يكونون فيما يمكن أن نسميه الوجه النشيط للدين . ولنستعرض بايجاز بعض الخصائص الظاهرة لهذا الوجه في مجتمعاتنا الثلاثة .

والكفينية ، واليعقوبية ، والماركسية كلها قدرية متشددة . فكلها تعتقد أن ما يحدث هنا على الأرض مقدر ، ومحكوم عليه أن يتبع سبيلا لا يستطيع أى كائن بشرى أن يغيره ، أو على الأقل لا يستطيع أولئك الذين يعارضون الكفينية ، واليعقوبية ، والماركسية أن يغيروه . والحقيقة أنه كلما ثار القسس ورجال الدين وغضبوا ، كلما أصبح النصر مؤكدا لكفن . وأعمال الأرستقراطيين ، والخونة ، واتباع بت وكوبور لا تستطيع سوى أن تجعل انتصار الجمهورية الفرنسية أكبر وأعظم . وكلما جد اتباع روكنلر ومورجان في العمل ، وكلما كان سلوكهم متسما بالراسمالية ، عجل ذلك بالنهوض الحتمى المظفر النهائى للبروليتاريا . فالله عند اتباع كفن ، والطبيعة والعقل عند اليعقوبيين ، والمادة الجدلية أو العلمية عند اتباع ماركس كلها تبشر المؤمن بها بأنه يقف في الجانب الذى يجب أن يريخ . ومن الواضح أنك حين تعتقد أنه لا يمكن أن تخسر سوف يجعل منك ذلك محاربا أفضل في أغلب الأحوال ، لا كلها .

فأولئك الذين اختارهم الله أو الطبيعة أو العلم على استعداد تام لأن يعلنوا عن حقيقة هذا الاختيار ، وهم في الواقع يظهرون عدم توافق — وهو أمر منطقى خالص ، وليس على الاطلاق أمر انفعالات — في أنهم يبدون حرصين جدا على المساعدة في التعجيل بما لا مفر منه . والقديرون المتشددون هم عادة أيضا أتباع متحمسون ، ويعتقدون أنهم أدوات للقدر المحتوم ، والوسائل التى عن طريقها يتحقق المحتوم . ومع ذلك لا يبدو في سلوكهم أنهم يعتقدون بأن مقاومة اتجاههم ، ورفض غير المؤمنين لقبول رسالتهم ، مقدرة أيضا ، وحتمية بل ويمكن التسامح فيها .

وعلى أية حال ، فان ثوارنا جميعا حاولوا أن ينشروا تعاليم ثورتهم . ولا شك أن ما نطلق عليه الآن اسم «القومية» هو أحد عناصر هذه التعاليم الثورية كلها . ولكن على الأقل في السنوات الأولى وخلال أزمة الثورة ، نجد أن الأفكار البدائية عن التوسع القومى لا تكون لها الغلبة . والسعداء الذين انكشفت لهم التعاليم يرغبون في أن ينشروها خارج بلادهم . ففى حماسة المسحين خلال فترة التأزم لم تكن القومية العدوانية ظاهرة

على السطح . لا شك ان القومية تزيد في حماس الثوار ، وفي فترة رد الفعل تظهر بوضوح . فاليعقوبيون أعلنوا أنهم سوف يحققون أسباب الحرية لجميع شعوب الأرض ، وهذا هو الخيال القوى الذى لا يزال يجعل بعض الناس ينظرون الى نابليون على أنه محقق للحرية الجديدة . ولا يزال البلاشفة يبدون في نظر جيلنا الحاضر رسلا كبارا لثورة عالية ولكن ، على النقيض مما كان في ١٩١٨ ، أصبح القول الشائع اليوم حتى بين المحافظين الغربيين أن ما كان ستالين يحاول أن ينشره خارج بلاده هو الاستعمار الروسى ، لا الشيوعية العالمية .

ولا شك أن اتباع كلفن ، كميستيين ، كانوا ، مذهبيين متحمسين . ولكن المستقلين المنتصرين من الانجليز كانوا أيضا قادرين على مزج دعاباتهم الدينية بالدعاية السياسية ، وكانوا غيورين على أن يضموا العالم الى شكل مجتمعهم المتميز . وقد اعتاد مساعد كرومويل الشهير ، وهو أدميرال بليك ، أن ينشر التعاليم في أراض أجنبية . وقد قال بليك ، ستحذو كل البلاد حذو انجلترا ، وتقضى على الطغيان وتصبح جمهوريات . وقد فعلت انجلترا ذلك من قبل . وتبعتها فرنسا ، ولما كان الثقل الطبيعى للأسبان قد جعلهم بطيئين شيئا ما ، فقد أعطاهم عشر سنوات . وسوف تصبح أوروبا قريبا جمهورية ، وهذا في الخمسينات من عام ١٦٥٠ . والذين يفخرون اليوم أو ينعون أن العالم الغربى سوف يصبح عاجلا كله شيوعيا ، أو كله فاشستيا ، أو كله ديمقراطيا ، ينبغي أن يفكروا لحظة في الظروف التى أبدت فيها ملاحظة بليك هذه .

وقد أريقت كمية طيبة من المداد والخطابة في سبيل هذا الجهود من جانب المتطرفين لنشر معتقداتهم بين الأمم . فالمحافظون في الأمم الأخرى شكاكون جدا بالطبع . وموسكو في رأيهم يجب أن تكون وراء كل حركة تحررية أو تطرفية ، وهناك مؤامرة دولية منظمة لاقامة حكم على ليعاقبة اللادينيين وتحطيم المسيحية . ومن المحتمل في أغلب الأحوال أن تكون مخاوفهم وشكوكهم مبالغا فيها الى حد كبير . فالثوار في فترة التآزم يكونون عادة فقراء للغاية ، ومشغولين في الداخل للغاية بحيث

لا يستطيعون أن يكرسوا أكثر من جزء صغير من طاقاتهم لهذه المهام الخارجية . فضلا عن ذلك ، فهناك في البلاد الأخرى عادة عدد كاف من الوطنيين المتذمرين لتكوين نواة صلبة للعمل الثورى . واستيراد عبارات انجليزية أو فرنسية أو روسية الى هذه البلاد مع طرق أخرى ثورية هو أقرب شئ الى الطبيعة فى العالم .

وعلى أية حال ، فليس ثمة شك حول حقيقة التماثل . وحتى فى القرن السابع عشر ، حين كان العالم أوسع بكثير ، وطرق الاتصال أكثر بطئا ، انتشرت الثورة الانجليزية خارج البلاد . وقد اقترح ادوارد سكسبى فى بورودو على المتطرفين الفرنسيين دستورا جمهوريا اطلق عليه اسم « اتفاق الشعب » — وهو تعديل لاتفاق الشعب الانجليزى — واضطر بالتالى الى أن يهجر المدينة . وفى هولندا عند سماع أخبار الاضطراب فى انجلترا ، بدأ الناس يقفون الى هذا الجانب أو ذاك من الأحزاب بدرجة من الحماس جعلتهم فى كثير من الأحوال يصلون الى حد التشاجر . وهذا يشبه الى حد كبير سلوك الاتحاديين ( الفيدراليين ) والجمهوريين فى الولايات المتحدة فى عام ١٧٩٠ حينما أمدت الثورة الفرنسية السياسة الأمريكية بمعظم موادها المثيرة . ولكن هذا الموضوع لا يحتاج الى بحث . وهناك أمثلة مشابهة من الثورة الروسية سوف تعرض لكل فرد .

ويمكننا أن ندفع التشابه الدينى قليلا الى أبعد من ذلك . فثوارنا مقتنعون بأنهم الصفوة التى قدر عليها أن تنفذ ارادة الله ، أو الطبيعة أو العلم . وقد كان ذلك الاحساس قويا بوجه خاص بين الشيوعيين الروس بينما كان ينبغى من الناحية المنطقية الخالصة أن يكون أقل قوة منه بين أتباع كل من الذين يؤمنون بالله موجود . وخصوم هؤلاء الثوار ليسوا مجرد أعداء سياسيين ، أو مجرد رجال مخطئين ، أو نهايين أو مجانيين ملعونين ، بل آثمين ، ويجب ألا يهزموا فحسب — بل يجب أن يقضى عليهم .

ومن هنا كان تبرير المقصلة وفرق اطلاق الرصاص . فان ثوارنا يظهرون عدم التسامح هذا بقوة هى فى منطق الانفعالات ، كما فى منطق العقل نتيجة تامة للاقتناع بأنهم على صواب صوابا مطلقا ازليا ، احتكاريا . فاذا لم يكن هناك غير حق واحد ، وأنت تملك هذا الحق او هذه الحقيقة بشكل كامل ، فان التساهل فى الاختلافات معناه تشجيع للخطأ ، والجريمة ، والشر والخطيئة . والحقيقة أن التسامح بهذا المعنى مضر لمن وقع عليه التسامح كما أنه مدعاة للغضب بالنسبة لمن وقع منه التسامح . ويقول بيلاديمين أن من الخير الأكد للملحين قتلهم لأنهم كلما عاشوا أكثر ، انهالت عليهم اللعنات أكثر .

هذه المعتقدات الثورية شائعة جدا فى فلسفتها عن الحشر والنشر ، وفى افكارها عن الغايات النهائية مثل الجنة والجحيم . وقد كان يسيطر على الثورة الإنجليزية بعض هذه الفلسفة المسيحية . وقد كان القديسون يتوقعون مجيء المسيح وحكمه للعالم عاما بعد عام واقتراب حكم رجال الدين . وكانت فكرة اليعقوبيين عن الجنة أقل مادية بكثير ، وهذه الجنة وجدت بصورة قاطعة لتكون هنا على الأرض — وهى جمهورية الفضيلة التى سبق أن رأيناها كمثل أعلى عند روبسبير . فبعد ديكتاتورية الحكومة الثورية ، كان على هذه الجمهورية الكاملة أن تظهر ، وتصبح الحرية ، والمساواة ، والاخاء أكثر من مجرد شعار . وبالنسبة للأمريكيين المتشددين لا تبدو الجمهورية مثل الجنة على الاطلاق ، ولكن يجب أن نعتقد أنها كانت مختلفة عن ذلك جدا بالنسبة لليعقوبى الجاد فى سنة ١٧٩٤ .

أما الجنة الروسية فهى المجتمع اللاتبقى الذى سيتم الوصول اليه بعد أن تكون الحركة التطهيرية لديكتاتورية البروليتاريا قد قضت ببطء على مظاهر البؤس الناتجة عن الصراع الطبقي . ويبدو أنه حتى أتباع ستالين يسلمون بأن مرحلة التطهير لا تزال قائمة . أما المضمون النوعى للحياة فى المجتمع اللاتبقى فقد وصفه نوعا ما بطريقة غامضة معظم الشيوعيين وماركس نفسه ، لم يأت بأية تفاصيل عن جنته . ويرى الانسان أنه سوف يكون هناك تنافس ولكن ليس صراعا وبالتأكيد ليس صراعا حول البضائع الاقتصادية . وسوف يكون التنافس على مستوى مرتفع كما هو

بين الفنانين . ولربما يكون هناك تنافس في الحب ، وعلى أية حال وكما في جنة أشد قوة ، وهى الفالهد الألمانية القديمة سوف يتصارع الأبطال طوال اليوم ، ولكن في الليل سوف تندمل جراحهم .

كل هذه المعتقدات تجسدت في فرق اجتماعية ، ومن هنا كانت لها تعاليم . وقد وصف مؤلف هذا الكتاب في مكان آخر بنوع من الاطالة التعاليم اليعقوبية ، وهى مزيج غريب من الكاثوليكية ، والبروتستانتية ، والكلاسيكية وعناصر أخرى من معتقدات جمهورية ، وصلوات وتعميدات جمهورية ، وأدعية وحتى علامة الصليب الثورية باسم مارا ليه بلتييه ، أو الحرية أو الموت . أما التعاليم الشيوعية فهى أقل ميلا الى التقليد ، وربما كانت أقل ثراء . ولكنها تعاليم محددة تماما كما سوف تجد عند التحدث الى شيوعى منظم . وقلما يقرأ « رأس المال » لماركس ، في الأوساط الشيوعية المستقيمة الا من حيث كونه تعاليم . والثوار الفرنسيون كان لهم قديسوهم وشهداؤهم ، لا سيما مارا المقتول : فتاليه لينين الذى بدأ واضحا خلال حياته قد أصبح عقيدة تركزت حول قبره في موسكو . ربما كان لينين ، مثل جيريمي بنتام المدفون في جامعة لندن ، قديسا دنيويا ، ولكنه قديس على أى حال . وستالين ، — كما يقال لنا — كان عليه أن يكافح بشدة اتجاه الشعب الروسى البسيط الى أن يخلط عددا من المعتقدات الخرافية باخلاصه الطبيعى لزعيمه العظيم . وما كان ليبالى بأن يوضع في صف الأقداس القديمة . أما الجماعات الأصغر عددا ، مثل « الشباب الشيوعى » فانها تنشأ في جو من الطقوس ، وهى من هذه الناحية أقرب الى بعض نواحي النشاط الذى تمارسه الكنائس البروتستانتية منها الى الجماعات الدنيوية نسبيا مثل جماعة الكشافة .

والرمزية الدينية تسير جنبا الى جنب مع هذه الطقوس ، وقد نمت بوجه خاص في فرنسا . ففى أثناء الارهاب ، كان المرء يلتقى بالتعاليم الرمزية في كل مكان : عين الرقابة تبحث عن أعداء الجمهورية ، ومثلث الحرية ، والمساواة ، والاخاء ، وغطاء الرأس « الفرجينى » رمز الحرية ، وغطاء الرأس الأحمر ، وفارة النجار ، التى ترمز الى

المساواة ، وأى نوع من التلال الصغيرة ، التى كانت تستعمل كرمز للجيلى الخير ، وهو الحزب الذى حمل عبء الوصول بالثورة الى نهايتها المنطقية . واغلب هذه الرموز وكثير غيرها توجد فى التاريخ الكامل للعدد العشرين من البريريال فى باريس ، حينما ، أشراف روبسبير بنفسه على الاحتفال بالكائن الأعظم . والروس ، وهم أقل حذقة وحبا للظهور ، قد استخدموا الرموز بطريقة مشابهة ليؤلفوا بين الناس بين مجتمع شيوعى .

ولعل أهم قانون فى ثوراتنا الأربع هو أنها ، مثل التعاليم المقدسة ، ومثل الأشكال الدينية ، عالية فى طموحها ، ووطنية ، قومية فيما يتعلق بالحقيقة النهائية . نهى تنتهى باله لكل البشر ، ولكنه يصل الى النوع البشرى ، عن طريق شعب مختار . ونحن الأمريكين نستطيع أن نرى هذا كله أكثر وضوحا فى معاصرنا ، الشيوعيين الروس . ولكن بالنسبة لكثير من المراقبين من الخارج وبخاصة اذا أخذوا تعبير « القرن الأمريكى » مأخذ الجد ، نحن أيضا وطنيون ننشر تعاليم ولدتها الثورة منذ زمن طويل فى القرن الثامن عشر .

ومع ذلك فهناك وراء هذا التشابه تشابه أعمق من ذلك بكثير يساعد على شرح وتفسير التشابه الأكثر وضوحا وتناقضا وهو الخاص بالعالية الوطنية التى ولدتها الثورة . فهذه الثورات الأربع تظهر عداا يتزايد تدريجيا نحو المسيحية المنظمة ، وبوجه خاص نحو الصور المسكونية للمسيحية المنظمة . وهناك لمحة دنيوية حتى بالنسبة للثورة الانجليزية فى القرن السابع عشر ، وقوة طاغية لتوكيد الضمير الفردى ضد قوة الكنيسة وتقاليدها ، والثورة الفرنسية وحتى الأمريكية كلها تسير فى الاتجاه الدنيوى للقرن الثامن عشر ، أما الثورة الروسية فهى تفخر بأنها مادية .

والآن فان هذا التبرؤ من المسيحية التقليدية لم يستوح ، على النحو الذى قد يميل المسيحي التقليدى الى الشعور به ، من رجال شيربين فاسدين يريدون أن يقضوا على أجل ما فى الحياة البشرية . والحق أن كثيرين من هؤلاء الثوار كانوا مليئين بالغرور وكثير من الخطايا الأخرى .



ولكن الجنة عندهم كانت في الحقيقة قريبة جدا من الجنة عند المسيحيين ، والأخلاق لديهم قريبة من الأخلاق المسيحية ، وهى فى الحق الأخلاق عند كل الأديان السماوية . أما « المادية » الماركسية فهى فى الواقع مجردة ، بل وسامية ، وهى ليست فى متناول الإدراك أكثر من المادية عند علماء الطبيعة .

والذى يفصل بين هؤلاء الثوار وبين المسيحية التقليدية هو ، بشكل واضح ، اصرارهم على أن تكون الجنة هنا ، الآن ، على الأرض ونيتهم السريعة فى قهر الشر دفعة واحدة الى الأبد . والمسيحية فى أشكالها التقليدية ، لم تتخل بأى حال من الأحوال منذ زمن طويل عن الصراع الأدبى ، ولكنها تخلت عن آمالها فى تحقيق عالم تترفرف عليه أعلام السعادة وهى الآمال التى كانت لها أيضا حينما كانت ناشئة وثورية ، الآمال المتعلقة بعودة ثانية مباشرة للمسيح . وهى بتمييزها بين هذا العالم والعالم الآخر ، بين الطبيعى وما فوق الطبيعى أو الإلهى ، تستطيع المسيحية أن تعبر الفجوة بين ما عليه الناس وما عندهم وبين ما يريدون أن يكونوا عليه أو أن يكون عندهم . هذه الفجوة يعرفها الثورى جيدا وبدرجة كافية . وهو يرى مع ذلك الا يعبرها ، ولكن ان يملأها أو ان يقفز من فوقها . وهو غالبا ينتهى من حيث يبدأ المتصوف ، وذلك بأن يقنع نفسه بأنه لا توجد فجوة . وحتى لو سلمت ، كما يفعل الوضعى والمادى — بأن الانسان حيوان ولا شىء أكثر من هذا ، وبأنه جزء من الطبيعة — وأن الطبيعة هى كل ما هنالك — فانه يبدو من الواضح منطقيا أن الانسان فريد فى الطبيعة وبين الحيوانات من حيث قدرته على أن يتصور المستقبل ، وعلى أية حال ، يبدو أنه ليس هناك حيوان آخر لديه القدرة على أن يهتم ، ويخطط ، ويفكر . فالحيوانات الأخرى يمكن اصابتها بالعجز ولكن ، واضح ان ذلك لا يكون بفشل افكارها ، أو فشلها فى تنفيذ خططها . وفى الواقع يستطيع كثير من الفلاسفة الوضعيين أن يعزوا انفسهم بهذا العالم على نحو ما يرونه . ولكن ليس الجمهرة الغالبة من الناس . وهنا تأتى ملاحظة فولتير : « لو لم يوجد الله ، لكان من الضرورى اختراعه » .

وهذا هو ما فعله ثوارنا بالضبط . ولكن كان عليهم أن يخترعوا آلهة مجردة ، آلهة قبلية ، آلهة غيورة . وليس لمعتقداتهم الجديدة من النضج ما كان للمعتقدات القديمة . وليس لها ، على الرغم من طموحهم ، عمومية المعتقدات القديمة . وليس لها بالنسبة للمتعب والمخدول قوة العزاء القديمة . ولم تكتسب بعد قوة ناجحة للتوفيق ، وهى حكمة العصور . فهى لا تزال ، باختصار ، معتقدات ثورية أكثر فاعلية كحواجز للعمل منها اشاعة للسلام . وهذا قول صادق بشكل ظاهر بالنسبة لأحدثها ، وهى الشيوعية الماركسية .

### ٤ — ما هى الأشياء التى تصنع الارهاب ؟

فى فترات التأزم فى كل من ثوراتنا الأربع ، نستطيع أن نميز مجموعة واحدة من المتغيرات ، مرتبطة مختلطة ، بشكل مختلف ، بكل أنواع العوامل المحتملة والتى تحدث المواقف النوعية التى يميل المؤرخ القصاص لهذه الثورات الى النظر اليها على أنها فريدة . ولاشك فى أن هناك عددا كبيرا جدا من هذه المتغيرات ، ولكن لكى نعطى فكرة تقريبية أولى يمكننا أن نميز هنا سبعة . وهى تبدو غير مرتبطة ببعضها البعض بأى علاقة سببية هامة . فهى تبدو ، فى الحقيقة الى حد ما أشبه بالمتغيرات المستقلة عند عالم الرياضة رغم أنه من غير المعقول أن تكون مستقلة استقلالاً تاماً . فالليل الى أفراد واحد منها على أنه « سبب » الارهاب — كالليل الى العثور على بطل أو شرير فى أى موقف — من الصعب مقاومته . وكل واحد منهما له تاريخ ، ويرجع على الأقل الى الجيل الماضى أو الى جيلين من النظام القديم .

وهى منسوجة معا فى نمط معتد فى الحقيقة ، ولكن بدونها جميعا — وهذه هى النقطة المهمة — لما كان لدينا « عهد ارهاب » ، ولما كانت لدينا أزمة كاملة فى الثورة . على أن مشكلة استقلالها الممكن ليست فى حاجة الى أن نتلقنا . فدرجة الحرارة والضغط متغيرات مستقلة فى الصياغة الرياضية لقوانين الديناميكا الحرارية ، ولكن الثلج يمكن أن يتكون عند درجة الصفر المئوية فقط اذا كان الضغط صغيراً

لدرجة لا يعتد بها . ولقد تكلمنا كثيرا على هذه النقطة من قبل ، ربما اكثر من حدود الكتابة الجيدة . ولكن الفكرة القديمة للتعليل البسيط، المميز ، الواحد متصلة في عاداتنا في التفكير الى حد بعيد ، وهى في الحقيقة نافعة جدا لنا في حياتنا اليومية ، لدرجة اننا بطريقة غريزية تقريبا نطلب تفسيرا لموقف معقد كالارهاب مما سوف يمكننا من أن نعزل السبب — الشرير — أو السبب البطل فهناك اولا ما يمكن أن نسميه عادة العنف ، الموقف المتناقض لشعب هيأته الظروف لأن يتوقع ما هو غير متوقع . واكثر الفترات عنفا وارهبا في ثوراتنا لا تأتى الا بعد أن تكون سلسلة من الاضطرابات قد مهدت الطريق . فالمستقلون لم يتخذوا اجراءاتهم الشديدة ضد الأساليب المألوفة في « انجلترا » الا بعد بضع سنوات من الحرب الأهلية والارهاب في فرنسا بالمعنى الرسمى لم يبدأ الا متأخرا في عام ١٧٩٣ ، والاضطرابات المبعثرة مثل « الرعب الأعظم » في ١٧٨٩ ومذابح سبتمبر في ١٧٩٢ تساعد ببساطة على ايجاد الجو اللازم للارهاب . وحتى في روسيا حيث كانت الأحداث تراقب في فترة أقصر في أى واحدة من ثوراتنا الأخرى ، فان العنف المنظم تحت رعاية الحكومة لا يظهر بشكل واضح الا في خريف ١٩١٨ ، أى بعد الثورة ضد القيصر بعام ونصف عام . وقد ذكر مستر تشمبرلين نص برقية مرسلة من بتروفسكى الى جميع السوفيت ، وهو يرى في ذلك اشارة للارهاب المنظم . « وأخيرا ، يجب تطهير مؤخرة جيوشنا من كل الحرس الأبيض ومن كل السفلة ممن يتآمرون ضد قوة الطبقة العاملة والفلاحين الفقراء . فليس أدنى تردد ، ولا أدنى تراخ في تطبيق الارهاب بالجملة » .

هذه البرقية تضع امامنا متغيرا ثانيا واكثر المتغيرات أهمية — وهو ضغط الحرب الأجنبية والأهلية . فضرورات الحرب تساعد على تفسير سرعة مركزية حكومة الارهاب ، وكراهية المنشقين في داخل الجماعة — وهم بيدون عندئذ هارين — والاثارة الواسعة الانتشار التى يعرفها جيلنا جيدا بالتعبير الخاص « الأمراض العقلية للحروب » . وفى كل من فرنسا وروسيا تجد تلازما بين الموقف الحربى لجيوش

الثورة وبين عنف الارهاب ، وكلما زاد خطر الهزيمة ، زاد بالتالى عدد ضحايا المحاكم الثورية ، ويستمر الارهاب بعد ان يزول أشد المواقف الحربية خطرا . ونستطيع ان نذكر مرة أخرى أنه في انجلترا قام الايرلنديون والاسكتلنديون بدور العدو الأجنبي رغم ان بريطانيا العظمى كانت بمعزل عن القارة طوال فترة الثورة البيوريتانية . وفي كل من أمريكا وانجلترا كانت فترة التأزم مصحوبة بحرب رسمية ، حرب أهلية الى حد كبير . ولا يستطيع عاقل ان ينكر الدور الهام الذى تلعبه هذه الحروب في الموقف الكلى الذى اطلقنا عليه اسم فترة التأزم .

ثالثا ، هناك حداثة عهد أجهزة تلك الحكومة المركزية . فالمتطرفون بالتأكيد ليسوا جميعا عديمى الخبرة بمعاملة الناس وقد أكدنا هذه النقطة من قبل رغم أنهم قد تعاملوا مع « ثوار » ، وليس مع كل الناس ولقد كان مرانهم الطويل على قضية الثورة نوعا من التدريب السياسى . ومن نواح كثيرة نجد ان الشبكة الجديدة من النظم التى ادخلوها يمكن ان تستعمل بعض الوسائل الروتينية التى كانت تستعملها الحكومة القديمة . وهذا يصدق بوجه خاص فى الحكومة المحلية . ومع ذلك ، فمن المؤكد بصفة قاطعة ان نظم الارهاب تكون جديدة الى حد ما ، وانها لا تعمل بهدوء ، وأن الذين عهد اليهم بإدارتها ، حتى ولو كانوا من الناحية السياسية من ذوى الخبرة ، فانهم كانوا عديمى الخبرة من ناحية الادارة . فأجهزة الارهاب تعمل على فترات صغيرة متباعدة ، غالبا ما تتصرف تصرفات سيئة . وعندما تظهر الخلافات بين الاداريين ، لا تحسم بالطرق الروتينية ، وانما بالعنف . وكل فشل للجهاز يغضب أولئك الذين يحاولون التمسك به ، ويدفعهم الى قرار جديد مفاجئ ، والى فعل آخر من أفعال العنف . وهذا بدوره يضغط على الجهاز أكثر وأكثر . وهذا هو صديقنا القديم الذى نسميه الدائرة المفرغة .

رابعا ، وهذا أيضا زمن أزمة اقتصادية حادة — وهى ليست ما نطلق عليه الآن ركود الحالة الاقتصادية ، ولكن نقص واضح فى ضروريات الحياة . ومرة أخرى يجب ان نشير الى أن الارهاب لا يأتى دفعة واحدة ، فى بداية عهد الثورة ، ولكن تسبقه فترة من الاضطرابات

من شأنها أن تقضى على عمليات الانتاج العادية . وهنا يصاب رأس المال بالزعر ويبدأ في مغادرة البلد . ويتردد رجال الأعمال في الاضطلاع بمشروعات جديدة أو في الاستمرار على نفس الأساس القديم . وتقلل اضرابات الفلاحين من الانتاج الزراعى . وعندئذ تأتى الحرب بما تتطلبه من رجال وذخيرة . ودكتاتورية المتطرفين المنتصرين التى تترتب على ذلك هى الى حد ما دكتاتورية اقتصادية ، واشراف على الحياة الاقتصادية بأكملها فى البلد ، والنقد ، وثبيت الأسعار وتوزيع الأظعمة بالبطاقات ، أى اشتراكية واقعية قبل ماركس بزمن طويل . وتؤدى صعوبة توزيع كميات غير مناسبة من المئونة الى اجهاد القائمين على الادارة من فرص المناهضين والجواسيس ، وتساعد على اثاره النفوس ، والظهور الكلى للارهاب . كما أنها تزيد من ضخامة صراع الطبقات الذى سبق أن أشرنا اليه فى دراستنا للنظم القديمة .

وبصورة أو بأخرى يظهر المتغير الخامس . وهو صراع الطبقات ، بوضوح فى أزمة كل ثوراتنا . فكراهية البيوريتان للملكيين ، واليعقوبيين للأرستقراطيين ، والبيرداليين ، والأعداء الآخرين لجمهورية الفضيلة ، وكراهية البلشفيين للبيض ، والمعتدلين ، والأحرار الأمريكين للمحافظين ، كان ذلك كله فى حد ذاته مزيجا معقدا . ويحتمل ان كان أحد عناصر هذا المزيج ما يعنيه اتباع ماركس حينما يتحدثون عن صراع الطبقات . وعلى أية حال ، ففى خلال عهد الارهاب تمثلت الجماعات المتعارضة المختلفة داخل المجتمع فى الثوار المستقيمين الحاكمين والكتلة المختلطة من أعدائهم . وهذه التعارضات بين الطبقات وقد نمت — مثل كل أنواع التورتر والصراع الأخرى — بمرور الثورة تستمر عندئذ فى نوع من الحدة تظهر فى كتابات المفكرين والمهيجين الثوريين وخطبهم وروح الحزب ، التى قد تكون ممثلة فى أحد العناصر ولكنها صورة من صور الصراع بين الطبقات ، تتشبه بأكثر الرموز تفاهة لتجعل الناس على علم باختلافاتهم التى لا سبيل الى التوفيق بينها . وهكذا نجد اليعقوبيين المحرومين من الشراشيب يتخذون اسم « sans-culottes » كصيحة ليؤكدوا صراع الطبقات . فالشراشيب هى أعطية الركبة للجوارب الحريرية التى كان يتخذها سادة العهد القديم ، وهؤلاء الذين بدون شراشيب ارتدوا

عن اقتناع السراويل الطويلة للرجل العادى — الرجل العامل\* . وقد امتلأت الثورة الروسية بشعارات الصراع بين الطبقات بالمعنى الماركسى الضيق . ورغم انه كان هناك في ثوراتنا ما هو اكثر بكثير من صراع الطبقات ، ورغم ان مظاهر الصراع بين الطبقات ليست محددة تماما كما يستنتج أحيانا الكثيرون من انصار التفسير الاقتصادى للتاريخ ، فقد يكون من الغباء بمكان عظيم ان ننكر أهمية أحد المتغيرات خلال الازهاب — وهذه الكراهية بين الجماعات أو « الطبقات » قد دعتهما الى حد كبير المصالح الاقتصادية وميراث اجتماعى وعقلى مشترك ، وطريقة في الحياة مشتركة ، وهى التى يعرفها جيلنا تحت اسم الصراع الطبقي .

والتغير السادس — وهو في هذا أكثر وضوحا من غيره — أمر تجرىدى ، قد يكون بطريقة مؤكدة سبيلا نافعا لجمع عدد كبير من الحقائق الملموسة . وهو من الناحية المنطقية ليس على مستوى واحد مع متغيراتنا الأخرى ، وقد لا ينتظم في مجموعة مناسبة من المقولات الفلسفية . فهو متغير قائم على ملاحظة سلوك المجموعة الصغيرة نسبيا من القادة التى تكونت أثناء الثورة وهى عندئذ تقوم بمراقبة حكومة الازهاب . وقد يتأثر كثير من سلوكهم مثل سلوك أتباعهم ومواطنيهم ، بالمتغيرات الأخرى في قائمتنا ، ودون شك بكثير مما لم نذكره . ولكن تتوقف بعض العناصر الهامة جدا في سلوكهم على حقيقة كونهم قادة ، وانهم مروا بفترة تدريب على التكتيك الثورى ، وانهم قد انتخبوا — بمعنى دارونى تقريبا — لقدرتهم على التحكم في جماعة ثورية متطرفة . ولكن هذا لا يعنى أنهم بالضرورة أو حتى عادة « غير عمليين » ، « نظريين » ، « ميتافيزيقيين » أو أى واحد من الأسماء الأخرى التى اخترعها لهم بعض النقاد مثل تين Taine وانما يعنى أنهم لم يخلقوا للحلول الوسط أو للتصرفات السياسية السخيفة في المجتمعات غير المضطربة أو الهادئة نسبيا . وانما يعنى أنهم خلقوا ليندفعوا الى التطرف، وأن يستخدموا تأثيرهم الخاص ليزيدوا من حدة التوتر الموجود من قبل المجتمع . وقد درسوا شأن كل السياسيين — المهارات اللازمة للنجاح في عملهم ، ووصلوا الى حد ان يشعروا بأن عملهم أشبه شئ باللعبة ، — كما هى في الحقيقة —

ولكنهم لاعبون مستهترون ، قادرون على أن يستثيروا حماس الجماهير ، ويحاولوا دائما الاستيلاء على الجبهة الداخلية . وليس هناك قائد ثورى صالح يمكن أن ينكص عن ذلك . فضلا عن هذا ، فانهم يغارون أحدهم من الآخر — ولنستعمل مقارنة أخرى — كالمثليين ، وكل منهم عليه أن يحاول دائما أن يصل الى وسط المسرح . والصراع الذى لم يعد مؤخرا — فى الأزمنة العادية — أكثر من صراع عادى على السلطة بين السياسيين هو — على هذا الوضع — فى فترة التأزم للثورات قد وصل الى درجة القتل .

وأخيرا ، هناك المتغير الذى الحننا اليه فى مكان سابق من هذا الفصل ، وهو عنصر الايمان الدينى الذى يتصف به المستقلون ، واليعقوبيون ، والبيشفيون ، ولا حاجة بنا هنا لأن نكرر ما سبق أن كتبناه عن المظهر الدينى لعهد الارهاب ، ولكن هذا العنصر هو الذى يجعل من عهد الارهاب عهد فضيلة كذلك ، ومحاولات بطولية لكى تسد مرة والى الأبد الفجوة التى بين الطبيعة البشرية والتطلعات البشرية . وهو وان كان أحد المتغيرات الا أنه فى غاية الأهمية . فالأغراض والعواطف الدينية تساعد على تغيير الأزلمات التى تجتازها ثوراتنا من أزلمات عادية حربية أو اقتصادية وعلى أن تعطى لعهد الارهاب والفضيلة خليطها غير المألوف من الغضب الروحى ، والنشاط ، والاخلاص والتضحية الذاتية ، ومن القسوة ، والجنون ، والخداع لأقصى حد .

والآن نجد أن كل هذه العناصر فى حالة دائمة من التفاعل المتداخل أحدهما مع الآخر ، وما يصيب أحدهما من تغيير يحدث تغييرات معقدة مقابلة فى كل العناصر الأخرى ، وبالتالي فى الموقف كله . ويجب ألا نفكر فيها بألفاظ الحصان والعربة ، أو الكتكوت والبيضة ، أو احدى كرات البلياردو وهى تضرب الأخرى . ولكنها بدلا من هذا تطارد بعضها بعضا بطريقة جنونية كما تفعل الذرات داخل تركيب طبيعى كيميائى . وعلى ذلك فان مواقف الخطورة والشدة فى المراحل الأولى من ثوراتنا تجعل من السهل أن تنقاد الأمة الى الحرب — يشهد بذلك مثيرو الحرب من الجيرونديين فى فرنسا — والحرب نفسها تزيد من المخاطر ، وتعود

الناس على العنف . فالحرب تؤدي الى الضيق الاقتصادي والضييق الاقتصادي يزيد من حدة الصراع الطبقي ، وهذا تستمر الدورة . وكل هذه الآثار ، حتى نهاية فترة التأزم ، تزداد ببطء . فكل تخلص من عادة قديمة ، وكل انسلاخ من الماضى يؤدي في الحال الى مواقف اخرى ويزيد الضغط على كل فرد تقريبا في النظام الاجتماعى .

وقد يبدو أن هناك حقيقة يمكن ملاحظتها في السلوك الانساني وهى أن كثيرا من الناس يستطيعون تحمل مثل هذا التدخل الزائد في الأنظمة التقليدية لحياتهم اليومية . وقد يبدو أيضا أن أكثر الناس لا يستطيعون أن يحتلوا طويلا ضغط الجهود الطويل لكي يعيشوا وفق مثل عالية جدا . فالمراتب من الخارج في فترة التأزم يتحمل قدر طاقته من التدخل في أقدس نظم حياته وأكثرها التصاقا به ، أما المراقب من الداخل فيحتاج الى جهد روحى كبير يتجاوز قوى احتماله .

ولهذين النوعين من الناس قد يبدو أن هناك حدا واقعيًا لتأثيرهم الاجتماعى مثل الحد الذى يجده عالم الكيمياء لرد الفعل الكيميائى . فالكائنات البشرية تستطيع فقط أن تمضى بعيدا وطويلا تحت تأثير مثل أعلى . والنظم الاجتماعية التى تتألف من الكائنات البشرية تستطيع أن تحتل الى فترة محدودة فقط الجهد المشترك لخلق عالم أفضل وهو ما نسميه عهد الارهاب والرضيلة . ويأتى ثيرميدور Thermidor ( نهاية عهد الارهاب ) بطريقة طبيعية في المجتمعات الثائرة كالمد المنحصر ، كالهدوء بعد العاصفة ، كفترة النقاهة في أعقاب الحمى . ومثل هذه الصور من الكلام ، المستمدة من القوانين القائمة في عالم الفيزياء ( الطبيعة ) ، يبدو أنها تفرض نفسها . ولعلنا نجد ، على الرغم من جهود الفلاسفة ، ورجال اللاهوت ، الأخلاقيين ، وأصحاب النظريات السياسية ، والعلماء الاجتماعيين ، وعدد لا بأس به كذلك من المفكرين المهتمين في الألفية سنة الأخيرة ، ان النظم الاجتماعية لا تزال تقريبا غير متأثرة تأثيرا ضارا بالنوايا الثورية الطيبة أو الأريطة المطاطة .



## الفصل الثامن

### ثرميدور أو نهاية عهد الارهاب

#### ١ - شمول رد الفعل الثرميدورى :

كان علينا فى محاولتنا السابقة أن نوائم بين ثوراتنا الأربع فى خطتنا التصورية ولكن هذه المواءمة ما كانت لتتم بصورة متناهية فى الدقة . ومن المستحيل تماما أن نقول ان الأزمة بالنسبة لثورة ما انتهت فى الساعة الرابعة وثلاث دقائق من السادس من أغسطس لسنة ما . وتمدنا فرنسا بمثل محدد مثل هذا . فنهاية الأزمة فى فرنسا يمكن تأريخها بسقوط روبسبير فى ٢٧ يوليو ١٧٩٤ أو فى التاسع من ثرميدور ، العام الثانى من التقويم الشعري الفرنسى الجديد . وتعرف فترة الهدوء التى تلت ذلك وما فيها من أعمال بطولية عند المؤرخين الفرنسيين برد الفعل الثرميدورى . فالماركسيون أو أتباع تروتسكى وغيرهم من أعداء ستالين المنشقين غالبا ما كانوا يستخدمون هذا التعبير بالنسبة للثورة الروسية بحيث نستطيع أن نتخذة كما نعلننا مع « العهد القديم » كلفظ يستعمل بشكل عام . فكل ثوراتنا كانت لها «ثرميدورات Thermidors» رغم تتابع الأحداث ، أو «الجداول» الزمنية ، أو ازدهار الحياة اليومية وأقولها أو أى شىء من هذا القبيل لم يكن متماثلا فى أى ثورتين منها .

وطبقا لخطتنا التصورية ، سنطلق كلمة « ثرميدور » على فترة النقاة من حمى الثورة ، رغم أن كلمة « نقاهة » توحى بشىء حسن وتبدو بالتالى كطريقة لمدح رد الفعل الثرميدورى . وليس علينا الا ان نكرر ما قلناه آنفا من أن مثل هذا المعنى الدال على المدح غير

مقصود . وسوف نتابع محاولتنا لاستكشاف أوجه التقارب الأولى في التماثلات بين الظواهر بمعنى أننا لا نمدح ولا نمدح ولا نلعن .

في إنجلترا نجد أن بداية الفترة « الثرميدورية » ، أو النقاهاة ، لا يمكن أن تحدد بدقة . فالسنة التالية لاعدام شارل الأول تمثل قمة الأزمة في إنجلترا ، وبقدر مدة البرلمان الطويل بقيت آثار قوية للثورة . ولعل خير تاريخ للثرميدور الانجليزي هو حل كرومويل للبرلمان الطويل في ٢٠ أبريل ١٦٥٣ عندما أبدى بعض الملاحظات المشهورة غير الانجليزية حول التشابه بين عصا الضياع وعصا المهرج . ويتنصيب كرومويل حاميا للدولة في ظل « الأداة الحكومية » في ١٦٥٣ عكف الانجليز في الواقع على وضع دستور لبلادهم وبذلك — يمكن القول بأن فترة « الثرميدور » كانت في الطريق . وفي ١٦٥٧ أصبح كرومويل يسمى « بالورد الحامي Lord Protector » نصف ملك على الأقل ، وبعودة آل ستيوارت في ١٦٦٠ يمكن القول بأن الثورة الانجليزية العظيمة قد انتهت .

وكان السبب في سقوط روبسبير في فرنسا الى حد كبير مؤامرة بين النواب المتزمين من اليعقوبيين في المؤتمر ، وهم قوم في أغلب الأحوال اثروا ثراء فاحشا من الحروب ، والفساد البرلماني ، والمضاربة بالأموال وأوجه نشاط أخرى لا تليق بالمواطنين في جمهورية الفضيلة . ويبدو أن الخوف من روبسبير « غير القابل للفساد Incorruptible كان من الأسباب الرئيسية لأعمالهم . وكانوا ناجحين ، وساعدهم في ذلك ما كان يعوز روبسبير من حكمة سياسية . ولم يكن في نية «الثرميدوريين» انفسهم انهاء الارهاب ، وكان اعدام روبسبير واحدا من قائمة طويلة من الاعدامات الثورية التي اعتادوها تماما . ولكن الرأي العام بدأ يعمل دفعة واحدة ، وأوضح الفرنسيون انهم كانوا مع « النور العطشى الى الدم » . واستمر رد الفعل يسير بخطوات ثابتة لبضع سنوات في كلا العهدين : أيام المؤتمر المتهاوى وأيام حكومة الإدارة الجديدة . وكاتت هناك فترات نكوص محددة ، كما قد يتوقع المرء في فترة النقاهاة . وقد كان هناك بعث ملفت للنظر لليعقوبية لا سيما في صيف ١٧٩٩ بعد الهزائم الفرنسية في الخارج . وفتحت « الأندية »

من جديد ، وأخذت الشعارات القديمة تدوى مرة أخرى في الأماكن العامة ، وفي المقاهى ، وعند تقاطع الشوارع . وبعد ذلك ببضعة شهور قام نابليون بونابرت بانقلابه في ١٨ برومير وكانت فترة النقاها الفرنسية قد انتهت تقريبا . ولا تعتبر عودة البوربون عام ١٨١٤ جزءا من مجرى الثورة في فرنسا . فالأجدر بها أن تعتبر حدثا عارضا ، ونتيجة لمثل هذه العوامل الشخصية البحتة كاصرار نابليون الجنونى على محاربة أوربا كلها حتى النهاية الأليمة في ١٨١٣ — ١٤ ، ودعوة تاليران للانقلاب ، والنوايا الدينية لاسكندر الأول في روسيا .

وما زالت الثورة الروسية قائمة الى حد ما . فاتباع تروتسكى يرون أن ستالين وأتباعه « ثرميدوريون » وأن هذه الثورة الروسية ، على أية حال ، قد انتهت . ولا شك أن التجرد الكلى في مثل هذه الأمور صعب في هذه الفترة . ولكن يبدو من الواضح أن فترة التآزم في روسيا قد انتهت ، وأن روسيا في الأغلب الآن في فترة نقاهة طويلة مضطربة من حمى الثورة . وقد نظر الى فترة الحرب الشيوعية ١٩١٧ — ٢١ على أنها اول أزمة رئيسية في الثورة الروسية . ولقد بدأ ثرميدور روسيا بالسياسة الاقتصادية الجديدة في ١٩٢١ . فوفاة لينين وما تلا ذلك من تنافس بين ستالين وتروتسكى أدت الى أزمة ثانية ، او الى نكوص خلال فترة النقاها التي قد نؤرخها في الفترات الأكثر حدة لتقوية خطة السنوات الخمس الأولى بطريقة عنيفة . ولكن هذه الأزمة الثانية — كما لا حظ مراقبون كثيرون — كانت تعوزها النظرة المثالية المتفائلة التي كانت للثورة الأولى ، وتعوزها الاندفاعات والمغامرات ، ويعوزها الأعداء النشطون من أجنب وحرس أبيض ، وتبدو حتى من خلال نظرتنا التاريخية الوجيزة أشبه شىء بالأفعال المميزة « للطفاة » الذين وصلوا الى الحكم خلال فترات « ثرميدور » أخرى — مثل تقرير مصير ايرلندا على يز كرومويل ، مثلا ، أو تقرير نابليون لفكرة وحدة القارة الأوربية . أما المسألة المتعلقة بكيفية عودة روسيا في منتصف القرن العشرين الى الوضع الطبيعى — الوضع الروسى الطبيعى — فانها تحتاج كلها الى بحث مستقل .

## ٢ — العفو والضغط :

من الناحية السياسية نجد أن أكثر التماثلات اثاره للملاحظة والانتباه في فترة النقاهاة هى التنصيب المطلق «لطاغية» فيما يشبه المعنى الذى كان يستعمله قدماء الاغريق لهذه الكلمة ، أى حاكم غير دستورى وصل الى الحكم عن طريق ثورة أو انقلاب . وهذا التماثل قد لوحظ في احوال كثيرة : كرومويل ، وبونابارت ، وستالين بيدون جميعا مؤيدين له . والحقيقة انه في الفترة الفيدرالية في الولايات المتحدة كان هناك عدد من أتباع جيفرسون لم يقدروا الجميل بدرجة كافية بحيث وجدوا أن واشنجتون كان مثالا طيبا للطاغية الذى ولدته الثورة . وليس هناك ما يحير في هذه الظاهرة . فبعد أن اجتازت الثورة الأزمة وما صاحبها من تركيز للسلطة ، كان لا بد من أن يسيطر أحد الزعماء الأقوياء على تلك السلطة المركزة حينما أحرقت الطاقة الدينية المجنونة نفسها في فترة النازم . فالدكتاتوريات والثورات مرتبطة احداها بالآخرى ارتباطا وثيقا لا معدى عنه ، لأن الثورات الى حد ما توتف أو على الأقل تضعف القوانين ، والتقاليد ، والعادات ، والمعتقدات التى تربط الناس بعضهم ببعض في المجتمع ، وحينما تربط القوانين ، والتقاليد ، والعادات والمعتقدات بين الناس بصورة ناقصة يجب أن تستخدم القوة لعلاج ذلك النقص . والقوة العسكرية هى — لفترات قصيرة — أكثر أنواع القوة فاعلية وصلاحية للأغراض الاجتماعية والسياسية ، والقوة العسكرية تتطلب تسلسلا في الطاعة ينتهى آخر الأمر الى قائد أعلى . ويقول فريرو حينما تتقطع « الخيوط الحربية » التى تربط ما بين الناس من عادات ، وتقاليد ، وشرائع ، يجب أن يرتبط الناس بعضهم ببعض في المجتمع بواسطة « السلاسل الحديدية » للدكتاتورية . ومع ذلك ، فان هذا كله امر عادى في أوقاتنا هذه .

وحكم الفرد لا يأتى مباشرة برد الفعل « الثرميدورى » فحتى كرومويل نفسه ، أول من نصب من الثلاثة ، لم يصبح حاكما مطلقا ( لا يناع ) بمجرد حل البرلمان الطويل . ان رد الفعل بالنسبة للأزمة يكون أول

الأمر بطيئا وغير مؤكد . وهنا تصبح عادة العنف مقررة بشكل دقيق . وتتخلف من الأزمة ميول نحو اتخاذ اجراءات صارمة . وحتى الرجال الهادئون ، المحبون للسلام تعثرهم لحظات يميلون فيها الى « مثيرى الارهاب » . واذا نظرنا من خلال هذا الضوء ، لوجدنا أن حركات التطهير والمحاكمة فى موسكو عام ١٩٣٠ ليست دليلا على أن الثورة الروسية كانت ذات حياة طويلة بشكل غير مألوف ، وأنها لا تصلح لأن ينطبق عليها نموذجنا . وهذه الاستعراضات « الميلودرامية » ليست شيئا أكثر من النتيجة المتوقعة للثورة فى أرض ما وبين شعوب لم تنعم بالعهد الأعظم ، ولا بلاكستون أو جيلبرت وسليمان .

وبمرور الزمن ، يتراخى الضغط الذى يمارسه الارهاب على عامة الناس : وتخلى المحاكم الخاصة السبيل للمحاكم النظامية ، وينصهر البوليس الثورى فى البوليس النظامى ، ويحتفظ بالمشنقة أو فرق الرمى . بالرصاص للمجرمين الأشد خطرا . ولا يعنى هذا بالطبع أن الحياة السياسية تتخذ بعد فترة قصيرة الاستقرار المرغوب فيه الذى يطو لبعض معاصرنا أن يصفوه بأنه « حكم ( سيادة ) القانون » ولا حتى فى انجلترا الهادئة خلال القرن التاسع عشر ، أو فى القرن الثالث عشر الذى عاش فيه القديس توماس الاكوينى عيشة طيبة . فالليل الى العنف السياسى يستمر فى الانقلابات ، وحركات التطهير ، والمحاكمات المتقنة . ولكن جون جونس ، وجاك دييون ، وايفان ايفانوفتش ، رجل الشارع — لم يعد فى الاعتبار — فهو عندئذ يترك وشأنه ليمارس دور المتفرج العادى .

وبالتدريج ، أيضا ، يعفى عن المحرومين سياسيا ويعودون الى الظهور وأحيانا يسهمون فى المنافسات السياسية ، وأحيانا يصبحون جزءا من العاملين فى « الحياة الجديدة ، البيروقراطية » ، وأحيانا يعيشون فى هدوء كمواطنين عاديين . والطريقة بالطبع هى عكس الطريقة التى استبعد بها هؤلاء الرجال والنساء . فهم ينتقلون من اليمين الى اليسار ثم من اليسار الى اليمين — فهم راديكاليون صميمون ، ثم معتدلون ، ثم محافظون معتدلون حتى يعيد الاستقرار النهائى بقايا العصابة القديمة . وهكذا

كانت الطريقة في فرنسا وفي إنجلترا . فيعيد عام ١٦٥٣ ظهر البرسبيطاربون وبدأوا ينغمسون في السياسة ، ثم تبعهم المعتدلون من الاستفيين والملكيين ، حتى عاد آل ستيوارت وأتباعهم في ١٦٦٠ . وكان التابع في فرنسا دقيقا جدا ومحددا بصكوك واضحة للعفو : فالجيروند أولا — وهم أولئك الذين قدرلهم البقاء — عادوا بينما تساقطت الدموع وأقيمت النصب للضحايا البريئة التي طاح بها روبسبير النمر المتعطش للدماء ، وبعد ذلك المتطرفون ، ثم الملكييون ومن اليهم من المهاجرين الذين استطاع نابليون ، مع ذلك ، مراقبتهم مراقبة جيدة ، وأخيرا ، في سنة ١٨١٤ اليوربون أنفسهم .

وعلى طول العهد لم يعد آل رومانوف الى روسيا ، ولا يتوقع أحد الآن عودتهم . ويجب الا نطلب من ثوراتنا أن تقدم لنا صورة متقنة للغاية . ومن الواضح ، مع ذلك ، فيما عدا عودة الملكية للمرة الأخيرة — أن المخطط الذي عرضناه آنفا كان يسير ببطء في روسيا ، على الأقل منذ وفاة لينين . فحتى الارستقراطيون يستطيعون أن يعودوا اذا قدموا الدليل على خضوعهم . ان جوركي المقدس ظل يوصف بها كان يوصف به أمثاله في فرنسا من انه عاطف على النظام ، فهو لم ينضم الى النظام الشيوعى الا بعد ما مرت فترة الارهاب الأولى بسلام . ومن ناحية أخرى نجد أن البلاشفة القدماء كلهم تقريبا ، وهم الذين حكموا روسيا في فترة التأزم ، قد تمت تصفيتهم الآن . ولم يكن ستالين في ١٩٥٢ يستطيع أن يقيم أى اتصال انساني مباشر مع ماضيه الثورى . وقد جرى القول في الغرب بأن ستالين نفسه هو الوارث الفعلى للقيصرة ، وان ما كان يجرى في عهد آل رومانوف ان لم يكن اسمهم قد أعيد الى ما كان عليه .

ومن المحتمل ان يكون رجال الحكومة في « الفترة الثرميدورية » وفي النظام الحديث — القديم الذى انبثق آخر الأمر عن الثورة مختلئين في شأنهم . فقد كان بعض الذين خدموا في حكومة نابليون من الارستقراطيين القدماء « أشراف السيف » ، والبيروقراطيين الذين دربوا في النظام القديم ، والفايتيون ، والجيروند بل وعدد قليل من اليعاقبة الآخذين بمبدأ

العنف . ولقد كتب عن رجال من أمثال البيمارل ، وشافستسبورى ، وداوننج الذين ظهروا فى حكومة شارل الثانى بعد عودته ، « انهم كانوا من مدرسة بليك وفين نفسها وكانوا يمثلون أقصى ما وصل اليه حزب كرومويل من الادراك السياسى » . وحياة داوننج خير مثال لما يستطيعه الأشخاص الأكفاء الذين يتميزون بالرونة السياسية من اجتياز فترة الثورات . فقد تخرج فى جامعة هارفارد فى ١٦٤٢ ، وذهب الى انجلترا فى الفترة السعيدة لسيطرة البيوريتان . وسرعان ما تلاً نجمة بين أتباع كرومويل ، وكان يكرس مواهبه بصفة خاصة فى الأمور السياسية . وجاهد ليغير مذهبه فى الوقت المناسب تماما ، وقبل فى خدمة الملك الجديد . ومن هذا الرجل الذى يمثل هارفارد تمثيلاً صادقاً الى حد كبير أخذ « داوننج ستريت» (١) فى لندن اسمه . وحتى فى روسيا نجد أنه بينما استبعد البلاشفة القدامى استبعاداً تاماً تقريباً من المجالس العليا ، اندرج كثير منهم دون شك فى البيروقراطية الجديدة الهائلة وخدمت ناهم . ولكن البيروقراطية الروسية ظلت لا تعترف تماماً بحقوق الملكية غير الموروثة ، الأمر الذى يمكن أن يكون سبباً آخر لعودة موجة الارهاب فى ١٩٣٦ — ٣٩ . وقد كانت فترة النقاها الروسية فترة مضطربة .

فالتبقات الحاكمة الجديدة فى كل مجتمعاتنا هى اذن مجموعة متنوعة جدا ولا يربطها الا شىء قليل يتعلق بالاصول الاجتماعية ، والتعليم ، والميول الحزبية القديمة . يشتركون فى القابلية للتلاؤم . وقد صمدوا لاختبار قاس قد يكون تعسفياً بعض الشىء . وهم — بيدون بعد ابطال الارهاب — ألفين غير جسورين من نواح كثيرة . ولكنهم عادة يعملون بمهارة على جعل النظم ، والقوانين ، والأعمال النمطية ، وكل الأجهزة الضرورية لاداء الأعمال تحقق الغرض منها .

و يتمشى مع العفو عن المعتدلين السابقين مخطط عكسى للضغط والاضطهاد ضد الثوار الذين لم يتوبوا عن سلوكهم . وكلما ساد رد الفعل

(١) « داوننج ستريت » هو مقر رئاسة الوزراء فى لندن .

نحو اليمين ، اتسع نطاق تعريفه للثوار ليكون مقيدا بشكل ملائم على أنه رد فعل مناسب ضد فظائع عهد الارهاب . والثرميدوريون أنفسهم غير مستعدين بحال من الأحوال لتطبيق الطرق الارهابية في اتجاهها الصحيح وفترات الارهاب الأبيض حقيقية كالحمراء . وحتى في انجلترا نجد أن قانون كلاريون لعودة الملكية يتفق اتفاقا شديدا مع النموذج العام للضغط الذي طبق فيما بعد في فرنسا وفي روسيا . والمتطرف الذكي الذي لا مبدأ له قادر بصورة دائمة تقريبا على أن ينجو من الارهاب الأبيض — كما يشهد بذلك فوشيه مرة أخرى . وانما المتطرفون الدؤوبون ذوو الرأي هم الذين يقاسون .

اما فيما يتعلق بمن هم أكثر نشاطا وعنفا من قادة الارهاب الأصلي ، فانهم بالطبع مستبعدون اما بالنفى أو الموت . ويقال الآن عنهم انهم كانوا متعصبين ، أشرارا ، طغاة ، متعطشين للدماء ، أوغادا . انهم يصبحون كبش الفداء ، ايضا للمشكلات التي حسمها النظام الجديد . واذا كان كبش الفداء المثير جدا ، قد مات ، فإن ذلك يكون خيرا . فجنحة كرومويل اخرجت من قبرها بعد عودة الستيوارت في تايبرن مع كل من آيرتون وبرادشو . لقد أصبح طاغية ، غولا ، عدو الله ، وظل كذلك حتى رد له كارليل اعتباره في القرن التاسع عشر وجعل منه بطلا . وروبسبير لم يسترد ابدا مكانته كبطل الا بالنسبة الى فئة قليلة يتزعمها البرت مايتيز . ولقد جعل « الثرميدوريون » من روبسبير كبش فداء بارز ، وزعيم عصابة الارهابيين ، وطاغية نافها متقلبا ، وشريرا ملطخا بالدماء . ولينين ، بالطبع ، مات قديسا ، ولكن لحسن حظ ستالين كان تروتسكى كبش فداء عظيم . وفي الحقيقة يبدو أن معين كباش الفداء في روسيا لا ينضب .

ملحوظة : ان ستالين نفسه لم يسلم من هذه الظاهرة فقد اخرج جثمانه من مقبرة العظماء ليدفن وسط مقابر الناس العاديين .

ان سمو المثل العليا قد مضى الآن ، رغم أن العبارات الضخمة ما زالت قائمة ، وقد تجمدت في عادات وعقائد . والطبقة الحامكة الجديدة



تستقر لتؤدي عملها على أحسن وجه تستطيعه . ولكن من الواضح أنها تقصد أيضا التمتع بالحياة ، وأن يكون لها من الامتيازات والثروة ما كان لكل طبقة حاكمة . ولا شك أن هذه الطبقة الحاكمة الجديدة لا تحاول تحقيق الحرية ، والمساواة ، والاحياء لكل فرد في المجتمع . فهي ترضى تماما عن هذا « الوضع الطبقي Stratification » الذي نشأ تلقائيا أثناء الثورة . وهي تحسم خلافاتها الداخلية على قدر ما تستطيع ، بالطريقة التقليدية للطبقات الحاكمة . فلن يكون هناك شيء من الالتجاء المباشر للخطر للشعب دون الخوف من أخطار الاضطرابات الشعبية الشديدة . وقد لا حظنا من قبل كيف أن الشعب — كلما اقتربت فترة التآزم — يبتعد شيئا فشيئا عن السياسة « الفعلية » ، وكيف أن المتطرفين يصلون الى الحكم عن طريق الانقلاب . وتستمر هذه العملية مع « الثرميدوريين » حتى أن التغيرات السياسية ، وانتقالات السلطة خلال هذه الفترة — وهي عديدة ، وليست منتظمة — لا تكون أكثر من ثورات على القصر . وعندما تهدأ الأمور يخاطر المنتصرون باجراء استفتاء . اذ لا بد من المحافظة على المظاهر ، وقد استقرت بعض الانطباعات تماما عن ارادة الشعب في ذهن « جون جونس » . ومن هنا ، بالطبع ، كانت « ديمقراطية » دستور ستالين سنة ١٩٣٦ .

وقد يصبح « جون جونس » متعبا بعض الشيء من الاضطرابات السياسية ولكنه بالتأكيد في الفترة « الثرميدورية » ليس في حالة جيدة بوجه عام . ومن أكثر التماثلات اثارة للانتباه والتي نستطيع أن نقبينها في هذه الفترة أن الناس ، وبوجه خاص في فرنسا وروسيا ، الى حد ما أيضا في إنجلترا سنة ١٦٥٠ وفي أمريكا أثناء « مواد الاتحاد Articles of Confederation » كانوا يعانون كثيرا من الناحية الاقتصادية ، وبوجه خاص أفقر الطبقات ، أكثر مما كانوا يعانون خلال فترة الارهاب أو خلال السنين الأخيرة للنظام القديم . وعندما تخلى « الثرميدوريون » في فرنسا عن تحديد الأسعار وصرف كميات محددة من الطعام ( بالبطاقات ) ارتفعت الأسعار ، وسارت العملة الورقية في طريق التدهور ، وأصبح

الفقراء في حالة سيئة جدا . ويبدو أن هناك اتفاقا عاما على أنه كانت هناك معاناة شديدة في فرنسا في شتاء ١٧٩٥ ، ١٧٩٦ أكثر مما كان الحال في أي وقت آخر في العصر الثوري . ومع ذلك فإنه فيما عدا عدد قليل من الاضطرابات المثيرة الخاصة بالخبز في باريس وفي بعض المدن الكبيرة حيث تستطيع الحكومة القضاء على تلك الاضطرابات بسهولة ، لم يحدث شيء . وبالمثل في روسيا ، يبدو أنه ليس هناك شك في أن « تصفية الكولاك kulaks » والمجاعة الكبيرة خلال الخطة الخمسية الأولى كانتا ايذانا كبيرا بالموت والبؤس أكثر مما كان في فترة حرب الشيوعية . ومن المحتمل أن يكون تفسير فشل هذه المعاناة في أحداث اضطراب هو أن المعاناة ليست في ذاتها حافزا لثورة فعالة ، وربما كان السبب أن الطبقة الحاكمة الجديدة في فترة « الترميدور » تستطيع أن تستعمل القوة وتستعملها فعلا بقدرة لم تكن في مقدور الطبقة الحاكمة القديمة ، وربما أيضا بمجىء عهد « الترميدور » يكون السواد الأعظم من الشعب وهم من غير الأغنياء أو الفقراء ، وليسوا على هامش الوجود قد أصبحوا منهوكة القوى ضعفاء وضاقوا ذرعا بخبرات الجهاد في سبيل جمهورية الفضيلة » .

ان انتشار المثل العليا جاء عن الحروب التي كان الثوار يثيرونها لينثروا تعاليمهم . ومما لا شك فيه أن هذه الحروب لم يكن الغرض منها كلية نشر هذه التعاليم ، ولا شك أيضا أن شعارات هذه التعاليم استمرت مدة طويلة بعد فترة التآزم البطولية . ولكن القومية العدوانية تحل بالتدريج محل الروح التبشيرية ، وبالتدريج يصبح الجهاد من أجل نشر المبادئ المسيحية حربا للغزو . فكرومويل حول الطاقات الانجليزية لاعادة غزو ايرلندا وبالتالي لاستعادة الهبة الانجليزية في الخارج . والاستيلاء على جامايكا شيء صغير اذا قورن بغزوات نابليون ، ولكنه من نفس « النموذج » الاجتماعي . ويظهر سكسبي وبليك في السنين الأولى اتخذت القومية شكل الرغبة في جعل كل اوربا جمهورية ، وعند منتصف الحقبة الخمسينية عادت القومية الانجليزية الى مسالك أكثر طبيعية .

وكانت القومية الفرنسية في ظل حكومة الإدارة و نابليون تتفق والنموذج الذى سقتناه آنفا ، وهذا واضح حتى بالنسبة لمن يعبدون نابليون .

وفي روسيا في الأيام الأولى للثورة نبذت فكرة القومية بالمعنى العدوانى وفقا لأحسن تعاليم ماركس ، وبالمعنى الثقافى الخالص أصبحت القومية هى الأساس القيم للاتحاد السوفيتى . وبالنسبة للكثيرين من المعجبين بالثورة الروسية ، لن يكون واضحا أن روسيا قد تجاوزت أيضا مع « نموذجنا » ، وأنها قد تلاءمت مع القاتون الذى بواسطته تصبح مبادئ الثوار المسيحيين المناصرين فى البلاد الأخرى هى القومية العدائية التى ألفناها . والمرتاب وحده هو الذى يستطيع أن يقول ان المساواة الاتحادية للجماعات القومية داخل الاتحاد السوفيتى لم تثبت عدم تلاؤمها مع السيطرة العملية للروس العظام ، رغم أنه لا مجال للشك فى أن الحكومة السوفيتية كانت فى أغلب المواقف أكثر تحررا تجاه الجماعات القومية الأخرى مما كانت روسيا القيصرية ، وأنها كانت أكثر نجاحا فى ادماجها فى الوحدة الأكبر لاتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية . ومع ذلك حتى فى داخل الجمهوريات الاشتراكية للاتحاد السوفيتى القديم ، كان من الضرورى قمع المان الفولجا وبعض الجماعات المستقلة فى القوقاز بعد طرد الجيوش الألمانية فى ١٩٤٣ — ١٩٤٤

وأكثر أهمية لأغراضنا عودة القومية العادية الى الظهور بشكل واضح فى روسيا أيام ستالين . ففى الثلاثينات من سنة ١٩٣٠ ، كان المراقب الصديق لروسيا يستطيع أن يفسر العلامات الواضحة لآحياء القومية — مثل رد اعتبار الأبطال القدامى فى عهد القيصرية ، والعودة الى سياسة توازن القوى التقليدية ، وما الى ذلك — على أنها اجراءات دفاعية بحتة ضد تهديد هتلر . ولكن منذ عام ١٩٣٩ لا يستطيع أحد سوى الشخص الغليظ القلب أن يشك فى أن روسيا الماركسية لا تقل فى حماسها للقومية عما كانت فى عهد روسيا القيصرية . وإذا كان الصحفيون المحافظون الأغبياء فى الغرب لا يميلون الى هذا القول فان هذا ، لسوء الحظ لا يغير شيئا من صدق هذه الحقيقة .

ويقول الأستاذ ن. س. ثيماشيف من فورد هام في سنة ١٩٤٣ في بيانه المعتدل عن عملية مخطط احياء القومية الروسية :

ان روسيا لم تندمج في المجتمع الدولي الذي لم يقدر له بعد ان يولد . ويحق لنا القول بأنه ، خلال فترة معينة من الزمن ، كان اسم روسيا موضع اجتناب دقيق ، على الأقل من حيث ارتباطه بواقع السياسة العامة التي تقررها موسكو : وفي سنة ١٩٣٢ نشأ اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية الذي لم تكون الجمهورية الروسية الاشتراكية غير جزء منه . ولكن بعد ذلك بعشر سنوات تقريبا ، بدأ الزعماء يستخدمون لفظ روسيا كبديل لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية . ولم يلبث ان عاد لفظ « القومية » الى الظهور مشيرا الى حب بلد معين . وفي البدء كان الاصطلاح هو « القومية السوفيتية » ، ولكن عدد الحالات أخذ يتزايد سنة بعد سنة حتى استعمل اصطلاح « القومية الروسية » . وفي خلال الحرب العالمية الثانية طغى اسم روسيا بشكل نهائي على « اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية » في التقارير الرسمية ، وفي الأعمال الأدبية التي ترتبت على جهود الحرب ، وفي الخطب التي كانت تقال في نفس المناسبة وما الى ذلك ؟ ومن الواضح ان لفظ « روسيا » له تأثير عاطفي اقوى بكثير وانه ذو قوة محرّكة اعظم من عبارة « اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية » . والآن يتحدث الناس بطريقة شائعة عن الأعمال الجيدة « لشعوب روسيا » ، وعن انتاجها الفني الذي لا يضارع ، وعن شجاعته... الخ . وعبارة « شعوب روسيا » يشير الى مرحلة ذات مغزى هام في الموقف : فالقومية الجديدة ليست قومية عنصرية او متصلة بالأجناس وقاصرة على أكثر الجماعات العنصرية عددا والتي تعيش داخل حدود الدول السوفيتية ، انها نوع من القومية المتحدة تضم كل الجماعات التي تتكون منها أسرة « شعوب روسيا » . وهذه القومية الجديدة اقرب الى الوضع الذي كان سائدا في روسيا حتى سنة ١٨٨٠ منها الى « القومية » الأضيق نطاقا في عشرات السنين الأخيرة قبل الثورة .

### ٣ - عودة الكنيسة :

ان وضع الأديان المعروفة في النظم القديمة من أحسن الدلائل على طبيعة ردود الفعل « الثرميدورية » ومداها . وقد رأينا في الفصل الأخير أن المتطرفين نموا ما كان يجب علينا أن نسميه ديننا خلاصا بهم ، أى ايمانا نشيطا ، مجاهدا ، غير متسامح ، يرسل المخلصين من أتباعه للسيطرة على أبواب الجنة فى الأرض . ومن الأمور الطبيعية جدا أن المتطرفين اضطهدوا أثناء سيطرتهم القديمة المستقرة ، سواء منها الكاثوليكية والبروتستانتية . وأن المستقلين الانجليز اضطهدوا البابويين والأسقفيين والبريسبيتريين بشدة ربما تفاوتت حسب هذا الترتيب نفسه . وفى فرنسا كانت الكنيسة الكاثوليكية لفترة طويلة درعا للفلاسفة . ولم يكن اليعقوبيون المنتصرون جميعا متفقين على معاملتهم للكنيسة الكاثوليكية أو حتى على الإصلاحات المرغوب فيها . فعبادات العقل ، والوطن ، والكائن الأعظم ، كان لكل منها أتباعها . وقد تمكن معظمهم من الاتفاق على عدم الاعتراف بالكاثوليك غير الملتزمين بالقانون الذين كانوا يدينون بالولاء للبابا . وفى أوج الارهاب كان أقوى « المناهضين للمسيحية » يفعلون ما يشاءون فى بعض المناطق ، فدمروا الكنائس أو شوهوها وحكموا بالاعداء أو بالنفى على القسس ، وسخروا على المسرح من الطقوس الكاثوليكية . وقد كان فوشيه هو الذى تسبب فى أن يكتب فوق « بوابة » المدائن فى نيفرس العبارة التالية : الموت نوم ابدى .

ولقد كان البلاشفة يكرهون الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية بدرجة لا تقل عما كان يشعر به اليعقوبيون نحو الكاثوليك الرومان . ان كانوا يعتقدون اعتقادا راسخا أن الدين « أفيون الشعوب » . وكانوا يعتقدون أنهم علميون ، وبالتالي لا دينيون . ولما وصلوا الى الحكم شنوا حملة قوية ضد الكنائس ، رغم أعمالهم الكبيرة الأخرى وبخاصة فى الأيام الأولى للحرب الشيوعية . واستعملوا العنف ضد أشخاص رجال الكنيسة وضد مبانيها ، وأغلقوا الأديرة وما الى ذلك . وكان القسس يعتبرون ضمن

الجماعة غير المنتجة ، وقاسوا اكثر من سواهم من نقص الغذاء خلال فترة المجاعة الكبرى . ومع ذلك فان المرء يشعر بأن الارهاب المحض الموجه ضد المسيحية المنظمة في روسيا لم يكن بالشدة التي كان عليها في فرنسا . وكان للبالاشفة عقيدة كبرى في قوة التعليم الصحيح ، وخططوا منذ البداية احتكار الدولة الذي يؤمن النشء ضد تعرضهم لخطر عدوى الافكار المسيحية . وبالنسبة للبالغين كانت الحكومة تركز الى الدعاية ضد الدين ، والى المتاحف التي تعرض زيف الدين القديم وفظائعه ، والى نشر الوعي بوجه عام والرغبة في طيبات هذه الدنيا . وتكونت « عصابة المحاربين اللادينييين » بتأييد الحكومة ، وأخذت الصحف تكتب بجماس لتنفّر الناس من الدين ، ولفترة ما في العشرينيات من ١٩٢٠ كان المراقبون الأجانب يقولون ان المسيحية في روسيا في طريقها الى الزوال .

الا أنه لا يمكن أن يقال ذلك باطمئنان في ١٩٥٢ . فمن الصعب جدا الحصول على معلومات موثوق بها عن مركز المسيحية المنظمة في روسيا . ففيما يتعلق بهذا الموضوع ، بل وفيما يتعلق بمعظم الموضوعات الأخرى ، قد يكون من الصعب الحصول على معلومات كافية ولكن يبدو أنه من المقرر بصفة قاطعة أن المسيحية الآن وبعد خمسة وثلاثين عاما من سيادة البلشفية لم تندثر في روسيا بل وانها ليست قاصرة كلية على المسنين الذين نشأوا قبل الثورة . ويبدو واضحا أن الحكومة الروسية كانت خلال الحرب الأخيرة ، تعمل على حفظ الروح المعنوية عن طريق ما تبقى من المسيحية الأرثوذكسية . بل وفي الثلاثينات من سنة ١٩٣٠ كان هناك ما يدل على أن الكنيسة في سبيل التفاهم مع الشيوعية . ولكن يبقى أيضا أن الشيوعية — مثل اليعقوبية من قبل — تأخذ مأخذ الجد مهمتها ضد المسيحية . وقد يحدث بعد جيل أو جيلين أن تنمحى المسيحية بشكل حقيقي من روسيا ، رغم أنها لم « تمح » — فيما يعتقد المرء — في كثير من الدول الموالية لروسيا مثل بولندا والمجر . وقد يبدو أكثر احتمالا أن المسيحية في روسيا ، كما في فرنسا ، وكذلك « المادية » المكافحة المعادية للمسيحية سيميشان جنبا الى جنب في تسامح مضطرب متبادل . وخلال ذلك ، من الواضح أن

سياسة الجذر والفرع ( التي طبقت في الثورة الإنجليزية ) لم تطبق حتى في روسيا . ولا يزال ممكنا في ١٩٥٢ مشاهدة شعائر الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية في أرض الثورة الماركسية الناجحة . وقد لا يحضر أعضاء « المكتت السياسي Polit-bureau ، قداس الكنيسة الأرثوذكسية ولكن معظم هيئة ضباط الجمهورية الفرنسية الثالثة كذلك لم يحضروا القداس بصفة رسمية . ومع ذلك فقد تكون الشيوعية الرسمية مادية نقية ، وضعية ، وضد العقائد الكنائسية شأنها في ذلك شأن الاشتراكية الراديكالية الفرنسية الرسمية في أيامنا — رغبة بطريقة غريبة في الإبقاء على المسيحيين الذين كفوا عن محاولة استعبادهم .

ومن كل الوجوه يجد المرء نقتا من الحقيقة تشير كلها الى نتيجة واحدة . فتحت الحكم الثرميدورى لستالين ، اخذت الأرثوذكسية تنسحب بالتدريج الى مركز معترف به وان كان لا يزال غير مستقر في الحياة الروسية . وليس معنى هذا القول أن المناضلين اللا دينيين صاروا غير نشطين أو أنهم بدورهم سوف يجدون أنفسهم مضطهدين . وليس معناه كذلك أن الكنيسة الأرثوذكسية هي اليوم تماما كما كانت أيام القيصرية فالأمر على العكس ، إذ من الواضح أن رجال تلك الكنيسة ، وقد عرفوا بجمودهم وعدم فاعليتهم ، قد تحركوا للقيام بمجهود واقعى للتكيف مع الظروف الجديدة . ولكن معنى ذلك أن طقوس الكنيسة لا تزال مستهجرة في روسيا التي لم تعد تماما روسيا المقدسة كانت قديما ، ولكنها لم تنفصل عن نظام ارتبط بتاريخها من آلاف السنين .

وفي فرنسا سار التوفيق بين الثرميدوريين والكنيسة القديمة بسرعة شديدة حتى أن نابليون استطاع خلال أقل من عشر سنوات من حركة « مناهضة المسيحية » على يد الارهابيين أن يوقع اتفاقا مع البابا أعيد بمقتضاه اعتبار المذهب الكاثوليكي الرومانى المذهب الرسمى للدولة في فرنسا .

وخلال أسوأ عهود الارهاب ، كان على الكاثوليك في فرنسا أن

يقيموا شعائرهم سرا ، على رغم الحقيقة الواضحة وهى ان حرية العبادة كانت مكفولة قانونا . ويسقوط رويسبير بدأوا يخاطرون باقامة الشعائر العامة فى المانى التى كانوا لا يزالون يحتفظون بها . وكلما تم العفو عن عدد اكبر من المعتدلين ، اتخذت الحكومة موقفا وديا أكثر فأكثر ، وقد شهدت السنوات الأربع الأخيرة من القرن الثامن عشر حرية دينية كاملة فى فرنسا وفصلا بكاد يكون تاما بين الكنيسة والدولة . ولقد شعر شعر نابليون وكثيرون من أفراد الطبقة الحاكمة الجديدة بالحاجة الى ان يضبوا الكاثوليك تماما الى صفوفهم ، ولذلك أبرم الاتفاق الرسمى . وبعد ذلك لم تكن الكنيسة الكاثوليكية التى أعيد تأسيسها ، فى نفس الوضع الشرعى الذى كانت عليه فى ظل النظام القديم بالضبط عندما كانت مصدر الايمان الوحيد المعترف به . وبمقتضى القوانين الجديدة منح البروتستانت واليهود وضعاً مساويا لوضع الكاثوليك .

ولا تدخل المسيحية المنظمة فى الثورة الأمريكية بنفس الطريقة . ومع ذلك نجد فى انجلترا تشابها يلفت النظر مع الخطوط العريضة للنمو فى فرنسا وروسيا . فمصدر الايمان المستقر فى النظام القديم كان هو كنيسة انجلترا وهى ، من نواح كثيرة ، من حيث العبادة ، واللاهوت ، والحكومة ، ليست شديدة البعد عن التقاليد الكاثوليكية . وكان مصدر الايمان الثورى الجديد هو مذهب كلفن Calvin بصورة المتعددة التى انتصر منها أخيرا المذهب المستقل . فتحت حكم المستقلين كانت العبادة الانجيلية ، وكذلك المذاهب الأخرى المنافسة للعبادة الكالفينية مضطهدة . وكان هذا الاضطهاد الدينى أشد مما فى فرنسا وروسيا . كان المتنازعون فى تلك المذاهب علماء ذوو محصول لغوى وفى ومعتقدات ثابتة . ومن ناحية أخرى ، كانت أعمال العنف والمذابح فى المنازعات الدينية المباشرة خلال الثورة الانجليزية ما عدا فى ايرلندا أقل مما كانت فى كل من فرنسا وروسيا ، ويقع الشيع الأكثر تطرفا وبخاصة شيعة انصار السلام ، يبدأ التآرجح الى الخلف فى انجلترا . ففى السنين الأخيرة لحكم كرومويل ، اثبت البروسبيتاريون وحتى الانجيليون



وجودهم في الحياة العامة وواصلوا طقوسهم الدينية في حرية حقيقية .  
وحيثما عاد شارل الثاني كانت كنيسة انجلترا قد اعيد تأسيسها بشكل  
قريب للغاية من مكانتها وامتيازاتها القديمة ، واخذت الدورة شكلها  
العادي باضطهاد الشيع التي صنعت الثورة .

واذن فتاريخ الأديان المعترف بها في النظم القديمة هو من أوضح  
التشابهات التي تبينها لنا دراستنا للشورات . ونستطيع أن نرسم  
رسما بيانيا تسير فيه مكانة الأديان المنتظمة القديمة في خط منحني يصل  
الى أدنى درجة في أسوأ عهود الارهاب ، ويأخذ في الصعود تدريجيا خلال  
زمن الفعل الثرميدورى حتى يبلغ مركزا يكاد يكون مساويا في الارتفاع  
لذلك الذي بدأت منه في العهد القديم . أن مثل هذا الرسم البياني قد  
يكون بسيطا خصوصا اذا تضمن تفسيره فكرة أن الكنيسة المستعادة  
كانت هي نفسها الكنيسة القديمة تماما . فلا الناس ولا النظم تمر خلال  
ازمة الثورة دون تغيير . ان القسس الذين عانوا الاضطهاد لم يكونوا  
مطلقا — فيما بعد — هم نفس الرجال الذين كانوا يتمتعون  
بالاطمئنان في العهد القديم ، كما أن « المهاجرين » الذين عادوا من  
المنفى لم يكونوا نفس الرجال الذين كانوا فيما مضى أعضاء في الطبقة  
الحاكمة لا يتحداهم أحد . وسننظر فيما بعد في تغير النظم التي استعيدت  
— ظاهريا — بعد الثورة . وهنا ينبغي أن نقول كلمة عن المهاجرين من  
القسس ، والنبلاء ، والأغنياء الذين تعتبر عودتهم الى الحياة العامة  
احدى الظواهر المميزة لفترة الثرميدور .

وانه ليسعدنا أن نختم حديثنا في هذا المجال بأن رجال الكنيسة  
القدماء عادوا وقد تطهروا وزادت قوتهم باختبار الاضطهاد والمنفى ، وان  
الحكام القدماء عادوا وقد أصبحوا أكثر تأدبا وأكثر حكمة . ولكن هذه  
النتيجة لا تبدو ممكنة . فهناك شواذ ، مثل الدوق، ريشليو الذي تعلم  
الاعتدال وفن حكم الناس خلال مدة نفيه الطويلة في روسيا ، ثم عاد  
ليخدم لويس الثالث عشر باخلاص على مايرام . ومع ذلك ، فان عواطف  
المهاجرين الدينية وافكارهم الأخلاقية والسياسية ضاقت ، واشتدت ،

وجمعت نتيجة لما قاسوه من الآلام . فكاثوليكية جوزيف دي ميستر كانت ذات طابع صلب وخشن غير مألوف في الإيمان الذى نشأ عليه في النظام القديم .

ان كتب المواعظ هى وحدها التى تقول ان الشدة دائما معلم نافع . اما العالم الذى سيق اليه الملكيون الانجليز ، والمهاجرون الفرنسيون والروس ، فنجد فيه ان الشدة علمتهم القبول الرومانسى المستسلم دون اعتراض لصور الولاء التى ظنوا أنها قديمة ولكنها في الواقع كانت جديدة كما انها كانت تجريدات ذات قوة عالية مستمدة من خبراتهم الجديدة داخل مساح النضال . عادوا وقد نسوا الكثير ولكنهم تعلموا الكثير — وهو في الغالب معلومات لا هى نافعة ، ولا هى واقعية . وانه لموضوع شائق ذلك الذى يبحث فيما يحدث للمهاجرين والمهزومين والمعتدلين الجبناء ، ويستحق دراسة أعمق من ذوى الكفاية . ورغم البحث الكثير الجيد على مستوى التاريخ القصصى ، فانه من أكثر الموضوعات غموضا في علم الاجتماع الخاص بالثورة . ولكن على اية حال فان المهاجرين العائدين لا ينفردون بالعمل ، ولا يحددون بأية وسيلة المجرى النهائى لرد فعل الثورة . وحتى في إنجلترا في ١٦٦٠ ، وفي فرنسا في ١٨١٤ ، لم يستطع أكثر المهاجرين العائدين تطرفا تسيير الأمور على النحو الذى كانوا يريدون . فأمثال دوننج وتاليران وفوشيه ، وجدوا الرجال الذين على مسرح الأحداث تقدموا بكثير جدا .

#### ٤ — البحث واللهو :

ان الملامح الكاملة لرد الفعل الثرميدورى متروكة للمؤرخ الاجتماعى . ففى الملابس ، والملاهى ، وفي التفاصيل الدقيقة للحياة اليومية للرجال والنساء العائدين ، يبدو واضحا تخلى الشعب عن الجمهورية الفضيلة . وهذا التخلي واضح جدا حتى أن المؤرخ نفسه يشعر به ، ولم يخف اغلب مؤرخى القرن التاسع عشر الأحرار اشمئزازهم وخيبة أملهم عندما قاموا بتسجيل اللهو البذى الذى انغمس فيه الناس في عهد عودة الملكية في

انجلترا او عهد حكومة الادارة في فرنسا . . وبدت بساطة الحياة الطيبة وخشونتها وفقا لآراء كلفن او روبسبير مستوى رفيعا ، وهدفنا ينبغي ان يناضل الناس بشجاعة الأبطال للوصول اليه . فأنفعال المجتمع الذى كان فيه نل جوين Nell Gwyn او تيريزيا كباروس Teresia de Cabarrus اهم الممثلين بصورة واضحة لا يمكن أن تتقف أى انسان ولا يمكن أن تهذب النفوس الا باضافة العظمت المناسبة . ولا شك أن كتاب الفضائح ، ورواة سير الناس ، وغيرهم من دعاة الفساد قد انقضوا مبهتهجين على أطايب الثرميدور الناضجة . ولكن واسعى الأفق من الناس الذين يكتبون التاريخ بطريقة جدية مروا بهذه المراحل وقد سدوا انوفهم . ومع ذلك فاننا نستطيع — من المصادر المختلفة — ان نجد ما نحتاج اليه من معرفة بالتاريخ الاجتماعى لمجتمعاتنا في هذه المرحلة الخاصة من الثورة . وسنحاول تجنب كل ما يثير عواطفنا ، وأن نرى كيف أن الانحلال الخلقى الواضح لردود الفعل الثرميدورية متلائم مع التشبهات التى اعدناها بدقة . ولكن لنستعرض الحقائق أولا .

بعد اعدام روبسبير وأكثر أتباعه بروزا بأيام قليلة بدأ الباريسيون ينغمسون في المذات بشكل عام ويتمتعون بسلسلة من المباحج التى حرموا منها أثناء فترة الارهاب . وربما اعتقد السياسيون أن « الارهاب لن يكف عن أن يكون نظاما للحياة قبل أن يقضى على آخر اعداء الجمهورية » ، ولكن الرجال والنساء العاديين قد فرضوا مطالبهم وحاجاتهم الواضحة على السياسيين مباشرة . ان ظواهر قليلة خلال الثورة الفرنسية كانت « شعبية » و « تلقائية » بشكل حقيقى أكثر مما كان النفور من أساليب القمع أيام الارهاب . ولقد نظر الناس في باريس الى موت روبسبير على أنه اشارة الى أن الكابوس قد انزاح .

وفتحت صالات الرقص في جميع أنحاء باريس ، وبدأت النساء الساقطات يمارسن أعمالهن « بجراتهن السابقة المألوفة » ( من تقرير للبوليس ) ، وبدأ الشبان المتأثقون — وهم في الغالب من السكارى غير الجمهوريين — يجوبون الشوارع مجاهرين بأرائهم ، بينما الجمهوريون

الفضلاء يتعقبونهم . وهؤلاء الشباب كانوا هم الشباب الذهبى « المشهور ، شبان مترفون ليست لديهم عقيدة جمهورية الفضيلة ، وممن يطلق عليهم اليوم فوراً » فاشيون . وكانت أزياء الرجال والنساء قد أخذت أثناء فترة الأزمنة تميل الى التشفيف ، وقد تدرت النساء فى أزياء جميلة ذات طابع رومانى ، وبأكثر من الفضيلة الرومانية . وعندما تغير كل شىء ، أصبحت ملابس الرجال أنيقة الى أبعد حد ، سراويل محكمة ، صدارى متقنة التفصيل ، وأغطية رقبة تصعد الى ما فوق الذقن . ولكن صانعو أزياء النساء لا يزالون يستوحون الأزياء الكلاسيكية ، ولكنهم بحاسة جمالية أكيدة ركزوا جهودهم على إبراز الصدور بمهارة . « وزى الديركتوار » هو رمز ممتاز للعصر .

ونتيجة تحديد الأسعار والتضخم المالى الذى اعتب ذلك ، ظهرت طبقة من المضاربين حديثى الثراء ، واغنياء الحرب والساسة الأذكياء . وفى الحقيقة تظهر الفضائح البرلمانية فى الفترات المتقدمة للثورات ، بل وفى فترات التأزم ومن الممكن اثبات فساد بعض أعضاء « البرلمان الانجليزى الطويل » و « المؤتمر الفرنسى » حتى فى أيامهم البارزة . ولكن فى هذه الفترات المتقدمة كان التشهير يتبعه عقاب سريع أكيد أما فى فترة الثرميدور ، لم يكن أى انسان يبالى بشىء وبالتأكيد لا يحدث شىء . فهناك اشاعات وفى بعض الأحياء سخط . ولكن السياسيين الذين اختلسوا بطريقة موفقة كانوا فى العادة موضع إعجاب ، كما حدث ذلك مؤخرًا فى الولايات المتحدة . ولما كان الثرميدوريون يهابون الارهاب ويخشون عودته ، لا يطمئنون على ثروتهم ومركزهم ، ولما كانوا فى الغالب غير ملمين بالفنون النبيلة ، فقد أنفقوا أموالهم عن سعة وبطريقة مبتذلة . فقامروا ، وكانوا يشتركون فى سباق الخيل وكانوا مولعين بالرقص الى حد الجنون . كل ذلك كانوا يعملونه ويعلنونه على الملأ ، غير مكترثين بالأصول المتبعة فى القرن الثامن عشر . وفى هذه السنوات القصيرة وضعت الأسس الحقيقية للذوق الرومانتيكى لفرنسا فى القرن التاسع عشر . فسيدات هذه الفترة مشهورات بمرجهن وانطلاقهن . وكانت على رأسهن

تريزا كياروس ، التي كانت في وقت من الأوقات خليفة للنائب الفاسد تاليان ثم أصبحت زوجته . وكانت معروفة في كل مكان ، بعبارة تظهر سخرية العصر وهي « سيدة الثرميدور » .

وكنا يعرف عصر شارل الثاني على أنه رد فعل متطرف لحكم القديسين . و « قصة عودة الملكية » كانت ، لا سيما منذ العصر الفيكتوري ، رمزا للعبث ، لأن هذا النوع من المسرحيات لم يكن يشهده الشخص المتزن دون أن يحمر خجلا . فنيل جوين كان قد سيطر ، في الذاكرة الوطنية ، على حياة القصور التي كانت الرذيلة فيها أرستقراطية بالقدر الذي يمكن أن يرغب فيه ويتوقعه أشد العامة تمسكا بالفضيلة . وفي الواقع لم يكن القانون البيوريتاني للسلوك والأخلاق قد استقر بالكمال المطلوب ، حتى في السنوات التي أعقبت موت شارل الأول مباشرة . فالملاذات الأثل انتشارا كانت ممكنة دائما ، وتحريم سباق الخيول ، وإثارة الدببة ، والاحتفال بأعياد ميلاد المسيح وما إليها كانت عرضة للإلغاء مثل تعديل البند الثامن عشر في الدستور الأمريكي . والصرامة الشديدة التي بدت في بعض التحريمات البيوريتانية كانت في حد ذاتها دليلا على أن البيوريتان كانوا يملكون بأوقات عصيبة محاولين أن يجعلوا أفراد الشعب الانجليزي جميعا يسلكون بطريقة لا تجعل « رائحتهم الكريهة تزكم أنوف المنصفين » .

على أن الحكم البيوريتاني كان في الحقيقة صارما وجامدا لدرجة أن جعل البيوريتان يضجون بالشكوى لأكثر من سبب ، وفي خطوطه الأساسية كان رد الفعل الثرميدوري في إنجلترا واقعيا كما كان مفروضا أن يكون في فرنسا . فلم يكن هناك في إنجلترا نفس الخليط من الوصوليين والأرستقراطيين المحظوظين كما كان الحال في فرنسا ، ومن وجهة النظر الجمالية نقول أن رد الفعل في إنجلترا كان على مستوى أعلى بكثير مما كانت عليه الحال في فرنسا . ولكن من حيث العودة الصريحة الى الملاذات الحسية ، والمقامرة ، وتعاطى الخمر والرقص ، والحب ، والى الأدب الحسى الخفيف ، والاستمتاع الصريح بالملابس وما إليها من الأشياء التافهة ، نجد أن البلدين

متشابهان تشابها يكاد يكون تاما . ولم تكن فترة « عودة الملكية في إنجلترا » خالية مما تجد فيه النفوس الطاهرة حرجا وابتذالا . وبصفة خاصة كان التباين ملفتا للنظر في أزياء النساء اذا قورنت بالتكشف الذى كانت عليه في الفترة السابقة . فقد ارتدت السيدات ملابس ذات ألوان صارخة بل ومتعارضة ، ووضعن على رؤوسهن اغطية عالية للرأس ، ومساحيق غريبة على وجوههن ، ولبسن وعرضن بمهارة أزياء داخلية مطرزة .

ونحن في حاجة شديدة الى ان نبحث هذه النقطة حول فك القيود الخلقية في الفترة الثرميدورية في إنجلترا وفرنسا . وسنكون شديدي الحرص عند تقرير الحقائق حول فك القيود الخلقية في الاتحاد السوفيتي . ومع ان الحقائق لم تتضح حتى الآن في كتب التاريخ ، الا انه قبل التهديد بالحرب والعمل على التكشف ، كانت في روسيا علامات حقيقية على العودة الى المذات البسيطة للجسد . ويبدو انه لم يكن هناك نل جوين أو مدام دى كابروروس في روسيا . ولكن مرة أخرى يجب الا نتوقع ان يكون التشابه دقيقا بشكل يدعو الى الشك . ففي خطوطه العريضة ، نجد ان الثرميدور الروسى يسير بطريقة حقيقية ليتكون أخلاقيا واجتماعيا على النحو الذى وجدناه عليه في الناحية السياسية .

فأولا بدأ الثرميدور في روسيا ابا ن حياة لينين نفسه مع السياسة الاقتصادية الجديدة في ١٩٢١ . اذ سمح بالملكية الخاصة والتجارة الخاصة مرة اخرى في روسيا . والطبقة الجديدة من المستثمرين الذين ظهروا نتيجة لذلك تذكر المرء تماما بطبقة أغنياء الحرب الذين ظهروا في فرنسا نتيجة لعدم تحديد الأسعار بعد سقوط روبسبير . ولم يكن هؤلاء الناس متأكدين تماما من وضعهم ، ونقلوا الى انشطتهم الشرعية الجديدة الكثير جدا من العادات التى اكتسبوها في عملهم في السوق السوداء أيام الارهاب . وكانوا « كطبقة مبتذلين » الى حد يفوق الوصف ، وبنفيعين ، وغير ناضجين ، وصاخبين . وفي السنين القليلة التالية عاد البغاء ، والمقامرة ، والمذات اللاماركسية الأخرى بشكل واضح في موسكو وليننجراد الى

حد أن الأنصار وحدهم هم الذين كانوا يعجزون على رؤيتها .  
لربما كان ما يمنع اغلب الأجانب في روسيا منذ ١٩١٧ في استعمال ما يسمى  
حاسة البصر ليس هو جهد الشيوعيين الذين يعهد اليهم بمرافقتهم بقدر  
ما هو اقتناعهم العقيدى القوى بأن كل شيء يجب أن يكون على ما يرام  
في جنة ماركس . ومع ذلك حتى بدء الخطة الخمسية ، كان رجوع الرذائل  
البورجوازية واضحا جدا ، لاسيما في أواسط العقد العشرين حتى أن  
الشيوعيين الأجانب لاحظوا ذلك .

وعودة ستالين بشكل واضح الى الشيوعية في ١٩٢٨ — ١٩٢٩  
ليست في الواقع أهم من تبرؤ نابليون الظاهر من الفساد والانحلال  
الخلقى في عهد الادارة عندما حقق لنفسه سلطة آمنة بانقلاب ١٨ برومير .  
ويبدو أن هناك في كل مجتمعاتنا رد فعل ما لرد الفعل الثرميدورى ،  
وبخاصة فيما يتعلق بجرى العامة وراء اللذات . ان جماهير الناس  
لا تستطيع أن تهب نفسها ببطولة وبصورة دائمة للخطيئة ولا للامور  
الدينية . وصلات الرقص الالف التى قيل أنها فتحت في باريس اثر  
الارهاب ما كانت لتستمر في الربح الا لأن معظم سكان باريس ارادوا ان  
يرقصوا معظم الوقت . وعلى عكس الآراء الانجلوسكسونية ، فان  
الباريسيين لم يخلقوا في الواقع هكذا .

وما حدث في السنوات التالية لأزمة الارهاب هو نوع من التذبذب  
بين التزمّت الأخلاقى والانحلال الأخلاقى يصل في النهاية الى نوع من  
التوازن يكون فيه سلوك معظم الرجال والنساء حيال هذه الأمور :  
المقامرة ، وتعاطى الخمر ، والحب ، وتزيين أنفسهم ، وشغل أوقات  
الفراغ هو بعينه سلوك أجدادهم وجداتهم . واذا نظرنا الى روسيا  
الستالينية قبل الحرب وسألنا انفسنا الى أى مدى كان يبدو هناك مجال لآدم  
القديم وجواء القديمة لكى يظهر في حياة الروس لحصلنا على مقياس  
دقيقى لحقيقة الثرميدور في روسيا أكثر مما لو حاولنا أن نفعل ذلك عن  
طريق النظريات الماركسية او المضادة لها .

ويحدثنا مستر يوجين ليونز بابتهاج خبيث عن قصة حيرة وغضب

أحد مراسلى صحيفة « النيويورك نرايهات » ، وهى صحيفة شيوعية ، حينما استبعد من حفل استقبال رسمى فى روسيا لأنه لم يكن يرتدى زى السهرة . فآزياء السهرة أصبحت جزءا من دكتاتورية البروليتاريا ، ولا يمكن أن يكون شىء أكثر من ذلك استحالة ، ومخالفة للمنطق ، وغير طبيعى لأقصى حد . فزى السهرة يفى بعدد من الحاجات البشرية — ويستطيع عالم الأجناس أن يحلل معظمها لك — ويبدو أن ليس هناك دليل على أن واحدة من ثوراتنا كان لها تأثير كبير على هذه الحاجات . فالقومسير Commissaire احتاج الى زى السهرة على الأقل كحاجة عضو الكونجرس أو رجل الجامعة اليه .

ومن الممكن أن نستطرد فى التفاصيل لنبين كيف أن دكتاتورية البروليتاريا فى روسيا قبل الحرب لم تكن بأية حال هى دكتاتورية الفضيلة التى رأيناها سائدة فى فترات الأزمات الملازمة لثوراتنا . فموسيقى الجاز ، مثلا ، ظلت محرمة فترة طويلة فى روسيا . ومن الواضح أن الجاز كان ثمرة حضارة بورجوازية منحطة ، وطريقة مبتذلة لاثارة ما لا يرغب فيه الماركسى الصالح أو يحتاج الى اثارته ، واحد صور « أفيون الشعوب » فى البلاد الرأسمالية . فالشيوعيون قد يرقصون فى سرور خالص على أنغام موسيقى بريئة حاملة . ومع ذلك ، ففى « العشرينات الأخيرة » بدأت الفوكس تروت والرقصات المائلة تتسلل الى روسيا الشيوعية ، ولقد ظلت موسيقى الرقص الأمريكية تعزف بكثرة وبطريقة سيئة فى روسيا كما فى باقى أنحاء أوروبا حتى أدت الأزمة الراهنة الى تجدد الكراهية والعداء للغرب .

وليست هناك حادثة مثيرة كسقوط رويسير يمكن استخدامها لتأريخ الترميدور فى روسيا . ولكن هناك جملة حلقات من الأمور البسيطة فى الحياة اليومية ترتبط بعضها ببعض لاعطاء انطباع واضح عن حقيقة رد الفعل الروسى . فقد ظهر أحد القادة الثيبان فى مؤتمر وطنى للشباب برباط رقبة ، ولا بد أن ذلك كان يصدم الحاضرين صدمة عنيفة لو حدث



في فترة سابقة كما لو ظهر مدير الجامعة بزى العمل في حفل توزيع الشهادات على الخريجين في هذه البلاد . وفي عرض للأزياء أقيم في موسكو سارت العارضات ، متهاديات مبتسمات بانحلال كما لو كن فتيات فقيرات أجيرات في باريس أو نيويورك . ومساحيق الشفافة والمساحيق الأخرى بدأت تظهر حتى في الحوانيت التي تشرف عليها الفتيات العاملات . وقصص الجريمة ، والقصص « المسلية » بدأت تظهر على صفحات الجرائد التي كانت حتى ذلك الوقت تأنف من تلك القصص الشائعة في البلاد الرأسمالية وتقتصر على الأمور السياسية العالية . واخرجت الأفلام السينمائية لتظهر فيها الكائنات البشرية المعروفة ، تافهة ، مثيرة للضحك ، غبية ، حسوده ، بل وروسية أكثر من الأفكار الشاحبة التي تمثل الرأسمالية ، ومالك الأرض ، والشيوخية ، وطبقة العمال والبروليتاريا والإنسان الثائر .

وقد كان البلاشفة ينظرون باحتقار الى الأسرة ، وكانوا يعتبرونها نظاما من العهد القديم ، اشرتكت في وضعه العناصر الدينية ، التي كانت محافظة من حيث تأثيرها الاجتماعي . وانها كانت عشا جامدا صغيرا يولد الأنانية ، والحسد ، وحب التملك ، وعدم الاكتراث بحاجات المجتمع الكبرى . وانها تركت الصغار يتلقون تعاليمهم من خرافات الكبار . ومن ثم أخذوا يعملون على هدم الأسرة ، وتشجيع الطلاق ، وتعليم الصغار انكار الذات وتعويدهم على المشروعات الجماعية والحياة الاجتماعية الجماعية ، وتخليصهم من تأثير الكنيسة في العلاقات الأسرية . أما الآن فيبدو أن ليس ثمة شك في أنه في روسيا المعاصرة تحاول الحكومة جاهدة أن تغرس فضائل الأسرة القديمة . فالأفلام والمسرحيات والقصص الروائية قد استعادت احترامها للوالدين ، وللروابط الأسرية القديمة ، ووصلت بها الى مكانتها مرة أخرى . ويبدو أن المروءة تجاه المرأة آخذة في العودة ، والمروءة تجاه النساء اثر سئء من بقايا الاقطاع ، ورمز لمركزهن الأدنى في المجتمع . والطلاق الذي كان في وقت من الأوقات سهلا ورخيصا بقدر الامكان اصبح الآن أكثر تكلفة وأكثر صعوبة . وأهم من هذا أن الحكومة كما يبدو آخذة في تشجيع انتشار الشعور بأن الزواج أمر جدى ودائم ،

شئ تصنعه السماء على النحو الذى تفهم عليه السماء الآن فى روسيا .  
والاجهاض الذى جعله البلاشفة القديما بفخر أمرا مشروعا وسهلا  
كاستئصال الزائدة الدودية فى أمريكا ، وشائعا شيوعها تقريبا ، قد حرم  
الآن بحكم القانون ما لم يكن لازما للإبقاء على حياة المرأة . وقد اتخذت  
اجراءات لتشجيع الأسرة الكثيرة الأولاد . ومرة أخرى ، قد تفسر هذه  
الاجراءات بأنها العداوة للدول الرأسمالية التى لا بد من أن يقاتل ضدها  
هؤلاء الأطفال الروس يوما ما . ولكن تبقى هذه الحقيقة وهى أن تشجيع  
العائلات الكبيرة ليس من تقاليد الفكر الاشتراكى أو الشيوعى قبل  
ستالين . ويكمن وراء هذه الاجراءات المتنوعة وأهم منها كدليل عام على  
ما يحدث فى روسيا ، هو جو يمكننا أن نسميه « فيكتورى » تقريبا . ويبدو  
أن حكام روسيا الحاليين يحاولون جديا أن يفرسوا المشاعر التى تتميز  
بها المجتمعات المتزنة - العواطف العائلية ، والوطنية البسيطة ، وحب  
العمل والروتين ، وطاعة الحاكمين ، وكراهية الشذوذ الفردى ، وباختصار  
ما أسماه باريتو « بالتجمعات » .

ولتحقيق هذه الأهداف ، أمر ستالين بالكف عن تجريد تاريخ روسيا  
من أمجادها بتعليم الروس مرة أخرى مفاخر الماضى الروسى . فالبلشرون  
البيزنطيون الذين أدخلوا المسيحية فى روسيا لم يعد ينظر اليهم  
على أنهم بلهاء اشرار وعملاء لما كان يسمى بالاستعمار الرأسمالى  
وأشخاص تافهون مثل المبشرين المعاصرين الذين يذهبون بالانجيل ،  
والخمور ، والأمراض التناسلية الى البحار الجنوبية . بل على العكس ،  
يجب أن ينظر الى المسيحية فى روسيا على انها خطوة أساسية فى اعداد  
السلاف المتوحشين لأشياء أسمى ولم يعد ينظر الى بطرس الأكبر  
وكاترين على أنهما حاكمان طاغيان . فقد كانا مهندسين عظيمين للمصير  
الروسى وبدونهما لم يكن فى الامكان للملايين السلاف والآسيويين الآخرين أن  
يتمتعوا بمباهج الشيوعية . ولربما كان ستالين يأمل فى أن يزيد حب الشعب  
له ، عند ما يعلم كيف كان الحكام الآخرون يحكمون الشعب الروسى فى  
الماضى كقياصرة .

## ٥ — روسيا ثورة دائمة ؟

ومع ذلك فمن الصعب علينا أن ننظر الى الثورة الروسية على انها انتهت في الواقع ، او أنها حتى على النحو الذى كانت عليه ثوراتنا الأخرى في فترة مشابهة من الزمن — بعد خمسة وثلاثين عاما — من بدئها . ففي روسيا ، كما رأينا منذ قليل ، كانت هناك بالتأكيد بعد ١٩٢١ علامات كثيرة على رد الفعل الثرميدورى . ولكن لم يكن هناك عودة رسمية الى النظام القديم . وهذه الحقيقة في حد ذاتها ليست هامة لأن العودة لم تكن في الواقع عودة النظم القديمة على النحو الذى كانت عليه قبل الثورة . « فكل عودة الى نظام قديم هي ثورة » وفقا للقول الفرنسى المأثور .

ولكى نعرض الأمر بطريقة أكثر وضوحا وبساطة ، يظهر للمراقب من الخارج كما لو أن شيئا في روسيا مثل عهد الارهاب والفضيلة وبخاصة استمرار الضغط على الفرد ليشارك في الحياة العامة وليكون دائما « في قمة الظروف الثورية » قد عاد الى روسيا من جديد . وفطائع التجميع الاجبارى في المناطق الريفية في « الثلاثينات » الأولى ، والمحاكمات ، والاعترافات ، وأعمال التطهير في السنين من ١٩٣٦ — ١٩٣٩ ، وهى التى بدأت باغتيال كيروف ، بل أحكام الخط الفاصل بين الشرق والغرب ممثلا في ظاهرة مثل مذهب ليزنكو Lysenko والخط الحزبى في الموسيقى والنقش ، كل ذلك يبدو في الحقيقة على أنه « ثورة دائمة » .

وهناك أولا ، تحذير طالما كررناه خلال هذه الدراسة . يجب الا نتوقع أن تكون ثوراتنا متماثلة تماما . فالتشابه الذى نبحت عنه في ثوراتنا ينبغى الا يصبح تطابقا تاما ، والا اتهمنا في الحقيقة بتزييفنا لتقاليد المنهج العلمى . وثانيا ، هناك تحذير آخر نبهنا اليه . يجب الا نقع في الخطأ الناتج عن اتخاذ طريق واحد للتعليل . واذا كان تشريح الثورة الروسية لا يتفق مع ثوراتنا الأخرى ، وجب علينا الا نعبر أن هناك متغيرا مفردا في الموقف الروسى — البطل أو الشرير — وأن هذا

يفسر كل شيء . فهنا كما في كل المواقف الاجتماعية المعقدة دائما نجد  
متغيرات كثيرة تعمل . ان ف. ب. ، و. جودين في كتابهما الحديث  
« التطهير الروسي وانتزاع الاعتراف » يحاولان تعليل العودة الى الارهاب  
من ١٩٣٦ — ١٩٣٩ التي سببها نسبة لرئيس البوليس السرى في ذلك  
الوقت «عصر بيزوف» . وهما يسجلان ما لا يقل عن خمس عشرة «نظرية»  
لتعليل العودة الى الارهاب في روسيا ، تلك العودة التي راح ضحيتها  
عدد ، ربما أكثر مما كان في عهد الارهاب في ١٩١٨ — ١٩٢١ . وفي كل  
منها يجدان على الأقل شيئا من الصحة .

وقد تعطينا احدى نظرياتها نقطة بداية لتفسير هذه الظاهرة :  
لماذا يبدو أن روسيا في ١٩٥٢ لا تزال — بتعبير لطيف — في فترة  
النقاهة من حمى الثورة . وهما يسميانها « نظرية آسيا » ، وهى في  
أبسط صورة لها النظرية القائلة بأن روسيا أمة آسيوية ولهذا فان  
ثورتها « الشعبية » التى تتم وفقا للتقاليد الغربية العظيمة لثوراتنا  
الأخرى لا تنتهى حتما الى نوع الديمقراطية الغربية الذى نعرفه في إنجلترا ،  
وفرنسا ، والولايات المتحدة . ومع التسليم بأن الثورات تنتهى بالعودة ،  
لا الى ما كانت عليه الحال من قبل ، ولكن الى نوع من التوازن ،  
وحالة من « السوية normalcy » تمت بصلة واضحة الى النظام  
القديم ، فان نهاية الثورة الروسية لا بد — طبقا لهذه النظرية — أن  
تكون شيئا أشبه كثيرا بروسيا أيام القيصرية ، والبوليس السرى ،  
والعنف المدنى ، والطغيان من القمة ، بل وفقر الجماهير وجهلها وأقرب منها  
الى إنجلترا في ظل القوانين التى صدرت في عهد شارل الثانى ، أو أمريكا  
ذات دستور ١٧٨٧ أو فرنسا صاحبة الميثاق والمواطن الملك لويس —  
فيليب وصاحبة هذه « القسيس الجديد ليس الا القسيس القديم وقد عاد  
بشكل أكبر » . « كلما تغيرت ، صارت الشئ نفسه بقدر أكبر » .  
وهذه الأمثال المجهدة المستمدة من الثورات الأخرى تعنى أننا في روسيا  
نعود الى وضع سوى في ١٩٥٢ — سوى بالنسبة لروسيا .

الا ان « نظرية آسيا » لا يمكن ان تصلح كتفسير وحيد ، ولكنها  
كواحد من المتغيرات التي تشترك في تفسير عامل ما يمكن قبولها  
حتى بالنسبة — للأحرار الذين بطبعهم وتدريبهم — يترددون في قبولها .  
من الواضح ان السيدين بك وجودين — وهما أسمان مستعاران لعالم  
الماني ومؤرخ روسي قبض عليهما في أثناء فترة بيزوف ، ثم وفقا الى  
الهرب لروسيا — لا يجان القول بالتفوق الغربي في نظرية آسيا ،  
ولكنهما من ناحية اخرى لا يطرحانه كلية . ان روسيا في ١٩١٧ لم تكن  
مجتمعا ذا طبقة وسطى قوية ومدربة على العادات الغربية الخاصة  
بالحقوق السياسية والمدنية فلو ان ثورة يقودها لينين وستالين انتجت  
مثل هذا المجتمع في روسيا لكان ذلك امرا عجيبا .

وفضلا عن ذلك ، فان تشابها تاريخيا واضحا في ثوراتنا الأخرى  
يحتاج الى ان يشار اليه هنا . فخطة تصور الحمى ليست ملائمة  
لو اخذت على أنها تعنى ان النظام كله ينتهي « بعلاج » بسيط . وأكثر  
من هذا ، فانه في كل ثوراتنا ، توجد ، سلسلة من الثورات الأقل التي  
تعمل فيها القوى الموجودة في الثورة الأولى . فبعد ١٦٤٠ في إنجلترا  
كانت هناك « الثورة العظيمة » في ١٦٨٨ ، والصراعات الطويلة للقرن  
الثامن عشر ، وقوانين الإصلاح للقرن التاسع عشر . وبعد الثورة  
الأمريكية كانت هناك فترة التآزم في التسعينات في عام ١٧٩٠ ، وهي  
انقلابات شرعية وضعت كلا من جيفرسون وجاكسون في مراكز الحكم ،  
وهي محنة الحرب الأهلية الطويلة عندنا . وبعد الثورة الفرنسية ،  
كما تعلم جيدا ، كانت هناك سلسلة من الانقلابات في القرن التاسع عشر  
في فرنسا وفي الحقيقة في كل أوروبا الغربية والوسطى وقد تأثرت — الى  
حد بعيد بالمثل الفرنسي . وقد أشرنا من قبل الى أن تتابع الزمن  
في الثورة الروسية الأصلية يمثل نوعا من التعجيل بنظام الثورة اذا  
قورن بالثورات السابقة . ومن المحتمل أن تبدو الاضطرابات الروسية  
في العشرين سنة الأخيرة في نظر المؤرخ في المستقبل نوعا من الثورات ،  
لانهاء المشاكل التي لم تسم كلية في الثورة الأولى ، تماما كما هي

الحال بالنسبة لسنوات ١٨٢٠ ، ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ في التاريخ الأوروبي .

ويتبقى أيضا مشكلة تفسير الصورة النوعية لطول فترة الحمى الثورية في روسيا . لنفرض ، كما افترضنا سابقا ، أن المجتمع الروسي المستقر الذى لا بد ان يظهر في النهاية لن يكون ممثلا لاجتماعتنا ، ولا يبدو محتملا أن هذا المجتمع المستقر سيكون عرضة لاضطرابات جذرية ولشاركة زائدة في شئون السياسة من جانب العامة كما كانت الحال في روسيا أيام ستالين . ونحن هنا قد انحرفنا الى مجال غير علمى مبنى على التنبؤ . ومن الجائز أن روسيا أيام مذهب ليزنكو ، والستار الحديدي (١) ، روسيا التى أثارت خوف أوروبيل أو كوستلر لدرجة أكبر مما أثارت خوف الأمريكين الصالحين المحافظين — من الجائز أن روسيا هذه سوف تستمر بطريقة غير واضحة في عالم بأكمله فقدت فيه كلمات « الاستقرار » ، و « التوازن » ، و « السلام » ، و « النظام » معناها . ولكننا يجب علينا الآن أن نفترض أن روسيا ، والعالم ، لم يعودا يوجدان وسط كابوس أبدى .

ان الموضوع ضخم ولا يمكن ايفاءه حقه بعناية في هذه المحاولة الاجتهادية لدراسة أربع ثورات . ولكن من الجائز أن نقترح أن الآثار المؤدية الى الأزمة المستمرة في روسيا هى من ناحية محلية ، داخلية في روسيا ، ومن ناحية أخرى متصلة بالموقف الدولى كله .

والأسباب الداخلية متعددة جدا ، قد يخاطر المرء ويقول ان أحد الأسباب الهامة جدا يكمن في الوعود المادية للعقيدة الماركسية . ولقد لا حظنا في كل ثوراتنا الأخرى ما كان يبذل من محاولات لسد الثغرة على هذه الأرض بين المثالى والواقعى . والآن نجد أن الصورة الدقيقة لما هو مثالى أمر هام . ففى ثوراتنا الأخرى ، رغم حماسها

(١) نغصد به في عرف الأوربيين والأمريكين الذين يستخدمونه الحواجز التى فرضتها

روسيا على نفسها في فترة ما بعد الثورة .

الغامض خلال فترة التأزم ، ورغم نزواتها الشاذة التي تطالب بتحويل الأرض الى جنة دفعة واحدة ، لم يأخذ الرجل العادى وعدا بالمساواة الاقتصادية ، والمجتمع اللاطبقى ، أو القانون الماركسى القائل : «من كل فرد على قدر استطاعته ، ولكل فرد على قدر حاجته» . وقد وعد الروس بذلك تماما . وكانت الماركسية أكثر نوعية فيما وعدت به ايفان ايفانوفيتش مما كانت عليه البيوريتانية فيما وعدت به جون جونس أو اليعقوبية فيما وعدت به جاك دييون (١) .

وفى الواقع كان على كل ثوراتنا أن تتراضى مع مثلها العليا ، وأن تحول الكلمات المعسولة الى سلوك . وكان على شعارات « الحرية ، والمساواة ، والاخاء » أن تمحى من المباني العامة ومن قلوب الفرنسيين الصالحين من الجمهوريين ، فلم يكن من الممكن ، من الناحية الحرفية ، والمادية ، تطبيقها فى حجرات الدراسة فى المدارس الفرنسية التي هى منقوشة عليها ، والا تحولت المدارس الفرنسية الى مصحات عقلية تخالف أعظم المدارس الأمريكية الخاصة تقديما . ولم يأخذ الأمريكيون قط هذه الحقيقة الواضحة وهى أن كل الناس يولدون متساويين من ناحية حقوقهم على أنها تعنى أن كل الناس — ينبغى — أن يولدوا ولديهم القدرة على أن يقودوا الجماعة فى الأمور المحلية .

ولكن الثورة الروسية لم تعد بالمساواة السياسية أو الروحية ، وبالطريق المفتوح أمام المواهب ، ولكن بمجتمع يتساوى أفراده من الناحية الاقتصادية . ولكن الروس لديهم الآن مجتمع بلغ فيه عدم المساواة فى توزيع السلع الاستهلاكية وفى الدخل الفردى حدا واضحا جدا . فالسياسى الروسى المرموق ، أو عامل الصناعة ، أو كاتب المسرحيات الروسى الشعبى أو راقصة الباليه ، أو العالم الروسى الناجح يتمتع بالسيطرة على الثروة المادية بشكل يجعل المجتمع الروسى بشكل أساسى مجتمع عدم مساواة اقتصادية كئى مجتمع رأسمالى اليوم أكثر بكثير من بريطانيا العظمى ، مثلا .

(١) أسماء الرجل العادى فى روسيا وبريطانيا وفرنسا .

ولقد يستطيع حكام روسيا أن يقولوا لشعبهم ان مظاهر عدم المساواة ليست الا مرحلة انتقال تلزم بها معارضة العالم الراسالى الشرير خارج البلاد . وان دكتاتورية البروليتاريا ، وهى مقدمة جوهرية للمجتمع اللاتبقى ، كان لا بد أن تمتد فترة قصيرة . ويوما ما ، حينما تغزو الثورة الشيوعية العالم كله ، سوف يصبح « الكناس » مساويا من الناحية الاقتصادية لعضو المكتب السياسى . ولكن ليس الآن . ومع ذلك فهذا قول ضعيف فى أساسه ، وهناك ما يدل على ما يبذل من جهد فى روسيا الآن للتبشير بمثل أعلى قريب الشبه جدا بما يعتبره محررو مجلة فورشن عملا أمريكيا عظيما وهو وضع سياسة ثابتة للثراء المادى الذى يتقاسمه الكل ، مع مكافآت مادية خاصة للقادة المتكئين فى كل مسالك الحياة الذين تعمل مهاراتهم على الدوام لرفع مستوى المجتمع — أو على الأقل على رفع مستوياته الخلقية .

وان أشد الغربين حماسا لما تفعله الثورة الروسية لتحسين مستوى معيشة الشخص العادى لا يستطيعون القول بأن ذلك المستوى قد وصل بعد الى تلك المستويات فى أغلب البلاد الغربية . ويرجع ذلك الى الاستعداد لحرب محتملة ضد أمريكا ، مما حول أكثر الانتاج الروسى الى غير البضائع الاستهلاكية — هذه الوقائع قد تفسر بوضوح وباصطلاحات اقتصادية محكمة لماذا لم تصل الحياة الأكثر رخاء الى عامة الشعب . وليس المرء فى حاجة الى أن يواصل السير مع المحافظين الذين يضمرون العداة بمرارة للتجربة الروسية للقول بأن بعض الكراهية الغربية المتقدمة ، وان بعض مظاهر التوتر المستمرة فى مجتمع لا يزال يعلم أنه فى حالة ثورة ، يمكن تفسيرها على أنها جهود لتحويل انتباه الرجل العادى عن حاجته الى الرخاء المادى . وقد يكون من الأمور الأكثر أهمية فى استمرار عدم الاستقرار الداخلى فى روسيا مشكلة أولئك الذين هم فوق خط الأساس ، مشكلة الطبقة الحاكمة الروسية الجديدة . فهذه الطبقة لا تزال فى جوهرها طبقة « ادارية » ، تحصل على مكافآت مجزية من ناحية الدخل ، والمكانة الاجتماعية ، والقوة السياسية ، ولكن ليس لها



حتى الآن حقوق واضحة في الملكية ، والميراث ، وبصفة عامة تلك الحقوق التي كانت دائما في الغرب تمكن الطبقة الحاكمة الجديدة — أو الجديدة جزئيا — من أن تدعم موقفها الى حد بعيد .

ولقد كان هناك منذ عصر النهضة بوجه خاص ، حتى بدون ثورة حقيقية أبواب كثيرة مفتوحة للمواهب في الغرب . إذ أخذ بمبدأ تكافؤ الفرص في ثقافتنا الغربية قبل أن يصبح — بوقت طويل في الولايات المتحدة — أحد المبادئ العظيمة للايمان الاجتماعى . ولكن أولئك الذين ارتفعوا بنجاح في العالم قد نجحوا بسرعة تامة في تدعيم مركزهم بتأمين الملكية ، وتأسيس الاسرة ، وبأن أصبحوا جزءا من الطبقة الحاكمة التي أصبحت محل رضا دون معارضة كبيرة أو كراهية شديدة من الطبقات التي كانت مستبعدة بوضوح من قمة الهرم الاجتماعى . وقد كان هذا صحيحا حتى في الولايات المتحدة حيث نجد أن القاعدة الواقعية ليست على الاطلاق هى أن « ثلاثة أجيال يعيشون عيش الكفاف » والمشكلة كلها في العلاقة بين الحركة الاجتماعية الفردية والاستقرار الاجتماعى في الجماعة هى في الواقع مشكلة معقدة ، وليست على الاطلاق مفهومة بوضوح . وهى لم تحل في الغرب ، ولكن بطريقة أو بأخرى قد اتفقنا على رأى فيها ، وليس ببساطة ، كما يحاول المراقبون المتكلمون على الحياة الأمريكية بوجه خاص عند ما يدعون أن هذه المشكلة غير موجودة ، وأن مجتمعنا في الواقع ، هو « المجتمع اللاتبقى » .

ومع ذلك ففى روسيا ، نجد أن الطبقة الحاكمة الجديدة ليست على الاطلاق وطيدة الأركان . فلا يزال الكثيرون من أعضائها مضطربى الضمير لامتيازاتهم الجديدة ، وللتغرة الموجودة بين وقائع الحياة الروسية والمثل العليا للشيعوية فى عصرها الأول . وأهم من ذلك أنهم ليسوا متأكدين من الاستمرار ، مع علمهم بالضغط الكبير الصادر من الأشخاص الطموحين الأصغر منهم سنا . وقد أوضح بك وجودين بشيء من العنف  
نقلا :

« ان الفئة الجديدة من الرسميين الذين يتولون مناصبهم بصفة كاملة يتمتعون بالمزايا المادية التي تتفق مع مراقبة الملكية التي أصبحت جماعية . وهذه الفئة التي لم تكن قد بلغت بعد من العمر جيلا واحدا ، لم تكن لديها الفرصة لاقامة نفسها كطبقة حاكمة حقيقية . وكانت أيضا تخضع لضغط من جمهرة أعضاء الحزب ، الذين كانوا يقومون بالدفع من أسفل وكانوا يحسدون من هم أعلى منهم لما يحصلون عليه من مزايا . وقد تبينت السلطة المركزية الموقف بوضوح ، ووجدت في الفئة الجديدة من الرسميين تهديدا لأمنها ، ولم يكن هناك شيء أكثر وضوحا من ضرورة البدء في تصفية كل هؤلاء الناس . وكانت خطة رائعة . فقد تركت البناء الاجتماعي للدولة البيروقراطية سليما دون مساس . وتولى خلفاء المستبعدين والمعتقلين المناصب ، متمتعين من غير حسيب أو رقيب بالمزايا التي كانت تتفق مع مناصب أسلافهم ، وانتقلوا الى المساكن وأخذوا الهيئات التي تعمل معهم . وأخذ منظر المستقبل الباهر يتفتح امام كثرة من الرسميين الصغار الذين ربما كان أمامهم — عن غير ذلك الطريق — أن ينتظروا عشرات السنين للترقية . ومع ذلك ، كان أعضاء الطبقة الحاكمة يشعرون دائما بعدم الاطمئنان . وكان لذلك تأثير عظيم القيمة جدا على الجماهير . فما من أحد كان يحسد الرسميين على حياتهم التي كانت تستتبع الحصول على حقيقتي سفر صغيرتين في حالة استعداد دائم — احدهما في مقر العمل والأخرى في المنزل — تحتويان على اغطية ، ومؤن ، واثياء أخرى قد تكون لازمة في حالة القبض على الشخص » .

والحقيقة انه في هذه المرحلة أخذ الارهاب في فترة بيزوف يبدو اقل شبيها من الارهاب الكلاسيكي في مرحلة الأزمة الحقيقية ، الارهاب الذي كان الناس فيه يشتعلون حماسا للمثل الأعلى للمجتمع الجديد الكامل ، واكثر شبيها بالاضرابات التي كانت سائدة أيام « الثرميدور » في فرنسا ، حينما كان القادة الجدد لا يزالون يتسابقون بينهم وبين انفسهم من اجل المراكز العليا ، ولا يزالون يتآمرون للقيام بانقلابات جديدة ، ولا يزالون عاجزين عن حسم المنافسات دون الالتجاء الى العنف والقتل غير

المشروعة . وصحيح أن أعمال التطهير التي قامت في روسيا في الثلاثينات الأخيرة كانت على نطاق واسع لا يوجد مثلها في ثوراتنا الأخرى في المراحل المماثلة . ولكن هذا يرجع من ناحية الى أن كل شيء في روسيا كان على نطاق أوسع من حيث الأرض والسكان من أى وقت مضى ، ومن ناحية أخرى الى أن التهديد الخارجى ، ولا سيما من ناحية ألمانيا ، زاد أكثر مما نقص كما حدث في الثورات الأخرى التي انتهينا من دراستها ، ومن ناحية ثالثة — ويجب أن نلتزم طريقتنا الخاصة بالمتغيرات المتعددة — لأن روسيا نفسها قبل ثورتها لم تكن بلد الحرية وكانت في حالة سيئة .

ومن المؤكد أنه من الأمور ذات المغزى هنا أن ستالين وحده قد بقى على القمة في روسيا بينما كانت تجرى تحته مذابح من التنافس بين المتناحرين على المركز والامتيازات . وليست السياسة العليا في أى مكان ، حتى في أكثر المجتمعات استقرارا ، طريقا آمنا الى حد كبير ، ولكن هناك نقطة تحتها يصبح عدم الأمان الفردى في الواقع مظهرا لعدم الاستقرار العام في المجتمع ، أو تهديدا مستمرا بهذا الشكل من عدم الاستقرار . والفشل في المناصب العليا في السياسة الروسية ، وفي الأعمال ، حتى في الفن والعلم معناه الحرفى الاختفاء تماما من المسرح ، أو المحاكمة ، والاعتراف ، والتطهير . وليس المرء بحاجة لأن يسأل في روسيا عن مظاهر الرقعة والأدب التي كانت مستعملة في بريطانيا الفيكتورية مع المعارضين ولكن قبل أن نقول ان فترة النقاهة الروسية ، والثرميدور الروسى قد انتهيا تماما يجب على الأقل أن يكون من الممكن لمؤلف الموسيقى أن يفشل في التلحين ، أو على أية حال يفشل في ارضاء الذوق الموسيقى لأحد الرسميين الكبار دون أن يخفى أو يجثو مغفيرا رايه ، وللبيلوجى أن يختلف في الرأى مع ليسنكو Lysenko دون أن يتعرض لنفس المصير ، بل وإلدير مصنع ما يرتكب خطأ الا يفقد أكثر من عمله .

حتى أولئك الذين يعتقدون أن المأخذ الرئيسى على التوتر الراهن في العلاقات السياسية في العالم هو في الواقع روسى ينبغى ان يسلموا

بأن هذا التوتر نفسه جزء من تفسير امتداد الثرميدور في روسيا .  
فهناك أسباب خارجية وأخرى داخلية لاستمرار عدم الاستقرار الروسى .  
ففى الموجز الذى قدمناه لأسباب الارهاب فى كل ثوراتنا ، لاحظنا ،  
كتمثال واضح ، وجود ما يطلق عليه الآن بطريقة عصرية « مرض الحرب » .  
فحكومات الارهاب هى — جزئيا — حكومات للدفاع الوطنى ضد الحرب  
أو التهديد بالحرب ، ضد تهديد عدو . فان الثورة كان يمكن أن يقع عليها  
اللوم الى حد كبير لدفعها هذا العدو الى الاستعداد ، قد يكون هذا  
صحيحا فى الواقع ، ولكن ذلك ليس من شأنه أن يغير حقيقة الضغط الذى  
يولده الخطر الذى يمثله العدو . والآن نجد أن انجلترا ، وأمريكا ،  
وفرنسا الثائرة قد اتفقت جميعا — وفرنسا فقط بعد خمسة وعشرين عاما  
على أن تجعل نفسها مرة أخرى كتلة واحدة على نحو يجعلها محترمة  
تماما ، أو محترمة تقريبا ، وأعضاء فى نظام الدولة فى عصرهم . ولم  
تكن لتخشى شيئا أكثر من الأخطار العادية التى تواجه الدولة فى سياسة  
ميزان القوى . وليست روسيا كذلك . فحتى فى الثلاثينات الأولى ،  
وحتى فى ١٩٤٢ — ١٩٤٤ حينما كانت متحالفة مع القوى الغربية ، لم يكن  
الروس أبدا فى الواقع أعضاء فى النادى . ولنكرر هذا : قد يكون الخطأ  
خطأ روسيا ، أو على الأقل خطأ ستالين وزملائه . ولكن تبقى هذه  
الحقيقة وهى أن روسيا الشيوعية ، باستثناء علاقاتها بالدول الموالية  
لها من تشيكوسلوفاكيا الى الصين ، هى خارج ما قد يكون هناك من  
منظمات للامم ، وما قد يكون هناك من « نظام » فى العلاقات الدولية .  
ومظاهر التوتر القديمة المتولدة عن الشعور الروسى بالتعرض للاهجوم  
والتمهيد المستمر من كل الجهات ، لا يزال قائما ليمنع تمتعها بالاستقرار  
الداخلى . ونستطيع أن نقول باطمئنان أنه لا يحتمل أن تخرج روسيا من  
المرحلة الثرميدورية لثورتها ما لم تتحسن علاقاتها مع الولايات المتحدة  
على نطاق واسع . وهذه العلاقات ليست فى حاجة الى أن تكون صداقة  
كاملة فيما يتعلق بالعلاقات الدولية ، ولكن يجب على الأقل أن تكون نوعا  
من القبول المتبادل المعروف بين أعضاء النظام الغربى خلال أغلب  
اغلب القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . فالثرميدور فى روسيا ، إذن ،

لا يزال منتشرًا في منتصف القرن العشرين . وتتوقف نهايته على عوامل كثيرة جدا يصعب معها على أى انسان أن يحدد لها تاريخًا . ولكن من الصحيح أيضا أن الثورة في روسيا قد سارت في طريقها بشكل أساسى . فقد انتهت الأزمة وعهد الارهاب والفضيلة . فالفيروس الماركسى — ولتذكر مرة أخرى أننا نحاول استخدام هذا اللفظ بطريقة وصفية خالصة — قد انتهى شوطه تقريبا . فروسيا في الواقع قد غيرتها الحمى الى حد ما ، ولكن كذلك الحال أيضا بالنسبة للفيروس . فان الفيروس على الأقل قد أصبح ضعيفا في هذا الجسم بالذات . ومن الصحيح أن الفيروس قد ينشط تماما في مجتمعات مثل المجتمع الصينى ، وجنوب شرق آسيا ، بل والشرق الأدنى وانه هناك لم يمه شوطه . ولكن هذه الثورات تتجاوز محيط هذا الكتاب تماما . فهى محتاجة الى الانتباه الدقيق من جانب أحسن خبرائنا . وهى تقترح كلمة أخيرة : ان الأفكار ، وعود الماركسية الأرثوذكسية كما تجسدت الآن في روسيا الستالينية قد تثبت في السنوات القليلة القادمة انها محيرة في ميدان السياسة الروسية الداخلية بقدر ما هى مفيدة في مجال السياسة الروسية الخارجية . والجنة الماركسية على الأرض سوف ينظر اليها على انها مجرد وعد في اندونيسيا أو ايران ، لفترة ما ، ولكن في موسكو ، سرعان ما ينظر اليها من ناحية على انها متطورة — والا فان المذهب كله سوف يتعرض حتما لتغيير لا يمكن التنبؤ به .

ومع ذلك ما لم نكن بصفة حقيقية في روسيا ازاء شىء جديد بالكلية ، شىء لم يسبق له مثيل بالكلية ، شىء — باختصار — من شأنه أن ينقض أى نوع من العلم الاجتماعى ، فان الخطوط العريضة على الأقل لذلك التغيير ليست مما لا يمكن التنبؤ بها بالكلية . واذا كانت فترة الأزمة للثورة الروسية قد انتهت ، كما قلنا هنا ، واذا كانت روسيا الآن في منتصف ما يترتب على فترة الحمى الأساسية ، فانها عاجلا أو آجلا لا بد منتهية الى نوع من التوازن ، الى حالة من الصحة أو الاستواء ، ليست في الحقيقة مثل شبيهتها في فرنسا أو الولايات المتحدة ، ولكن لنقل أنه شىء أقرب الى روسيا

في القرن التاسع عشر ، روسيا التي عاش فيها تورجنيف كما عاش فيها  
دستويفسكى ، روسيا بافلوف وبوشكين وباكونين — وباختصار ، روسيا  
التي عاش فيها جمع مختلف من الرجال على اتصال وثيق بالغرب ولكن  
بصورة منخلمة معقولة .

والشيء الذي يجعل روسيا للآن في معزل ، وللان في تلك الفترة  
الأخيرة من متاعب الثورة هو عدم اكتمال التطابق الاجتماعي والعقائدي  
بين الروح والجسد ، المثالي والواقعي ، جنة المجتمع الماركسي اللاتبعي  
على هذه الأرض الوعرة ولكن دون استمتاع .

ولكننا قد نكون مخطئين . فلعل الروس قد وجدوا طريقا ، طريقا  
لم يجده البيوريتان أو اليعقوبيون ، لكي يحفظوا الرجل العادي مستمرا  
الى الأبد في المشاركة في نشاط الدولة ، والاخلاص المجهود ، والتعليق  
المستمر لمظاهر الضعف الشائعة والجنون الذي اجتهدنا في أن نحمله على  
انه « عهد الإرهاب والفضيلة » . ونظام الحكم الجماعي المطلق  
Totalitarianism قد يكون في الواقع حديثا على الأرض كما يعتقد بذلك  
بعض المتكلمين من كتابنا في العصر الحاضر . ومع ذلك فالمؤرخ يجب  
أن يحتفظ بشكوكه ، ليس فقط فيما يتعلق بـ « المدن الفاضلة » بطريقة  
عكسية مثل كتاب أورويل ١٩٨٤ Orwell's Nineteen Eighty-four  
ولكن حتى مثل ذلك التحليل العميق المنع الذي أورده حنا آرنت في  
« أسس الحكم المطلق Origins of Totalitarianism وعلى أية حال  
فالنتيجة واضحة : اذا كانت الثورة الروسية في سنواتها الأخيرة تحذو حذو  
الثورات الكبيرة الأخرى كما فعلت بوضوح في مقدماتها وسنواتها  
الأولى ، فان أغلب الروس لن يكونوا بالتالي أقل جنونا من بقينا ،  
ونستطيع أن نتصل بهم فيما يتعلق بحالات سوء التفاهم المتبادل —  
ومضات الرؤية الداخلية ، واذا كان هناك في الواقع شيء جديد في  
روسيا ، وعنصر من الحكم المطلق الذي يغير الكائنات الحية حقيقة ،  
فاننا نستطيع أن نتوقع المزيد من « فترات بيزوف Yezhov periods

والمزيد من ليزنكو ، والمزيد من ستالين — « والثورة الدائمة » في الحقيقة .

## ٦ - الموجز :

عهد الثرميدور اذن ليس بأية حال من الأحوال شيئا فريدا ، قاصرا على الثورة الفرنسية التي منها يستمد اسمه . فقد وجدنا في مجتمعاتنا الثلاثة كلها التي خضعت للدولة الثورية كاملة انحلالا خلقيا متشابها ، من حيث تركيز السلطة في يد « طاغية » أو « دكتاتور » ، وتسلا متشابها للنفعيين ، وانقلابا متشابها في الشعور تجاه اولئك الذين صنعوا « الارهاب » وعودة مشابهة الى العادات القديمة في الحياة اليومية .

وحتى في الولايات المتحدة التي لم تعان من الأزمة مثل البلاد الأخرى ، والتي لم تمر بعهد حقيقي من الارهاب والفضيلة ، نجد ان الثمانينات في عام ١٧٨٠ تظهر بصورة غير كاملة بعض علامات ثرميدور . فقد كان هناك تراخ بين نظام الحرب وتوتر الحرب واتجاه كبير نحو الثروة واللهو . وكان هناك كثير من المضاربات المالية وكثير من التألم الشديد . ويذكرنا تمرد شاي Shay ، وهو من أكثر الحركات التي لم تكن ذات اثر فعال ، بوحدة من المحاولات الضعيفة التي قام بها الفرنسيون والروس المتأملون للوقوف في وجه من أثروا حديثا في عهد الثرميدور . بل وقد كان هناك انحلال خلقى في هذا البلد . وكتب جيمسون يقول « ان الأمريكيين المتزنين في ١٧٨٤ قد استاءوا كثيرا من تفشى روح المضاربة التي ولدتها الحرب وما يترتب على الحرب من اضطراب ، ومن مظاهر القلق عند الشبان ، وعدم احترام التقاليد والسلطة ، وازدياد الجريمة ، وتبذير المجتمع وطيشه » . وهذا كله يشبه الى أبعد حد الثرميدور الأصلي في فرنسا .

ومن بعض الوجوه نجد ان ظاهرة رد الفعل والرجوع الى القديم تبدو بشكل لا مفر منه تقريبا جزءا من عملية الثورة نفسها . وعلى

اية حال يبدو من الصعب لأكثر محبى الثورة تفاؤلا أن ينكروا أننا قد وجدنا مثل هذه الظاهرة في كل من المجتمعات الأربعة التى اخترناها للدراسة . والمخلص الشديد الاخلاص قد يقول ان الثورة الكبرى فى روسيا قد أثبتت وجودها خالية من مثل رد الفعل هذا ، وأن الأهداف النبيلة للثوار فى المجتمع الغربى قد تحققت فى روسيا أخيرا . ونحن لا نستطيع أن نلائم بين حقائق نظام ستالين وأى من هذه التفسيرات . ومع ذلك فإن حقيقة الترميدور ، بل وحقيقة العودة الرسمية الى النظام القديم كما فى ١٦٦٠ أو ١٨١٤ ، لا تعنى أن الثورة لم تغير شيئا . وسوف نحاول فى الفصل القادم أن نجيب على هذا السؤال البالغ الصعوبة : ما هى بالضبط التغييرات التى أحدثتها هذه الثورات ؟





## الفصل التاسع

### ملخص لأعمال الثورات

#### ١ - التغييرات في النظم والأفكار :

بهذا الاتجاه الى الحكم المطلق الذى يشارك فيه « التفكير العام » مع بعض نواح أكثر شكلية من الميتافيزيقا ، نجد انفسنا أكثر اتجاهها الى النظر الى هذا النوع من الثورات الذى كنا بصدد دراسته على أنه انقطاع مفاجئ عن الماضى . فالثورة « تؤذن بعصر جديد » أو « تقضى الى الأبد على مساوئ النظام القديم » أو « تحفر هوة عميقة بين القديم والحديث » . ومن ناحية أخرى ، نجد أن الأحرار المنزهين مثل ي. د. مارتن حينما انقلبوا على التقاليد الثورية انتهوا الى نتيجة عامة لا تصدق في كل الحالات وهى أن الثورات في الواقع لا تغير شيئاً ذا بال — الا أن يكون هذا التغيير أحياناً الى أسوأ — وأن الثورات غير مسارة وانها وقفات يمكن تجنبها في تاريخ الأمة . وينبغى أن يكون من الواضح الآن أن دراستنا الحالية للثورات الانجليزية ، والأمريكية ، والفرنسية ، والروسية لا يمكن أن تمدنا بأية اجابات مطلقة على هذا السؤال : ما الذى غيرته هذه الثورات في الواقع ؟ بعض النظم ، وبعض القوانين ، بل وبعض العادات البشرية ، من الواضح أنها غيرتها بطرق هامة جدا ؟ بينما نظم وقوانين وعادات أخرى غيرتها في المدى الطويل ولكن بشكل طفيف ان لم تكن تتغير بالمرّة . وقد يكون لما غيرته اهمية في نظر عالم الاجتماع أكثر مما لم تغيره . ولكننا لا نستطيع أن نبدأ في اتخاذ قرار بشأن هذا الموضوع الأخير ما لم نكن قد حصلنا على التغييرات الفعلية الشكلية بشكل مباشر . ونحن نأخذ في الاعتبار هنا ، وبالطبع تلك التغييرات الظاهرة في نهاية الحمى الثورية ، تلك التغييرات التى تتجه كتب التاريخ الى تصنيفها على أنها « دائمة » . ولسنا هنا نعنى

مباشرة بالتغيرات التي وعد بها المتطرفون ولم ينفذوها ، ولا بالتغيرات المثيرة الكثيرة التي طرأت على حياة العاملين في الثورة .

ويجب أن نكرر أن العلوم الاجتماعية ، مثل العلوم الطبيعية ، ترضى تماما إذا استطاعت أن تقيم تماثلات احصائية فعالة . وقد تتجه التجربة الفردية عكس ما تتجه اليه مثل هذه التماثلات . وقد تكون أكثر اثاراً ، وأكثر درامية من التماثل . ومن المؤكد أنها سوف تكون أكثر واقعية وفائدة للمرء من أى احصاء . ومع ذلك فالاحصاءات موجودة ولا يمكن الاستغناء عنها . وعلى ذلك فإن أى طريقة « لتحديد النسل Contraception وحتى أكثرها بدائية ، إذا استعملت على نطاق واسع في جماعة معينة ، فإنها سوف تحد من معدل المواليد في تلك الجماعة بطريقة ذات مغزى . ولكن بالنسبة لأفراد معينين يستعملونها ، نجد أن الطريقة البدائية لتحديد النسل ، في الأيدي المهلهلة ، قد تثبت بسهولة أنها طريقة للحمل بدلا من ذلك .

وكذلك الحال في الثورات . فبالنسبة لرجل الكنيسة الانجيلي الذي جرد من وسائل معيشته في ١٦٤٨ ، وبالنسبة للماركيزة الفرنسية التي أعدم زوجها باعتباره خائنا في ١٧٩٤ ، وبالنسبة للأمريكي المخلص الذي راح يبحث عما يقتات به في غابات نيويورك بعد رغد الغيش في بوسطون أو كمبردج ، وبالنسبة للأرستقراطي الروسي الأبيض المنفى الذي صار يقود سيارته في باريس في ١٩١٩ ، قد يكون من الخطأ الجسيم أن نقول ان الثورات لا تغير في الواقع شيئا كثيرا . وقد يشعر مؤلفوا « ذا بوك اف جوب » The Book of Job بالحيرة واذا فهموا الموضوع ، فإن الغضب ينتابهم — اذا ما سئلو عما اذا كانوا يعتقدون أن خبرات جوب كانت نموذجية من الناحية الاحصائية .

ولحسن الحظ أو لسوء الحظ فإن فهمنا للأخلاق وللدراما ليس مبنيا على تماثلات علمية . ويقدر ما تكون ذكرى الثورات متجسدة في الواقع في انفعالات انسانية قد يكون مغزاها الحقيقي الباقي هو الصورة المزيفة

أو غير الواقعية التي تأخذها في مثل تلك الانفعالات ، وفي الحائز الأخلاقي الذي تمدنا به . وربما بطريقة أو بأخرى تنتهي كل الثورات العظيمة الى « شعارات » Slogans مثل « بنات الثورة الأمريكية » أو « للحيون دوير » أو « الماركسية التاريخية » والأسطورة هي الحقيقة وهي بعيدة على الدوام عن مظاهر السذاجة .

ومن الناحية السياسية تقضى الثورة على أسوأ مظاهر الاستغلال ، وعلى أسوأ مظاهر العجز في النظام القديم . وهي تقيم لفترة ما على الأقل ذلك النوع من الصراع الداخلى الذى نشأت عنه « السيادة الثنائية » . ونجد أن الجهاز الحكومى يعمل بانتظام بعد الثورة أكثر مما يكون عليه الحال قبلها مباشرة . وفرنسا خير مثال لذلك ، فالتشريعات القديمة والارتباكات الموروثة عن الصراع الذى يرجع الى الف سنة بين قوى التاج المتمركزة وقوى النبلاء الاقطاعيين الطاردة والدور المترتب على السوابق المتراكمة قد حل محلها جميعا عمل الثورة الفرنسية . فالبيروقراطية القادرة التى تعمل بمهارة داخل قطاعات ادارية خاضعة ، والنظام المتقن القائم على الكفاية ، والجيش الممتاز الذى يضم هيئة مختارة وذخيرة طيبة ، كل ذلك مكن نابليون من أن يفعل الكثير مما لم يكن يقدر لأسلافه البوربون أن يفعلوه . وقد أشار توكفيل منذ زمن طويل الى أن الثورة الفرنسية جاءت لتكمل عمل صف طويل من الملوك الفرنسيين ، ولتجعل السلطة المركزة في فرنسا فعالة وكاملة .

وهنا نذكر شيئا واحدا من أشياء كثيرة . ففى فرنسا القديمة ، كانت الموازين والمقاييس تختلف من اقليم لآخر ، بل وفي الواقع من مدينة الى أخرى . فالمقياس المعين في تولوز قد يكون أكثر بكثير في مونتبان المجاورة . بل أسوأ من هذا ، أسماء المقاييس نفسها قد تكون كلمات مختلفة اختلافا تاما . وكانت العملة ، مثل العملة الإنجليزية الحالية ، في جزء منها عشرية ثنائية ، ومن الصعب تداولها لفترات طويلة ، وما فعلته الثورة في هذا الصدد معروف تماما للجميع . فقد وضعت نظاما موحدًا

للموازنين والمقاييس هو المعروف بالنظام المترى ، وهو نظام شق طريقه الى معظم انحاء العالم خارج الامبراطورية البريطانية والولايات المتحدة — دون الاستعانة بالثورة .

وهذه الكفاية الادارية فى اجهزة الحكومة هى فى الواقع اكثر التشابهات استلفاتنا للنظر ونستطيع ان نلاحظ عند تقدير التغييرات السياسية التى احدثتها ثوراتنا مع مراعاة الاختلافات المحلية ، والحوادث ، والمخلفات التى لا مفر منها بالنسبة للشئ الوحيد الذى لا بد لكل من علمى التاريخ والاجتماع ان يتصدىا له . فان انجلترا ، وأمريكا ، وروسيا أيضا خرجت من ثوراتها بحكومات أكثر فاعلية وتركيزا . ويبدو هذا الأمر أقل وضوحا فى انجلترا ، وذلك لأن الثورة قبل أن يتم نضوج القوى الاقتصادية والثقافية التى ساعدت على اظهار مثل تلك الصور من الكفاية مثل النظام المترى أو مجموعة قوانين نابليون . ولكن ، رغم ما فيها من تعقيدات ، فان الحكومة الإنجليزية بعد ١٦٦٠ كانت أقدر على الوفاء باحتياجات الشعب مما كانت عليه فى ١٦٢٠ . حيث كان الناس فى ضيق من الضرائب والاعانات الخيرية ، والمحكمة التى ترعى مصالح التاج ، والمحكمة العليا ، وخلاف ذلك من طغيان الحكم المطلق غير الناضج لآل استيوارت . وكان البرلمان بعد ١٦٦٠ أكثر سيطرة على انجلترا بطريقة اكمل مما كان عليه برلمانا استيوارت الأولان .

وما زالت روسيا فى هذه الناحية ، كما فى كثير غيرها ، موضعا للجدل . فمعارضو ستالين الأقوياء يصرون على أن البيروقراطيين الجدد غير أكفاء ، وينزعون الى الطغيان ، وأغبياء على نحو ما كانوا عليه أيام القيصرية . وبعض العواطف التى تتضمنها الأقوال التى من هذا النوع قد تبدو الى حد كبير أو صغير تعبيرا مستمرا عن الحياة الروسية ، والى حد ما عن الحياة فى ظل اية حكومة ، وقصة جوجول الرائعة ، المفتش العام ، 'The Inspector - Genral' تتناول بالتحليل كل مظاهر الحياة كما يفعل أى عالم من العلماء . ومع ذلك فان المؤرخين فى المستقبل سوف يسلمون بأن الأجهزة السياسية للنظام السوفيتى افضل مما كانت عليه

أيام القيصرية ، وبأن الجهاز الإداري السوفيتي في جملته أقدر مما كان عليه أيام القيصرية . فأنت قد لا تميل الى خطة السنوات الخمس ، ولكن يجب أن تسلم بأن هناك وراء بياناتهم الإحصائية اكتمالا اقتصاديا ملموسا أعظم من أى شيء استطاع العهد القديم أن يحققه في فترة مماثلة . فالشيوعيون ، باختصار ، قد جاءوا بالثورة الصناعية الى روسيا . ولربما قد جاءت في عهد ستوليبين Stolypin ، وربما جاء بها الشيوعيون بطريقة فظة ، قاسية . ولكنهم جاءوا بها على كل حال .

وهذه الثورات حدثت جميعا باسم الحرية ، وكانت كلها موجهة ضد طغيان القلة ونحو حكم الأكثرية . وهذا الوجه المشترك في الثورات تتضمنه بشكل خاص عواطف معينة موجودة في الطبيعة البشرية تجعل من العسير جدا تطبيق مناهج العلم على دراسة الأفراد في المجتمع . ومع ذلك فقد يبدو أن الأهمية الكاملة لتلك المسائل مثل الديمقراطية ، والحقوق المدنية ، والدساتير المكتوبة ، وفي الحقيقة جهاز الحكومة الشعبية بأكمله يكمن بشكل أوضح داخل ذلك المجال الغامض المبهم الذي يطيب للماركسيين أن يطلقوا عليه اسم « الأيديولوجية » منه في مجال القوى السياسية المموسة التي نحن الآن بصدد دراستها . ومن المؤكد أن المرء ليدهش لهذه الحقيقة وهي أن كل ثوراتنا زادت من كفاية الحكومات أكثر من « حق » الفرد في حرية رومانتيكية . وحتى الجهاز التقليدي للحكومة الشعبية يمكن تحليله على أنه أداة لانجاز الأشياء في موقف خاص ، رغم غرابة هذا التحليل في نظر المحافظين من معاصري موسولينى ، وهتلر ، وستالين . ووثائق حقوق الإنسان ، ومجموعات القوانين ، والدساتير كانت من حيث تأثيرها موثيق للطبقات الحاكمة الجديدة . فالحرية كمثل أعلى كانت شيئا واحدا ، أما الحرية السياسية ، من ناحية أخرى ، فقد كانت شيئا آخر أقل درجة من ذلك .

ولقد شهدت هذه الثورات جميعا انتقالا كبيرا في الملكية عن طريق المصادرة أو البيع الجبرى . كما شهدت سقوط الطبقة الحاكمة ومجىء

طبقة حاكمة اخرى منتخبة الى حد ما ، على الأقل ، من الأفراد الذين كانوا قبل الثورة خارج الطبقة الحاكمة . وكانت تصحبها مطالب واضحة مجسمة للقضاء على الفقر ، والمساواة في اقتسام الثروة ، وأولئك الذين قادوا الثورة الروسية استمروا طويلا بعد فترة التآزم يصرون على أنهم ينادون بالمساواة الاقتصادية ، وان روسيا سوف لا تعرف الملكية الخاصة في الأرض وفي السلع الأساسية . والتفكير الماركسي لا يزال يقسم ثوراتنا الأربع الى نوعين مختلفين : الثورات الانجليزية ، والفرنسية ، والأمريكية بالنسبة لنتائجها النهائية ثورات « بورجوازية » ، أى انتصارات لا مفر منها لرجال الأعمال والصناعة على أرستقراطية الأرض ، ثم الثورة الروسية التى هى فى مراحلها النهائية ثورة « بروليتارية » حقيقية . ومع ذلك فقد تكون أكثر تأثرا بهذه الحقيقة وهى أن السلطة الاقتصادية فى الثورات الأربع جميعا قد غيرت الأوضاع ، وأن « طبقة حاكمة » متحدة فى روسيا الحديثة كما فى فرنسا الحديثة وجهت كلا من الحياة الاقتصادية والسياسية فى المجتمع .

وبشئ أكثر من التفصيل ، نقول ان الثورة الانجليزية أخذت الأرض من اتباع الملك المخلصين وكذلك من الكنيسة ومن البريسبيترين والأسقفين وأعطتها للبيوريتان الحقيقيين ، يتساوى فى ذلك رجال الأعمال ورجال الدين . وقد عادت ممتلكات الكنيسة عند عودة النظام القديم فى ١٦٦٠ الى ايدى انجيلية ، ولكن فيما عدا ملكية عدد من كبار اللوردات شديدي الصلة بشارل الثانى ، فان الأراضى المصادرة بقيت فى حوزة ملاكها الجدد . وكان أغلب هؤلاء الملاك قد أقاموا علاقات طيبة مع حكومة ستيوارت ، وهكذا وضع اساس الطبقة الحاكمة التى فى ظلها فازت انجلترا بامبراطورية فى القرنين التاليين طبقة حاكمة أصبحت فيها ثروة الأرض والثروة الصناعية مختلطتين احدهما بالأخرى اختلاطا يكاد يستحيل فصلهما فيه ، وهى طبقة حاكمة أثبتت أنها من أحسن ما يمكن (١) .

(١) ملحوظة : بالنسبة لاغراض الراسمالية — ( المترجم ) .

والتغيرات الاقتصادية الموسمية في فرنسا تسير على هذا النهج . فالأراضي المصادرة من رجال الدين والأشراف المهاجرين أعطيت للثوار ، وفي أغلب الأحوال بقيت في حوزة المشترين حتى بعد عودة النظام القديم في ١٨١٤ ولا شك أن كثيرا من هذه الأراضي بقيت في حوزة صغار الفلاحين المستقلين ، مما ساعد على وضع اللمسات الأخيرة في إقامة تلك الطبقة الفرنسية التي ينظر إليها الكتاب والسياسيون في العالم أجمع على أنها عماد فرنسا الحديثة . ولكن جانبا كبيرا من هذه الأراضي انتقل الى الطبقة البورجوازية . ولا شك ان الطبقة الفرنسية الحاكمة بعد الثورة تمثل خليطا يلفت النظر من الثورة القديمة والحديثة ، من الأرض والتجارة ، كما هي الحال في الثورة الانجليزية .

وفي روسيا نجد ان الاختلافات ليست كبيرة على النحو الذي كان ينبغي ان تكون عليه تبعا لنظرية ماركس . فقد كان هناك انتقال للقوة الاقتصادية من جماعة الى أخرى أكثر منه مساواة في اقتسام القوة الاقتصادية ، ومساواة في توزيع السلع الاستهلاكية ونهاية للصراع حول البضائع الاقتصادية أو القوة الاقتصادية . ولكنك تستطيع ان تضع القانون الماركسي حيث تشاء . فالبيروقراطية الروسية الجديدة ، كما رأينا ، هي طبقة مميزة تتمتع بالثروة في شكل بضائع استهلاكية دون ان تمتلكها ، في تلك الأشكال التي تعارفنا على تسميتها « بالملكية » فهي طبقة غير مستقرة بشكل ملحوظ ، غير واثقة من نفسها . ولكن سرعان ما نجد أبناء هؤلاء المميزين يظهرون علامات تدل على وراثتهم لحالة آبائهم ، وليس من غير المتصور ان وراثة الملكية سوف تأتي بعد وقت قصير . وما يبدو أنه قد حدث هو نمو الخطوط التي تدل على الحركة في تاريخ الاقتصاد الروسى . كما أن الثورة الفرنسية وضعت اللمسات النهائية لمركز طبقة الفلاحين — ولكنها لم « تعظم » الأرض فجأة — كذلك الحالة الراهنة للزراعة والصناعة الروسية يبدو أنها تنمية لرغبة السلافيين Slavophile وغيرهم من العناصر في تفضيل الفلاحة الجماعية على نظام الكولاك Kulaks وللاتجاهات التي تكاد تكون منتشرة في العالم أجمع والتي تحبذ الصناعة

على معدل واسع والتي تدار بطريقة بيروقراطية على الأعمال المستقلة الصغيرة التي يبدو فيها التنافس . وهنا كما في بلاد أخرى نجد أن الثورة لا تستوحى النظام من قبعة — ولا من كتاب ، بل ولا حتى من كتاب ذي تأثير مثل « رأس المال » .

وليست هناك ثورة من هذه الثورات استبدلت تماما طبقة حاكمة جديدة بالطبقة القديمة ، وعلى الأقل ما لم يفكر المرء في « طبقة » دون أن يهتم بالكائنات البشرية التي تؤلف هذه الطبقة ، والتي هي طريقة محببة لدى الماركسيين . والذي يحدث هو أنه عند انتهاء فترة النقاهة يكون قد بدأ نوع من الاندماج ، الذي فيه يرتبط الأفراد الجسورون ، الذين يستطيعون التكيف أو الأفراد المحظوظون من الطبقات القديمة المميزة ، ولأغراض عملية في الغالب يرتبطون بأفراد من الطبقات القديمة المكتوبة كانوا يستطيعون ، ربما بفضل نفس المواهب ، الظهور . وهذا الاندماج يظهر بشكل واضح في الجيش والوظائف المدنية ، كما في الأعمال والصناعة ، والسياسة العليا . وهذا التحليل يمكن تأييده بدراسة مفصلة للاصول الاجتماعية لضباط بونابرت ، أو الضباط في الجيش الأحمر الحالي ، أو الرجال الذين تولوا أمر حكومة إنجلترا في ١٦٧٠ ، وفرنسا في ١٨١٠ وروسيا اليوم رغم أنه أقل وضوحا لمرور زمن طويل . وفضلا عن ذلك ، فإن الأفراد الجدد في الطبقات الحاكمة بعد الثورة قد أحدثوا تألفا واضحا مع الطبقات القديمة ، مع ذلك العالم القديم الذي تعتبر فترة تأزم الثورة نفورا شديدا منه . فلم تعد لأمثال داوننج ، وفوشيه ، وكالينين الحرية الجميلة التي كانت في وسع تروتسكى وأمثاله أن يتمتعوا بها . فهم لم يعودوا ثوارا ، ولكن حكاما ، ومن هذه الناحية نجد أنهم مضطرون لأن « يتعلموا » من أسلافهم . وهناك من يعتقدون بأن ستالين قد أجاد التعلم الى أبعد الحدود .

وفي التنظيمات الاجتماعية التي تمس الرجل العادى بشكل وثيق ومباشر غالبا ما نجد أن التغييرات الفعلية التي أحدثتها ثوراتنا تبدو



اضال ما تكون . فالمحاولات الضخمة للإصلاح أثناء الفترة الحرجة تحاول أن تغير علاقات جون جونز بزوجته وأولاده ، وتحاول أن تمنحه ديناً جديداً وعادات شخصية جديدة . ويتخلى الثرميدوريون عن معظم هذه المحاولات ، وفي النهاية يقف جونس على بعض الأمور الخاصة بمكانه عندما بدأت الثورة . ودراستنا للثورات ينبغي أن تؤيد شيئاً عرفه دائماً الأفراد المتعلقون ، وانتهى الأمر بالمصلحين الحانقين الى أن يسلموا به ، على الأقل بالنسبة لأنفسهم — وهو أنه من بعض النواحي الهامة جداً يتغير سلوك الإنسان ببطء يكاد يكون مقارباً لذلك النوع من التغيير الذي يدرسه العالم الجيولوجي .

ونستطيع أن نأخذ كمثال لذلك محاولات بعض ثوارنا لكي يغيروا بطريقة سريعة وجذرية وجوه قانون الأسرة . فقد بين لي بلاي Le play أن العلاقات في الأسرة هي من بين أكثر الأشياء استقراراً وثباتاً في حضارتنا الغربية . والثوري اليساري المتحمس في القرون القليلة الماضية ، كان ينفر بدرجة متناهية من العائلة المسيحية ذات الزوجة الواحدة أو الزوج الواحد ، وهو يرى أن سباجاً من الأنانية الفردية ، والتسامي الاجتماعي ، والضيق العقلي قد صيغت في مجموعة من القواعد المعقدة ، وأهديت الى أسطورة تفوق الرجل ، ثم تحولت الى درجة من الجمود والصلابة بواسطة الجزاءات الدينية ، التي يجب القضاء عليها قبل أن يستطيع الرجل والمرأة كلاهما أن يعيشا كما أراد لهما الله ، والطبيعة ، والعلم أن يعيشا . والثورة الفرنسية لم تشهد محاولة واسعة النطاق للقضاء على الأسرة . والحقيقة أن الطبقة المتوسطة فيها بوجه عام مليئة بالتمجيد الورع للفضائل العائلية . ولكن انصار النزعة الإنسانية قد وضعوا بعض التشريعات البعيدة المدى في هذا المجال ، مثل قوانين التبنى المتسامحة والاجراءات الأخرى التي ترمى الى القضاء على جمود قانون العائلة ، الذي يكاد يكون رومانياً ، في النظام القديم . وبوجه خاص حاولوا أن يساووا بين الأطفال غير الشرعيين والأطفال الشرعيين مساواة مطلقة من جميع الوجوه . وعندما صدر القانون الذي يضع ذلك موضع التنفيذ ، قال

أحد الخطباء اللامعين « لم يعد في فرنسا أولاد سفاح » . ونحن في حاجة الى أن نضيف أنه كان مخطئا . وفي كتيب عن « التشريع الثورى الفرنسى فى عدم الشرعية ، حاول ذلك الكاتب أن يبين كيف أنه حتى البورجوازيين الصالحين الذين أقرروا هذا القانون كانوا من الناحية الانفعالية متأثرين أشد التأثر بالمشاعر الاسرية التقليدية بحيث حاولوا أن يضعوها موضع التنفيذ . فقالوا ان اولاد السفاح احرار ومساوون للأطفال الشرعيين ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يحملوا انفسهم على التصرف كما لو كانوا يعتقدون حقا أو يريدون أن يكون الأمر كذلك . وبالاختصار خرجت الأسرة التقليدية فى شكلها الفرنسى ولم يصبها أى ضرر من الثورة .

وقد شهدت روسيا هجوما أكثر قوة على العائلة المسيحية ذات الزوجة الواحدة ، أو الزوج الواحد . فسنت القوانين التى تجعل الطلاق أيسر مما فى نيفادا ، وتبيح الاجهاض وتشجع على قيام الأسرة الجماعية وشيدت دور الحضانة ورياض الأطفال ، وعملت على تربية الأطفال قدر الامكان خارج المنزل ، وهكذا . ومنعا لسوء الفهم ينبغى أن نوضح أن المثاليين الروس الذين حاولوا أن يفعلوا ذلك كله لم يكونوا رجلا فاسدين ، يبتغون تيسير الحياة للشهوانيين من الناس . بل الأمر على العكس ، فقد كانوا ، كما حاولنا بكل جهد أن نبين ذلك ، يحتفظون بملامح قوية من البيوريتانية . وحتى هذا اليوم ، قد تستولى الدهشة على الشاب الشيوعى الروسى وينزعج لجرد رؤية أى صحيفة أو مجلة أمريكية . وكان هؤلاء المثاليون يعتقدون أن الأسرة البورجوازية فاسدة ، ويتفقون فى الراى مع مستر شو على أن الزواج يجمع بين أكبر قدر من الاغراء واكبر قدر من الفرص . وكانت القوانين تهدف الى تحقيق المثل العليا الكامنة فى نظام الزوجة الواحدة أو الزوج الواحد فى المسيحية رغم هدمهم ما نظروا اليه على أنه النظم العائلية الفاسدة .

وهنا أيضا نجد أننا لسنا فى وضع المؤرخين الذين يعملون بمصادر طيبة ، ولكن من خلال التقارير المتعارضة التى تأتى إلينا من روسيا

نستطيع ان نستشف ان المصلحين قد فشلوا ، وأن الأسرة المسيحية ذات الزوجة الواحدة قد عاشت بعد البلشفيين القديما في روسيا . فالقوانين ، كما رأينا ، صارت لا تحد من الاجهاض المشروع بحيث تقصره على أشد حالات الضرورة الطبية فحسب بل في الواقع وضعت نظام المكافآت للأسر الكبيرة . كما جعلت الطلاق اكثر صعوبة . وبر الأبناء بالآباء ، وفي الحقيقة كل فضائل الأسرة البورجوازية المتعارف عليها الآن موضع تكريم كبير في الصحافة ، والسينما ، والدولة ، والمدرسة .

ولناخذ مثلا له نوعيته الخاصة ، كان الشذوذ الجنسي ، عند البلشفيين القديما ، شيئا غير سوى ، ربما كان خاضعا للعلاج الطبى ، ولكنه لم يكن جريمة بالطبع . ولم يكن من المستطاع أن يكون جريمة بالنسبة لهم ، لجرد أنه كان جريمة في العالم الغبى ، الفاسد الذى كانوا يعملون على تغييره من القمة الى القاع . وطبيعى لم يكن لديهم تجاه هذا النوع من الجرائم اشمئزاز بورجوازى ضيق من الناحية العملية . ولكن في مارس ١٩٣٤ أصبح الشذوذ الجنسي جريمة عقوبتها السجن من ثلاث الى ثمانى سنوات . ولا نستطيع ان نمنع انفسنا من القول بأن « سيدنى وب وزوجته » قد فسروا ذلك بطريقتيها المعتادة : « المفهوم أن هذا جاء بعد اكتشاف بؤر لافساد الأحداث خلقيا ، ويرجع وجود هذه البؤر الى تأثير بعض الأجانب الذين طردوا بطريقة عنيفة من الأراضى السوفيتية . ولكن حتى مع الأجانب المطرودين ، تبقى روسيا على القوانين . والواقع أن العواطف الروسية فيما يتعلق بموضوع الشذوذ الجنسي ثابتة تقريبا ، ولكن الأفكار الروسية في هذا الموضوع متغيرة وعلى مر الأيام يسود الثابت .

على أن الموضوع المتعلق بتغير النظم الثابتة للعمل في الحياة العادية ( لجون جونز ) في أوثق علاقاته برفقائه ، وبيئته لم يكتشف بعد بطريقة جيدة . وهنا نجد مرة أخرى أن الإدراك بطبيعته البشرية الحاسمة لا يتغير ، شىء مطلق جدا . ولكن يظهر أن ثوراتنا كان لها تأثير ضئيل

ثابت على المسائل الصغيرة الهامة في حياة ( جون جونس آ . ولعل ما يطلق عليه اسم « الانقلاب الصناعى » كان له بالتأكيد تأثير اعظم ، مما اضطر جون الى القيام بسلسلة صعبة من الأعمال ليكيف نفسه مع الحالة الجديدة اكثر مما فعلته ثوراتنا . وليس هناك واحد من مجتمعاتنا ، حتى ولا روسيا ، يبدو انه خضع لتغييرات كاملة كتلك التى خضع لها المجتمع التركى منذ الاجراءات الثورية الشاملة الحقيقية التى اتخذت في عهد مصطفى كمال او المجتمع اليابانى خلال ثورة « ميجى » بغض النظر عن الثورة التى أحدثها ماك آرثر (١) ومن الطريف أن نسجل التناقض الظاهر وهو أن المجتمع الغربى في بعض الحالات أكثر بطناً في التغيير من المجتمع الشرقى ، ولكن الحقيقة أكثر تعقيداً من هذا التناقض . فكل من الأتراك واليابانيين يبدو أنهم احتفظوا أثناء التغيير الاجتماعى والاقتصادى بمجموعة من النظم القومية دون تغيير . وفي مجتمعاتنا الغربية نجد أن الأسرة ، والنظم الأخلاقية ، والدينية قد استعملت بطريقة مشابهة كميزان لتغييرات اجتماعية واقتصادية هامة جداً ، وليست الثورات التى انتهينا من دراستها الاجزاء منها .

والحقيقة أن المجتمع الغربى الحديث قد طرأت عليه في القرون القليلة الأخيرة تغييرات مستمرة لدرجة أننا ، اذا تبيننا فكرة التوازن الاجتماعى ، لوجب علينا أن نتوقع وجود قوى معينة تقوم بعملية جذب في الاتجاه المضاد ، في اتجاه الثبات والاستقرار . وهذه القوى ليست ، كقاعدة ، مرتبطة بعضها ببعض . ويبدو أنها لا تهم رجال الفكر بدرجة تماثل درجة القوى التى تعمل على التغيير . ولربما كانت تانها أو هى بالتأكيد « مثيرة » وبالقدر الذى تظهر فيه مترجمة الى لغة الكلام ، تظهر في عدد من الأثواب التنكرية التى يصعب اختراقها . ولكنها موجودة ، وكما رأينا تقيم حداً واضحاً لما يستطيع المصلح أو الثائر أن يعمل . فالزنا لا يمكن أن يقف في مواجهة المنطق أو علم الحياة ، ومع

---

(١) يحاول المؤلف هنا أن ينسب الى ما آرثر قائد قوات الاحتلال الأمريكى لليابان بعد الحرب العالمية الثانية أنه أحدث في اليابان ثورة .

ذلك فهو موجود لا بقوة المنطق ولا علم الحياة ، ولكن بقوة الشهوات الانسانية الثابتة ، البطيئة التغير . ان الناس قد يشعرون بالحزن لدرجة تستدر الدموع للاطفال المساكين الذين وصموا في ميلادهم لأسباب من الواضح أنها ليست نتيجة خطأ منهم ، ولكن حتى الآن لم تفعل الثورة شيئا رغم التمييز بين الأطفال الذين يولدون بعد أن يتم نوع معين من الاجراءات وبين أولئك الذين لا يستفيدون من مثل هذه الاجراءات . فالاجراءات قد تبدو هشة ، متغيرة ، غير ذات أهمية — مجرد كلمات او حركات تافهة الا انها أقوى بكثير من قوانين المنطق . وذلك لأنها ، وفقا لما يقول باريتو Pareto ، مرتبطة « بالمجموعات الثابتة » ، وانماط العواطف والسلوك التي تتغير ببطء شديد .

وكل هذا يرجع الى القول بأن الناس في مجتمعنا الغربي قد درجوا على عواطف معينة وعلى أن يتكيفوا مع طرق معينة لأداء الأشياء حتى بعد أن يكونوا قد غيروا ما يقولونه عن هذه العواطف وهذه الأفعال . ويبدو أن ثوراتنا قد غيرت عقول الناس من نواح كثيرة أكثر بكثير مما غيرت عاداتهم . وليس معنى هذا بأية حال أنها لم تغير شيئا على الإطلاق ، وان ما يعتقدده الناس ليس بذى أهمية . فالأفكار ليس لها فعل السحر في هذا العالم ، والا لما سقط روبسبير ، وكان تروتسكى حيا حتى اليوم في موسكو ، وليس ميثا في المكسيك . لكن يجب ألا تستبعد باعتبار أنها لا تلعب دورا في التغير الاجتماعى . والحقيقة أن ما يسميه أصدقاؤنا الماركسيون بالتغيرات « الأيديولوجية » التي أحدثتها ثوراتنا يستحق الدراسة .

وقد يميز المرء بين دورين متعارضين تلعبهما هذه الأفكار التي ولدتها الثورة . أولا ، أن ثوراتنا في النهاية قد تبدو وكأنها قد انتزعت « السم » من الأفكار والشعارات المتطرفة في أيامها الأولى . وحققت المعجزة الضرورية بأن هدت الرجال الطموحين الى اسباب الفشل الأساسى في تحقيق طموحهم . وحولت ما كان أدراة لفظية للثورة ، ووسائل لتحريك الناس الى العمل الجماعى ضد النظام القائم ، الى شىء يمكن أن نسميه

بلغفة العصر الأساطير ، والأدب الشعبي ، والرموز ، والقوالب الجامدة ، والطقوس لكل مجتمع منها . « فالحرية ، والمساواة ، والاخاء » التي كانت في وقت من الأوقات « نغير » الدعوة لخلق عالم أفضل ، ليست الآن في الجمهورية الفرنسية الرابعة أكثر من جزء بسيط من التراث الوطني ، وتذكار لطيف بأن الفرنسيين هم الورثة المميزون لماض يتسم بالبطولة وكان هناك ، حتى الأزمة الراهنة في عالم الأعمال ، علامات على على هذه العبارة الطنانة « يا عمال العالم ، اتحدوا » أمكن حتى في روسيا تكييفها مع الضروريات المحاطة ، والمقيدة للعادات . وبعد هذا كله ، كما أشار راديكاليون منطقيون جدا ، فان الانجيل نفسه ملئ بالمذاهب الثورية الصالحة ، وما فعلته المسيحية المنظمة بالانجيل ينبغي أن تكون الشيوعية المنظمة قادرة على أن تفعله مع كتاب أكثر بساطة بكثير مثل « رأس المال » .

والدور الثاني ، دور أكثر ايجابية . فهذه الأفكار حين تستعمل كطقوس دينية نجد انها ليست سلبية محض ، ومجرد نتف من الضجيج والصخب فقد رأينا أن فكرة المجتمع اللا طبقي تثقل كاهل الطبقة الحاكمة الجديدة في روسيا . ولا نستطيع هنا أن نسترسل في المسألة الهامة المتعلقة بدور هذه الأساطير والرموز في المجتمع . ويجب علينا بالتأكيد أن نتجنب السؤال العقيم عما اذا كان مثل هذه الرموز « يحدث » أى نوع من التغير الاجتماعى . وهنا ، كما في كل مكان تقريبا في العلوم الاجتماعية ، نجد أن قانون العربة والحصان المتعلق بالعلية لا فائدة منه ، بل هو في الحقيقة مضلل ويكثينا أننا نجد في كل مجتمعاتنا أن ذكرى الثورة العظيمة مخلدة في تطبيقات عملية تبدو كأنها جزء أساسى من الدولة القومية كأمر مستمر . ان الناس اليوم في إنجلترا ، وفرنسا ، وأمريكا ، وروسيا يطربهم أن يعلموا أنهم أعضاء في أمة ، وربما يقودهم ، وبالتأكيد يريحهم — عدد من المعتقدات النبيلة المجردة ، ويشعرون بشيء من الأمن ، والكيان ، وبكل أنواع الأفعال النموذجية المرتبطة بالدولة أو بالكنيسة كادارة من ادارات الدولة ،

تقويها التطلعات التي لا تزال سائدة في الكلمات العظيمة لميلتون ، أو جيفرسون ، أو دانتون ، أو لينين — وهم كذلك يتحركون بالقدر نفسه على هذا النحو ، نجد أن الثورات التي درسناها قد ساعدت كثيرا على ارضاء عواطفهم . ففى انجلترا ، وأمريكا ، وفرنسا أصبحت ذكرى ثوراتها العظيمة عاملا من عوامل استقرار المجتمع القائم ، وفي روسيا ، — ما لم تخطيء كل العلامات — سوف يصل الأمر الى حالة مشابهة عاجلا أو آجلا . ومع ذلك فان ثوراتنا خلفت وراءها كذلك أحد تقاليد الثورة الناجحة . وما يعتبر مصدرا للرضا عند الناس المستقرين ، الراضين ، المتكفين ، يعتبر في نظر الأشخاص المتذمرين « مهمازا » لاثارة تذمرهم . وتقليدنا الثورى الغربى الحديث بطيء التقدم والنمو الى حد ما ، وآخر الثوار من حيث التقليد ، وهم الروس ، قد ساروا بمعرفتهم للتاريخ الثورى الى درجة الأفكار المتسلطة تقريبا . فتروتسكى ، مثلا ، رغم أنه لا يستخدم تصور الحمى كما استعملناه ، يبدو في كتاباته كما لو كان يرقب مجرى الثورة الروسية ، بطريقة اكليينية تقريبا ، ناظرا الى الأحداث دائما على انها تأخذ المجرى الذى لوحظ في فرنسا من قبل ، وفي انجلترا ، أو في أى مكان ثار فيه الناس باسم الأغلبية ضد الأقلية .

ومرة أخرى نقول ان هذا التقليد الثورى لا يمكن تقييمه ولكن يبدو انه قد أصبح جزءا من مقومات الديمقراطية الغربية ، وأحد العناصر التى كانت حتى الآن في صورتها الكاملة ناقصة في تطور كل من ايطاليا ، والمانيا ، حيث نجد أن الثورات الديمقراطية كانت فاشلة أو على أحسن الفروض عديمة الأثر . وتقرير وجود هذا التقليد الثورى لا يعنى بالضرورة اننا نتخذه حكما . وانما تقدمه على أنه حقيقة مشاهدة لا يستطيع انكارها أى فريق . ولا نستطيع هنا تحديد تأثيرها الصحيح في التوازن المعقد لمجتمعاتنا الحالية . وبصفة خاصة نجد صعوبات ضخمة في تقدير مقدار رسوخها في روسيا . ومن ناحية المثل العليا وفي أيام ١٩١٧ المليئة بالأمل كانت الثورة الروسية تسير في اعقاب الثورات الانجليزية ، والأمريكية ، والفرنسية بشكل واضح . ولا شك ان الديمقراطيات الغربية متأثرة ،

بهذه الحقيقة ، وهى انها نتجت عن نوع واحد من الثورة ، وتدين بنوع واحد من المثل العليا يمكن تلخيصه بأنه « الحرية ، والمساواة والأخاء » .

## ٢ - بعض التشابهات التجريبية :

حينما تتم كل التسهيلات الضرورية لأولئك الذين يصرون على أن أحداث التاريخ فريدة في نوعها ، يبقى صحيحا أن الثورات الأربع التى تمنا بدراستها تبين لنا بعض التشابهات الملفتة للنظر . وخطتنا التصورية « للحمى » يمكن اعدادها بعناية بحيث توضح لنا هذه التشابهات . وسوف نجد أن الأمر يستحق الجهد الذى يبذل فى محاولة تلخيص عمل هذه الثورات ، وفى استرجاع النقط الرئيسية للمقارنة التى أقمنا تماثلاتنا عليها باختصار .

ويجب أن نكون تجريبيين جدا من ناحية الأغراض الحركة للثورة . فحتى لو رجعنا الى الوراء ، لوجدنا أن تشخيص المجتمعات الأربعة التى درسناها كان من الصعوبة بمكان كبير . وهناك مجال ضيق للاعتقاد بأن أى فرد اليوم لديه من المعرفة والمهارة ما يمكنه من تطبيق المناهج الشكلية للتشخيص على مجتمع معاصر ، وأن يقول ، فى هذه الحالة سوف تقنع الثورة أو لا تقنع قريبا . ولكن بعض التماثلات تظهر من دراسة النظم القديمة فى انجلترا ، وأمريكا وفرنسا ، وروسيا .

أولا ، كانت هذه المجتمعات فى الجملة سائرة فى طريق التحسن من الناحية الاقتصادية قبل أن تأتى الثورة ، ويبدو أن الحركات الثورية تنشأ من استياء الفاشلين وهم الذين يشعرون بالضغط ، والكبت ، والعجز أكثر مما يشعرون بالطغيان الشديد . ولا شك أن هذه الثورات لم تنشب عن طريق العاطلين المشردين ، أو عن طريق الجائعين ، البؤساء . فهؤلاء الثوار ليسوا « ديدانا متحركة ولا رجالا يائسين » . فالثورات تنشأ عن الأمل وفلسفاتها مبنية على التفاؤل .



ثانيا ، نجد في مجتمع ما قبل الثورة أنواعا محددة وفي الواقع غير مستساغة من العداوة بين الطبقات ، رغم أن هذه العداوة تبدو أكثر تعقيدا مما يقره الماركسيون الأتقن نضجا . فليس الأمر أمر شرفاء اقطاعيين ضد بورجوازيين في ١٦٤٠ ، ١٧٧٦ ، ١٧٨٩ ، أو بورجوازيين ضد طبقة العمال ( بروليتاريا ) في ١٩١٧ . فاقوى المشاعر يبدو أنها تتولد في صدور الرجال — والنساء — الذين كونوا ثروة ، أو على الأتقن الذين لديهم ما يكفيهم ليعيشوا ، والذين يتأملون بحسرة نقائص الأرستقراطيين ذوى الامتيازات الاجتماعية . والثورات تبدو أكثر احتمالا حين تكون الطبقات الاجتماعية أكثر قريبا من بعضها البعض مما لو كانت متباعدة . « فالمنبوذون » نادرا ما يثورون ضد الأرستقراطية التي أوجدها الله وتمدنا هايتى بأحد الأمثلة القليلة لثورات العبيد الناجحة . ولكن التجار الأثرياء الذين تستطيع بناتهم أن يتزوجن الأرستقراطيين يكادون يشعرون أن الله على الأتقن مهتم بالتجار اهتمامه بالأرستقراطيين . ومن الصعب معرفة الأسباب التي تدعو الى زيادة الكراهية بين طبقات تكاد تكون متساوية اجتماعيا في بعض المجتمعات أكثر مما في البعض الآخر . لماذا ، مثلا ، تكون ماري أنتوانيت أكثر تعرضا للكراهية في القرن الثامن عشر في فرنسا من وارث ثرى ، خامل ، وأكثر شهرة في أمريكا المعاصرة ، ولكن على أية حال يمكن ملاحظة هذا التملل في مجتمعات ما قبل الثورة ، وهو من الناحية الاكلينيكية ، أمر كاف في هذه الفترة .

ثالثا ، هناك ما أطلقنا عليه اسم هروب رجال الفكر أو المثقفين . وهذا من بعض الوجوه أكثر الأعراض التي يمكن الاعتماد عليها والتي نحن على وشك أن نلتقى بها . وهنا مرة أخرى لسنا بحاجة لأن نحاول أن نشرح كل الطرق والأسباب ، ولسنا بحاجة لأن نحاول أن نربط هروب رجال الفكر بعلم اجتماع ضخم وكامل للثورات . وإنما نحن في حاجة لأن نقرر ببساطة أنه يمكن ملاحظته في كل مجتمعاتنا الأربعة .

رابعا ، من الواضح أن الجهاز الحكومى غير كفاء ، بسبب الاهمال احيانا ، وبسبب الفشل في احداث تغييرات في النظم القديمة ، و احيانا

أخرى لأن ظروفنا جديدة — في المجتمعات التي قمنا بدراستها ، وبنوع خاص الظروف المترتبة على التوسع الاقتصادي ونمو الطبقات التي اثرت حديثا ، وطرق حديثة للنقل ، ومناهج جديدة للأعمال — هذه الظروف الجديدة ألقت عبئا لا يحتمل على الجهاز الحكومي الذي يصلح لظروف أبسط وأكثر بدائية .

خامسا ، الطبقة الحاكمة القديمة — أو بتعبير أصح كثيرون من أفراد الطبقة الحاكمة القديمة — أصبحوا لا يتقنون بأنفسهم ، ولا في تقاليد طبقتهم وعاداتها ، وأخذوا يتقربون الى المفكرين ، والانسانيين ، أو ينضمون للجماعات المهاجمة . وربما كان عدد منهم أكبر من المعتاد يحيون حياة سوف نسميها غير خلقية ، منحلة ، رغم أن المرء لا يستطيع بأية حال أن يتأكد من هذا على أنه عرض مثل ضياع عادات وتقاليد القيادة الفعالة بين أفراد الطبقة الحاكمة . وعلى أية حال ، تصبح الطبقة الحاكمة غير صالحة من الناحية السياسية .

فالأحداث المثيرة التي تدفع الى التحرك ، والتي تصل بالأمر الى حمى الثورة ، مرتبطة ارتباطا وثيقا في ثلاث من ثوراننا الأربع بالتنظيم المالي للدولة . وفي الرابعة ، وهي روسيا ، نجد أن انهيار التنظيم تحت أثقال حرب غير موفقة أمر له أهميته الجزئية لا غير . ولكن في كل مجتمعنا يظهر عجز الجهاز الحكومي للمجتمع وعدم كفايته ليظهر بوضوح في المراحل الأولى للثورة فهناك فترة — هي الأسابيع أو الشهور القليلة الأولى — يبدو فيها استعمال القوة بشكل يدل على التصميم من جانب الحكومة قد يمنع الاضطراب المتزايد من التجمع في شكل انقراض على الحكومة . وهذه الحكومات حاولت استعمال القوة في الثورات الأربع جميعا ، ولكنها فشلت فيها . وهذا الفشل في الواقع أثبت أنه نقطة تحول خلال المراحل الأولى ، ووضع الثوار في مراكز الحكم .

الا ان الانطباعات عن عجز الحكومة في استعمال القوة أكثر من الانطباعات عن مهارة خصومها في استخدام القوة ونحن هنا نتكلم عن

الموقف بأكمله من الناحيتين العسكرية والبوليسية . وقد يكون هناك احتمال بأن غالبية الناس غير راضين ، وأنهم يكرهون الحكومة القائمة ، ويتمنون انقلابها . لا أحد يعلم فليست هناك استفتاءات تؤخذ قبل الثورة . وفي الصدام الواقعى — حتى يوم الباستيل ، الكونكورد او أيام فبراير في بتروجراد — كانت قلة من الناس هى المشتبكة اشباكا فعلا . ولكن كانت سيطرة الحكومة على قواتها الخاصة ضعيفة ، وكانت قواتها تحارب بدون حماس او تهريب ، وقوادها أغبياء ، وكان أعداؤها يضمون اليهم القوات الهاربة من الجيش او « الميليشيا » القديمة ، والقديم يخلى السبيل للجديد . ومع ذلك فهذه الطبيعة المحافظة والمحبة للروتين لدى الكثرة السائدة من الكائنات البشرية ، وعادات الطاعة قوية لدى أكثرهم حتى يمكننا أن نقول ونحن مطمئنون أن أية حكومة لا تتعرض للسقوط الا اذا فقدت القدرة على استخدام قواتها العسكرية والبوليسية استخداما كائيا . ويظهر هذا العجز واضحا من انضمام جنود الجيش ورجال الشرطة الى صفوف الثوار او من الغباء الذى تعامل به الحكومة جنودها ورجال البوليس ، او من الطريقتين معا .

والأحداث التى جمعناها تحت أسماء المراحل الأولى لا ترتب نفسها بالطبع بنفس النظام تماما من حيث الزمن ، او بنفس المضمون تماما فى كل واحدة من ثوراتنا الأربع . ولكننا أدرجنا العناصر الكبرى — وهى متماثلة — الانهيار المالى ، وتنظيمات الساخطين لمعالجة هذا الانهيار ( او الانهيار الذى يهدد بالسقوط ) ، والمطالب الثورية من ناحية هؤلاء الساخطين المنظمين ، وهى مطالب لو حدث التسليم بها لكان معناه التخلّى الفعلى من جانب أولئك الحاكمين ، ومحاولة استعمال القوة بواسطة الحكومة ، وفشلها ، والوصول الى الحكم بواسطة الثوار . وهؤلاء الثوار قد لعبوا دورهم حتى الآن كمجموعة منظمة وموحدة تقريبا ، ولكن بوصولهم الى الحكم يتضح أنهم غير متحدين . والجماعة التى تسيطر فى هذه المراحل الأولى نسميها بالمعتدلين . وهم ليسوا دائما ذوى اقلية عددية فى هذه المرحلة — والحقيقة أنه من الواضح اننا لو قصرنا المعتدلين

على « الكادتس » Cadets لما كانوا أغلبية في روسيا في فبراير سنة ١٩١٧ ولكنهم كانوا يبدون الورثة الطبيعيين للحكومة القديمة ، وكانت أمامهم الفرصة وفي ثلاث من ثوراتنا لم يلبثوا عاجلا أو آجلا أن أبعادوا عن السلطة بالموت أو النفى . وبالتأكيد نرى في إنجلترا ، وفرنسا ، وروسيا نظاما تنتهى فيه سلسلة من الازمات — يتضمن بعضها العنف ، والقتال في الشوارع ، وما الى ذلك — بتنحية مجموعة من الناس ووضع أخرى في الحكم بدلا منها وأكثر منها تطرفا . وفي هذه الثورات تنتقل السلطة بواسطة طرق عنيفة أو على الاقل غير مشروعة من اليمين الى اليسار ، حتى نجد في فترة التازم الراديكاليين المتطرفين ، والثوار بالمعنى الكامل يصلون الى الحكم . وهناك ، عادة قلة هي مجموعات أشد ضراوة وخروجيا على العقل من المتطرفين المنتصرين — ولكنهم ليسوا عديدين ولا أقوياء ومن الممكن أن يقوم المتطرفون المسيطرون بقمعهم أو تقليم أظفارهم حتى يؤمن شرهم . وعلى ذلك فالقول بأن السلطة تنتقل من اليمين الى اليسار حتى تصل الى أقصى اليسار هو قول صادق .

وحكم المتطرفين هو الذى اطلقنا عليه اسم الفترة الحرجة . وهذه الفترة لم تصل اليها الثورة الأمريكية ، رغم انه في الاتساق مع الموالين للحكومة ، وفي الضغط لمساندة الجيش ، وفي بعض وجوه الحياة الاجتماعية ، تستطيع أن تميز في أمريكا كثيرا من ظواهر الارهاب كما هي واضحة في مجتمعاتنا الثلاثة الأخرى . ولا نستطيع أن نحاول هنا الخوض في المسألة المعقدة التى تتصل بالسبب في أن الثورة الأمريكية وقفت غير بعيد من الفترة الحرجة الحقيقية ، والسبب في أن المعتدلين لم يستبعدوا يوما ما في هذا البلد . ويجب أن نعيد القول بأننا نحاول ببساطة أن نقيم تشابهات في الوصف ، ولسنا بصدد محاولة إقامة علم اجتماع كامل للثورات .

ولا شك في أن الذى ساعد المتطرفين على الوصول الى الحكم هو وجود ضغط قوى تجاه الحكومة القوية المتمركزة ، وهو شىء لا يستطيع المعتدلون بوجه عام أن يوجدوه ، بينما المتطرفون ، بنظامهم ، واحتقارهم

لأنصاف الحلول ، وادغامهم على اتخاذ قرارات حاسمة ، وتحررهم من العرف المألوف ، قادرون على استعداد للتركيز . وخصوصا في فرنسا وروسيا حيث هدد الأعداء ، لأجانب الأتوياء وجود الأمة نفسه ، وكان جهاز الحكومة خلال الفترة الحرجة قد أقيم جزئيا ، ليخدم كحكومة للدفاع الوطنى . ومع أن الحروب الحديثة ، كما نعرف ، تتطلب تركيزا للسلطة ، فان الحرب وحدها تفسر لنا — فيها يبدو — كل ما حدث في الفترة الحرجة في تلك البلاد .

وما يحدث يمكن تلخيصه فيما يلى : تركيز اضطرارى للحكم فى ادارة ، وهى عادة مجلس أو لجنة ، يرأسها الى حد ما « رجل قوى » — كرومويل ، روبسبير ، لينين ، حكومة بدون تأمين فعلى للحقوق المدنية العادية للفرد — أو ، اذا كان هذا يبدو غير واقعى ، ولا سيما فى روسيا ، فلنقل الحياة العادية الخاصة للفرد ، اقامة عدد من ساحات القضاء غير العادية وبوليس ثورى خاص لتنفيذ أوامر الحكومة وجمع كل الأفراد أو الجماعات المنشقين ، كل هذا الجهاز ينشأ آخر الأمر من جماعة صغيرة نسبيا — هى المستقلون ، اليعقوبيون ، البلشفيون — التى لها سيطرة كاملة على العمل الحكومى .

وأخيرا ، فان العمل الحكومى يصبح جزءا أكبر من العمل البشرى كله منه فى هذه المجتمعات فى الظروف العادية : هذا الجهاز الحكومى يبدأ فى العمل بلا اكرتات فوق مشاكل الحياة وصعابها — وهو معتاد أن يتدخل فى المسائل المخصصة فى العادة لرجل الدين أو الطبيب ، أو الصديق ، وهو معتاد أن ينظم ، ويراقب ، ويخطط ، انتاج وتوزيع الثروة الاقتصادية على مستوى قومى .

وهذا الانحراف لعهد الارهاب فى الفترة الحرجة يمكن تفسيره جزئيا بعبارات ضغط ضرورات الحرب ومظاهر الصراع الاقتصادى وكذلك بتغيرات أخرى : ولكن يجب تفسيره جزئيا أيضا بأنه مجهود لتحقيق غايات عقيدية . والعصبة الصغيرة من الثوار المعروفين بالعنف الذين يكونون نواة العمل كله خلال عهد الارهاب يسلكون كما سلك الناس من قبل حينما

كانوا تحت تأثير ايمان دينى فعال . فالمستقلون ، واليعقوبيون ، والبلشفيون كلهم حاولوا ان يجعلوا كل النشاط الانسانى هنا على الأرض مطابقا لمثل أعلى ، يتأصل ، بعمق فى عواطفهم . ومن التشابهات التى تلفت النظر فى هذه النماذج كلها تقشفها ، أو اذا شئت ، استنكارها لكل ما يمكن ان نسميه بالردائل صغيرة كانت أو كبيرة . ومع ذلك ، فان هذه النماذج تتشابه فيما بينها بشكل أساسى الى حد كبير ، وكلها تشبه عن قرب ما يمكن ان نسميه بالأخلاق المسيحية المتعارف عليها . والمستقلون ، واليعقوبيون ، والبلشفيون ، على الأقل خلال الفترة الحرجة ، يقومون بجهد حقيقى لتأكيد السلوك بحيث يتطابق تطابقا حرفيا مع هذه القوانين أو النماذج . ومثل هذا الجهد معناه ضغط جاد من ذلك النوع الذى اعتاد كثير من الناس ان ينظروا اليه على أنه شئ سوى ، معناه نوع من التوتر العالى لا يمكن فيه للفرد العادى ان يشعر بالاطمئنان فى عهد النظم المتواضعة التى تكون هو على أساسها : معناه ان الشبكة المتداخلة من الأفعال المتبادلة بين الأفراد — شبكة لا تزال بالنسبة لفئة قليلة من الناس كرسوا أنفسهم لدراستها دراسة مستنيرة ، لا تزال بالنسبة لهم سرا مستغلقا تقريبا — هذه الشبكة تتمزق كلها وقتيا . ويترك (جون جونس) ، رجل الشارع ، الرجل العادى ، يتخبط فى طريقه .

وعند هذه النقطة نستطيع الاعتقاد بأن تصورنا هو شئ أكثر من مجرد ملاحظة ، وأنه يصف « الواقع » بطريقة ما . وعند الأزمة ، تبدو الجماعات الصابرة فاقدة الأمل ، تشق طريقها فى حالة من الهذيان . ولكننا يجب أن نحاول تجنب العواطف الانفعالية والاستعمارية ، وأن نركز اهتمامنا على توضيح ما يبدو أنه النقطة الهامة هنا فى الواقع — فأكثرنا اعتادوا سماع الاستعارة المحببة عند حزب « المحافظين » القديم وهى : الثائر العنيف يمزق البناء النبيل الذى يعيش فيه المجتمع ، أو يحرقه ، وعندئذ يفشل فى أن يشيد بناء آخر ، وتترك الكائنات البشرية المسكينة عارية تحت السماء . وليست هذه استعارة جيدة فيما عدا ما يتعلق بأغراض الدعاية عند « المحافظين » . فحتى فى ذروة الفترة

الحرجة الثورية ، يكون المتبقى من البناء القديم أكثر مما تهدم . ولكن الاستعارة كلها الخاصة بالبناء عقيمة . ويمكننا أن نستبدل بها تشبيها مستمدا من الجهاز العصبى عند الانسان ، أو نفكر فى أسلاك متناهية التعقيد من الاتصالات الكهربائية . وهنا يظهر المجتمع كنوع من الشبكات المتداخلة فى الأعمال المتبادلة بين الأفراد ، أفعال متبادلة ثبتتها العادة فى أغلب الظن ، وقد جمعت وزينت باعتبارها طقوسا ، ثم كرمت من خلال المعنى والجمال بواسطة خيوط منسوجة من الفعل المتبادل نعرفها باسم القانون ، واللاهوت ، والميتافيزيقا ، ومعتقدات نبيلة مشابهة .

والآن فان الكثير من هذه الخيوط المنسوجة من المعتقدات النبيلة ، بل وبعض الخيوط المتعلقة بالعادات والتقاليد ، يمكن أن تقطع ، وتحل محلها أخرى . وخلال الفترة الحرجة لثوراتنا يبدو أن مثل هذا الاجراء قد حدث ، ولكن الشبكة كلها تبدو وكأنها لم تتغير مطلقا أو نجاة وبشكل جذرى ، وحتى المعتقدات النبيلة تميل الى أن تلائم نفسها مع « شبكة » الأسلاك فى نفس مواضعها السابقة . ولو أنك قتلت كل الناس الذين يعيشون فى داخل نطاق « الشبكة » ، فانك لا تغير الشبكة بالطبع بل تدمرها . ورغم ما يقوله المتنبئون ، فان هذا النوع من التدمير نادر فى التاريخ البشرى . ومن المؤكد أنه لم يحدث فى أى واحدة من ثوراتنا حتى مجرد الاقتراب منه .

والذى حدث ، تحت ضغط صراع الطبقات ، والحرب ، والمثالية الدينية ، وكثير غير ذلك ، وهو المسالك المخفية والمظلمة التى تسير فيها أفعال متبادلة كثيرة فى الشبكة تعرضت فجأة للنور ، وأصبح المرور عن طريقها صعبا بالنشر غير العادى والوعى الذاتى . وسدت مسالك الأعمال المتبادلة الأخرى ، واستمرت الأعمال المتبادلة فى مسيرها بأشق الصعوبات عن طريق كل أنواع المنحذيات . أما مسالك الأعمال المتبادلة الثابتة الأخرى فقد اختلطت ، وقصر تيارها ، وتزاوجت بطرق غريبة . وأخيرا ، فان ادعاءات زعماء الثورة المتعصبين تضمنت محاولة خلق عدد كبير من

الأفعال المتبادلة الجديدة . ورغم أن هذه الأفعال المتبادلة الجديدة أثرت في اغلب الأحيان بشكل رئيسى على تلك الاتجاهات التى أطلقنا عليها اسم المعتقدات النبيلة — القانون ، واللاهوت ، والميتافيزيقا ، والأساطير ، والأدب الشعبى ( الفولكلور ) ، والتجريدات ذات القوة المرتفعة بوجه عام — ولا يزال البعض منها يتغلغل الى مستوى تجريبى فى الجزء الأكثر غموضا والأقل هبة من شبكة الأفعال المتبادلة بين الكائنات البشرية وتضع ثقلا أكبر عليها . وليس ثمة ما يدعو الى الدهشة انه تحت هذه الظروف ينبغى أن يسلك الرجال والنساء فى الفترة الحرجة كما لا يسلكون فى الحالات العادية ، انه فى الفترة الحرجة ينبغى الا يبدو أى شئ كما جرت العادة من قبل ، وأن هناك فى الحقيقة نصا من ثيوسيديد كتبه قبل ثوراتنا بألفى سنة وهو يبدو كما لو كان تقريرا اكلينيكيًا : حينما بدأت المتاعب لأول مرة فى المدن ، فان الذين أتوا بعد ذلك ساروا بالروح الثورية اشواطا وأشواطا وصمموا على أن يبرزوا كل من سبقوهم بالمشروعات المبتكرة وبوحشية الانتقام . ولم يعد لمعانى الكلمات نفس الصلة بالأشياء ، ولكنها تغيرت بواسطتهم على النحو الذى كانوا يعتقدون انه الصحيح . وأصبح ينظر الى الاستهتار الذى لا حد له على أنه شجاعة مخلصه ، والتخلف الحذر أصبح ذريعة الجبان ، والاعتدال كان يخفى وراءه ضعفا لا يليق بالرجال ، ومعرفة كل شئ كان معناها الا يفعل المرء شيئا . والطاقة الجبارة كانت هى الصفة الحقيقية للرجل . والمتآمر الذى كان يريد الأمان انما كان ندلا مستخفيا . وكان المحب للعنف موضع ثقة دائما ، بينما يوضع خصمه موضع الاتهام . والذى ينجح فى مكيدة كان يفترض فيه المعرفة ، وأما الأستاذ الأكثر مهارة فهو الذى يكشف عن الآخرين . ومن ناحية أخرى ، فان الذى قدر من البداية الا تكون له صلة بالمؤامرات هو هامد للأحزاب ، وجبان يخشى الأعداء . وباختصار ، فان الذى يستطيع أن يتفوق على الآخرين فى الأفعال الدنيئة كان يحتفى به وكذلك كانت الحال بالنسبة لمن يشجع على الشر من ليس لديه عنه فكرة ما . . . وكانت رابطة الحزب أقوى من رابطة الدم ، لأن الزميل فى الحزب كان أكثر استعدادا للمخاطرة دون أن يسأل عن السبب .



ومع هذا النص نستطيع أن نضع نصا من مصدر أكثر تواضعا ، أحد الزعماء التعاونيين وهو سييرى خامل ، يعترض على الإرهاب الأبيض والأحمر على السواء . يقتبس مستر تشمبرلين :

ونحن نسأل ونستعطف المجتمع ، والجماعات والأحزاب السياسية المتصارعة : متى تستطيع روسيا الجاهدة أن تتغلب على الكابوس الذى يكتم أنفاسها ، ومتى تتوقف الوفيات بالعنف ؟ الا يستولى عليك الفزع عند رؤية ذلك السيلان الذى لا ينقطع من الدماء البشرية ؟ الا يستولى عليك الفزع عند ادراك أن أكثر أسس المجتمع البشرى عمقا وبدائية في سبيلها الى الفناء : الاحساس بالانسانية ، وادراك قيمة الحياة ، والشخصية الانسانية ، والاحساس بلزوم النظام الشرعى فى الدولة ؟ ... فلتسمع صرختنا ويأسنا : نحن نعود الى عصور ما قبل التاريخ لوجود الجنس البشرى ، نحن على حافة الفناء للحضارة والمدنية ، نحن نقضى على أقوى أسباب التقدم الانسانى ، التى عملت لها أجيال كثيرة من أسلافنا الفضلاء . ومع ذلك ، فيقينا ، لم تنته واحدة من ثوراتنا بفناء الحضارة والمدنية . وكانت الشبكة المتداخلة أقوى من القوى التى تحاول القضاء عليها أو تغييرها ، وفى كل مجتمعاتنا كانت تعقب الفترة الحرجة فترة نقاهة ، وعودة الى أكثر المسالك بساطة ولزوما وهى التى اتخذتها الأعمال المتبادلة فى الشبكة المتداخلة القديمة . وبصفة خاصة لقد اندثر النزوع الدينى الى الكمال ، والحرب المقدسة فى سبيل جمهورية الفضيلة ، فيما عدا بين اقلية صغيرة يمكن لأفعالها أن تؤثر بطريق مباشر فى السياسة ، فالإيمان النشيط ، الفعال ، غير المتسامح ، الزاهد ، سرعان ما أصبح إيمانا خامدا ، غير مكترث ، عالمى الطقوس .

لقد عاد التوازن وانتهت الثورة . ولكن هذا لا يعنى أن شيئا ما لم يتغير . فان بعض الممرات أو المسالك الجديدة النافعة قد اقيمت فى شبكة الأفعال المتبادلة التى تصنع المجتمع ، وبعض المسالك القديمة غير الملائمة — ويمكنك أن تسميها غير عادلة ان شئت — قد استبعدت . ومن

القسوة القول بأن الثورة الفرنسية أخذت على عاتقها وضع النظام المترى والقضاء على الضرائب الاقطاعية وما اليها من النظم الاقطاعية غير المستساغة ، أو ان الثورة الروسية جعلت روسيا تستخدم التقويم الحديث وتستبعد عددا قليلا من الحروف عديمة الفائدة من حروف الهجاء الروسية . هذه النتائج المموسة النافعة تبدو تافهة اذا قيست بأخوة الانسان وتحقيق العدالة على هذه الأرض — ولكن يبدو أن اراقة دم الشهداء ليس ضرورة ملحة لارساء نظام العملة العشرية .

ومع ذلك فان أولئك الذين يشعرون بأن الثورة عمل بطولى ليس لهم أن يأسوا . فالتقليد الثورى تقليد بطولى ، والمعتقدات النبيلة التى تبدو لازمة لكل المجتمعات هى فى نظمنا الديمقراطية الغربية الى حد ما من نتاج الثورات التى كنا بصدد دراستها . فنوراتنا أضافت نسيجا قيما فمفاسا الى تلك الخيوط فى شبكة الأفعال الانسانية التى يمكن عزلها ، كالكثون ، واللاهوت ، والميتافيزيقا وبالمعنى التجريدى ، الأخلاق . فلو أن هذه الثورات لم تقع على الاطلاق ، لكان من الممكن لك ولى أن نظل الى الآن نضرب زوجاتنا أو « نعش » فى لعب الورق أو نتجنب السير تحت « الدرجات الخشبية » ، ولكننا ما كنا نستطيع التمتع بامتلاكنا لبعض الحقوق الثابتة فى الحياة ، والحرية ، والسعى وراء السعادة ، أو التأكد من أن دفعة واحدة الى الامام سوف توصلنا الى المجتمع اللابيقى .

وحين يقارن المرء سير هذه الثورات كاملا ، يجد بعض التشابه التجريبي . فاذا تارنا الثورة الروسية فى نهاية سلسلتنا بالثورة الانجليزية فى بدايتها ، يبدو أن هناك نموا فى « الاتجاه الفنى » الثورى الواعى . وهذا بالطبع واضح بشكل خاص منذ أن جعل ماركس تاريخ الحركات الثورية فى الماضى تمهيدا ضروريا لثوار الحاضر . وقد تابع لينين ومعاونوه تدريبا فى « أساليب الثورة » ، وهو ما كان يعوز المستقلين واليعقوبيين . وان روبسبير ليبدو من سذج الساسة تقريبا اذا ما قورن بتدريبه الثورى بتدريب أى واحد من الزعماء البلاشفة الصالحين . ويجب أن نسلم بأن

سام آدمز أقل سذاجة بكثير . والمهم انه من المحتمل الا يكون هذا الاختلاف في وضوح الاعداد الواعى للثورة ، وهذا النمو لأدب الثورة الغزير ، وهذا الشيوع المتزايد للأفكار الثورية ، واحدا من التشابهات البالغة الأهمية التى علينا أن نسجلها . فهو اضطراب ظاهر ، ولكنه ليس هاما . فالثورات ليست حتى الآن شكلا من اشكال الفعل المنطقى . فلا يبدو ان البلشفيين قد اهتموا في أعمالهم بالدراسة « العلمية » للثورات الى درجة اعظم بكثير من المستقلين واليعقوبيين . وانما هم ببساطة واعموا بين « أساليب » العمل قديما وبين أيام البرق والسكة الحديد .

وهذا الاتجاه الأخير يقودنا الى اتجاه آخر واضح الظهور ولكنه غير بالغ الأهمية في ثوراتنا الأربع . فقد حدثت الثورات في مجتمعات كانت تتأثر باستمرار « بالثورات الصناعية » ، كما كانت تتأثر كثيرا بتلك التغييرات التى أحدثتها في مجتمعاتنا انتصاراتنا الحديثة على الزمان والمكان . ولذلك فان الثورة الروسية اثرت بطريق مباشر على شعوب أكثر وعلى أميال مربعة من الأرض أكثر من أية ثورة سابقة ، وتتابع الحوادث فيها يختصر في شهور قليلة ما استغرق انجازه في انجلترا في القرن السابع عشر سنين طويلة ، باستخدامها للصحافة المطبوعة ، والبرق ، والراديو ، والطائرات وما إليها فيما يبدو ، لو قورنت بثوراتنا الأخرى ، ( فهو موضوع انسيابى بشكل نهائى ) . ولكننا مرة أخرى قد نشك فيها اذا كانت مثل هذه التغييرات هى في حد ذاتها عوامل هامة من الناحية الواقعية . فرغبات الانسان واحدة سواء استعمل في تحقيقها الطائرات او ركب ظهور الخيل . والثورات قد تكون اليوم أكبر ، ولكنها بالتأكيد ليست أحسن .

وأخيرا ، فاننا نحسبة الاملال ، يجب علينا أن نرجع الى الوراء الى بعض المشاكل المنهجية بالنسبة للعلوم الاجتماعية والتى تعرضنا لها في الفصل الأول . فيجب أن نسلم بالنظريات ، والقوانين ، التى تمكننا من أن نعرضها بالفاظ تخطيطنا التصورى ، غامضة ، وغير مثيرة . وهى ليست بأية حال مهمة ولا مثيرة مثل الآراء التى نادى بها جورج أورويل

الذى كان يعتقد فى الواقع أن الزعماء الزوريين ( الجماعيين ) قند تعلموا كيف يغيرون الكائنات البشرية الى شىء يختلف اختلافاً كلياً عن أسلافهم المباشرين . وهى لا يمكن تقريرها بألفاظ كمية ، ولا يمكن أن تستخدم لأغراض التنبؤ أو المراقبة . ولكننا فى البداية قد حذرنا القارىء من أن يتوقع أكثر مما فى الامكان . وحتى مثل هذه النظرية الغامضة ، كهروب المثقفين ، ودور القوة فى المراحل الأولى للثورة ، والدور الذى يلعبه الحماس « الدينى » أو العقيدى فى الفترة الحرجة ، ونظرية الجرى وراء اللذة خلال فترة الثرميدور ، ليست فيما يرجو الانسان ، غير ذات قيمة فى دراسة الناس أثناء حياتهم الاجتماعية . وهى فى حد ذاتها قليلة الأهمية ، ولكنها توحى ببعض الامكانيات فى البحوث الأخرى .

فهى أولاً ، لعدم كفايتها تشير الى الحاجة الى علاج أكثر دقة للمشاكل القائمة . متحدياً أولئك الذين يجدونهم غير كاملين وغير ملائمين للقيام بعمل أحسن .

وثانياً ، سوف تخدم الغرض الخاص « بالتقريبات » الأولية فى العمل العلمى — وسوف تعرض دراسة أوفى للحقائق ، وبخاصة فى تلك الميادين التى نجد فيها محاولة عمل « تقريبات » أولية قد كشفت عن معين غير كاف للحقائق . وهنا ، نجد أن الحقائق اللازمة لدراسة الكراهية بين الطبقات غير كافية بشكل يدعو للأسف . وكذلك أيضاً الحقائق اللازمة لدراسة حركة « الصفوة » فى المجتمعات السابقة للثورة . ولكن هناك مئات من مثل هذه الثغرات ، وان كان بعضها بالتأكيد يمكن سده . فتقريباتنا الأولية سوف تقودنا اذن الى طريق تقريبات ثانية . وليس هناك عالم يستطيع أن يطلب أكثر من ذلك ، وان كان عامة الناس يفعلون ذلك .

### ٣ — تناقض الثورة :

إذا حكمنا على أساس من ماضى العلم ، سوف تظهر يوماً ما تشابهات من دراسات أكمل لعل اجتماع الثورات . وهنا لا نجرؤ على

أن نخاطر كثيرا بما لم نذكره تماما في خلال تحليلنا لأربع ثورات نوعية . وهى ، فى آخر الأمر ، ليست غير أربع ثورات لما يبدو أنه نوع واحد ، ثورات فيما يبدو مخالفة للتراث الديمقراطى . فكلمة « ثورة » كلمة ثمينة جدا بالنسبة للكثيرين فى ذلك التراث ، وبوجه خاص للماركسيين ، لدرجة أنهم يرفضون بحق أن يطلقوها على حركات مثل استيلاء موسيلينى أو هتلر على الحكم بطريقة دموية نسبيا ولكنها بالتأكيد عنيفة وغير مشروعة . فهذه الحركات ، فيما نعلم ، لم تكن ثورات لأنها لم تنزع الحكم من احدى الطبقات لصالح طبقة أخرى . ومن الواضح أنك تستطيع بكلمة غير محددة من بعض الوجوه مثل كلمة « الثورة » أن تقوم بكل أنواع الحيل مثل ذلك . ولكن بالنسبة للدراسة العلمية للتغيير الاجتماعى يبدو من الحكمة اطلاق كلمة الثورة على اسقاط حكومة برلمانية مستقرة بواسطة الفاشيين . واذا كان الأمر كذلك ، فان ثوراتنا الأربع اذن لن تصبح غير نوع واحد من الثورة ، ويجب الا نحاول أن نحملها عبء تعميمات يقصد بها أن تطبق على كل الثورات .

ولعله أكثر اغراء لنا أن نحاول ملاءمة هذه الثورات لشيء يشبه بشيء فلسفة التاريخ . ولكن فلسفة التاريخ تكاد تكون مضطرة الى أن تؤدى الى ذلك النوع من النشاط التنبؤى الذى سبق أن امتنعنا عنه بحزم . ومن الجائز أن النوع الانسانى يجتاز الآن عصرا عالميا من المتاعب سوف يخرج منه الى نوع من النظام العالمى التحكمى . ومن الجائز أن التراث الديمقراطى الثورى لم يعد تقليدا حيا فعلا . ومن الجائز أن الثورات التى انتهينا من دراستها لم تكن لتحدث الا فى مجتمعات أصبح «التقدم» فيها شيئا ملموسا عن طريق فرص النمو الاقتصادى التى لا يمكن أن تعود فى عالمنا المعاصر ، مع عدم وجود حدود أو أسر كبيرة . بل ومن الجائز أن يكون الماركسيون على حق ، وأن الرأسمالية الاستعمارية تقوم الآن بحفر قبرها ، مهدة للثورة العالمية للطبقة العاملة ( البروليتاريا ) وهى الثورة التى لا مفر منها وان طال انتظارها . وهناك احتمالات كثيرة بالنسبة لصحة التخمينات المتعددة . وبقينا أن المجهود المخلص لدراسة أربع ثورات كبيرة فى العالم

الحديث على نحو ما يفعل العالم لا يمكن أن تنتهى الى شىء طليعى وغير علمى كالتشخيص الاجتماعى .

ولسنا بحاجة ، مع ذلك ، الى أن ننتهى بفكرة من الشك الخالص . فلقد يبدو أن هناك ، من دراسة هذه الثورات ، ثلاث نتائج كبرى يمكن أن نستنتجها :

أولا ، أنه رغم اختلافاتها الظاهرة والمثيرة ، كان بينها تشابه بسيط من النوع الذى حاولنا أن نأتى به تحت تخطيطنا التصورى للحمى .

ثانيا ، أنها تشير بالحاح الى ضرورة دراسة افعال الناس وأقوالهم دون القول بأن هناك دائما علاقة بسيطة ومنطقية بينها ، حيث أن الناس خلال حدوثها ، وبخاصة عند الأزمات ، تصدر عنهم أقوال تخالف أفعالهم .

ثالثا ، أنها تشير بوجه عام الى أن كثيرا من الأشياء التى يؤديها الناس ، وكثيرا من العادات البشرية ، والعواطف ، والاتجاهات ، لا يمكن تغييرها سريعا على الاطلاق ، وأن المحاولد التى قام بها المتطرفون لتغييرها بالقانون ، والارهاب ، والنصح فاشلة ، وأن فترة النقاهة تعود بها من جديد دون أن يطرأ عليها تغيير كبير .

ومع ذلك فإن ثمة تعميما كبيرا مترددا يربط هذه الثورات الأربع بعضها ببعض يمكن القول به هنا استنادا الى ما سبق أن ذكرناه فى هذا الكتاب . فهذه الثورات الأربع تعد الانسان العادى بأشياء كثيرة وعود غامضة مثل « السعادة » الكاملة ، ومحسوسة مثل الاشباع الكامل لكل الرغبات المادية ، مع التغلب على كل أنواع العقبات التى تقف فى الطريق . وليست الشيوعية الا الحد الراهن لهذه الوعود الكثيرة . وليس لنا هنا أن نتهمك أو نتعرض ، ولكننا نسجل . وعلى ذلك ، فإن هذه الوعود فى شكلها المتطرف لم تتحقق فى أى مكان . إما أنها قد صدرت

فهذا يغضب المسيحي التقليدي ، والانسان المحب لخير البشرية ، بل وربها الانسان العاقل .. ولكنها قد صدرت ، وربما بشكل اقوى اليوم في الصين ، وفي جنوب شرقى آسيا ، وفي الشرق الأدنى ، حيث لا تزال الشيعوية عقيدة ناشئة ، طازجة وفعالة . وليس يكفى لنا نحن الأمريكيين ان نعبد القول بأن الوعود مستحيل تحقيقها ، وكان ينبغي الا تصدر . ومن الغباء ان نقول للعالم اننا نحن الأمريكيين نستطيع ان ننفذ هذه الوعود ، وبخاصة اننا لم ننفذها عندنا . فالثورة ليست نوعا من الحمى يستسلم لمثل تلك الادوية البريئة الخداعة . ولفترة ما ، على الأمل ، يجب ان نقبلها على انه لا شفاء منها « كالسرطان » .

اما عن تجربة الثورة العظيمة ما تفعله للمجتمع الذى يمر بها ، فلا نستطيع ان نصل هنا الى نتائج واسعة دون ان نستند الى مجاملات اوسع من التاريخ وعلم الاجتماع . ومع ذلك فلقد يبدو ان المريض يخرج اقوى من بعض الوجوه من الحمى المهزومة ، ويصبح محصنا ضد امراض قد تكون أكثر خطورة . فمن الحقائق المشاهدة انه كان فى كل مجتمعاتنا ازدهار ، وانجازات ثقافية رائعة متنوعة بعد الثورات . وليس لنا بالتاكيد ان ننظر كثيرا من وجهة النظر الأخلاقية الى مظاهر الغباء والقسوة للثورات ، ولا ان نلطح ايدينا بفظائعها . فمن الممكن تماما ان تبين لنا دراسة اوسع نطاقا ان المجتمعات الضعيفة والمنهارة لا تتعرض للثورات ، وان الثورات ، على العكس ، دليل قوة وشباب فى المجتمعات .

فالشخص الهادىء لا يخرج من دراسته ، مثمنا من الفظائع وأعمال العنف فحسب ، بل ويمتلئ اعجابا بالقوة العميقة التى لا حد لها فى الرجال التى يكره ان يسميها روحية لما يتسم به هذا اللفظ من رقة . وقد رأى ذلك وأحس به مونتيني Montaigne منذ زمن بعيد :

« أنا لا أرى فعلا واحدا ، ولا ثلاثة ، ولا مائة ، ولكن حالة خلقية معترفا بها غير طبيعية ، وبخاصة فيما يتعلق بعدم الانسانية والخداع ،

وهما في نظري أسوأ أنواع الخطايا ، لدرجة اننى لا استطيع التفكير فيهما دون ان ارتعد ، وهما تثيران دهشتى بقدر ما تثيران كراهيتى . ان ممارسة هذه الرذائل تحمل في طياتها علامات القوة والفتوة في الروح بقدر ما تحمل من الخطأ والاختلال » .

ويخبرنا بيركمان الفوضوى ، الذى كان يكره الثورة الروسية ، بتصة قد تصور ببساطة فكرته الخاصة ، ولكنها قد تصلح كخاتمة رمزية مختصرة لهذه الدراسة يقول بيركمان : انه سأل أحد معارفه البلشفيين الطيبين خلال فترة محاولة التأميم الكامل أيام لينين ، لماذا لم يؤمم سائقوا العربات المشهورون في موسكو والذين استمروا بأعداد متناقصة يجوبون انحاء موسكو ويحصلون على مبالغ ضخمة من اوراق النقد ( الروبلات ) لقاء خدماتهم ، مثل كل شيء آخر . فاجاب البلشفي ، « لقد وجدنا أنك اذا لم تطعم الكائنات البشرية فانها تواصل حياتها بطريقة ما . ولكنك اذا لم تطعم الخيول ، فانها لا بد ان تموت . وهذا هو السبب في أننا لم نؤمم سائقى العربات » . وليست تلك قصة مرحة ، وقد يأسف المرء من بعض الوجوه للقدرة البشرية على العيش بدون طعام . ولكن من الواضح اننا لو كنا اغبياء — أو ذوى حساسية — كالخيول لما قامت عندنا ثورات .





شركة الأمل للطباعة والنشر  
(مورافيتلى سابقاً)

ت: 23904096 - 23952496



الغلاف... د. خالد سرور



[www.gocp.gov.eg](http://www.gocp.gov.eg)  
[www.qatrelnada.com.eg](http://www.qatrelnada.com.eg)  
[www.althaqafahalgadidah.com.eg](http://www.althaqafahalgadidah.com.eg)  
[www.odabaaelaqaleem.com](http://www.odabaaelaqaleem.com)

التمن : ستة جنيهاً